296:K11hA

كعدان ـ بشير

هؤلاء الصهيونيون .

296
K11hA

JN 11 54

JL 12 /54

AG16 54

AG 31 54

11 Apr 67

2 67

2 65

Cat. Oper. 20: 54

296
K11hA
C.1

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

هؤلاء الصهيونيون

تأليف

بشير كعدان شفيق شالاتي

مطبعة دار اليقظة العربية بدمشق

Cat. Apr. 20 '54

الإهداء

الى الشباب العامل تحت جنح الصمت ...

الى الشباب الواعي الذي لم تدنسه أرستقراطية طبقية ولا رأسمالية موروثة ...

الى الشباب العربي معقد الرجاء في إنقاذ فلسطين ...

نقدم هذا الكتاب بكل تواضع

المؤلفان

المقدمة

هؤلاء الصهيونيون ... ليس في الواقع كتاباً أدبياً ، ولا علمياً ، وإنما هو ريبورتاج صحفي مطول ، دفعنا الى أن نخرجه على هذه الصورة معرفة تامة بنفسية الجماهير ، وإرادة غلابة لأن يقرأ من قبل أكبر مجموعة عربية في الوطن والمهجر..

ولعلك — سيدي القارئ — ستلمس فيه أدباً مكشوفاً ، أو فكاهة مترامية الأطراف ، فاعتبر ذلك من (المقبلات) واغضض الطرف عنها إن كانت تثيرك .!

إن هذا الكتاب عملي قبل كل شيء ، سيريك قسماً من المستعمرات الصهيونية ، فتلمس حياة القوم ، ونشاطهم وانتاجهم ، ونظامهم في القرى والمخازن والأعياد والشوارع ودور اللهو ...

نحن نعتقد أن رحلتنا الى القطر الشقيق ، بعد دراسة وافية له، هي الاولى من نوعها لدى العرب ،ولم يكن نتاجها نظريات ومقررات وتاريخاً ، بل هو وصف صادق لحياة عدوة ماكرة يجب الاستعداد لها بكل جد ..!

لقد أخذنا أحاديث هامة من شخصيات صهيونية لها تفكيرها الخاص ورأيها الحازم في القضية دون أن نذكر مأربنا أو طرفاً من مهمتنا ...

ولعلنا آثرنا أن نرتب هذه الأحاديث وننظمها ونربطها بما له صلة بها من معلومات خاصة وعامة عن الصهيونية ، على أن نبقيها جافة خاماً بين يدي القارئ ...

لقد آثرنا ألا ننافق العرب فنحط من قدر الصهيونية ، ونرفع العرب الى درجة التخدير ، فان هذا النحو الذي نحوه كثير من مؤلفينا وصحفيينا طريق ضالة

رديئة ... لاننا نؤمن بأن معرفة قوة العدو ودخيلته بصدق وحياد، تهيىء للعرب مصدراً للدفاع هاماً وسلاحاً مرهفاً حاداً ...

أبداً لم نترك مصدراً ولا رأياً قيل عن فلسطين إلا ونهلنا منه لنسعف كتابنا مفضلين عدم ذكر ذلك بسبب أسلوب الكتاب وطريقة البحث ...

أيها العربي ...

إن فلسطين هذه ملكك، يجب ألا ينازعك فيها أحد . . .

ولقد أراد الصهيونيون الاستيلاء عليها، لانها أعظم بقعة مقدسة في الارض، فلم يستطيعوا حتى الساعة ولن يستطيعوا ... لانها ملكك. ولانها يجب أن تحفظ من أجلك ... لقد تلقتها الاجيال العربية كابراً عن كابر، حتى صارت اليك، كما تنتقل الشعلة المتألقة من يد الى أخرى، ويجب أن تسلمها أنت أيضاً بدورك الى من يخلفك من الاعقاب سالمة دون أذى ...

لقد كافح عنها أسلافك ضد الصليبيين، واليوم آن أوان كفاحك ضد الصهيونية والانتداب المرير ...

لقد قضى أسلافك رافعي الجبين، وستعيش أنت رافع الجبين ثم تقضي ... ولكنك ستخلف فلسطين وحدها عربية .. وهي وحدها التي تبقى عربية خالدة ...

أيها العربي ...

إننا نعتقد مخلصين أنك ان تنتهي من كتابنا هذا حتى تكون لديك فكرة تحفزك الى العمل .. العمل الذي ينقذ فلسطين من هذا الاخطبوط الصهيوني الخبيث ... فلا تجدد مأساة الاندلس ثانية ..

دمشق في ٦ نيسان ١٩٤٦

بشير كعدان وشفيق شالاتي

كتب ستصدر قريباً

للاستاذ بشير كعدان :

١ — رسائل مطحنتي (ترجمة)

٢ — مذكرات معلم

٣ — هكذا قال أستاذي المحامي

للاستاذ شفيق شالاتي :

١ — ديوان المحاسبات

٢ — تاريخ اليهود تحت حكم العرب في الأندلس

أول الرقص . . .

لم يكد صاحبي الشهم يطمئن إلى نفسه في عربة القطار ، حتى أبصر من النافذة سحابة سوداء تهرع نحوه . ولم تكن هـذه السحابة السوداء ، سوى جماعة من نسوة الحارة ، وعلى رأسهن والدته . أقبلن يودعنه وداعاً يليق بأمثاله . . . فهو يسافر اليوم إلى فلسطين ، كما رحل بالأمس كولومبس إلى أمريكا وفاسغو دوغاما إلى جزائر الهند ، والسندباد إلى بلاد الواق . . .

ولقد كان قلبه الكبير وحده ، هو الذي دفعه إلى هذه الرحلة الجبارة ... فليكافأ إذن بوداع الأم الرؤوم ، والجارات (الحناين) ، وهو بكل هذا التقدير حقيق جدير !

ثم أحاط الوفد الكريم بمقطورته ، وقد رفعت كل واحدة منهن طرف نقابها ، عن عين واحدة ، وأبرزت أرنبة أنفها ، كما تفعل تمـاما بعض النسوة البلديات ، عند ما يختلسن النظر إلى الجمال الصارخ ، أو الأزياء الجديدة ، على قامات بنيات (الذوات) المتمايلات في دروب الشام ..!

ودنت منه والدته ، ودست في جيبه تعويذة ، قوامها كيس صغير من الملح ، لا يتجاوز حجم البندقة ، ليدفع عنه غائلة العين ، وأولاد الحرام ، ومواجهة الحكام!!

ولعل الصبي المدلل، لجأ اليها في أول طعام تناوله، ليرش بعض ملحها على البيض المسلوق والجبن ... أو لعله لاذ بها، لدى أول صراخ سمعه في الحجرة المجاورة فأطل فضولاً وسرعان ما رأى شيخاً متقاعداً، يتشاجر مع شاب، وقف يودع ذويه مع أتراب له قبل أن يهم بهم القطار . وكأن نظراته العابرة، وقعت على بدر الدجى ، وست الحسن والجمال ، زوج الشيخ المصون ، فاستشاط غضباً ، وصاح بالشباب كما صاح في سالف الزمان ، الدون كيشوت ، بالطواحين والشياطين ، ومنعهم من الوقوف أمام حجرة (الحريم) منعاً لا استئناف فيه ولا تمييز ... لكن ناقوس المحطة خف إلى

لنجدة الشاب ، فقرع ودندن ، إيذانا بالرحيل ، فانسلوا يتعثرون بخطاهم ،كجرو مبلل مهزوم ،وانتهت المعركة بانسحاب المتخاصمين !..

وعاد صاحبنا بقامته الضخمة يلقي النظرات الأخيرة،على من جشمت نفسها عناء الحضور،مع سربها الكريم المتهادي، كالاوز والبط ، ثم وضع على وجهه تلك البسمة، التي اعتاد أن يلصقها به كل حين ، ولوح بيد تحمل منديلاً مطرزاً مهدى إليه من إحدى بنات الحلال ، دون أن يأبه للونه الأحمر الفاضح ، أو يحسب لتفسيرات أمه ، وظنونها أي حساب ..!

وانحنى يحتضن النافذة ، غارقا في تأملات طويلة ، لعلها كانت قصائد عصماء يرثي بها شبابه الذاوي ، وقد حمله القطار إلى بلاد حبيبة إلى نفسه ، طالما درس تاريخها وخطط مصوراتها ، وسأل عن كل شاردة وواردة فيها ، وهي لا زالت مجهولة منه ، بعيدة عنه ،يخشى أن تقع فيها حوادث إرهابية، يذهب ضحية لها وقرباناً رخيصاً على مذبح المغامرات ... بيد أن الفضول ، وحب الاستطلاع هما وحدهما اللذان دفعاه وزميله الكريم،إلى دراسة الحال في فلسطين ، وجس النبض عن طريق العمل ،لا الصحف والخطابة ، لعل كليهما يفهمان الداء والدواء ، فيسردا لبني قومها ، السادة النجب كما تقول - أم كلثوم - ، نواحي الضعف والقوة عند أبناء صهيون ، فينتبه لها العرب ، ويلتهموها دراسة وقناعة بعد أن تقدم إليهم على شكل دجاجة مطهية شهية ...

حوران العابسة

وقطع سلسلة تأملاته تلك الأراضي المترعة بالأحجار السوداء، المسماة حوران: أنبار الرومان وأهراء أمبراطوريتهم ..! حوران ذات الأرض الخصبة والتربة المنبتة ..!

حوران ذات الأمجاد السالفة .. يراها بأم عينه مهملة معطلة ، نعم ! هو يعتقد مخلصاً بأنه لولا السماء وخيراتها ، والأرض وبركاتها ، لما انبتت هذه البقاع حبوباً ذهبية سدت حاجة القاصي والداني ... وها هو ذا يتساءل الآن: أهذه هي حوران

حقاً ، ونحن في القرن العشرين ! ؟ ... ولمَ هذه الصخور والأحجار في أراضيها بعد آلاف السنين؟..ولمن هذه الأكواخ السوداء التي يعافها النظر ويمجّها الذوق..؟ أهي للحوراني الكادح العامل ،أم لمواشيه وأطياره ..؟

يالله ! أين آثار العمران ..؟ أين يد المدنية .؟ أين المشاريع الزراعية،بل أين طرق المواصلات الحديثة،يعلوها سكان الارض ،بخيلهم ورجلهم ومنتجاتهم...؟

أبعد ملايين السنين تكر وتمر ، وحوران باقية كما خلقها الله !! ثابتة على المبدأ لا تحيد عنه قيد شعره ... ؟ إن الجاهل يتعلم .. والمريض يشفى .. ومواكب الحضارات تجري .. والاختراعات والاكتشافات تقلب الدنيا ، وفي كل يوم نبأ وأحداث،توقظ الغافل ،وتنبه الوسنان ، وتحيي الجامد والموات ، وحوران ما زالت كما يراها الآن ، في خمود وفتور وعبوس ...!؟

وفرك عينيه قليلا ، وكرر النظر ليرى هل هو يقظان أم حالم ؟

نعم هذه هي حوران ...! هي ذاتها منذ آلاف السنين.وداؤها الأول والأخير الجهل ، الجهل الذي أرداها هذه الهاوية السحيقة من التأخر والانحطاط .

فالحوراني محافظ لا يروم تبديلا ولا تغييراً ، وانه لأيسر للانسان أن يقوض عرشاً متين البناء من أن يهدم تقليداً مضحكاً ألفه الناس،وتواضعوا عليه ،فهو يرى أن الله خلق الارض،فهو إذن يكفل إنتاجها . والآلات الحديثة تذبح التربة وتقتلها، والأسمدة تسممها وتميتها ، والاساليب الزراعية رجس من عمل الشيطان .. ! فلم الآبار الأرتوازية ومحركات ديزيل ، وماء السماء من صنع الاله ، وجل الباري فيما صنع . ! ؟

وصفر القطار ، وتأفف صاحبي،وراح (ينقر) على طرف النافذة،شأنه عند ما يرتبك أو يعجز . غير أني سألته برصانة وحذلقة : ومن هو ياترى المسؤول عن هذا التأخر والانحطاط . ؟ هل يستطيع الفلاح الجاهل الفقير بوسائله المحدودة الابتدائية،أن يحمل تبعات العمل الانشائي وينهض بحوران إلى مراقي الفلاح .. وهل هو مسؤول عن إسعاف قراه بانشاء المصارف الزراعية ،لتقوم بأوده،فتقرضه

وتساعده وتحنو عليه . ؟ وهل هو ممن يستطيعون بناء المستشفيات ، وبث المدارس وإنشاء المزارع الفنية ؟

فأجاب والأسى يحز فؤاده : كلنا يا صاح مسؤول ولئن كانت التبعة تقع في الدرجة الأولى على عاتق الحكومة ، فعلى كل طبقة من طبقات الأمة أن تحمل قسطها من هذه التبعة . ولن يكفي اهتمامنا بتحسين العاصمة ، وبعض المدن ، مع إهمال القسم الأكبر من الوطن . وإلا فكم جلسة عقدتها لجنة الدستور ، لتقرر أن السوريين أمام القانون سواء ؟ وإذا كان النائب لا يمثل منطقته الانتخابية وحدها ، بل يمثل الأمة بأسرها ، فليكن دفاعه عن كل بقعة من البلاد لإصلاحها وازدهارها ، لا لشخصه ومطامعه ومنطقته ، ولينظر الى ذلك التفاوت في التعمير والاصلاح ، بين البلدان المختلفة وبين المناطق في المدينة الواحدة ، وليذكر أن سورية ، هي وحدها التي تخلد ، أما الأشخاص فزائلون . !

ثم صمت وقلب شفتيه ، وارتسمت على وجهه إشارة تعجب أطول من أنف سيرانو دي برجراك ، وعاد إلى مقعده يتسلى بازدراد بضع تينات رطبة ، تنسيه وطنيته وفورة حماسته إلى حين...

وعجب صاحبنا من ترددي على الطعام ، فمد رقبته القصيرة إلى جعبتي ، يجول فيها بعينيه السوداوين ، وخياشيمه تتراقص كأذني أرنب ، واستطاع بذكائه النادر أن يكتشف الوان الطعام . وكان لحماً (مدللاً) شهياً ، تناول منه قرصاً ، وطفق يتأمله بعيني خبير ، وعهدي به من (النباتيين) أتباع المعري و (شو) ، ولولا خشيتي من (موضة) تبديل المذاهب والمبادئ ، لتركت بين يديه جعبتي ، ينعم بما فيها من طعام فاخر لذيذ .

والحّ علي مشفقاً بأن لا استعمل اللحم كثيراً ، لأنه متعب للمعدة ، ومورث مرض الملوك ، وخاصة عقب شهر الصوم والبركة ؛ ونصحني بان اترك هذا الطعام يتصرف به في أحد الوجوه الخيرية ، كاطعام المساكين من أبناء القطار ، وأن أخضع في سفري هذا ، إلى (ريجيم) خاص يهديني اليه . ورحم الله (ايزوب) وسقى قبره

ماء الورد ، فما زالت قصته : ثعلب العنب ، محترمة وصحيحة !

كنوز الفحم الابيض

ولم يكد القطار يغادر (درعا) بعد نوم عميق على قضبانه الحديدية، حتى راح يعدو ويلهث ، ليدرك مافاته من الوقت الضائع في (الروتين) الحكومي . وعندما اجتاز قرية تل شهاب ، تلمظ صاحبنا، وسال لعابه لمناظر الشلالات. كما يسيل لعاب صهيوني جشع، أمام مشروع زراعي أو صناعي يدر عليه المال والمال ... بيد أنه شتان بين الاثنين ؛ فقد كان صاحبنا يتملظ لعطش أصابه، أما الصهيوني فيتلمظ لامتلاك أرض الغير ، ولربما يأسف على ضياعها كما نأسف نحن . وقد يتمنى امتلاكها ليصيرها جناناً عوض البوادي ، وليجري في هذه السهول الجرداء، أنهاراً من الذهب الوهاج؛ وهل هذا السيل المتدفق من ارتفاع عشرات ومئات الأمتار، سوى ماءغزير ينطوي على معدن كريم، هو الفحم الأبيض، الذي يجعل من حوران ، لو أحسن استغلاله حدائق وجنات مكسوة بالازهار والأثمار، منارة بالكهرباء ، وشموس العلم الحديث، لا كما هي عليه اليوم كانك تجري في واد غير ذي زرع . فلا مشروع صناعي، ولا زراعي ، ينعش قلب البلاد الذائب على المشاريع التي يحلم بها ، وما زالت في حيز الخيال . إنه ماء نحدر منذ الازل ، وأكبر الظن انه سيظل يحدر الى الأزل ولن ننتفع منه إلا بالتحسر والنظر ، فمتى يطل وجه المشاريع الحالم، على حوران، ليغتسل بامواه هذه الشلالات، ويتلألأ بقطراتها . ؟

وغرق صاحبي يفكر بفكر شيلوخ البندقية ، يفكر بألف مشروع ومشروع، كما فكرت في القديم شهرزاد، بقضاء الف ليلة وليلة ...

لم يفكر بفكره البلدي علة تأخرنا وجودنا ذلك الفكر الذي يزور أولاد الحي، وشباب (الزكرت)، حينما يشاهدون الماء ، والخضرة والشكل الحسن ، فيتشوقون الى نفس أركيلة، أو كاس (عرق) أو قضاء ساعة مع (خانم) محترمة ، تذهب عن النفس الشجن .

لا لا ! لم يفكر بكل ذلك . ! فكما انه من العار أن تغازل محبوبك وبيتك يحترق ، فمن الجريمة أيضاً أن تترك هذه الثروة الطبيعية الهائلة تبيدسدي، لتجاس تندب صروف الدهر ، وتتهم الأقدار أو تستسلم إلى نوم هادىء لذيذ ...

ولقد كنا نسمع دوما شنشنة تأليف اللجان ، لدراسة موارد الري وطرقه ، ثم نسمع عن التقارير في هذا الشأن الشيء الكثير . غير أننا لم نلمس في الدوائر الخاصة والعامة سوى سلة المهملات لقضاء الحاجات . فهي تسع كل ما يراد بحثه من قيم الأمور إذا لم يكن صاحب الفكرة ،من المحسوبين أو المقربين أو ؛ فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر...

إن مشروعاً واحداً ... مشروعاً واحداً ، نستغل به جزءاً من قوى هذه الشلالات ، حقيق بأن يجعل من حوران ،زمردة كريمة ،لا تقدر بثمن ، خالدةعلى ممر الدهر . وتلك لعمرو الله أجل خدمة تسدى للوطن : ذلك الوطن الذي كثر عاشقوه وقل منصفوه .

وجلس صاحبي ينفخ ويزفر، وقد هاجه شيطان شعره، فانشد معلقاته المشهورة —عديدة البحور والقوافي—، يهجو بها الزمن ، ويشتم الاجيال النائمة الخاملة، منذ آلاف السنين ، حتى الأجنة في البطون .

نعم ! إن الأرض يرثها عباد الله الصالحون ، الصالحون لهذه الحياة ، الذين يزينون الدنيا بأعمالهم وعمرانهم ومنشآتهم . ومعاذ الهوى أن يسلم الله دنياه ، وهي صنيعة يديه وعزيزة عليه ، معاذ الهوى أن يسلمها للجهلاء المتنابذين المتأخرين ، فالصالحون في الادارة،والسياسة،والحكم،والصناعة،والزراعة،والاخلاق، هم الذين يرثون الأرض ومن عليها ، أما الفقراء في عقولهم ، الضعفاء في سواعدهم ،"راكبو الحمير والبغال ونحن في عصر القنبلة الذرية ، والقذائف الصاروخية ، فقد أصدر الدهر عليهم حكمه وما أقساه ..!

وبدا صاحبنا في حماسه ، مسلياً في هجاته ،لذيذاً في ثورته،وعهدي به ضفدعي الدم ، لاتزعجه رياح الخماسين ، ولا عواصف القطب . ولـقد كان كلما أبصر قطرة

ماء تنتثر من أعالي الشلالات فتداعب وجهه مع النسمات ، هاج وماج وانتفخت منه الأوداج ، وطرق حافة المقعد بكلتا يديه ، وأقسم أغلظ الأيمان الغموسة ، بأن الناس في بلادنا ـ إلا من رحم ربك ـ لا زالوا يفكرون بفكر حاجي بابا أصفهاني ويقيسون قيمة الأشخاص ببراعتهم في (بلف) الجماهير ، أو الجولات الخطابيه المسرحيه . فمن أخضر عود المنبر تحت قدميه كان السيد المطاع ، والآمر المحبوب ، وكفى الله المؤمنين القتال . !

وبعد فانا نريد أفعالا لا أقوالا . نريد برامج مفصلة مدروسة ، تكلل بالتطبيق والعمل ؛ لا أن تقوم حكومة ، فتفكر وتؤلف اللجان ، وقبل أن تنتهي من مهمتها تستقيل الوزارة ، وتأتي أخرى لتكرر نفس المأساة . ! إن الوقت لأضيق من ان يتسع لهذه الترهات ، فلم يعد فن الحكم خطباً تلقى ، وهتافات تسمع ، وتصفيقاً يدوي ، بل اصبح درساً وبحثاً وعملا وإنتاجا . !

ذكريات اليرموك

ولما كان صاحبنا من رواد المعرفة ، وقد شدا من كل علم خبراً ، ولم يدع يوماً لترهات الزاعمين بأن ذكاءه موضع مناقشة قديمة منذ حياته الاولى ، فقد راح يلقي المحاضرات على زبائن القطار ، عن هذا النهر الذي يجتازه الآن ، بين أشجار الرمان والدفل والقصب ، وقد تداخلت ألوانها ، وتشابكت فروعها ، وتعانقت اغصانها بين أنامل النسيم العليل .

ومنذا الذي يمر باليرموك ، ولا تكتسح فكره آلاف الذكريات والعبر ؟

فعلى ضفافه جرت إحدى معارك التاريخ الحاسمة ، وتقرر مصير الامبراطورية الرومانية أمام جيوش العرب :

هنا انتصرت جيوش خالد على جيوش هرقل ، وكانت جولة واحدة ، فانهارت الامبراطورية كبيوت من ورق . ولذا بأبواب الشام تفتح أمام الغر الميامين .

ومنذا الذي يرى اليرموك ، ولا تهيجه الذكريات ؟ ومنذا الذي يشاهد هذه البطاح ، ولا يخر ساجداً لله ، تقديساً لأمجاد أجداده واحتراماً ؟

فالى اليرموك وجه الفكر والقلب،فهو صحيفة مكتوبة بالنجيع،سطرتها يد البطولة والتكاتف والاتحاد إرثا محفزاً للعمل والجد .

ها هي ذي تنقضي مناظر الآكام الصخرية القاتمة ، والبراري المهملة المقفرة ، إلا من بعض اكواخ موحشة ، على رواب صخرية ، منبسطة حيناً ، شاهقة احياناً، تشمخ بأنفها إلى العلاء ، وتتعاقب فوقها أشعة الشمس ، وقزعات الغيم من السحب السارية ...

وها نحن نشم روائح الكبريت ، تتصاعد من الحمة ، وندنو من سمخ ، وقد نشاهد عن بعد طبريا فنقلب الأعين ونمتع النظر بأول مناظر فلسطين ، وقد وجدت كل حواسنا نصيبها من اللذة : فثمة الزهر المشتعل في خمائله ،والورد الناعس في غلائله ينسيانا تلك المناظر الرهيبة في حوران وما تلاها،فرحنا نعب الهواء بملء رئاتنا ،حتى خلنا أنا توردنا عافية وصحة ، ولمعت أعيننا اطمئنانا وجرأة ومغامرة ، كما لو كنا جنديين من أبطال وادي الكنال، او جزر سليمان ، عادا إلى وطنها بعد طول جهاد .

طبريا تحلم

وبدت (سمخ) تقبع على ساحل طبريا ، هاجعة على الحصباء ، كعروس حالمة .. وكنت أؤمن أننا نعيش بجسمنا وروحنا في القرن العشرين، قرن السرعة وسباق الزمن ... ولذا فلم استغرب سرعة صاحبنا الفائقة مثلما استغربها المسافرون ، عندما تدحرج من القطار ، كمظلي" هابط .. وكأنما كان من أتباع تلك النظرية القائلة : إن الطبيعة ترهب الخلاء . فهو أيضاً يخشى الفراغ ، ويرهب البطالة والعطالة ، ويعاديها ويهجوها دوماً وأبداً ، سيما ودقائقه محسوبة عليه ، فعليه أن يسدد الحساب بأمانة وإخلاص ..

فلم يكد يودع أمتعته في أفخم وأقرب فندق في (طبريا) حتى استدعى الخادم يسألها عن مكان فيه راحة للنفس ، ومتعة للقلب من وعثاء السفر ، ووعورة الطريق فهدته الى (الليدو) ..

مفاجأة غير منتظرة

والليدو مرقص صهيوني ، وحديقة وحمام للسباحة ، على شاطئ البحيرة . فالقوم هنالك يرقصون دوماً وأبداً ، يرقصون في البارات والصالات ، ويسمرون في ظلال الشجر ، وتحت أشعة القمر ، دون أن يحدث الواحد منهم قلبه ، بدقات طويلة عريضة تبثه : انتبه . افتح عينيك ، على مخاصر ابنتك أو اختك أو زوجك . فكلهم في الحب سواء ! على مذهب (مزدك) المقدس . !

وكانت الأنغام تصعد وتهبط ، فترفعنا معها ، وتنزلنا كذلك ، وثمة موائد (البنج بونج) ، ومقاعد نضدت مثنى مثنى ، لأمر في نفس يعقوب . ! وهنالك الأدراج والأحواض والبحيرة ، فاختر لنفسك ما يحلو ..

وكان أول ما بعث الشهيق وحبس الزفير في صدر صاحبنا ، رؤيته غادة مفتاناً تلعب (البنج بونغ) ، وهي عارية ، إلا من (مايوه) أحمر قاتم ، لا يتجاوز سطحه طابع البريد ، ينسجم فيه لحم كلباب التفاح ، وخصر نحيل ، وردف خير ما أصفه بلا أدري كيف هو ؟

فوقف كالمشدوه يتابع كرة (البنج بونغ) ورأسه ينوس كرقاص الساعة يميناً يساراً . فهو منظر أزعجه إزعاجاً لم يكن في قائمة حسابه ، لأنه كان يعتقد أن هذه التوابل والأفاوية مواد منفجرة تهيج ما كمن من مواد قانون الجزاء ، وأنها ليست من منتوجات طبريا ، بل هي من (ماركات) تل أبيب المسجلة . !

أما وأنه فوجئ بها في طبريا ، فأمر لم يكن في حسبانه ، ولم يجد وسيلة لاطفاء لهيبة المتصاعد سوى ماء البحيرة ، فغطس غطسة جعلت حرارة الماء ترتفع الى درجة كافية لغليان فنجان قهوة بلدية من النوع الممتاز . !

وعهدي به عواماً كالبط ، فاذابه كالرصاص يهبط إلى الأعماق ليطفئ أواره المشتعل . ولقد أخرج رأسه من الماء ، وطفا ، فاذا بسوق مرفوعة في الهواء ، وكأنها علامة النصر ، من تحتها مايوهات بألوان قوس قزح . فلم يفهم كثيراً سر ذلك ، ولكنه اطمأن إلى أن القوم يكافئنه على مهارته في الغطس والعوم .

وكانت أشجار الصنوبر والورد على الشاطئ تحييه (وتناغشه) من بعيد لبعيد دون أن يكترث لها ، لأنه يعتقد أن أباالطيب المتنبي كان يعنيه ولا شك ساعة تحدث عن ذلك الأسد الذي كان إذا وردالبحيرة شارباً ، ورد الفرات زئيره والنيلا ؛ ومن كان موضوعاًلأناشيد أبي الطيب ، فلن تستهويه شجيرات الصنوبر ولا الدفل قرب البحيرة . . .

وما كاد صاحبنا يخرج من الليدو ، ويلج غرفته في الفندق ، حتى استلقى على سريره ينتقم لجهاده وتعبه في مصارعة الأمواه ، فأطبق جفنيه كما تنلق (البوارير) باطمئنان وعناد ، واستسلم إلى نوم عميق . ولسوف يحدث الفقير الصابر رفيقه زمناً طويلاً عما أصابه من هذا النوم ، وحسبه أن غطيطه العالي الصارخ أيقظه قبيل الفجر بساعات !.

فجر باسم

مددت بصري من النافذة أستمتع بالفجر يبزغ في أرض الجدود ، وبالبحيرة الزرقاء الداكنة . وكانت السماء ذات لون بنفسجي تزينها في الأفق البعيد ،رقعات من الغيوم ولسان من الجبال ، يحيط بالبحيرة الهادئة ويحتضنها ، وقد يتألق سطح الماء أحياناً بنور خافت تعترض النظر إليه بضع شجيرات من النخيل المياس على وقع النسمات ، وعلى الشاطئ دور هاجعة انبعثت من نوافذها الأضواء الباهتة ، وكأنها في ظلمة الليل، نجوم تهتز في الأرض اليابسة دون السماء .

وهنالك في ذلك المكان الصامت ، وفي هدأة الفجر لم أكن أسمع نأمة او حركة سوى صوت باشق يصئي على شجيرة مصطكى ، وحيدة بين أشجار الأوكاليبتوس التي تملأ المكان بأدواحها وأفنانها وهي رابضة قبالة الفندق .

وكان كوكب الزهرة يتألق في سماء الفجر كالجوهرة فيبعث بي لذة نفسية صوفية تغمرني على أثرها طمأنينة ساجية . أما الجامع الكبير في المدينة فكان مضاء الفناء بالكهرباء مؤذناً بصلاة الصبح ،وقد بدت أقواسه وأعمدته إلى جانب المئذنة، وكأنها صرح أندلسي يهمس في سكون الكون بخشوع وإكبار : حي على الصلاة ، حي على الفلاح . حي على العمل . أبداً لن تكون أرض العرب لاسرائيل .!

وكان غضب صاحبنا شديداً لوقوعه في ورطة فندق عظيم فخم. لأنه لم يعتد ذلك أولاً : لأنه مقيد باللوائح والقوانين ،والبروتوكول والاتيكيت ثانياً : ولانه يأبى ان يعترف بكل هذه الترهات . فقد ولد الناس أحراراً ، وسيعيشون أحراراً وإن المدنية الزائفة لن تسترها هذه المظاهر البراقة ؛ ويكفي العالم حربان طاحنتان في غضون خمسة وعشرين عاماً ليحكم على نفسه بأنه لم يختلف كثيراً عما كان أيام سكناه المغاور والكهوف . !

فلن يستطيع صاحبنا الثائر على سجلات المـــدنية أن (يكسر) بطيخة في حجرته على المائدة ، ولن يستطيع الخروج حافياً أو بالقبقاب المخصص للمراحيض

والوضوء — وقد حمله معه في حقيبته — فهو لا يريد أن تنسيه السياحة بين الكفرة وفي مستعمرات اليهود ، فروضه الدينية ، وصلواته ... مع العلم أنه لم يستعمله — القبقاب طبعاً — إلا مرة واحدة عندما ودّ أن يسمر الباب ، كيلا يفاجأ (بقرمطة) رغيف يابس نسيه في الحقيبة من آثار القطار .

وهو يمقت تلك الأصول أيضاً لأنها تمنعه من الخروج إلى ردهات الفندق ، يتمايل بقده المياس بين الغرف عارياً ، إلا من قميص ضئيل لا يستر شعره الكثيف المترامي الأطراف كأمعز جبلية في ذلك الحر المرهق ...

على أن هنـاك شيئاً آخر كان ينغص على صاحبنا حياته ، وغدا شغله الشاغل في هذه الفنادق الضخمة الفخمة ... ذلك هو : بيوت الخلاء الفرنجية ... فهي لا تلائمه : مذهباً وعادة وصحة ... فكان يخرج منها كل مرة يتفصد جبينه عرقاً ، وكأنه نجا من معركة أبي قير ، فلا تسمع منه سوى سعاله الخانق ، يخالطه هدير (السيفون) المزعج ، وتمازجه لعنـات الأبالسة ... ولا يرضيه بعدئذ سوى أن تفتح مصاريع الحمام على آخرها ، فينتقم لكبريائه الجريح ...!

ما رأته العيون

لك أن تسمي صاحبنا ذا الفك الحديدي ، فهو يتحدث دون ملل أو ضجر عن كل ما يراه ، أو يعلق عليه بشتى الأفكار والملاحظات فيصل المعلوم بالمجهول ، والحاضر بالماضي والمـاضي ، بالمستقبل . كان رأسه — كما تعلم — يعصف بألف مشروع ومشروع ، منذ أن غادر دمشق . فهو يريد أن يدرس حالة العرب في فلسطين ويشاهد أبناء عمومتهم اليهود ، ثم يستخلص من كل ذلك دروساً يأمل مخلصاً أن ينتفع بهـا أصحاب العقول ...

وهـكذا شرع يطوف أنحاء طبريا ، ويتجول في أسواقها ، ويسأل عن مرافقها وأوضـاعها .

ولقد عاد مطرقاً بعد جولة قصيرة وفي وجهه عاصفة شديدة من الغضب .

فسكت ، وسكت دون أن يلبس ، فكأن ماشاهده حبس لسانه عن الكلام ؛ وأخيراً تضرج وجهه وانفجر قائلا :

مابال هؤلاء القوم ، أبناء الأخوة ، هؤلاء العرب ، أبناء شياطين البر والبحر التواقين الى الأمجاد تحت كل خافق ، الذين حالفوا الزمان وصارعوا الخطوب ؛ مابالهم يراهم يتثاءبون مللاً ، ويتمطون ضجراً ؟ بيوتهم تتهالك على بعضها ، وأسواقهم وسخة ، والاهمال صفتهم البارزة ...! ولم يتسكع هؤلاء الشبان الأقوياء في مقاهي البلدة ، يقتلون الوقت (بباغ) الأحاديث ، وشرب النارجيلة ، ولعب الورق ...؟ أليس في ميدان العمل متسع للجميع ؟.

أبداًلن ينسى صاحبنا سوق الخضر مثلا ... فهل هو (هال) أم دكاكين من أخشاب وقصدير صدئ ..؟ فلقد كانت فوق الوصف ،لما تحتوي عليه من وسخ وتفسخ ونوم وخمول : ثياب مهلهلة وسخة يعلوها الزفت ، ولحى طويلة وأظافر محشوة بأقذار الشهور والليالي ، وبائعات لبن خاثر لم يشهد مثلهن وسخاً ، ولم تحظ عيناه ولله الحمد ، باشباه تلك الأواني النحاسية اللهم إلا في بعض دروب الشام النائية القديمة ، أو قراها المهملة على الفطرة الأولى ..

ولم يبصر يوماً فواكه متفسخة كالتي رآها . فهل يقول إنه رأى بائع تين يحرس كوما من الزنابير ، وعندما يضطر إلى بيع بضاعته يطردهذا السرب الثقيل الظل ، فتعلو في الطريق أمامه سحابة شقراء لها طنين ورنين ، فيرفع ماشاء من تينه المتفسخ ، حتى اذا انتهى من مهمته أو كاد ، عادت الزنابير إلى قواعدها آمنة . كما تعود القلاع الطائرة إلى حظائرها إثر غارة جوية موفقة ...!

كل ذلك جعله يترك هذه المناظر المؤذية ، ويحوقل ثلاثاً ، ويسلم أمره إلى الله فيما رآه ، ويمم وجهه كرة أخرى شطر (الليدو) ليمتع باصرتيه بأمواه البحيرة ، ويسر قلبه ونفسه بروائع المناظر ، فليس للحياة كما يعلم سوى ربيع واحد ، فلينعم بربيعه ، قبل أن يداهمه الفصل المخيف برعوده .

عرائس البحيرة

هبطنا بممرات الليدو الشعرية رويداً رويداً ، بين مكتظ الأدواح ووارف الظلال ، ممـا ذكرنا بممرات الجامعة الاميركية في بيروت ، المطلة على بحر الروم .

فأنت تهبط من سلم الى آخر تحت أشجار الدفل ، والمصطكى ، والنخيل والأوكاليبتوس (الكينا) وبين الأزاهير وضروب الأقحوان والزنابق ، وتشنف أذنيك أنغام حيرى صادرة عن مذياع او بيان ، كأنها تقول لك : أنت فين ..؟

وأول مايصدمك من المشاهد ،هؤلاء العراة والعاريات إلا من مايوهات أوهى من مجن ابن ابي ربيعة ؛ ولعل هذه المناظر الخلابة ، وهذا الجو السحري ، أنسياه ماشاهده في أسواق طبزيا ،فراح يدمدم بين حفيف الأوراق ، وأريج الأزهار : لمن الأرض إن سلاها بنوها ؟ !

وقطع عليه حبل أنغامه أولئك الهيفاوات يخرجن من الماء فاتنات مغريات ، فثاب إلى رشده ،وعذر أباه آدم في خروجه مع حوائه من جنان الخلد ...

فمـا هذه الشرائط والبنود الخفاقة فوق النهود ..؟ وما هذه الخصور الضامرة والقامات العـامرة ، وما هذه السيقان النحاسية اللون ، التي ذابت فيها أشعة الشمس ، وانتحرت على جوانبها الكؤوس الحمراء ، هذه السيقـان الفولاذية الملمس كدعائم معبد سليمان في اورشليم قوة وصلابة ؟ .

أنحن في معرض للجمال ، تتيه فيه كل حسناء بما تملك ، أم غفل الدهر فنحن في حلم ، وهؤلاء حواري الفردوس يملأن الفضاء بضحكاتهن الرنانة ، ونظراتهن الذابلة الجارحة ... ؟!

وعاد صاحبنا الى معزوفته : لمن الأرض إن سلاها بنوها ؟

وكان المسبح يكتظ بالأجسام البشرية ؛ وانك لتستطيع عن عمد او غير عمد

أن تصطدم بأي جسم يوافق هواك . وما عليك ساعتئذ إلا أن تقول : (شالي) أي عفواً بلغة العبريات فتعذر وتسلم... وإن صاحبنا ليؤكد مخلصاً، أنه استعملها أكثر من مرة مع بنات صهيون ، اللواتي لا يكدن يسمعنها حتى يرددن التحية بأحسن منها ، ويغضضن من أبصارهن ، فترى من أهدابهن ظلال لك ان تسميها سيوفاً تطعن قلب الساغ الولهان ...

وكانت الغادات منبثات على الشاطىء دون ترتيب أو نظام، ولضحكاتهن الفضية رنين بلوري يثقب القلوب ،فيرن في أعماقها رنين أجراس الجناز ... مما جعل صاحبنا يتمرد على مثله العليا ...! فهذه هي فتاة من هنغاريا ، يشع من وجهها سحر ودلال وتفيض من جسمها كل الجاذبية الجنسية التي يحلم بها الجنس الخشن ، تجاذب الحديث مع جليسين ، وقد لفت ساقاً بساق ، ومالت الى الوراء قليلا ، فانكشف ثوبها عن انوار لألاءة ، ولحم مهضب مبرد ...

وتلك هي غزالة تخشى الماء البارد ، اوتفعل ذلك بغريزة المرأة الغامضة، فتستكين الى الصخور ، تتمدد عليها ، فتلين أوراكها على الصخر وتسترخي ، فتنبىء عن الطراوة ، وتنم عن الغضارة المرنة في لحم الآدميات .

وزاغ بصر صاحبنا ، واضطرب فكره لهاتيك المناظر ، فكان لا يجد وسيلة لاطفاء جام ثورته سوى ماء البحيرة .! البحيرة ذات الماء العذب ، اللذيذ النقي ، الذي لم يكن يكدر السابحين فيه سوى تلك الاسماك المتطفلة الكثيرة ، تدنو وتنهش الجسوم ، وتعقص الارجل ، وتحاول ان تقضم الافخاذ .

عشاء فاخر

وخرج الدون جوان من البحيرة ، فهدته غريزته إلى أن يقصد مقهى العكاوي ذا الشهرة الواسعة في طبقة السواح الدمشقين : (أصحاب الدمعة) وأولاد الحلال. فلكم حدثوه عن أسماكه التي تصاد من البحيرة ، ثم تقلى في لمحة الطرف ، فتراها جاثمة أمامك ، تحمد الله وتشكره ، وحولها أطباق المقبلات .

ولما كان صاحبنا خبيراً في فنون الآكال ، ومكتبته عامرة بأنفس التآليف عن

الطهي وألوان الطعام من : نعيم البطون ، إلى مرشد الجائعين ، ودليل الحائرين .. فقد طلب سمكا .

فأقبل النذل يرتب الأطباق ، كصفوف العسكر في العرض البديع ؛ ثم وضع أمامه سمكة زعم صاحبنا وهو يهشمها أنها من أمهر الأحياء المائية .. وأنها لم تكن تحسن السباحة فقط ، بل تجيد الألعاب البلهوانية ، وتقاوم التيار بمثل البساطة التي يلبي بها صاحبنا الدعوة الى الطعام .

وكانت مصيبة المصائب ، أنه اضطر إلى تناول السمك بالشوكة ، والسكين ، وهي بدعة قلما اقترفها في حياته ، إلا لحادث جلل .

فلاذ بالصبر ، وأفرغ على نفسه قليلاً من إكسير : كن جميلاً تر الوجود جميلا . ! وتذكر قول القائل : أيها الأشقياء من بني الانسان ! التمسوا الضحك كلما أحسستم بالرغبة في البكاء ، التمسوا الضحك كلما شعرتم بدبيب اليأس بين ضلوعكم ، فان اليأس لا يلبث أن يذوب تحت نوره الساطع . . .

وهكذا فقد التمس الضحك أمام هذه السمكة الفقيرة لوجهه تعالى ، وتذرع بالصبر ، وأغمض عينيه وهو يدفع ثمن الطعام رغم أنفه ، مما جعله يعرج طوال طريقه من أثر اللطمة الاقتصادية التي أصيب بها جيبه .

وكان من أشد ما عجب له صاحبنا ، واستفهم عنه بالحاح ، رؤيته بعض الفتيات الصهيونيات يتجولن في أكناف المقهى ، أو يجلسن حول مناضد أفرغ من فؤاد أم موسى ، جلسة الانتظار والترقب ، دون أن يدري سراً لتلك الجولات والجلسات.

فهل تلك النظرات المريبة ، وحركات الاغراء والفتنة ، أمور دبرت في ليل ، لاصطياد العرب ، وقلوب العرب . . أم أنها نزهات بريئة للقاء الأحبة ، والعشاق المناميد من أبناء صهيون . ؟ أبداً . ! لم يجد لهذه الأحاجي جواباً . .

لغة مقدسة

ولقد أبصر صاحبنا في طبريا ، صنفاً من مخلوقات الله ، لهم عمائم غريبة ، وطراطير عجيبة ، مصنوعة من جلد ماعز لم يجز صوفه ، ولها إطار بارز ، تلوح

نحته (سوالف) تتأرجح في الهواء ؛ ولحى مسترسلة هائمة ، وألبسة شرقية قاتمة يتأبطون أنى ساروا ، كتباً ضخمة ..

فأرشده حدسه، وخياله الواسع ، الى أنهم من رجال الدين . فدنا من أحدهم، على حساب شجاعته المترامية الأطراف ، وقال له هاشاً باشاً : شالوم آدوني، شالوم (سلاماً سيدي ، سلاماً . .) وأمسكه بكلتا يديه ، بجرأة يحسد عليها ، بل وصافحه بحرارة ، وهو يردد شالوم . . فسمر الرجل في مكانه ، وقد اتسعت حدقتاه ، واضطرمتا بالغضب ، وخاطبه بالعبرية . فلم يفهم صاحبنا شيئاً من ذلك غير أنه أنقذ الموقف بالفرنسية قائلاً : إني سعيد إذ أقف بحضرة أول (أشكنازي) في حياتي ؛ وكاد يقبل ذقنه تبركاً ؛ فأجابه الرجل بالفرنسية أيضاً ، وقد عادت اليه أساريره: لتحل بركتنا عليك ، فان فلسطين ترحب بعودة أبنائها ؛ فهز صاحبنا رأسه قائلاً : لقد جئت من دمشق ، وأنا شرقي ، (سيفاراد) ؛ فطرب الكاهن جزلاً ، ودعاه للكنيس لينال البركات الكهنوتية ؛ غير أنه اعتذر لارتباطه بموعد سابق ، مع شخصية نائتة .. فودعه عندئذ ، وهو يربت على كتفه قائلا : أنصحك ان لا تجهل لغتك العبرية ، لسانك المقدس ..

لا أجهل لغتي العبرية .. ؟؟ لقد صدق الرجل فيما قال ؛ فانك لاتسمع اليوم في تل أبيب ، والمستعمرات ، وسائر الأمكنة التي يرتادها الصهيونيون ، سوى العبرية ؛ نعم ، قد تسمع الالمانيه ، أو الانكليزية ، وألف لغة أخرى من لغات برج بابل ، ولكن المقام الاول للغة العبرية ، فهي لغتهم الدينية ، والقومية الرسمية ؛ وإذا كان الرجل ينصح صاحبنا بتعلمها ، فلأنه موقن كل اليقين ، أنها حفظت كيان اليهود ، على ممر العصور ، وأنهم يحملون مفاتيح خلاصهم ، ماداموا يتكلمونها فهي رمز الوحدة ، والألم ، والنضال لأنها تجمع ذكرياتهم ، وأمجادهم ، ونبوءات

أنبيائهم ، وهي أعظم رابطة روحية ليهود العالم . ولست تدرك كم بذلوا من جهود وأموال في سبيل نشرها ، حتى غدت اليوم لغتهم في البيت والمدرسة والجامعة ، والحقل والمصنع ..

فهلا سمع اخواننا المغرورون بكل جديد ، الذين يرطنون بلغة أجنبية مقيتة ، في بيوتهم وشوارعهم ، ويتناسون الفصحى التي حفظت نتاج الفكر العربي طيلة القرون ..!! وهل أدركوا — حفظهم الله — أنهم معاول هدامة في صرحنا الاجتماعي ، وأن قلوبهم طابور خامس للأجنبي ، مادامت بديهيات علم النفس تقرر أن الانسان الضعيف يحتفظ في قرارة نفسه ، — شاء الجهر أو أبي — بحب كامن للأمة القوية التي يتكلم لغتها ؟

في الحياة

وطوى صاحبنا صحيفة جديدة من ثورته ، وراح يتأمل طبريا ، التي شاء سوء الطالع أن تكون في عيد ..! وعندما أقول : عيد .. فمعنى ذلك أن الحياة الاقتصادية مشلولة تماماً . فلن تجد بائعاً ، ولا صرافاً ، ولا سيارة ، ولن ترى الصهيونيين يهيمون على وجوههم في الطرقات والشوارع ، كما يفعل كثير من عباد الله في أعيادنا ، عندما يتسكعون في سوق الحميدية والسنجقدار والمرجة ..! انهم هنا ، لا يعيدون ليتصفحوا وجوه الناس ، بل ليريحوا الجسم والعقل من وعثاء العمل . فتراهم يقضون أيام العيد بين ذويهم وأصحابهم في البيوت ، أو مع أطفالهم في الحدائق والمسابح ، أو يقصدون الجبال والأرياف ، أو يذهبون إلى الملاعب والبيع ، حتى اذا جاء المساء ، قصدوا المسارح والملاهي ، ليغسلوا أتعاب الاسبوع ، وهموم الدنيا ، وليستقبلوا أيامهم بنشاط وقوة ومرح ...

وعجب صاحبنا كيف يترك هؤلاء القوم أعمالهم ، لينتشروا في كل مكان ، يضحكون ، ويلعبون ويرقصون ، ويمرحون ، ويضيعون الوقت سدى ، مع أن علماء بلده الأفاضل ، تناقشوا طويلا في حكم البطالة يوم الجمعة ، وهل هي حلال

أم حرام ، أم واجب أم مكروه ..؟ إلى آخر أفعال المكلفين الستة ... لأن الشغل عبادة ، كما يزعمون .!

وهو يعرف كثيرين من كبار التجار في بلده ، يصلون ليلهم بنهارهم في إجهاد لاينقطع ، بين البيت والعمل .. فلا يرون ذويهم إلا في المآتم، حتى غدت زوجاتهم أرامل ، وأولادهم يتامى ، وهم على قيد الحياة .. أما راحة البدن والفكر ، فأمور لايقترفها إلا ذو عقل سقيم ، أمثال من يراهم صاحبنا اليوم في طبريا .. من العفاريت النفاريت .. الذين أدركوا فن الحياة ، فأدوا أعمالهم على الوجه الأكمل ، ولم ينسوا واجباتهم نحو أجسامهم وعقولهم وذويهم ، وأعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .!

* * *

وبعد فهذه طبريا ، في أيام معدودات من الصيف ...

فاقرأ أيها العربي ، وفكر بعقلك ، واستوح نبضات قلبك .. واعلم أن المرح والنشاط والتنظيم أمور ينقصها عدوك لحاول أن تحاربه بسلاحه ، وأعدد له ما استطعت من قوة مادية وروحية ، ولك الغلبة ، مادام القلب كعك وإيمانك عامراً ، والأمم العربية من ورائك ، والضمير الانساني يعطف على قضيتك ولا تهنوا ولا تجزعوا ، وانتم الأعلون ، ان كنتم تعلمون .. »

هيا الى حيفا

مشروع روتنبرغ

لم نكد نغادر طبريا ، حتى لفتت أنظار صاحبنا تلك الأعمدة الكهربائية التي لانهاية لها ، تدخل أسلاكها المحطات ، وتخرج منها مزودة بالطاقة والقدرة ، لتنشر النور في أرجاء فلسطين ..

ولقد كان يتمنى من صميم فؤاده ، أن يكون هذا المشروع عربياً صرفاً ، ففي ذلك عزاء للنفس وتشجيع ... فسأل أحد (الأفندية) عما يعرف عن مشروع (روتنبرغ) وهل هو انكليزي ، أم صهيوني ، أم عربي ...؟ فصمت ، ولم ينبس ببنت شفة ؛ وكأن صاحبنا لم يكن ينتظر أكثر من هذه الفرصة ، فانبرى يتحدث بعد أن تحرك في مقعده متململا قائلاً :

إن هذه الشركة صهيونية ، دماً ، ولحماً ... فمنذ أن وطئت أقدام هؤلاء القوم فلسطين ، بذلوا النفس والنفيس ، بكل وسائلهم الخاصة لامتلاك الأرض ، ووضع أيديهم على منابع الثروة فيها . وكان في طليعة الأعمال الجبارة التي قاموا بها ، ثلاثة مشاريع هامة جداً هي : مشروع روتنبرغ الكهربائي — وأشار بيده إلى الأعمدة المنبثة على طرف الطريق — ومشروع استثمار البحر الميت ، ومشروع الحولة ...!

ثم سكت مزهواً ... فهز العربي رأسه متعجباً ، ورحت أربت على كتفه مستحسناً ، أسأله : ولكن كيف كان ذلك يا (شتربة) ، فقهقه ، وقال : دعنا من كليلة ودمنة الآن ، واستمع إلي : لقد عقد وكلاء التاج البريطاني بالنيابة عن (السير هربرت صموئيل) المندوب السامي في فلسطين عام ١٩٢١ ، مع (بنحاس روتنبرغ) الروسي ، اتفاقا على تأسيس شركة في فلسطين رأسمالها مليون جنيه فلسطيني ، لمدة سبعين سنة ، للاستفادة من مياه الاردن ، واليرموك ، وفروعها واحواضها ، في أرض الانتداب الانكليزي ، أو الواقعة في منطقة الانتداب الفرنسي

أي في بلادنا ...! وذلك في سبيل توليد القوى الكهربائية وغيرهـا ... وبعدئذ رخص له أيضاً في أن يبني على جسر المجامع، محطة كهربائية، وأن يستعمل بحيرة طبريا خزاناً للمياه التي يريدها لمصلحته، فيبني السدود، ويمد الأقنية، كما أنهم سمحوا له ببناء كل ماهو ضروري لعمله من المحطات، فيغير مجرى اليرموك وروافده إلى طبريا، ويستملك مايراه ضروريا لمشروعـه، كما منحوه استثمار نهر العوجا قرب يافا ...

وبدت أمارات الدهشة والاصغاء الشديد على العربي. فكأنه لم يسمع بشيء من ذلك في سابق حياته، وليس الذنب ذنبه؛ فأين النوادي، وأين المحاضرات، وأين المجالس الشعبية التي توقظ موات النفوس، وتعلم الغافلين ماينفعهم ويؤجج حماسهم..؟

ولقد قاطع العرب هذا المشروع، بادىء الامر، فأبوا الاشتراك في أربعين بالمئة من أسهمه، فاشتراها الانكليز ... وإن مركز الشركة في تل أبيب، واسمها: شركة كهرباء فلسطين م. ض؛ ورغم أن العرب يستهلكون مقداراً عظيماً من القوة الكهربائية، حتى لكأنهم يسـاهمون رغم أنفهم - في إثراء الصهيونية وتقويتها، فان الشركة لم تستخدم عربياً واحداً في أعمالها أبداً ...

وسكت بعد ماأتعبه خطابه، وأثار أعصابه، وعاد الى نافذته يمتع بصره بالقرى التي لم تثر شيئاً من حماسه، ولم تعصف فيه رغبة النزول للاطمئنان على صحتها الغالية، لانه لم يجـــد فيها جديداً، ولانها نسخة طبق الأصل عن قرى الشام البعيدة، المتأخرة، ويكفيها أنها في (أنتراكت) بين الحياة والموت ...

على هامش الناصرة

وأشار الزميل الفلسطيني الى الناصرة، يدلنا عليهـا من بعيد ... وعندما وصلنا اليها، أغمض صاحبنا عينيه قليلا، وهو يزدرد قطعة من الشاطر والمشطور وبينها لا أدري، على قول المتحذلقين. واستسلم الى تفكير عميق ... ثم هز رأسه وفتح عينيه، متأسفاً كفيلسوف حائر، وقال: ألا تدرون أن في هـذه الربوع ذكريات خالدة، وأن كل ذرة من رمالها لها تاريخ مجيد، عظيم ...؟ إنها مدينة

السيد المسيح ، يسوع الناصري ، له المجد ؛ هذه المدينة التي أنجبت من علم الناس الحب والتسامح والمودات ، ومن سن شريعة الاخاء والصفاء بين البشر ...

ولكن ويا للأسف . فقد جاء من بعده أناس أضاعوا التعاليم وفرطوا بالرسالة، فكانوا ذئاباً دونها ذئاب طوروس أو سيبريا ... جعلوا من الحب استعماراً ، ومن المودات انتداباً ، ومن الاخاء تقتيلا وتعذيباً ، ومن الرسالة السامية حرباً ظالمة لاتبقي ولا تذر ..! ولكن ، هيهات للغرب المادي الجشع ، ان يفهم تعاليم الشرق ، وصوفية الشرق ... ولن يسود العالم السلام ، ولن يحل الاخاء مكان الجفاء ، ولن يهدأ للامهات وللأطفال بال ، أو تنتزع من هذه الدنيا بذور الشر والعدوان ، إلا بعودة الغرب إلى تعاليم الشرق ، ورسالات الشرق ، وفلسفات الشرق ...

وهاهو ذا التاريخ حكم بيننا ، وها هي ذي فلسطين أمثولة أمامنا ، ألم تعش دهوراً وأحقابا هادئة مطمئنة حتى جاءها الغرب بانتدابه وصهيونيته ..؟!

وهل مرت عليها أيام سوداء أسوأ من أيام الصليبيين قديماً وعهد الانتداب والصهيونية حديثاً .؟!

لقد ذكرته هذه الناصرة السيد المسيح وخال امه النجار ، فكادت تسيل عيناه مدراراً على مأساة المصلوب ، كما سالت عينا الفلسطيني دموعاً تلقفها منديله الملون كقوس قزح .. ولولا مشا كستي لرسم صاحبنا الصليب على صدره ، ولنسي أنه حنبلي مسلم تقي نقي ..!

وشرعت السيارة تتحرك بنا نحو حيفا فبدت على هوامش الطريق مستعمرات صهيون ويطلق عليها المستعمرون اسم (كيبوتس) ومن المستغرب أن هذه (الكيبوتسات) متقاربة جداً فهل يعني ذلك أن اليهود يملكون كل تلك الأراضي؟ وإذا كانت كلها لهم فأين ذهب العرب ..؟

ولقد ظهر ذلك النظام الذي كنا نسمع ترديده على ألسنة الناس ، ماثلا أمامنا فالبيوت مكعبات منثورة بترتيب هنا وهناك ، والأحواض خزانات عالية متشابهة ، والحدائق محوطة بالصنوبر والزيتون على نسق واحد متماثل ؛ وكذا النوافر اللولبية

تدور وتسقي برشاشها الخضر ، والأشجار ، والثمار ..!

ولم أر (بيارة) واحدة أو كما يدعوهـا الصهيونيون (پارديس) إلا ومحاطة بالسرو ، ومترعة بأشجار البرتقال والليمون على مسافات واحدة وأبعاد متساوية ...! وعندما تجلت أمامنا معامل تكرير البترول وتصفيته، ومعامل الاسمنت حمدنا الله على السلامة ، فقد حطت رحالنا في حيفا ...

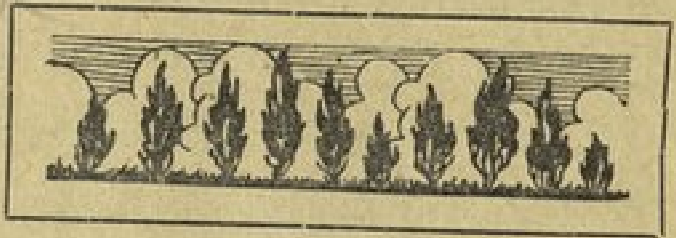

نحن في حيفا

عالم الهادار

استيقظ صاحبنا باكراً رغم أنفه . فقد أجبرني على سهرة بل سهرات في مقاهي البلدة الغامضة .. تلك المقاهي المشحونة بأكثر (أرتيستات) الحرب احتراماً ، وأشدهن نجاحاً في دنيا الفن الرخيص ..!

كان يدخل بي السراديب ليخرجني في صالة ـ ولا مؤاخذة ـ أو يخرجني من صالة ليدخلني في سرداب .. على العمياء .. دون أن أخاف له رغبة أو مأربا فهو رجل يحب البلدي .! ويموت في البلدي .! و ... مالو البلدي ..؟ حيث هز البطون والذقون ، والعري الوضيع ، تتجلى فيه بنت حواء بأحط ماخلق الله من طبيعة وسخة ...

ولعلني لا أنسى فراري منه أخيراً ، فأسرع يقفو أثري بعد أن هاجمته إحدى الطيور الشاطئية ، من اضخم البجمات في حلبة الرقص البلدي تود مغازلته لأنه بدا في عينيها — كما يقول — ولداً طيباً من الصنف الممتاز ...!

استيقظ وشهوته لحي الهادار تأخذ عليه لبه وفؤاده فما زال هذا الاسم مسطراً في قائمة حسابه منذ مغادرته دمشق .. فجعل يقيم الغرفة ويقعدها ، ويقلب أعاليها أسافلها ، باسم الاستعداد للرحلة (الهادارية) العظيمة ، لاباسم ايقاظي وإزعاجي .! وأخيراً سلمت أمري الى الله، وركضنا معاً مهرولين على سلالم الفندق ، صاعدين في الحي (لنبحلق) في عباد الله من بني صهيون ..!

وكان القوم في عيد (روش آشانا) وقد أغلقت المتاجر ، وشلت الحركة ، وأقفلت الشوارع الرئيسية ، وقبع أناسها في بيوتهم على قمة (الهادار) ...
والهادار ، حي يهودي ، بل أحياء صهيونية قبل كل شيء ، وأوربية بكل معنى

الكلمة . ولكلمة (هادار) وقع وموسيقا في نفس بطلنا ، أكثر مماتفعلهزجاجتان من الوسكي ؛ فكان يلفظها ويتشدق بها على جميع الألحان والأنغام ، ويؤكد لي أنها شطيرة من العربية .! فالهادار هو المنحدر أو الانحدار ، لأنه يقع في سفح (الكرمل) ومنحدره . وبعد ، أفليست العبرية جدة العربية أو ابنة عمها ..؟!

ولقد ... وعى عن الهادار قبل سفره ، أكثر مما يحمله الحاج إلى بيت الله الحرام، من المعلومات المسلوقة النيئة ، فلا يحتاج الى(مطوّف)أو دليل حتى انه كان يحدثك سلفاً وارتجالاً عن شوارع الحي العريضةالنظيفة ، وموقعه الفاتن ، ومناخه العليل البليل ، ومقاهيه ، و (باراته) . فأراد أن يقرن الواقع بالخيال ، ويطبق جميع معلوماته الفلسفية ، فيبدأ بالشك حتى يرتفع إلى مرتبة اليقين ..!

ابداً . لم ينس ساعتئذ أن يهمس في أذني ، بأن بين هاتيك الربوع والمقاصف والمغاني،بنيّات يهفو اليهن فؤاده ، وسيقاناً عارية ، تضيء له ظلمة الليل ، وتقطع منه نياط القلوب ، ونهوداً صلبة تنادي : هل من مناجز .. وشقرة محمصة ، مقلية فوق نار الشمس الساحلية ، وعلى بساط الرمال البحرية الحمراء ... وعلى المؤمنين بما يعلن أشرف السلام .!

ولقد كنا حقاً كالمشدوهين ، في العابرين والعابرات ،والمتنزهين والمتنزهات ، وفي الأبنيه ، والحوانيت ، والشوارع ، والنظام ، ومظاهر الترتيب والاهتمام ...

لن تجد هنالك ناطحات السحاب ، ولكنك تجد مغاني الشعب طياً في المغاني، فها نحن أمام حديقة عامة ، نثرت فيها المقاعد بانتظام ، وليست هي مقاعد محطمة كما هو الأمر في شارع بغداد ، الشارع الوحيد الذي يشتمل على خمسة أو ستةمقاعد هرمة كسيحة ؛ ولكنها مقاعد تحسن أن تكون في (صالون) الضيوف فيمنزلك: مدهونة ، موضوعة تحت الأفياء الظليلة ، وبين الزهور الملونة التي ذكرتنا بحديقة الصوفانية ، والمرحومة المنشية ، والمشتل الزراعي ...

ولقد جذب نظرنا ، عناية القوم بأطفالهم ؛ فتراهم في عربات صغيرة مكشوفة تتعرض أجسامهم الى الشمس والهواء،لايلبسون سوى سروال قصير جداً ... أما

أمهاتهم وآباؤهم ، فينتقلون بهم هادئين ساكنين من مكان الى مكان ، ومن ظل الى ظل ، بينما لايتنازل عندنا الأب أن يعنى بطفله لوحده ، ولعله إذا سار مع زوجه وهما يدفعان ابنها امامها لمدّ (بوزاً) بطول شبر اثلا يخجل امام الناس من مساعدة أنثاه وكأن ذلك جرم مبين ...

فهذه أم تشدو بصوت رخيم فيه عذوبة وفيه دلال ... وذاك أب يؤرجح العربة ذات اليمين وذات الشمال ليغفو صغيره... وهناك طفلة تدحرج كرة وهذا طفل يشد حبلاً صغيراً ...

وكان الهدوء شاملاً ، والنظافة تغري المرء أن يتوسد الثرى ... وهكذا فان القوم يقضون عطلتهم في العناية بأطفالهم أو في الصلاة أو الموسيقا أو الرياضة أو القراءة ، في الشرفات أمام فناجين القهوة ، أو كؤوس (الأسيس) ...

ولعل العناية بالأطفال هي فكرة عملية قومية ، يقومون بها كيما يتعادل النسل الصهيوني على قلة اليهود ،مع النسل العربي على كثرة هؤلاء ... فان الوفيات عند اليهود المستعمرين قليلة جداً بالنسبة لوفيات أطفال العرب . فلو عني العرب بنسلهم تمام العناية كما يفعل خصومهم ، لما استطاعت الهجرة تغيير النسبة بين عدد السكان اليهود والعرب ، بل لباءت بالفشل الذريع .!ومن هنا يمكننا ان نفهم قيمة المؤسسات الصحية القليلة في ارض العرب ، وضرورة الاهتمام بها ...

وسرنا فلم نر شارعاً وسخاً ولا طريقاً قذرة ؛ فكل فرد يعتقد مخلصاً ان له حقاً ونصيباً في الطريق ، والحديقة والشجرة ، وعليه حراسة كل ذلك والعناية به . فلا بصاق ولا ورق ولا تهشيم اشجار .. فعلى كل امرئ ان يصون ملكه ويهتم به ويرعاه. وهذا نوع من الحياة القومية الواعية التي يحياها هؤلاء الأعداء الأقوياء...

وكان لكل بناية مستودع من الصلب أسطواني الشكل ، جميل المنظر ، مزركش مدهون بما يمنع عنه الصدأ ؛ يضعون فيه الفضلات والاقذار فلا ضرر ولا ضرار ... وقد لفت نظر صاحبنا إعلانات القوم ودعاياتهم فكانت صغيرة الحجم غالباً ، مرتبة في إلصاقها على لوحات خشبية خاصة ، مدهونة ، لاتتعداها

إلى الجدران أبداً ، وكلها بالعبرية وقليلا ماتكون بالانكليزية ؛ ولم نر إعلاناً واحداً بالعربية ،وكأننا بالهادار بقعة يهودية صرفة، يريدون جعلها نموذجاً للمدينة الصهيونية أو للبناء اليهودي الحديث ونظامه ...

لم يقع بصرنا طيلة جولتنا على امرأة مهملة الهندام ، عابثة أو خليعة ، أو مزينة الوجه ، كما تبدو بعض النسوة في شوارعنا ؛ يختلن بأثمن الأجواخ والأقمشة وأثمن الأبيض والأحمر حتى ليستطيع الزوج أو الأخ ـ لو أراد ـ أن يكشطه كشطاً.. فنحن في الصباح وكل منهن تخرج لعمل أو حاجة، وليس لاظهار الطلاء و (التواليت). فثمة فرق بين النظافة وحسن الهندام ، وبين التبرج والخلاعة .. ولا يحسبن أحد أن أعداءنا الصهيونيين نبذوا متع الحياة وزخرفها ..! لا ..! أبداً .. ولكن لكل شيء عندهم وقته وساعته ،فلو رأيتهن في المساء ،لنسيت بنتي غرابل وهيدي لامار وفيفان لي، ودورتي لامور ... و ...

كان لكل بناء حديقته ، مها وضع وصغر ؛ وعلى رصيفي الشارع تنتشر أشجار الزيتون على مسافات غير متساوية للضرورة . فقد افتتح الطريق وجزت أشجاره وأبقي منها مايمكن أن تتقارب مسافته من الآخر على حاله ؛ ولذا فهي إما نابية عن الاستقامة المطلوبة ، أو ناتئة من صلب الجدار الملتف حولها في الطريق ... ولقد كان كل ذلك يهتف بنا أننا في جبل الزيتون وعلى سنام الكرمل.

وإنها لعمري أشجار جميلة رغم كل شيء بسيطة وقورة مهابة ، حتى أنك لتراها في حدائق البيوت لنفس السبب المذكور ، وعلى اطراف (الفيلات) والقصور .

ولقد أعجب صاحبي رتل من الناس كباراً وصغاراً ، إناثاً وذكوراً وقفوا سلسلة طويلة على طريقة ال (كو) أو مايسمونه بالذيل..وقفوا يبتاعون جليداً. ولم يكن بينهم صياح ولا خصام او زحام ، وإنما يقتطع البائع قطعة الجمد المنضد في سيارته البخارية ، بمخرز في يده يثقب به اللوح عدة ثقوب ، ثم يلطمه بقبضته فتنفصل القطعة عن اللوح بانتظام واتساق . وارتسمت على وجه صاحبنا اشارة تعجب هائلة ، فوقل واستعاذ ، واقسم يميناً بأن اهل بلده لو تعلموا هذه الطريقة الدورية

في الانتظار ، وانتظموا في سلك (الذيل) ، لماحصلت بينهم تلك المشاجرات والمذابح في سبيل الجليد ، وامام دور السينما ، وخاصة في شهر الصوم والبركة .

كان كل واحد من القوم يحمل قطعته في شبكة او جعبة جلدية، فلا ترى منشفة وسخة ولا منديلا مطرزاً ولا يتناولها بيده لينقلها بين حين وآخر ، كالحارس الامين من يد الى يد ،والمياه تملأ اكمامه وثيابه .. ولقد كان البيع يبدأ بكلمة (تفضل) وينتهي بكلمة (شكراً) فلا هرج ولا مرج ، ولا محاباة أو التماسات وخواطر ابي فلان أوشوارب علان ...

في مغاني الكرمل

وتردعك الزهور الكثيفة المتنوعة في كل مكان عما يشين بقدرك . وهل مثل الزهور مايهذب الذوق ، ويرهف الحس ، وينمي الشعور بالجمال .؟

ورغم اننا لانعرف كل اسمائها وانواعها ، فنحن نستطيع ان نقول بانها من اجمل ماخلق الله ، وابدعت الطبيعة ، وهذّب الانسان ...! فهي تحيط بالابنية ، والدور ، وتستر أكناف الشوارع جميعاً ، فتمتع العين ، وتريح النفس ، فكأنك تسير بين الرياض . واكد لي صاحبنا وجزم ، بأن الأشجار والأغصان هي حائل منيع دون الغبار والرياح ، التي لاتزورهذه الاماكن أبداً ،ولاتعصف بالبيوت فتعمي الأبصار وتصيب السكان بأفانين (التراخوما) وأمراض العين :..

وكيف ينفذ الغبار أو تتسخ الشوارع وهناك أرض الأسفلت تكنس بمكانس ناعمة دقيقة من الشعر ، لاأثر الأشواك الجبلية فيها ، او العواسج ، ولا تطرق أرضها الجمال والحمير والطنابر .!؟ فعلى رأس كل طريق ، علامة ترمز إلى إقفالها في وجه الدواب والعجلات . وهو مايضايق صاحبنا ويزعجه كثيراً فقد اعتاد — والعادة محكمة — أن يري في بلده أصحاب الخيول الأصيلة، يتسابقون في الشوارع، وتعود سمعه أن يختلط بقرقعة الطنابر وهدير الجمال ونهيق الحمير والبغال ، ولكل امرئ من دهره ماتعوده! . اما السيارات فتصل الى قمة الجبل ، دون أن تثير عجاجاً

أو تحدث ضجيجاً . فالمكان هادئ ساكن حيثما سرت وانى ذهبت ، ولعل الأهلين يعملون بعقولهم وألبابهم أكثر مما يعملون بقلوبهم وعواطفهم ، ويقول أرباب الفلسفة والأدب بان الضجيج أعدى أعداء أصحاب التفكير .! فهل هذا صحيح .؟ لست أدري ..!

وكان للطريق الواحدة منافذ عدة، على أن أجمل ما فيها تلك الممرات الجبلية الخاصة بابناء آدم وحواء المكرمين .. فهي مؤلفة من سلالم حجرية ، تحيط بها أفنان وأدواح . وتؤرجها أزهار ورياحين ، تتعانق فتشكل أقواساً من الزمرد، تكلل هامة المرء حينما يمر من تحتها ، وتشيع فيه الطمأنينة والسعادة ...

ولقد ثار صاحبنا على بيته وحارته وأهله وخلانه . ثار على كل ذلك لدى رؤيته هذه المناهج المدنية الراقية ؛ لانه ظل سنين متواصلة يطلب رصف حارته التي لا تتسع لمرور ثلاثة رجال سمان معاً ، فما استطاع .. ولم يجد من يجيبه ولو بكلمة رفض .! ومكث يغرق شتاء في الوحل فيلبس في رجليه القبقاب حتى يخرج منها ، ثم ينتعل حذاءه ويرسل قبقابه مع أخيه . وفي الصيف يثور الغبار فيجبر على دهن حذائه كل يوم مرتين ، يخسر في سبيله نصف ليرة سورية وهو أمر يحسب له اليوم ألف حساب.

واغضبه ايضاً من كل ذلك ان هذه الحدائق والجنان والغياض والرياض لا حارس عليها ولا رقيب .! ولكم نازعته نفسه ان يغتصب شتله ، يرصع بها منزله او يختلس وردة يزين بها صدره ، كما يفعل بعض الشباب الهايلايف ..

وعندما ابصر هاتيك المقاعد الشبيهة الجبلية دعا ربه أن يلهم البلدية إلى وضع أمثالها في شوارعنا وحدائقنا ليكون لها جزيل الفضل وحسن الثواب . وكانت تلك المقاعد بسيطة جداً ، اجتزتها اليد العاملة أغصاناً طبيعية من أشجار الصنوبر ، وجعلتها على حالها دونما تهذيب أو تشذيب ...

ولعمري إنها مقاعد مريحة ماتعة ، على قمم الكرمل ، تحت الأفياء والظلال فتشرف منها على البحر وميناء حيفا ، وأراضي الهادار ومصافي البترول ، حتى لتكاد تلمسها لمساً من مكانها السحيق ..

وجلس اخيراً على إحداها ، وأطال الجلوس ، وتمنى لوقضى العمر في هذه الاماكن الهادئة ، أمام المناظر البديعة ، والمناخ الممتاز . حتى لقد شاء تخليداً لهذه الرحلة المباركة ، ان يمضي ساعة ، في مقهى معلق بين السماء والارض ، في ذروة الجبل .

وما كادت تطأ اقدامنا مقصف (بانوراما) الشهير او : المنظر الجميل كما اشتهى ان يعربها ويترجمها الى لغته المحببة ، حتى فاجأتنا الغادات الحسناوات وقد استلقين على الكراسي المستطيلة الصفراء ،معتكفات في ذلك الهدوء الشامل ينتظرن المساء .!

وكان المقصف كما يبدو للعيان مرقصاً و (باراً) وفندقاً ، نثرت فيه المقاعد والمظلات ، حول (اوركستر) يملأ الجو بانغام ناعمة حلوة منعشة .! ولست ادري لم يتقلص صاحبنا إلى ربع حجمه كلما رنا الى بعض الفاتنات أو حسب أن إحداهن ترنو اليه .! فللجمال — كما يقول — سلطان يرعش ويخجل ، فكم خرت تحت أقدامه عروش ، وتهاوت دول ، وهو السلاح الذي لايقهر في جيش لايغلب ..!

وإذا كان هنالك في الحرب ، مايسمى ، بالسوق السوداء ، فان في زمن السلم أيضاً ، وفي مرتفعات الكرمل ، مايمكن أن نسميه بالسوق الظلماء ..! وليس معنى ذلك أن في هذه الذرا والمرتفعات بضائع محتكرة مهربة ، وإنما نستعير على سبيل المجاز اصطلاحاً اقتصاديا لبيع بضائع الملاذ الأرستقراطية بثمن فاحش منكر ..!

وجاءنا ضيف كئيب محزن ، هو شبح الماضي ، فجلسنا صامتين واجمين يتأمل كل منا الآخر ، ويذكر « دمشقه ، وبيته ، وأهله ، وأيامه الضائعة سدى في الأعمال الشاقة والمآسي البلدية المزعجة .. ولعل هذه التذكارات هي كل ما كان يعبر به صاحبنا عن لذته وسروره ..! فلقد كانت تلك المشاهد التي تبذل أمامه دون أن يدفع قرشاً في سبيلها ، هي أعنف لذة مرت به في حياته . . .

فأين من عينيه هاتيك الغواني الساجيات تحت الأشجار ؟ وأين من عينيه اولئك الفاتنات المترقبات . . المنتظرات . . رجل الليل وبطل التدهور والغباء .! ولعله سر أشد السرور لأنه المقصود بهتاف : ياصعاليك العالم اتحدوا ، ولأنه

ليس من الاغنياء أولاد الذوات الذين يدبثون في (البار)، لينفقوا عن سعة وسخاء، وإلا لتدهور في بذل مريع ، أمام الأماليد العابثات فهو يعلم حق العلم أن نساء صهيون لهن معدات في موضع القلب وابتسامات فاتنة كصناديق الحديد ، تحرص على ابتلاع النقوددون اخراجها ..! ولذا فهو يحمد الله الرحمن الرحيم بعباده المتقين

ثم قطع عليه تأمله وإغراقه وسهومه ، مرور عجلة بخارية ، يمتطيها فارس حديث وخلفه أنثاه وسروالها (المزموم) ــ شأن بنات المستعمرات ــ قد ارتفع حتى الحرقفة ... وقد فرّقت ساقيها كعمودين نحاسيين مترعين باللحم الطري الطازج. وعندئذ هب يكافح الغواية والاغراء مسرعاً الى الفندق ...

في ربوع الجزار

هل يحق للسائحين الكريمين أن يزورا فلسطين ، دون ان يشاهدا ثغراً من ثغورها الخالدة ومعقلاً من معاقلها المجيدة ...

إن (عكا) هي ستالينغراد القرن التاسع عشر .. وعكا هي مدينة الجزار وقاهرة قاهر الشعوب نابليون بونابارت ... وهي المدينة التي ارتد عنها مدحوراً ميئوساً كما ارتد (روميل) شيطان الصحراء بالأمس ، عن العلمين ، فاذا بالدنيا غير دنيا ، واذا بالمجد تغرب شموسه ، ويتقلص العز والنصر ، بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى .

تلك هي عكا .. ! عكا التي صمدت في وجه سيد الفاتحين ، وكانت إيذاناً بغروب انتصاراته ، كما كانت ستالينغراد مقبرة الجيوش التي زعموا يوماً أنها لاتقهر .. وما أشبه الأمس بالبارحة ...

ولئن كانت الرجال تخلق أمة ، فان هنالك مدناً تخلق شعوباً . وان عكا من هاتيك المدن ..

لقد كان صاحبي يبرر زيارتنا (عكا) بمثل هـــذه المقدمات الخلابة ، والالحاح المستمر كطفل مدلل ؛ وعهدي به خراسانياً أصيلاً ، يتخذ مبدأ لبس الجوارب السوداء صيفاً ، اقتصاداً في نفقات الغسيل ، ويخلط النبيذ بالماء ، كيلا يسرف فى الشراب .. ! فما باله اليوم ينثر أمواله دون حساب . ؟ هل أثقلت القطع الفضية جيوبه ، وخشي أن تثقبها فالتجأ الى صرفها ... وأخيراً .. سلمت أمري الى الله وقبلت منه الدلال ، وأنا أخوف ما أكون كمن يعطي الصبي واحدة .. وكنت أقرأ في وجهه آيات الاعياء والسهر ، وهو شيء لم يتعوده لعشرين سبباً ، أقلها أنه ينام في بلده من الثامنة حتى السادسة صباحاً ؛ فكيف به وسهرات الأمس السالفة ، وضياع الدراهم في غراميات مع اللقالق من بنات حواء ؛ سلام هي حتى مطلع الفجر ... ؟

شيوخ تمشي على الماء — وممثلات صهيونية

وشاء حسن الطالع أن يرافقنا في الرحلة شيخ من شيوخ الصوفية والطرق المجلة، ممن يسمونهم: شيوخ السيارات ودق الطبول، وبلع الحديد وأكل الأفاعي..!

وكانت عمامته خضراء قاتمة، وشعره كثاً طويلاً ملمعاً بالزيوت والعطور الخانقة، وعلى عينيه نظارة تسمى بجدارة واستحقار «مبطنة» عريضة، كانت تهبه نظرات بليدة، يحاول ما استطاع أن يجعلها نفاذة ذكية، فيخفق ملايين المرات في الدقيقة.

وكانت ثيابه وسخة جداً تغطيها جبة ربما قيل يوماً إنها ذات لون أسود؛ ولعل العين تقتحمه لأوساخه المتراكمة تحت أظافره الطويلة، وعلى وجهه وذقنه اللامعين بدهن (اللوز) والعطور المختلفة ..! وعندما أردت الجلوس تنحيت عنه الى آخر السيارة، وتركت محلي طائماً مختاراً خيفة أن تلحق بي (غريبة) وهي في لغة البلد (القملة).. أما صاحبي فلم يجرؤ على الفرار، بعد أن ابتسم له الشيخ الالمعي الصالح واضطره الى الجلوس بجانبه ليباركه ولا غير.!

ومن حسن تصاريف الاقدار أن (الغريبة) التي كان يخشاها صاحبنا كما أخشاها، لم تجبر على ما يظهر أن تغادر الدسم والزيتوت من جسم الرجل وأسماله، لتستوطن رفيقي فتصحبه. والوطن قتال. — ورحم الله أهل الأمثال — ..

ولم يكد صاحبنا يجلس بجانب الشيخ حتى راح يلحف عليه بالسؤال عن معامل البترول وتكريره، والاسمنت وصنعه، والمصانع الحربية الممتدة على طول الطريق، وأبنية الغيوم الصناعية لتضليل الطائرات، وهي تتباعد عن بعضها بمسافات متساوية على طرفي الطريق، وعن المستعمرات الصهيونية والثكنات العسكرية وعن ألف سؤال وسؤال دون أن يقنع بجهل الشيخ وتهربه من الجواب، أو تخبطه فيه وإيجازه الكلام كالبرقيات. وأخيراً تطوع لنجدة الشيخ، أحد الركاب العرب، ولعله ممن يهتمون بقضية بلاده فقال:

إن هذه الأراضي — من حيفا الى عكا — التي تمتد أمامكم يا سيدي، هي جميعها

لأبناء اسرائيل ..! فقد اشترت (الكيرين كايمت) تلك المؤسسة اليهودية المعروفة (٣٥) ألف دونم بين حيفا وعكا تلافياً لأخطاء سابقة ... فقد أقسم اليهود ألا يقعوا في خطيئة إهمال شراء الأرض مرة أخرى ؛ لأن مؤسسي (تل أبيب) اشتروا في السابق (١٤٠) دونماً فقط للمدينة الحالية ، ولو أنهم اشتروا أكثر من ذلك لربحوا ملايين الجنيهات ، ولتغير وجه (تل أبيب) .. كما أن شركات أخرى هنا اشترت من هذه الأراضي الجرداء ما يعادل (٢٠) ألف دونم أيضاً ...!

ثم ابتسم بجفاء وتابع : أفلا ترون معي ، كيف سيكون مستقبل حيفا ذات المرفأ العظيم والسكك الحديدية ، ومصافي البترول ، والمعامل ..؟ إن كل ما أذكره سيساهم في غلاء هذه الأراضي – وهي اليوم ملك العدو – ويجعلها مطمئنة الى مستقبل غلاء هائل ، ليس في فلسطين وحدها بل في الشرق الأدنى كله . لأن هذه المناطق الصحراوية ستكون – كما ينوي الصهيونيون ان يعملوا – نواة لمدن صناعية ومعامل مختلفة ، يبذل فيها اليهود جهدهم لاستعمار فلسطين ، والشرق العربي أجمع ..!

ولنذكر أيها الأصدقاء العرب دائماً ، بأن لليهود رأياً يقول : لا فائدة من نمو الصناعة والتجارة ، إذا لم تزدهر قبلها الزراعة ..! إن الآلام لم تصب اليهود طيلة القرون والعصور إلا لاهمالهم الزراعة وعدم تعلقهم بالأرض ... فالأرض نواة لمحبة الوطن والاتصال به ...

وهنا تدخّل الشيخ في الحديث فتغيّر مجراه .. فالتفت الية صاحبنا مشاكساً وقال له بلهجة خاصة : « حبّوب .. شو هالسيّارة يلّي مرّت البارحة في ساحة الحناتير .. ؟ الله يكتّر من أمثالكم ويباركْ فيكم » ... ثم تنفس وتابع :

« الله يعزّ الدين ... شفْناهم يلعبوا بالسيوفْ ويْاكلو النيران ، وشعورهم منفوشة ، ودقونهم طايرة بالهوا » .. « والله شيء بحمّس ، وبنومس »

فابتسم الرجل ابتسامة الخبير المتكتم ، ثم هزّ رأسه ولعب بسبحته وقال بعد صمت طويل :

« إي ما هو أنا شيخ السيارة ..؟! محسوبكم ، ودناجيكم .. ! وعلى أثر ذلك

اعتدل في جلسته مزهواً وانتفخت أوداجه، وشرع يسبح الله . . . وهنا تابع صاحبنا قوله بعد ان انحنى على ذقن الشيخ، وراح يقبلها برؤوس أنامله تحبباً وخبثاً ؛ ولولا خيفته من الجراثيم المفرخة المستوطنة في تلك الغابة العطرة ، لعانقه على مذهب إخوان الصفا ، وخلان الوفا . . . « ما شاء الله . . . حوّطك بالله وأولياؤه . . . أنتو يا شيخ بَركتنا ، والله يرحم الأوال الأودما شو علمونا » . . . وما كاد يلفظ هذه الجمل ، حتى طار الرجل فرحاً وسروراً ، وناوله ملفاً من الورق هو إجازة ضمن خرقة خضراء ، بدأ ينشرها أمامه ، وكانت طويلة جداً كفرمان همايوني ، لا تقل طولاً عن عشرة أمتار ..! وقد بدأت بالبسملة ، وانطوت على الآيات القرآنية وأسماء الله الحسنى ، والأحاديث النبوية الضعيفة ، والموضوعة عن الصوفية ، وإجازات المشايخ بلثّ النار ، ودخول الفرن ، وطعن الخناجر ، وأكل الزجاج والعقارب وما الى ذلك..!

ولقد حاول صاحبي أن يطوي الاجازة خلاصاً من أرجل الذباب الكتابية ، فأبى الشيخ عليه ذلك حتى يتممها . . . فكان يقرأ من كل سطر الكلمة الأولى ، يدمدم ويهمهم بالباقي الى آخرها . . . ثم طواها بتؤدة يضرب بها الأمثال ، وسلمها الى الشيخ الراحل الى بلد آخر ، لتصديقها وختمها من شيخ مشايخ الصوفية ، العالم العلاّمة والحبر الفهامة . . . كما يرحل الروّادو المكتشفون من قارة الى قارة ، ومن أرض الى أخرى ، في طلب العلم وخدمة الانسانية والحقيقة ..! وأخيراً قال صاحبنا (الحشري) : والله يا حضرة الشيخ « لازم تكتب هالبراءة بماء الذهب على آماق البصر ..! » فاستحسن الشيخ منه هذا التعبير الغريب . وربت على ظهره يرجو له حسن الخاتمة والمصير والثبات على الايمان . . .

وسأله الشيخ عن (الطرائق) في الشام وأنواعها ورواج بضاعتها ، فأسرع صاحبنا كلص بغداد ، ينثرها أمامه كما يفعل الحاوي بأصدافه وأخشابه ، ليكشف الالعاب والألغاز وقال :

ومن جملة الطرائق التي تزيد عن السبعين عندنا الطريقة الكعدانية ، والشالاتية..! فعجب الشيخ من ذلك وهو لم يسمع بها في حياته . . وابتسم الصديق مفتخراً ومدّ

يديه الى الشيخ، كمن يتحف إنساناً بهدية ثمينة وقال : إن هذه الطريقة الكمدانية، ياحضرة الاستاذ ، تنتشر انتشاراً واسعاً في بر الشام وهي كالطريقة الشاذلية حتماً من حيث المبدأ والهدف ...

فقد اشتهر أصحابها بأكل الدجاج واللحوم ، وتسخير العقارب والحيات ، حتى ان روى الناس أنهم طيرون عند الامتحان في الهواء . ويحومون حول المآذن كالخفافيش ..! ثم همس بأذن الشيخ : وإنك لو شرفت دمشق ياسيدي ، لسروا بلقائك ، وتباركوا بمقدمك ؛ فالقوم عندنا عناية واهتمام بكل طريف من (الانتيكات) ..! فلم ينتبه الشيخ إلى هذه النكتة ، التي تخدش ولا تدمي ...

وكنت أختلس النظر إلى وجه صاحبنا المراوغ الثعلبي ، دون أن أسبر غوره ، ولن يستطيع ذلك احد ، حتى ولو كان أقوى كاشف كيمياني ، (كعباد الشمس) مثلا ، وأترابه في السراء والضراء ...

وهنا أدركت السيارة عكا .. فنزل المسافرون ، وتفرق الجميع ...

في حمى الجزار

كان من أولى وجائبنا ، أن نزور قلعة عكا ؛ ولكن هل إلى ذلك سبيل ..؟ فالقلعة اليوم سجن ترتعد لهوله الفرائص ، وتقشعر لذكره الابدان ... ويكفي أنه لم يحدث قط أن عاد اليه ثانية ، من سجن به أول مرة ..! وتلك لعمري غاية السجون القصوى ؛ فهي مانعة رادعه ، مهذبة معلمة ، تعيد الى العالم أناساً صالحين مقلمي الأظفار ، كما تخرج المستشفيات أناساً معافين ... فلتمت عناصر الجرائم والشقاوة داخل السجون ، كما تقتل جراثيم الأمراض بين جدران المصحات والمشافي ...

ودخلنا القلعة بعد إجراءات طويلة ، ومعاملات عريضة ، فشاهدنا الخنادق السحيقة ، يحوبها المساجين بالبستهم الزرقاء ، ورأينا تلك الأسوار الضخمة الشاهقة التي استطاعت الصمود في وجه الجيوش الغازية فردتها على اعقابها ؛ وهنا وهناك

كنا نشاهد المدافع القديمة ، التي تملأ من افواهها بالبارود والمتفجرات ؛ وتكاد تنطق بالغزو الفرنسي للجزار ، وصراع الفتاة . ولقد دخلنا غرف المساجين المختلفة فمنها السجن المنفرد (الخلية ـ سيلول) ، ومنها الغرف الواسعة ، فوق الارض وتحتها ، هذه الغرف التي شهدت في عهد الجزار أفظع وحشية يصليها الانسان لاخيه الانسان ؛ هذه الغرف التي كانت مترعة بآلات التعذيب والصلب والقتل ؛ حتى وقت قريب ... ومن فوق برج عال أشرفنا على عكا، والبحر، والسهول الفسيحة ... فكنا نبصر من هناك سور المدينة المزدوج ، وجدرانه القائمة على قناطر متينة وعقودها المقفلة من الخارج ، المفتوحة من الداخل ، وكان للسور باب واحد في الشرق ، ففتحوا له باباً آخر من الغرب أو طريقا ... ولقد قيل إن العمال عثروا على هياكل بشرية مدفونة بين جداري السور ، حينما كانوا ينقبونه لفتح الطريق ، مما يثبت شدة وطأة الجزار على المجرمين ، وذلك أنه كان يضعهم وهم أحياء في السور ، ويبني فوقهم ..

غادرنا القلعة وقصدنا جامع الجزار ، وهو رحب الساحة ، جميل التكوين ، طليت جدرانه الداخلية بالقاشاني ، واحيط صحنه بغرف المطالعة الموقوفة على طلبة العلم ؛ وبجانب الجامع غرفة فيها قبر الجزار ، عليه ضريح فيه نقوش كتابية تقول : (هذا قبر المرحوم ، المحتاج إلى غفران الواحد القهار ، الحاج أحمد باشا الجزار ، عليه رحمة العزيز الغفار ١٢١٩ هـ .)

ومما لفت نظر صاحبنا ، أبيات من الشعر ، منقوشة على مدخل المسجد ، تخليداً لذكرى بانيه ، مازال يذكر أحد أبياتها وهو :

ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا   جزار أعناق العباد كما يجب

وما فتيء صاحبنا حتى اليوم ، يدعو الله سراً وجهراً ، ان يفتح عليه باب الفهم ليدرك السبب الذي حدا بالشاعر اللوذعي النحرير لوضع : كما يجب !!

وبجوار الجامع ، حمام من الطراز التركي ، بناه الجزار ليكون له ولحاشيته . وإذا كان اليوم يلفظ انفاسه الاخيرة ، فانه يدل على سابق اتقان وبناء مزخرف جميل . فانك ترى فيه آثار القيشاني ترصع جدرانه ، ومصطبته الوسطى التي

يستلقي عليها الناس للدفء. أما مداخله ودهاليزه، فانها تدل على تفرده في عصره بالروعة والجمال، وكانت كل آياته الناطقة والصامتة، تذكرك بعهد السلاطين والباشوات والحريم والجواري، وذلك الجو السحري المفعم بالنساء، وقصص الف ليله وليلة ..

وخرجنا نجوب أرجاء المدينة، نرتقي أسوارها وأبراجها تارة، ونهبط إلى سراديبها وأنفاقها أخرى، وفي كل خطوة نرى شبح الجزار، (جزار اعناق العباد كما يجب)، ونعود بالذاكرة إلى تلك العهود التي لم يكن فيها انتداب، ولا صهيونيون وإنما حياة سعيدة مستقلة كلها تفاؤل وبركة رغم وطأة الجزار...

وفوجئنا ببغل، اقتطع جفنه بشريط شائك، وظل معلقاً من طرفه ينزف دماً، وقد وقف صاحبه مع بيطار، يستفهم منه عن الجرح، وصحة البغل الغالية، وكيف يمكن شفاؤه، وماهي الاسعافات الضرورية اللازمة له ...؟ ويبدو على الرجل أنه من أصحاب الاراضي الزراعية؛ فقد كان شديد الاضطراب على دابته، بينما كان البيطار يتهرب من الاجابة، جهلا وقلة خبرة أو دربة ..! وأخيراً، تنهد الرجل قائلا بأسف: آه ... إنه لايوجد عندنا في عكا بيطار واحد، يسعف حيواناتنا، أما عند اليهود فحدث ولا حرج ..! غير أن نقل البغل الجريح، الى مستعمرة يهودية لمداواته، أمر مزعج لايمكن ان أقدم عليه ... وكأن البيطار وجد منفذاً في هذا القول للدفاع عن كرامته، فغضب وصاح قائلا: «يابيه .. ماعليش .. ما عايش ما عادش ينفعش العرب اليوم» .. كل شيء عل الفن يا روحي ..! روح داويه عند الكفار هلي ما بسموا بالله ... ماعايش يا أخي ... أنقلب الزمان وتغيروا الناس» ...

ثم أدار منكبيه، وترك الرجل وبغله مترددين حائرين، وعاد الى زاويته يصفح السنابك، ويجتر شتى الشتائم والسباب ..!

في باث كاليم

هل نغادر حيفا ولا نتمتع بسباحة في (باث كاليم) ..؟ إن كنا بالأمس سبحنا على الشواطئ الحرة ، دون قيد أو شرط ، فلنزر اليوم مسبحاً ، تحدث عنه الأجيال والمغامرون ، من كل صنف ولون ، حتى ذهب مثلا ..!

وسيذكر صاحبنا ماعاش ، تلك المعاملات القرطاسية الطويلة في تسلم واستلام حوائج السابحين ونقودهم .. فعليك قبل كل شيء ، وبعد دفع الأجرة ، أن تأخذ (فيشاً) مع عليقة ثياب وكيس ، لتضع فيها ثيابك وحذاءك ؛ وعليك ايضاً إن كنت رجلاً ، أن تدخل جناح الرجال ، دون النساء ، وإلا لكان ماتخشى عواقبه ولا فارق هنالك بين قسم الذكور وقسم الاناث إلا بعلامه عبرية ، لم يستطع صاحبنا — على ذمته — فك طلاسمها ، فاخطأت قدمه ، ودخل جناحهن ؛ وعالج باب مقصورة فأجابه ، وانفتح عن غادة عارية من كل شيء ، بلحمها ودمها ..! فسمر في أرضه وشده ، وتعلقت عيناه بموضع ما من جسمها لايزال يذكره حتى الآن ! وكان له خير زاد لأيامه العجاف . ولعله سها هنيهة وهو شارد تائه ، أمام ذلك الجسم العاري الشهي ، ثم عاد إلى نفسه ، وانحنى انحناءة المنهزم الخجول وردد بصوت منخفض ، تلك الكلمة التي تعلمها في طبريا : شالي ... شالي ..! (عفواً .. عفواً)

وكان يتمنى من كل قلبه أن يقيم الزمان والعمر ، أمام هذه الحجرة الدائقة التي لم تضطرب ساكنتها لمرآه ، ولم تخش عينيه ، حتى أنها أبت أن تزجره أو تنهره للاعتداء الصريح على جسدها الغض ، يلتهمه بنظراته الجائعة .. ولعلها حسبته من أهل الصدقة والاحسان ، فلا بأس من تركه لحظة بل لحظات ، يتذوق فيها مرارة الحرمان ، وخدعة السراب ، في صحراء الفتنة وظما الشباب .. وهي مع ذلك تحسب انه عبري وابن عبري ، ولو عرفته عربياً قحاً ، ومتعصباً أيضاً ، لكان لها معه

شأن آخر ، يجعله نادماً على خطئه المزعوم ، وفي ذلك بلاغ لقوم يعقلون ...

وعرج أخيراً على جناح الرجال ؛ وهنالك رأى الحجرات لا أبواب لها .. فأين العفاف .. وأين الشرف والحياء .؟ وهل كتب عليه أن يخلع عذاره أمام عباد الله اجمعين ؟ ولكنه صبر ، والتف بعطرف الحزم والتجمل - فجارهم مادمت في دارهم - وسلم ثيابه إلى الحافظ الامين ، وراح إلى المسبح ...

وكان طول المسبح أربعين متراً وعرضه عشرين . أما قاعه ، فينحدر تدريجاً حتى يصل إلى عمق مترين أو ثلاثة . وفيه منارة للقفز ذات ثلاث طبقات ، يصعد عليها بسلم . وقد ألصق بالجدار إنذار بلغات ثلاث ، تعني أن المسؤولية تقع على النافز وحده ، وقد أعذر من انذر ..وعلى جانبي البركة مدارج خشبية يستفاد منها في حفلات السباحة لجلوس المتفرجين. وفي مقدم البركة مقهى لطلب الراحة ، والتمتع باشعة الشمس . ولا تظنن أن الماء حلو سلسبيل .. بل هو ماء من البحر وإلى البحر تدفعه محركات نخمة.. وهنالك مشرفون على البحيرة ، ومعلمون لمن يريد التعلم وفي قسم آخر من المسبح بركة صغرى للأطفال ، قليلة العمق ، تراهم فيها يلعبون ويمرحون كأفراخ البط ...

وكان النهار مشرقا ضاحكا وقد انتشر السابحون والسابحات . والمستحمون والمستحمات كباراً وصغاراً عدد الرمل والحصى والتراب .

ورحنا نمتع البصر بهذه المخلوقات السابحة اللاهية ، ونتأمل العذارى وانصاف العذاري يمرغن اجسادهن بماء البحيرة . فانى نظرت وأنى التفت ،وقعت عيناك على جمال وفتنة وجلال

ولقد ابصر صاحبنا فيما ابصر ، حسناء (بولونية) مضطجعة على هامش البركة ، ترعى طفلها وهما يتراشان بالماء في البركة الصغرى ؛ وعليها (مايوه) مزدهر لعله صنع يديها ؛ لان تلك اليد ، أرادت ان تجعله مغريا فاتناً ، فابدعت فيه ووضعت في زيه كل مواهبها ، وخاصة جهة صدره وساقيه ، مما جعل صاحبنا (يحلق) فيها ، وكأنه لم ير في حياته لحما دافئا حيا ..! فقد اذهلته فتحة ال(مايوه) العليا ، لان فيها نهدين يتفجران شباباً دافقاً ، ويصرخان اين العطاشى

الظامئين .؟! وحتى تحت القماش اللين الملتصق بالجسم ، لرطوبة الماء وحرارة الجسم، استطاع صاحبنا (الملهوب) أن يتلمس بنظره الثاقب ، خطوط تلك القوام البديع بجميع تقاسيمه الفنية وتقاطيعه . ولقد اقسم يميناً غموساً . بأن هذا الجسد العبري يضطرم بنزوات الأنوثة وكأنه ينادي : حيَّ على المعصية ، حي على العصيان ..! وكنت أهدئ من ثورته ، وأدله على الكثيرات المضطجعات حول البحيرة ، وكلهن مثيرات ، مهيجات ، مقبلات ، دون أن يرعوي ، او يلتفت إلي ... وكأنه لم يشأ أن يقدر الفن ويمجد الخالق على ما صنع في غير تلك المرأة المدهشة .!

كان ذلك الجسد جسماً يسترعي النظر ..! ففي الشفاه الحمراء جمرات من نار، وفي النظرات شعل تتلظى وسهام لا ترحم ؛ أما خصلات الشعر المتناثرة الملتوية على الجبين ، فقد كانت منتفشة غير منسقة ، أشبه بخصلات امرأة ، خرجت منذ لحظة من بين ذراعي رجل ..! وهذا ما جعل صاحبنا (بولول) يخفرت كلما الى اليها أو إلى إحداهن،ويتعوذبالله كيلا تصيبه شرارة من هذا الجحيم . ورغم أن جسمه ركع خاشعاً بجوار تلك الكومة من الفتنة ، غير أن عقله الجبار قاومه ، ودينه التقي الورع دعاه إلى الفرار من الاغراء المكتسح . فكان يستعيذ بالله ، ويحوقل ثم يجلس صامتاً على حافة البركة ، ليستعيد ما شرد من ذهنه ، وما اضطرب من انفاسه . وفي هذا المسبح بدا لنا تعصب القوم لبني جلدتهم سافراً .. فعندما تعلم إحداهن أنك يهودي ، تقبل عليك بالابتسامات والسلامات ، أما اذا شعرت بأجنبيتك فيا للهول ..! فهي تعبس وتقطب بل تولي الأدبار . اللهم إلا إذا التجأت إلى نبي الله إدريس ، وهززت الكيس ، فدراهمك خير صلة وشيجة لربط القلوب والشفاه والأجسام ...

ولقد كن يخطئن كثيراً فيحسبنا من أبناء (شالوم) العزيز ، وأنصار الدين العتيد ، في المسبح أو في لباس (الشورت)والزي الاوربي البحت .فكن يتهافتن علينا كالذباب . ولولا أن صاحبنا هادئ كتوم يحسن التظاهر بكل دين ، ويلبس لكل حال لبوسها ، مما أرغمني على ذلك النوع من الاحتيال على عباد الله ، لما استطعنا

أن نظفر بدغدغات خدود ناعمة ،(وبيجامات)أرخص من رخيصة ،وسهرات صافية (ومشاوير) في ظلال القمر ، وخطيبات كثيرات مجانيات ..!

مقعدان خاليان — في بار

لم ننس قبل مغادرتنا (حيفا) أن نسهر في مقهى على ذروة الكرمل لنفرغ لصاحبه جميع زجاجات الويسكي والبيرا . فقد كان صاحبي مولعاً بالحساء ؛ وعلى طريقته ، فهو يعتبر كل سائل حساء يغتسل فيه ، ويفت فيه الخبز كما يفت بالثريد ، ولو أدى ذلك الى نزاع بين جيبه ونفسه . وهي ليلة في العمر نسمر فيها تحت النجوم الوجراجة ، والمصابيح الملونة ، وبين الزهر والورد وأنغام الجاز ، أمام المتراقصين اللاهين ، وبجانب الساهرات الناعسات ؛ ونطل على البحر البعيد القاتم حيث المنارة تشير وتتألق شعلة من نور ونار ، وتحت قدميك مدينة تهجع في نقاط من الاضواء منبثة في كل مكان ؛ وهي ليلة مع الاخصام اليهود ، جديدة في كل شيء وجميلة في كل شيء ، نظافة وترتيباً وهدوءاً وفناً .

ولقد لجنا السكون عن الهمس والكلام ؛ فكنا صامتين كأننا في حفل ديني وإذا كانت الفوضى تجر الفوضى ، والشغب يلد الشغب ، فان النظام يقود حتماً الى النظام ؛ وهذا ما يشعر به المرء في هذا المقهى . فهل هذه الحال موجودة في كل مكان . . ؟ إذن فلنغادر (البار) إلى آخر ولننحدر الى الهدار لنزور (باراته) ومقاهيه، ونطوفها واحدة فواحدة ؛ فاذا بالشيء ذاته، وإذا بالسكون مخيم والهدوء شامل . . أبداً لن تسمع هناك طقطقة « الشيش بيش » ولا أصوات الخدم تلعلع « تنين شاي » « واحد أهوة »ولا قرقعة صحون « النارجيلة » . . . « بصة نار » « ثلاثة تنباك » . . !

وجل ما هنالك ، طاولات منثورة بنظام ، وستائر ناصعة ، ومجلات مجلدة مرصفة على الموائد ، وجرائد على حوامل خيزرانية ، تمسكها بها فلا تنثنى ولا تزعجك بخشيشها ؛ وخادم أنظف من طبيب الحي ، يهمس بالطلب همساً ،ويكلمك

بادب ، لا يختلف عما يحادث به الوزير أو الأمير ؛ وسيدات ذ ليفات رصينات ، وأنغام موسيقية علوية ، تحملك في هذا المقهى المحفوف بالورود والاشجار تسبح في عليين ، وتنسى هموم الدنيا ولو الى حين .. !

ولم يرض صاحبنا عن هذا المقهى وعن هذا الوضع ، ولم يعجبه القوم ، وعدهم لايفقهون الحياة والحرية ؛ فأين هم من رجال الشام . ؟ ونراجيل الشام . ! وصياح الشام .. ؟ فهنالك تتكلم بحرية فتصيح ، وتصرخ ، وتصفق ، وتبصق في أي مكان؛ وهنالك تحادث مع من تعرف ، ومن لا تعرف ، بالسياسة والادب ، والأخلاق أو الدين أو المجتمع أو السوق التجارية السوداء والبيضاء ... وهلم جرا ...

وهنالك الشراويل الفضفاقة ، والقفاطين المريحة ، والكراسي القش ، والطرابيش والعمائم ، واللحى ، والشوارب .. ! أبداً لم يعجبه كل ذلك ، وعده سماجة ، وبلادة وخموداً ...

فصاحبنا يحبذ كل قديم في بلده حتى لكأنه سجل في حزب المحافظين قبل ان يولد ؛ فهو من ألد أعداء تغيير المبادئ على طريقة تغيير الاحذية .. !

كل ما في بلده جميل وطبيعي ، يحبذه ويشمئز من غيره ، فهو مولع بالشرق ، ويرتعد عندما يتجه في طريقه نحو الغرب ، حتى انه اغلق جميع نوافذ بيته وأبوابه الغربية ، وان جملاً يسير الهوينا بخطواته الرتيبة على رصيف الشارع ، لخير عنده ألف مرة من سيارة ملعونة تثير الغبار ، وتحرم عليه لذة التمتع بجمال الطبيعة .!

فهل هو جالس في مقهى أم مقبرة ليصمت هذا الصمت الرهيب . ؟ وهل هو في حاجة الى القراءة والمطالعة في هـذا المكان ؟ .. إن أصحاب العقول بخير .. !

لقد كان يرى في بلده ، جميع من درسوا في اوربا وغيرها ، وتأبطوا شهادات الدكتوراه والليسانس ، لايقرؤون بعد عودتهم ، ولا يطالعون الاقليلا؛ حتى أصبحوا بعد سنين معدودة ، كالأميين عقلاً وتفكيراً ؛ ولكنهم مازالوا كجندي قديم يعتز باوسمته ، ويرقد على حساب بطولاته فيتيهون فخراً لحملهم الشهادات والالقاب الجامعية ؛ حتى لقد غدا هؤلاء المثقفون علماء يشار اليهم بالاصابع

الخمس أو العشر في المحافل والمجامع ، في الشرق والغرب ... وأصيبت مطابعنا بتخمة علمية ، وعجزت عن طبع المؤلفات وبنات الافكار التي غمرت الخافقين ...

فلم الدراسة آناء الليل واطراف النهار ؟ ولم تعب الفكر والبال ؟ فالدنيا أضيق من أن نضيعها بالحرث والبحث ، والتأليف والتصنيف ؛ واليوم عمر ، وغداً أكبر .. !

لا . لا ! لم يطرب صاحبنا لهدوء القوم ، وتنعمهم ومرحهم ، وتذكر موطنه وشارع بغداد ، وبائعي الكازوز والذرة المسلوقة والتبن ، فكاد ينفجر حيناً إلى هاتيك الربوع ، لو لا أن تماسك بجلد معلم ابتدائي ، وصبر مدير بين معلمين مشاكسين مهضومين ...

ثم قام يتحامل على نفسه ، بعد ان دفع الاجر ، وظل يحسب ما بقي له بالقروش السورية وانصافها ، خشية تدهور ميزانيته ، وانقطاعه في هذا البلد ، كما ينقطع حجاج بيت الله الحرام في مكة ، والحجاز ونجد ، وما وراء الرياض ؛ مع الفارق بأن هؤلاء الاتقياء الصالحين تساعدهم حكومتنا لنيل المقصد ، وشرف العمل ، أما نحن فقد نموت جوعاً ، ولا من يسأل .. ولكن الله أرأف بعباده المخلصين ، فلقد أيقن صاحبنا أن التوازن قائم في ميزانيته ، وانه لن ينهزم ولو دخل مئة مقهى وزار جميع ملاهي المدينة ...

في طريق زمارين

ثاب صاحبنا الى رشده ، وآلى على نفسه ان يقلع عن غيه وغرامه ، ليشد رحاله إلى المستعمرات الصهيونية ، كما رحل السندباد بالأمس ، إلى مدينة النحاس على فرسه المسحور ..!

وعاد إلى مصوراته وكتبه وملاحظاته ، يستمد منها العلم والهمة والالهام ، ويدرس التفاصيل ، وما في الزوايا والخبايا ، كقائد حربي على ابواب معركة ..

وكان من تباشير الرحلة أن التقى بشاب يعرفه ، كان تلميذاً له في سابقات الايام ، وهو الآن من طلاب « شفيا » ، القرية التي نقصدها عن طريق «زمارين»

ومن الاعتراف بالحق ،نسجل للطالب بانه أبدى ضروب الاخلاص والنجابة والتفاني ، في تقديم الخدمات ، ولو كانت صغيرة ؛ مما جعل الاستاذ ينسى اتعابه الماضية في تعليم طلابه ، ويجد في ذلك خير الجزاء .. ولن يكون هذا الموقف، الأول والاخير ، بينه وبين طلابه ، فكلهم بالفضل معترف مقر، وهذا لعمري وفاء تضرب به الامثال ...

فلكم عنينا وعلمنا الكثيرين ، دون ان (يتنازلوا) ويسلموا احياناً على أولئك الصنف من البشر الذين يقال لهم : معلمون .. أولئك الذين يهذبون النفوس ، ويخلقون النفوس ؛ فقليلا من المودّات أيها الجاحدون . !

وأخيراً قدم له التلميذ كل التعاليم والشروح الكافية الوافية لرحلته ، ولم يودعه ، إلا والسيارة تتحرك ، لتغادر حيفاً .

كانت الطريق جميلة ، تتلوى في أسفل جبل الكرمل ، وتحاذي الشاطئ اللازوردي،وهي مفروشة بالاسفلت، كاغاب الطرق في فلسطين؛ مما جعل المواصلات سهلة مؤمنة منظمة ، ولعل الفضل الاكبر في ذلك يعود إلى شركة السيارات الصهيونية

الكبرى (إيجد) - بالجيم المصرية - فسياراتها تعمل على كل طريق ، إلا في اتجاهي خليل الرحمن ، ونابلس العربيتين ...

ولن ترى في الطريق سوى رتول السيارات ، بعضها في اثر بعض ؛ ويستطيع صاحبنا أن يجزم بأن كثافتها بين حيفا وتل أبيب ، أكثر بكثير من كثافتها في أعظم ساحات مدينة دمشق .. !

كنا بازاء بحرين بحر أزرق ، لاتدرك نهايته ، وبحر أخضر من الحقول الزمردية ليس لها آخر .. وكلها من صنع الصهيونيين،لعشرين سنة خلت .ويقرر القوم بانهم سيجعلون هذا الشاطئ عامراً بالمزارع والحدائق ، زاخراً بالمصانع والمعامل ، آهلاً بالسكان المستعمرين ! وذلك جزء من برنامجهم الواسع ...

ليس بالخبز وحده يحيا الانسان :

كان أمام كل محطة من محطات السيارات ، باعة للصحف والمجلات والكتب . وكما يتزود المسافر إلى القطب ، بطعامه ولباسه ووقوده ، كذلك يتزود المسافرون الصهيونيون ، بما يقرؤون ويدرسون فكل يلتهم جريدته ، أو مجلته ، أو كتابه ؛ ولا حاجة إلى تطبيق النظريات الامريكية في الاعارة والتأجير ، كما يفعل الكثيرون ممن يعرفهم صاحبنا ...

وإذا كانت المعرفة سيادة ، وهل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فمن العجز ألا نعتقد أن القوم وضعوا يدهم على سر من أسرار القوة ، سهل نواله عظيمة نتائجه ؛ ولقد تجد مع الشخص الواحد صحفاً بلغات متعددة ، حتى أن أطفالهم يقرؤون صحفهم الخاصة ، وكتبهم وفي ذلك غذاء للنفس ، وثقاف للعقل !

فأين القوم منا ونحن نسافر في سيارة أو قطار . ؟ حين نضيع الوقت الثمين في التفرج على الطريق من الابواب والنوافذ ، أو في الاحاديث التافهة الرخيصة ، أوفي (الأكل) وخاصة أكل (البزر) اللعين . ؟ !

وسأل صاحبنا أحد المسافرين العبريين بالفرنسية عن عدد الجرائد العبرية ،

فأجابه : إنها كثيرة ؛ وفي ازدياد دائم ؛ وهي صباحية ومسائية ، ومنها ما يطبع مرتين في اليوم ، وعندنا مجلات دورية ؛ أدبية وعلمية وفنية وفلسفية .. وقد ثبت في احصاء رسمي أن لدينا في فلسطين (٩٢) جريدة ومجلة عبرية .. ! وهنا التفت اليّ صاحبي وقال : بينما لا يوجد لدى العرب أكثر من تسع جرائد او عشر . ! وتابع الصيهوني قوله : وتصدر بعضها بالعبرية كجريدة : (دافار)لسان حال العمال و (هابوكر) و (هاٴريتس) وبعضها بالانكليزية (كالبالستين بوست) وبعضها بالعربية (كحقيقة الامر) التي تصدرها في تل أبيب النقابة العامة للعمال اليهود في فلسطين والمدعوة (بالهستدروت) ؛ وهي جريدة اسبوعية مصورة ، لنشر مبدأ الاخاء بين الشعبين اليهودي العربي ، كما جاء في الاعلان عنها — على ذمة الراوي الواهية — الذي شكره صاحبي وعاد يحدثني ...

ألا ترى هذا البون الشاسع بيننا وبينهم ..؟ إذا كانت الصحافة هي السلطة الرابعة في الدولة ، وهي ذات الاثر المبين في التوجيه ، ونشر الدعوة ، وبث الشكوى والتحريض على العمل وتنوير الاذهان ، وتثقيف الشعب ، فما اجرى اخواننا عرب فلسطين ، بمضاعفة الجهد في هذا المضمار . نعم ، إن مجلاتنا وجرائدنا في ازدياد ، وتبشر بمستقبل زاهر ، ولكن خير البر عاجله ! وهل ينكر احد ما أسدته جرائد فلسطين الكبرى : فلسطين ، والدفاع ، والحرية ، الى القضية العربية وتلك المجلات الطبية ، والتجارية ، والرياضية والسينمائية والادبية ، فهي كلها أزاهير فواحه تحمل رسالات طيبة الى العالم العربي .

انا بحاجة إلى عمل في جميع آفاق المعرفة ، كما يفعل هؤلاء الصهيونيون ، الذين لا يكتفون بنشر آثارهم ، بل راحوا يترجمون أرقى الادب العالمي ، والآثار الخالدة إلى لغتهم . وهم في جهاد مستمر . ويكفي أن اذكر — ولو كان المثال قديماً — ان عدد الكتب العبرية التي صدرت سنة ١٩٣٣ — ١٩٣٤ كان ٣٤٩ كتاباً ، والانكليزية ١١ كتاباً والبولونية كتابين والأرمنية ٤ كتب ، والألمانية كتابين ، أما العربية فكانت ٣٢ كتاباً فقط ..!

ووقفت السيارة ونزل بعض الركاب فلفت نظر صاحبنا لوحة في مخرج السيارة كتبت بالعبرية والانكليزية فقط وترجمتها : هل نسيت شيئاً داخل السيارة ؟، نعم هل نسيت شيئاً داخل السيارة ؟ فذكرته هذه الجملة بتذكارات توضع في وسائل المواصلات في بعض اقطارنا الحبيبة : احترس من النشالين .! انتبه الى دراهمك .! فكأن الانسان مهدد بلصوص شيكاغو ، كل حين ...

وعلى ذكر الاعلانات ، يذكر صاحبنا أن بعضها كان مضحكا مرشيا . فترى سيارة كتب داخلها : (دخون محذور) أي : التدخين محظور (ممنوع) . واخرى كتب فيها : ممنوع مد الرأس من الشباك ... والمقصود الشباك ولا شك ؛ وهناك يافطة جاء فيها : طبيب أيون .. أي طبيب عيون .. ورحم الله القائلين : الملمو نورن ، والسلامو عليكو ..

وكانت السيارة (باصاً) صهيونياً ، وقد امتطاها العرب واليهود معاً .. بيد أن مايشاهده المرء ،والأسى يحز فؤاده ، أنه لايكاد يصعد العربي ليأخذ مكانه ، حتى يرمقه الراكبون الصهيونيون شذراً ، وكل منهم يتمنى ان لايجلس بجانبه .. وقد ادرك صاحبنا ان كثيرين من العرب يشعرون بذلك ، فيتحاشون الدنو من اليهود وقد يظلون واقفين في الممر دون حراك ..! أما النساء اليهوديات فيبرمن بالعرب اكثر مما يتخيل الانسان ، لانهم يزعجون خصلات شعرهن بالبستهم الفضفاضة فتنتثر على الجبين وتقلب حينئذ الشفاه اشمئزازاً ...

زمارين تترد

هانحن في زمارين ، أو (زخرون يا قوب) كما يسمونها أيضاً ، ولزخرون هذه تاريخ مجيد في سجل الصهيونية ..! ففيها عقدوا أول مؤتمر في فلسطين عام ١٩٠٥ ، لبحث القضية الاستعمارية الصهيونيه ..

وبينما كانت أيام الأتراك محطة للقطار ، على هامش الطريق ، مهملة منسية ، تراها اليوم قرية عصرية ، ذات شوارع واسعة مفروشة بالاسفلت ، وقد غرست

الاشجار على جانبيها ، وملأت رحابها غابات الصنوبر . وفيها حديقة عامة ، تمنى كثير من بلداننا ان تحظى بمثلها ؛ وهي منارة بالكهرباء ، ككل قرية صهيونية !

وليس معنى القرية عندهم الابتعاد عن المدنية ، وبناء الدوريين حظائر الدواب، والشرب من المياه الآسنة التي ترتادها جميع حيوانات الله .! لا ، لا ، فكل بيت في هذه القرية مستقل عن أخيه ؛ فله حديقته وأزهاره وأطياره . وله نوره وماؤه وسماؤه ... وفي القرية دار للسينما ، لانها كما علمنا ، من ضرورات الحياة لديهم ، كالماء والهواء .. وغفر الله لمن لازالوا يتناقشون هل الشريعة تحظر أو تبيح مشاهدة السينما ، أم لا ..؟ وهم عن أعنف الفرائض معرضون ..!

ولقد تمر بأحد الاقضية في بلادنا ، ولا تجد لنفسك فندقاً تأوي اليه ، مهما عظم شأن القضاء ،لان هنالك كرماً عربياً محموداً ، وضيافات لانزال نتغنى بها ؛ دون أن نتذكر بأن العصر انقلب ، واصبحنا بحاجة إلى اساليب عملية اكثر من ارتياد المضافات ودور المخاتير ، ليكون الانسان حراً موفور النشاط والحركة ؛ فهناك في هذه القرية ، مصرف وفنادق وبارات ومقاهي ومحطة للسيارات ومخازن تجارية كبرى ، وفيها كل ماتشاء وتهوى ...

وهل ننسى تلك الاشجار العالية ، من صنوبر وأوكاليبتوس وسرو ، اسبغت على القرية جمالا ، ولطفت هواء ومناخا ، دونه لبنان وعرنة ويبرود ، حتى غدت القرية مغاني وجواسق !.. وانتشر الاهلون من شباب اسرائيل بسراويل (الشورت) والقمصان الرياضية ، أما النساء فظهرن (بمايوهاتهن) وأثوابهن القصيرة ، عراة من كل عائق ساتر .. جلسوا حول موائد الافطار ، زرافات ووحدانا ، ذكوراً وإناثاً في حدائقهم ، وفي ذلك الجو الساحر ، يشملهم هدوء عميق ، وطمأنينة منعشة ، يسبغان عليهم السعادة والنشاط ..!

وإذا ... كانت السعادة قوة ، والمرح قدرة ، والسرور استطاعة ، فهل تخيل أيها القارىء ، كيف يعمل هؤلاء القوم وكيف يتضاعف انتاجهم .؟ وهل ستكون حصالة عمل هذا الصهيوني في حقله، كمحصلة ذلك العربي اليائس القانط الكئيب..؟

ان المدينة استغلت كل ينابيع الثروة في الطبيعة .. وإذا علمت أن المرح في في النفس ثروة دونها مناجم الذهب ، وأن من احسن استغلالها وضع يده على مفاتيح كنوز لاتنضب ولا تغيض ، أدركت عندئذ سراً من أسرار تفوق الصهيونيين ..!

فأي عامل أو زارع يتناول طعام صباحه تحت انغام الراديو ، وابتسامات الساحرات وأحاديث المتحضرين الشهية ، وفي هذا الهواء الطلق والنور الوضاح وفي ظلال هذه الاشجار ، التي غرسها بيده ، وتعهدها بقلبه ، وسقاها من عرق جبينه ... أي عامل أو زارع يتناول طعامه هنا ، ولا يعود إلى معمله أو حقله ، عامر القلب ، ثابت القدم ، يستقبل الايام بالسرور ويودعها بالحبور ، ويبذل من ذات نفسه كل ما يستطيع ، في سبيل القضية التي كرس حياته من أجلها ، وبذل نفسه في سبيلها ...؟!

وقف صاحبنا يتأمل هذه المناظر ، بل هذه (السيمفونية) الريفية الزاخرة بالحيوية والنشاط وقال : أنا أعتقد بايمان راسخ أن هذه القرية لم تخلق بين عشية وضحاها ؛ بل بالعمل المتواصل والسعي المستمر الواعي ، ووضوح الهدف ، وروح التضحيه ؛ وما ضر اخواننا العرب لو سلكوا نفس المسلك في قراهم ، ليصلوا إلى النتيجة نفسها ؛ نعم ، لن تقوم لنا قائمة الا بالاتحاد والاخلاص ، ويد الله مع الجماعة؛ وإن بيتاً يليق بالكرامة الانسانية ، يأوي اليه فلاحنا العربي وعائلته ، لن يجشمه كبير عناء إذا حاول بناءه كبيت جاره اليهودي ؛ وحبذا لو تألفت الشركات التعاونية لهذا الغرض ؛ وهي التي أثبتت كفاءتها فى شتى الميادين .

وهل تحسبن الصهيونيين يستطيعون بناء أمثال هـذه القرى لو عشش الجهل في افكارهم وباض وفرخ . لا ، ثم ألف لا ... مادام العلم رائدهم وشعارهم ، وهم الذين أخضعوا جوانب حياتهم لآخر ماوصل اليه العلم الحديث .فطريقنا واضحة ، ومن سار على الدرب وصل .. أما أن يحيا بنو قومنا عراة الاقدام ، حفاة العقول، فهذا ما لم نسمع به في زاوية من زوايا الارض ..!

فيا زعماء العرب ، ويا أغنياء العرب ، ويا مفكري العرب ، الى البذل والعمل والتنظيم ، الآن وقت النضال والكفاح ؛ ووضع مائدة خير من ألف قول : تفضل ؛ والدهر لا يرحم ، وفلسطين وديعة الآباء والأجداد في أعناقنا ، فلنسلم الوديعة كاملة الى احفادنا ، وحذار ان تتكرر مأساة الأندلس كرة اخرى ..!

تلك هي ارادة الحياة ، والوعي الوثاب لمجاراة قافلة الأحياء ، وويل لشعب لا يتحرك ، فيفوته القطار ، في عصر كل شيء فيه قد تحرك حتى الجماد ...

وصمت صاحبنا ؛ وها هو ذا يقصد مخزنا يبتاع منه السكاكر والشوكولا ، لقدماء تلميذاته وتلاميذه واترابهم في (شفيا) .. وإذا كانوا هنالك واجدين كل مايشتهون ، فمن البر بأولئك المغتربين ، أن يقدم اليهم هدية بسيطة في مبناها ، عظيمة في معناها .. وهي فوق ذلك خير لهون له على استقباء الاخبار والترحاب ، والمثل يقول : (طعمي التم تستحي العين) ، وهي رمز لطيف لعهد قديم رسخت أصوله بين معلم وتلاميذه ، ولئن قالوا قديماً : (ان كبر ابنك خاويه ..) فاني قائل : إن كبر تلميذك أو تلميذتك ، فصاحبه، وإنك لواجد في ذلك صداقات بريئات خالدات..

وما ضر صاحبنا لو استغل هذه القلوب النقية المخلصة ، في صالح قومه ؛ فيتفهم الاسرار من ينابيعها ، ويعمر صدر كتابه ويملؤه مادة وفكراً ، عله بذلك يسعف اخوانه العرب ، او يقوم ـ على الاقل ـ بقسط بسيط في سبيل خدمة قضيتهم .!

شفيا ـ معقل صهيوني ...

من روابي (زخرون) ، تشاهد مباني (شفيا) وسقوفها الحمراء ، وهي جاثمة وراء الاشجار والادغال ، والهضاب المكسوة بالاعشاب كالزمرد ...

وكلا القريتين يقوم على رابية ، وبينها واد سحيق خصيب ، لاترى فيه العين أبداً أرضاً جرداء ، أو قفراً بلقعاً ...

وأما الطريق فطويلة ، مرتفعة ومنخفضة ، تسترها طبقة الاسفلت حيناً ، والاحجار المرصوفة أحياناً ، وكانت الاشجار تكتنفها ، فلا تغادر ظلاً إلا لتنتقل إلى آخر ، وتهمس على طرفيها تحت الاعشاب والازهار مياه ثارة ، بالحان لايدركها إلا عشاق الطبيعة المعاميد ...

وهنالك في تلك البقاع النائية ، مررنا بمعمل المشروبات الروحية ، علمنا فيما بعد ، انه أكبر مصنع للخمور في الشرق الادنى ، وأن منتوجاته تكفي فلسطين وتؤمن مطالب الجيش البريطاني ؛ ويصدر مافاض عن الحاجة إلى خارج البلاد ..

وهذا المعمل واحد من عشرات عشرات المعامل الصهيونية التي حازت قصب السبق في انتاجها ، وهي موزعة في أرجاء فلسطين .!

فهل جاءك نبأ معمل (نكيف) قرب طبريا ، ذاك الذي يسد حاجيات فلسطين بمصنوعاته الخشبية ، ويغمر الاسواق في البلاد المجاورة ..؟ وهل تذكر معامل تكرير البترول ، والاسمنت ، والمنسوجات ، والعقاقير الطبية والكونسروة ومئات المصانع المختلفة ، التي تتسلح بها حياة الصهيونيه الاقتصادية ؛ فلا سبيل إلى قهرهم الا بمثل هذا السلاح ..؟!

أجل ! هنا يذكر الانسان سلاح المقاطعة الرهيب ، الذي ترتعد لوطأته فرائص

الصهيونية ، فيقض مضجعها ، وتجد فيه معولا هداما لأمانيها واحلامها ؛ ولئن استطعنا استعمال هذا السلاح الناجع ، بثبات واستمرار ، في سائر اقطارنا العربية — وهو امر في مقدرتنا — فسنهزم العدو الغاشم ، دون ان تسيل الدماء ، او نفقد الضحايا ؛ وخلاصك في يدك يا إسرائيل ..!

كان الجو حاراً قائظاً ، والعرق يرشح بغزارة من اجسامنا ، وكان يحمل امتعتنا حمار هزيل ، يقوده عربي من ابناء جلدتنا ، لم يستطع هضم زيارتنا الصهيونيين ، ونحن ننطق مثله ، بلسان عربي ؛ فعبس وتجهم وجهه حتى كاد ان يكشر عن الانياب ... !

فهل ساءه ذهابنا ، حتى اربد وجهه وأرعد ، أم سرته تلك القروش التي سيتناولها بعد قليل مع سابق إصرار على كثرتها ومضاعفتها .. ! ؟

لم ينس ان يحدثنا عن بطولات العرب في الثورة الفلسطينية ، وكيف أنهم كادوا يلقون أعداءهم في البحر ، لولا .. لولا نشوب الحرب العامة الثانية ... و(خاطر) تدخل الدول العربية ، لنصرة القضية الديمقراطية . !

وعندما حدثنا عن مغامراته ، وأنه جندل لوحده ثلاثة من أعدائه ، في هذا الوادي الذي نحن فيه ، خامرنا الحذر ، وخشينا أن يحسبنا بقية باقية من ضحاياه ، فأسلمنا أمرنا الى الله ، وجعلنا نردد على مسامعه آي الذكر الحكيم ، وأحاديث الجهاد وأشعار العرب في القتال والنضال ... وأننا الآن في هدنة موقتة مع هؤلاء (الصهاينة) وما زلنا به حتى زال عبوسه ، وعاد إلى وجهه اطمئنانه ، فرجعت حينئذ قلوبنا إلى قواعدها بعد أن هبطت إلى أسفل الحذاء ..

وعند ما بصر بنا أول سكان (أشفيا) ودوي صوته من وراء الاشجار : اهلاً وسهلا بالاستاذ ... وميت أهلا وميت مرحباً . ! حمدنا الله على السلامة وتنفسنا الصعداء .. !

وإذا كانت ملامح الوجه ، وحركات الجسم ، ونبرات الصوت ، تعبر بأجلى بيان عن مكنونات الفؤاد ، وخفايا النفس ، فان في الانشراح والرضاء ، والابتسام

الـكاسح ، والمرح الشديد ، الذي تفجر على وجه ذلك الشاب ، التلميذ السابق ، لما يثلج الصدر ، ويملأ رحاب النفس سروراً ، ويجعل من أشد المدلمين تشاؤماً ومتفائلاً من الطراز الاول ...

كان الشاب ماضياً لعمل ندب اليه ، ولكنه ما كاد يرانا حتى منح نفسه إجازه موقته ، ليكون لنا لجنة استقبال وتكريم ، تليق بقدومنا المفاجيء الميمون ... فسار معنا دليلا ومرشداً ، يحدثنا ، وكأنه يود فى لحظات قلائل ، أن يفرغ امامنا كل ما اكتسبه من خبرة ومعلومات ،في سنواته الخالية ...

وللمرة الاولى التقينا بفتيات المستعمرات وقد لبسن القمصان (الخاكى) ، التي تكشف عن سواعد مفتولة ، وتنم عن نهود صلبة ، بارزة قليلا ، تبرهن عن وجودها ، أما سراويلهن ، فزرقاء اللون قصيرة جداً ، مزمومة من نهايتها ، تكشف عن الافخاد والسيقان ، ولا تستر سوى العانة .. فترى إلى أعمدة من اللحم المقمر ، وقد لوحتها الشمس ، كما لوحت وجوههن وأذرعهن ... ولعل العمل في الحقل والمصانع ، خلق من هؤلاء الفتيات أجساماً رشيقة ، (اسبور) بكل معنى الكلمة ، ربما كانت مقبلات ومرفهات للعاملين في تلك الاماكن النائية ...

ومما يلفت النظر ، تلك الوجوه الضاحكة المستبشرة ، التي ما كدنا نسأل عن سرها حتى قيل لنا: لكل إنسان في الحياة شعاره ، وشعارنا جميعاً : اضحك يضحك لك العالم ؛ فلا سحب من الـكآبة تغشى وجوهن ؛ ولا قنوط ، ولا يأس ، بل أمل وثاب ، يحفزهن إلى الواجب المقدس ، الذي آلين على تحقيقه مهما بذلن من نفوس غالية في سبيله ...

ذكريات حبيبة

لم نكد نجلس في ردهة الاستقبال الكبرى ، حتى وافتنا وفود قدماء تلاميذ صاحبنا ، وتلميذاته ، وأترابهم ؛ وكلها وجوه يعرفها ، وأجلها ... أقبلوا يحيون استاذهم ، ويهنئونه بسلامة الوصول ، بألفاظ بريئة ساذجة ، بعدت عن الزخرف والطلاء — الذي يتقنه الكثير في ربوعنا — لانها صدرت من صميم الطبيعة التي يحيون فيها ... !

وغمر الجميع جو عائلي من الفرح والسرور ، فليس هنالك معلم وتلاميذ ، بل اخوان وأخوات ..! وانهالت التحايا، وضروب الترحيب البري، وراحوا «يتساقون التذكر » كما يقول الشريف الرضي ؛ فذكر الجميع أهليهم وحيهم المرموق ، ومدينتهم المحبوبة دمشق ... ذكروا مغانيها ، واستعرضوا صيفها وشتاءها ، وعاودهم الحنين إلى الوطن — رغم تصبيهم — حيث الخلان والأهلون ، وحيث تقف الواحدة أو الواحد منهم ، أمام (الفيجة) فيعب منها بيديه ماءً قراحاً سلسبيلاً ، يتمنى رشفة منه الآن ، في هذا الحر الشديد .. !

وأديرت السكاكر والشكولاه ، وغرق الحاضرون في لجة من الذكريات العذبة ، ذكريات التلمذة والطفولة ، وهي عزيزة على النفس ، مفرحة للقلب ... فأين أهلوهم الآن . ؟ أفي الربوة ، أم شارع بغداد أو في شارع السبع بحرات خضوري أم في حارات الحي الضيقة المظلمة .. ؟ وأين هي المعلمة فلانة والمدير علان .. ؟ وكيف حال المدرسة ، هل ستبقى مغلقة ، أم سيعود رفاقهم إليها ، بعد حوادث أيار المشؤومة ..؟ !

غداء شائق

وفيما نحن كذلك ، قرع المنبه الكهربائي ؛ فلم نفهم لقرعه معنى ؛ حتى دعانا الجميع إلى الغداء ، دعوة بسيطة لا أيمان فيها ولا أقسام . فذهبنا إلى حجرة الطعام يواكبنا فتيات وفتيان يغمرهم مرح شديد ...

وكان المطعم جناحاً خاصاً من المدرسة ، تقع في مستهله حجرة لتنظيف اليدين بالصابون والماء البارد والحار عند اللزوم. أما بهوه فواسع الأرجاء. أبيض، يغمره النور من نوافذه العالية الواسعة العريضة، ويتجدد الهواء منها دوماً ، حيث ينفذ إليه من خلال (المناخل) التي تسترها جميعاً ... وفيه مقاعد تكفي جميع سكان الميتم أو (المفرخة) كما أراد أن يسميها صاحبنا ، كبيرهم وصغيرهم، أساتذتهم وإناثهم، يجلسون معاً دون تفريق يوجب الحقد والضغينة ، بل على العكس ، فان ذلك يوحي بالمساواة والديمقراطية الحقة .

وكانت الموائد كبيرة نظيفة جداً ، تتسع لستة اشخاص على الطرف الواحد ؛ ويجلس على رأسها أحد العمال أو كبار الطلاب أو الطالبات ، ليشرف على النظام وتوزيع الطعام ... !

أبداً لم تثر فضول أحد ، وقلما حدق فينا تلميذ أو رقص حواجبه وجفونه عامل او أستاذ . ولقد أسرع صاحبي مع تلاميذه إلى مقعد ، كاد موزع الاطعمة أن يدنو منه ، ولحقت به خيفة أن أبقى وحيداً غريباً ...

وما أن توسطنا الجمع على المائدة المستطيلة، حتى وقعت أبصارنا على معروضاتها الشهية بالنسبة إلى مسافرين، قطعا مسافات واسعة مشياً على الاقدام، ولم يذوقا طعاماً منذ الصباح الباكر . و (حلّ) صاحبنا حزامه ، ونظر إلى اللحوم تطل مع الخضر من صحونها ، نظرة ذلك الاسباني الجائع ، الذي قيل في إحدى القصص : إن فخذ الضأن كانت تنكمش لنصف حجمها الطبيعي لمجرد النظر اليها .. !

وكان سكان المؤسسة يخدم بعضهم بعضاً بالتناوب ، فها هو ذا أحد العمال يوزع الصحاف ، فخذ منه ما تشاء دون حساب ؛ ولكن إذا علمت أن كل فرد من الجالسين ، يعتبر هذا الطعام ملكه ، فلا إسراف ولا تقتير ، أدركت السبب في اقتصاد القوم المنظم ، واهتمامهم بعدم التبذير .! !

ولعل الطعام كان منافياً لأذواقنا في بادئ الأمر ، غير اننا كنا كالذئاب الضارية جوعاً ، فهجمنا عليه ، تغوص أناملنا في الخبز ، وملاعقنا في الطبق حتى

استغناه . لأنهم يقدمون الطعام دوماً بعد دراسة علمية ، حسب حاجة الفرد (للفيتامين) والمواد الضرورية على الطريقة الحديثة في التغذية ..!

وقبل الشروع في الطعام ، وقف تلميذ صغير فصلى صلاة قصيرة بالعبرية ـ طبعاً ـ أنصت لها الجالسون ثم بدؤوا بالطعام باشارة من المشرف العام ... وكانت الصلاة كما ترجمها بعضهم شكراً للمولى على ما أنعم به عليهم من خير وبركة في الأرض المقدسة ...

ثم أكل القوم بهدوء وأدب وصمت . أما الماء فتخلو منه الموائد ، وعندما افتقده ابن الشام والفيجة ، جلبوا له ماشاء ، وأعلمونا أنهم اعتادوا إهماله ، والاستعاضة عنه بالشاي أو عصير البرتقال ...

وقام الصبي ثانية فصلى وشكر الله بالعبرية ؛ وانتهى الطعام وهممنا بالانصراف لولا أن قدمنا التلاميذ لأحد الاساتيذ ـ الدكاترة الفلاسفة ـ وعرفوه بنا فسر كفرحة الغريب بالغريب ثم اعتذر عن ضيق وقته ، ودعانا إلى منزله في الساعة الرابعة لزيارة خاصة ...

ميتم لصنع الشباب الصهيوني

أو تدري بماذا تذكرك كلمة (شفيا) ..؟ ألا ترى أيها القارىء أنها لفظة مشابهة لكلمة شفاء بالعربية ..؟ وهي كذلك حقاً بالعبرية .! وتلك لعمري تسمية صحيحة لها ، لان هذه القرية جديرة بان تكون مصحاً ، لعذوبة هوائها ومناخها ، ولعل ساكنيها لايشكون مرضاً رغم جهادهم الطويل ، في التعمير والتحسين ..!

وأصل المؤسسة ، ميتم لأبناء الطائفة الاسرائيلية ، ممن فقدوا ذويهم ومعيليهم في الشرق او الغرب . ولكن خشية تشرد بعض الاطفال الفقراء ، والحاجة إلى خلق جيل واع من المواطنين المخلصين للقضية الصهيونية ، حمل القائمين على ادارتها ان يختاروا أبناءها من غير الايتام ، ومن شتى الاقاليم ، وخاصة ابناء المتطوعين في المستعمرات ..!

وإن صاحبنا ليذكر بعثات علمية صهيونية كانت تؤم دمشق بين الحين والحين

لتختار انجب الطلاب ، ومن يؤمل فيهم الخير ، ليرسلوا إلى هـذه المدرسة وإلى غيرها ، حيث يعيشون مجاناً ، ويزودون بثقافة عصرية وعملية قبل كل شيء ، وبصنعة أو صناعات يمتازون بها ، ليكونوا في الغد صهيونيين أقحاحاً ، يستعمرون الارض ويذودون عنها ..!

وتنفق على المؤسسة جمعية يهودية تدعى : (لوشكاسوسياليست) وهي جمعية إسعافية خيرية ، لابناء اليهود المرزوئين أو المتوفين . وقد تمد هـذه الجمعيه أيضاً بعض العائلات المستورة ، فتجهزها احياناً بادوات البيت أو المال اللازم للعمل ..! فمن شعار الجميع : لاتسول ، ولا تشرد ..! ومن العار أن يتسول يهودي ، أو يعيش لينسل اولاداً أشقياء جاهلين هم عبء على المجتمع ...!

فكفاح المستنقعات واجب مقدس في الارض والفكر ؛ واذا كانت مستنقعات الارض تولد الجراثيم والحشرات ،وتنقل الامراض الى الاصحاء والسالمين ،فان مستنقعات الفكر أيضاً،هي حقول خصبة لتوليد الجرائم وتفريخ جراثيم الشقاء ..!

وترفد هـذه المؤسسة أيضاً جماعة (الهاداسة) .. والهاداسة هذه كما حدثنا بعضهم : إما كبيرة ، او صغيرة .. فالكبيرة تعنى بالمستشفيات ، والصغيرة ترسل الاموال وتجمع التبرعات لاسعاف اليهود ..

ولعل اسمها وحده يوحي بالأمل ، فقد ذكر ذلك أحد الطلاب النجباء ، وهو على قدر وافر من الثقافة والاطلاع ، فقال : ربما كان الاسم مشتقاً من الآس ، المشهور بخضرته الدائمة ، فكأنهم يتفاءلون بان تكون أيام الجماعة كلها خضراء زبرجدية ، لاتصوح ولا تذوي ، بل توحي بالأمل والرجاء . واستطرد بقول الشاعر :

« لا يكن عهدك ورداً إن عهدي بك آس »

وابتسم وشاعت في وجهه أمارات الرضا ثم تابع :

او لعل كلمة (هداسة) مشتقة من اسم قديم (لأستير) ، الوارد في الكتاب المقدس والتلمود . وهي : هاداسة ، بنت عم (مردخاي) ، والتي اتخذها ابنة له بعد موت أبويها ، وقصتها طريفة مشهورة ؛ فقد قيل إن (هامان) وزير (احشويروش)

ملك الهند و (كوش) ، كان يفتش عن شجرة ، يجعلها (خازوقا) ليصلب عليه مردخاي ، الذي أبى أن يسجد له ؛ فأخذ يسأل الاشجار واحدة فواحدة ، دون أن تتنازل احداها لتقوم بالواجب ، او ترضى عن طلبه ، غير أن شوكة ضخمة — تمثل الشر والاذى — قبلت بهذه المهمة السامية . فأعدها (هامان) ، وطولها خمسون ذراعاً ؛ لكن (استير) أنبأت زوجها (احشويروش) ، بمراد (هامان) من تعذيب اليهود وتشريدهم دونما سبب ، فصفح عن مردخاي ، وقربه ، وعفا عن اليهود ، وصلب هامان ، وابناءه العشرة .. لذلك يعيد اليهود كل عام عيد (الفور) أي الفوز ، ويذكرون فيه مخلصتهم الحسناء (استير) ويرددون مثلهم المشهور : « هامان طرأ خازوء ، هامان وئع فيه » .

* * *

هذه هي « شفيا » واكثر طلابها من أبناء الشرق ..! فهل يخطر في بال سيدي القارىء ان فيها مالا يقل عن ثلاثمئة يماني وعمانية ..!

لا لا .. لاتعجب أيها القارىء العزيز ، فالصهيونية ذات اهداف مركزة مدروسة لها أثرها البعيد ، في حياة اليهود الروحية والادبية اليوم . فالتعليم هو غرضها الرئيسي ؛ حتى أنها أسست الجامعة العبرية ، وخلقت أمثال هذه المدرسة أو القرية او المصنع اليهودي — إن شئت — لانتاج الشباب الصهيونيين الاقحاح ..!

والمدارس عندهم متنوعة الغرض وان اتحد الهدف : فمنها الزراعي ، ومنها الصناعي ومنها العلمي .. غير أنها جميعاً ذات غاية واحدة ، وهي خلق الناشئة لتكون مصبوغة بصبغة الصهيونية ، فلا معارض في المستقبل الصهيوني ولا خلاف.

وتتعاقد مدارسهم كافة في جميع انحاء العالم على الاحتفاظ بالشعور القومي ، وتعزيز الآداب اليهودية واللغة العبرية ...! ومن يشك في ذلك ، فليدرس وضع جمعية « كاديما » — الى الامام — أي تقدم ..! وإلى أين التقدم ؟ إلى الشرق ..! ليعرف الاهداف والغايات المستورة المقررة ! وهذا عين مانفعله جمعياتنا في الشرق العربي ، في سبيل توحيد الثقافة والآداب والروح وتعزيز القوى وتهيئتها لمستقبل قريب .

ولفت نظر صاحبنا كثرة الاجانب والاغراب في «شفيا» ،دون أن يعجب أبداً.
فلئن كانت هناك هجرات مشروعة ، فان هنالك سيولا من اللاجئين ، لم يخضعوا لقيد او شرط .! فاليمانيون والسوريون والبغداديون واللبنانيون والاوربيون اليهود يملئون رحاب فلسطين . وكاد صاحبنا ألا يدخل بيتاً في تل أبيب إلا ووجد فيه خادما يمانية ..! وقد لاقى القائمون على ادارة « شفيا » الصعاب ، في تهذيب هؤلاء اليمانيين . فترى بعضهم حتى الآن ، لايحسن الاحتذاء ، فيسير حافياً ...! ولقد اعطوهم أحذية في بادئ الامر ، فاحتذوا يمينها في شمالها ، وشمالها في يمينها .. وألبسوهم الاثواب فارتدوها مقلوبه على قفاها .! غير أن الايمان مازال في تعليمهم عظيماً ، لان ذكاءهم الفطري ، بدأت تنحسر عنه غشاوات الجهل القاتمة .

هذا هو الواقع

ولعل من الطرفة بمكان ، أن تعلم كيف يقضي سكان المستعمرة نهارهم :

فمنذ الساعة السادسة صباحاً قبيل شروق الشمس ، تبدأ الانغام الموسيقية ، تعزف الحاناً خفيفة عذبة تتصل بكل جناح ، من مصدر خاص بالاذاعة في نفس المؤسسة ، يتصل بمحطة الراديو ؛وعندهم كذلك ما لا يقل عن ثلاثمئة اسطوانة غنائية او تعليمية وكلها بالعبرية ، لان اذاعة الاغاني العربية أمر ممنوع ، ولذا فان الطالب المختص بادارة المحطة وهو دمشقي — على حبته — يرسل على موجات الاثير بعض القطع العربية بصوت خافت الى زملائه العرب في جناحهم ؛ اذ أن لكل بناء مكبراً للصوت خاصاً به .

ثم يرتفع اللحن رويداً رويداً ، فكأن النائمين يسبحون في احلام علوية ، تداعب مخيلاتهم آلهة الموسيقا ، حتى اذا أزفت الساعة السابعة أصبح الصوت عالياً .!

وهنا ، ينهض الجميع ؛ ويجب على كل فرد منهم ، أن يغتسل صباحاً قبل العمل ، وأن يغتسل مساء بعد العمل ... ! فالنظافة أساس كل شيء ، حتى إذا أتموا ذلك ، وارتدوا ملابسهم ، ذهبوا الى حجرات الطعام . وبعد ئذ ينتشرون في رحاب المستعمرة ، فيعمل الطلاب أربع ساعات متوالية قبل الظهر في علوم نظرية بحتة ،

وأما بعد الظهر ، فيعملون أربع ساعات أخرى في دروس عملية صناعية ، فيجب على كل طالب أن يتقن مهنة خاصة على الاقل كما تقتضي الشريعة الموسوية ...!

وخرج شاب لقبه صاحبنا بالفيلسوف ليجلب لنا (نايا) يسلينا بانغامه؛ وأقبلت عقب خروجه إحدى التلميذات القديمات لصاحبنا ، وكانت غائبة في المطبخ تقوم بالطهي حسب دورها . فهنأها أستاذها على طهيها الممتاز ، وتمنى لها مستقبلا يليق بفتاة جميلة نجلاء العيون ...! وهنا أردت أن أنبهه إلى مستقبل عذارى صهيون ، ففعلت ... دون أن يأبه لي ، بل ثابر على ترهاته ، وكانت الفتاة تصيخ إليه وفي عينيها خفر ودلال لذيذان ..!

وعندما رجع الشاب الفيلسوف مع (نايه) وقف يعزف بقامته المشوقة ، ونظارتاه الواسعتان تشع وراءهما عينان ذكيتان يقظتان ..! ولا غرابة في ذلك، فقد تنبأ له صاحبي مذ كان تلميذاً بمستقبل أديب فيلسوف ، وها هي الايام تحقق بعض نبوءته. فقد شرع الشاب بتآليفه الادبية ،وترجماته من العبرية إلى العربية وبالعكس وغداً سيتقن ثلاث لغات ..! وهو يتهيأ اليوم للجامعة العبرية كيما يستفاد من نبوغه ونشاطه ، فقد أنهى دراسته في (شفيا) ، فكافأته المؤسسة ، بمنحه حجرة منزوية ينكب فيها على دراساته ، دون أن يكلف بعمل ..! ولكنه يأبى البقاء طفيلياً دون جدّ وكد. ولقد قال لنا قبل أن يضع الناي على شفتيه ، وهو يبتسم معتذراً لتأخره كنت أطبق شعارنا : ازرع تحصد اعمل تنل..!

وكان الناي من خشب الزيتون صنيعة أيدي الطلاب ، الذين يصدرون امثاله وغيره من الأدوات الخشبية الى حيفا وما إليها ، باسم مصنوعات شرقية ..

وعزف العازف قطعاً مدرسية لطيفة ،فأعاد للإذهان روابي الغوطة، وظلال الادواح وهمس السواقي ، وانطلق الفتيان والفتيات يغنون نشيداً عبرياً لم أسمعه قط في حياتي غير أن صاحبي همس في أذني: إنه النشيد القومي الصهيوني (هاتيكفا)أو..الأمل..

وما أن انتهوا من الغناء حتى سأله صاحبنا، أن يترجم لنا هذا النشيد ... فابتسم راضياً ، وجلس على كرسيه ساهماً في عالم الخيال ، يردد جمل النشيد العبرية

محاولاً ان يعيدها موزونة بالعربية قدر ما يستطيع ... وأخيراً قال :

«لم تزل قلوبنا تخفق ، وأعيننا تخيل وطننا القديم ، وانفسنا تهيم به ..
أجل ..! لم تزل تهطل الدموع من مآقينا ، كتسكاب المزن
ولم يزل أملنا .. أمل ألفي سنة ، قوياً شديداً
وسنرجع إلى أرض الآباء ، أرض إسرائيل ، وأورشليم ..
ثم تنهد المترجم وقال :
أجل ..! لم تزل نذكر بيت مقدسنا ، وانهياره وانهدامه ..
لا لا .. لن نبكي بعد الآن ...!
فاستمعوا - إخوتي - إليّ : إن صوت أحد أنبيائنا يقول :
لن يزول أملنا حتى يرافق آخر يهودي يلج أرض الميعاد ..
هوذا صوت أرضنا المقدسة يسأل الله ويقول :
أين وجوه أبنائي .. ؟!»

وهنا دمعت عيون الفتية ، فكأن نشيدهم أضرم فيهم العاطفة ، فران علينا صمت عميق ، وكل في واديه يهيم ..!

هكذا تعلم الصناعة — (التعليم الجامع) —

وانقضت فترة الاستراحة ، وأقبل وقت العمل ، فنهض كل فرد يلبي نداء الواجب ، وبقي بضعة أفراد برفقتنا ، ليكونوا أدلاء لنا في هذه المؤسسة .

ومررنا في بادئ الامر بمعمل النجارة : فكانت أدواته وآلاته كلها تدار بالكهرباء .. فثمة مسحجة ، ومثقبة ، ومنشرة ، ومخرطة .. و .. وقد انتشر الطلاب في كل مكان يعملون تحت إرشاد المعلم . وعلى كل طالب في المؤسسة أن يمر بهذا المصنع لتعلم المهنة قبل الاختصاص ، كما يمر ببقية المهن مدة كافية لا تقل عن أربعة أشهر لكل واحدة منها .. حتى إذا آنس في نفسه ميلاً لاحداها ، انتقاها صنعة لــــه دائمة .

وينتج هذا المعمل كل ما تحتاجه المؤسسة ، من موائد ومقاعد وأدوات موسيقية وتزيينية .. ويصنع بعضها من خشب الزيتون ، وبعضها من أخشاب الأحراج الخاصة بالمؤسسة ، وما تفتقده الحاجة يشرى من الخارج ..

ثم انتقلنا إلى حديقة المؤسسة ، للاستجمام بضع دقائق ، فاذا بها منسقة أتم تنسيق ؛ فالاشجار العالية تحفها من كل مكان ، والأحواض الهندسية البديعة تزينها وتملؤها أزهاراً وزنابق متنوعة . ويروي كل ذلك نافورات لولبية تدور من كل جانب ..! ولقد اخبرنا القوم بان السكان يسمرون في الليالي القمراء فوق هذه المقاعد المريحة ، فيتمتعون بما تصنعه أيديهم وجهودهم ، وينسون أشجان الدنيا وما فيها ... !

وطاب لصاحبنا الجلوس ، ينعم بالجمال والطبيعة التي هذبتها يد الانسان ، التي لم تكتحل عيناه قبل الآن بمثلها ... وهنا شرعت إحدى الفتيات تحدثنا مع زميلها عن المستعمرات في فلسطين ونشأتها ، حديثاً مقتضباً ، لا يروي ظمأ ، ولا يشفي قلباً ، كما اعترفت بذلك ، ولكنها مع ذلك تشجعت وقالت :

إن المستعمرات في فلسطين على نوعين : شيوعية بحتة وهي نادرة جداً ، واشتراكية أو تعاونية وهي الاكثر عدداً . أما الشيوعيون فيرومون العيش مع العرب إخواناً دون هدف قومي معين ، ودون أن يفكروا بمنازعة العرب لاخراجهم من البلاد. واما سكان المستعمرات ، الاشتراكية ، فانهم يؤلفون عائلة واحدة ضخمة ، يبذل الفرد منهم ما يستطيع ، ويأخذ قدر حاجته ؛ ولهم رأيهم السياسي الخاص إذ أنهم يبذلون الجهد لانشاء الوطن القومى الصهيوني وذلك باخراج العرب من البلاد ... وأما التعاونيون فهم عائلات تقيم في المستعمرة ، لكل منها أرضها تزرعها على حسابها وتتعاون في سبيل تصريف المحصول مع الآخرين ، ولا يختلفون في سياستهم عن الاشتراكيين منا ... !

وهنا احمر وجه الفتاة وأدركت ان معلوماتها ضئيلة ، وقد تكون مغلوطة ، فاعتذرت عن متابعة الحديث وانتقلت منه إلى قولها :

وتتشكل المزرعة بادئ الأمر من خيام ومخشبات . ويختار لها المستعمرون بقمة بوراً (بعلا) ... فكأنهم يبذل الطاقة والري لتصيير جنة غناء .. ! وإن جميع يهود العالم وخاصة في فلسطين ، يتبرعون للمستعمرة الحديثة لانعاشها ، فكأنها طفل رضيع يحتاج كل عناية .

أما العيش فيها فالطعام والسكنى واللباس تبذل مجاناً ، ولكل فرد عطلة سنوية لا تجاوز الثلاثين يوماً ... وله أن يتناول المال اللازم لحله وترحاله .. ! وأما اطفال المستعمرة ، فيربون في حدائق خاصة بكل مستعمرة حيث تشرف عليهم مربيات اخصائيات .. ! ولا يغرب عن البال أن الطفل الواحد يكلف ثلاثة جنيهات فلسطينية شهرياً ؛ فيطعمونه ويسقونه ويمرضونه .. وإلى جانب الحديقة دار حضانة خاصة مع معلمة ومربية وليس على الأم بعد نقاهتها من الولادة أو بعد مجيئها من العمل سوى أن تأخذ طفلها ليقضي الليل بجانبها .

سمعنا هذه المعلومات التي لا ترتيب فيها ولا تنسيق ، وشكرنا الفتاة على حديثها وتابعنا مسيرنا معاً .. ! وسألناها عن عملها في المؤسسة ، فقالت :

من المهم أن تعلم بأن أعمال البنات ليست مرهقة شاقة كأعمال الذكور . فهي لا تجاوز تربية البقر والدجاج ، والأعمال الزراعية البسيطة ، والطهي وفن التمريض والخياطة والموسيقا والرقص والغسيل والكي وجميع ما يتعلق بتدبير المنزل .. !

ولو ألقيت نظرة خاطفة على هذه المعلومات ، لدلتك على انهم يجهزون الفتاة لتكون عاملة في المجتمع ، وسيدة في البيت تدير اموره ، وتشرف على تربية اولادها وتكون نعم الزوج .. ولا يعني هذا حرمان الذكور مما يختص به الاناث ؛ ولكنهم قلما يقدمون على هذه الاعمال .

أما الدروس النظرية فيشترك فيها الذكور والاناث ، ويدرسون منها الزراعة والتاريخ الطبيعي وتاريخ اليهود والجغرافيا واللغة العبرية والانكليزية ثم الرياضيات ولعلهم يهتمون بتدريس التاريخ جل الاهتمام .. ! فمن لا يعرف أمسه ، لا يدرك حاضره ولا مستقبله ! بل يظل في طفولة مستمرة ...

وصلنا الى جناح (الخياطة) وترميم الألبسة ؛ فوجدنا الطالبات (اليتاميات) يقمن بهذا العمل خير قيام ، ويشرفن على ترتيب ألبسة الجميع من سكان المؤسسة . فلكل طالب اوطالبة رقم وجارور خاصان بثياب الصيف والشتاء وثياب العمل وثياب الراحة ... أما الألبسة فتكوى على الكهرباء .

وكانت رائحة (النفتالين) لقتل الحشرات (والعث) تتصاعد من ثناياها. ولقد مسحت رفوف الخزائن وجميع الأخشاب بالنفط ورشت بمسحوق (د - د - ت) للفتك بالصراصير والهوام ؛ كما أسدل على كل خزانة سجف ذات حلقات تنزلق على شريط من المعدن ..!

وبجانب هذه الحجرة غرفة كبيرة لغسل الثياب . فترى الملابس و (البياض) قد كومت صرواً على رفوف خاصة عريضة استعداداً لغسلها . وهناك آلة كهربائية لعصر الثياب وبرميل مترع بالماء وأنابيب تصل بين مختلف الأوعية والصهاريج ... أما الملابس الرقيقة التي لا تحتمل ضغط العصر بالآلة، فتغسل فوق أداة معدنية خاصة..!

وإذا سألتني كيف لا تختلط هذه الملابس المختلفة العديدة لأكثر من خمسمئة طالب وأستاذ ومعلم ..؟ فأقول : إن كل قطعة من هذه القطع رسم على طرفها رقم صاحبها بالخيوط الملونة المغايرة للقطعة .. وإن كل ما يحتاج إلى رفء وتصليح يحال الى جهته المختصة .

أما النظافة فهي المظهر البارز في هذه الغرف المترعة بالملابس والثياب ... ولا تنس أن كل فتاة عليها أن تقضي فترة في هذه المحال ، لتتزود بما يصلح من شأنها في حياتها المستقلة .

هذا وليس كل الفتيات في المستعمرة فقيرات يتيمات ، فثمة الغنيات ، وبنات الذوات أيضاً .!وهل تحسب أنهن يشمأززن من العمل .؟ كلا .! فهو واجب عليهن..!

وما قيمة المرأة التي لا تحسن تدبير المنزل .؟ ولئن كانت بعض فتياتنا (النبيلات) يتهن فخراً بأنهن لم يدخلن المطبخ يوماً ، وأنهن لا يحسنّ الطهي ولا الغسيل ولا الكيّ ، وأن هذه الاعمال من شيم الخدم والعبيد ، فانهن يجهلن رسالتهن في الحياة، وبئس الجيل هنّ أمهاته ... وما أشبه الأمة التي تظل نساؤها جاهلات عاطلات

ـ إلا للثرثرة والأزياء والتبرج ـ كطائر ذي جناح واحد ، لا يستطيع مهما عظمت قوته أن يطير ، بل يبقى ما بقي محرّمة عليه الأجواء الطلقة والسماوات الفساح ..!
وإذا كان النسوة يشكلن ما لا يقل عن نصف الأمة في الأقليم ، فويل لأمة نصفها عاطل وعبء على النصف الثاني ..!

ولعل الانتاج الصهيوني لم يبلغ ما بلغه اليوم لو لم تشترك في سبيله الأيدي النسائية .! وإن النساء المتعلمات الشرقيات اللائي يطالبن بالمساواة، والحقوق السياسية، فيعقدن المؤتمرات ، وكلهن هدف واحد ومبدأ واحد وكتلة واحدة ، لو اندفعن هذا الاندفاع نحو بعضهن بعضاً ليتفهمن الرسالة السامية التي تقع على عاتق المرأة، في العصر الحاضر ، لكان عملهن أجدى فائدة وأنبل غاية .. لأن المرأة عندما تصبح عضواً نافعاً في المجتمع سوف تنال تلك الحقوق التي تنشدها دون ضرورة لمؤتمرات وحفلات تسلية تضيع فيها الأوقات بين استعراض أبهج الأزياء والأثواب وأعنف المسابقات لاظهار الجمال وضروب اللهو .! ولو أن نساءنا تفهمن رسالتهن حق الفهم، واقتصدن في جهلهن وخداعهن، لما كان في الأمكان أبدع مما كان .

ثم انتقلنا إلى معمل صغير (للكونسروة) يؤمن حاجات القرية على أتم شكل. ففيه تحضر المربيات والفواكه المجففة والأثمار المكبوسة من زيتون و (مخلل) ؛ وفيه تصنع أنواع الشرابات ، ورب البندورة والخمور والزيوت كما تخزن فيه الأجبان والبيض والزبدة ..!

فأرشدوني مغفوراً لكم ، على قرية واحدة في طول البلاد وعرضها ، فكر أهلوها بانشاء مصنع واحد يتيم ، يضم شتات ما ذكر ..! — صدق الله العظيم — وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وهناك شاهدنا معملاً واحداً للحدادة فذكرني بالحدادة والصناعة في مدارسنا الفنية الصناعية · تلك التي تنفق عليها الدولة القناطير المقنطرة ، ثم تكون نتيجتها، ان يخرج طلابها ليفتشوا عن وظيفة كاتب أو معلم في قرية في المرتبة (١٢) تحت الصفر .. لأنهم لا يحسنون شيئاً يعملونه قط ..!

فأين التوجيه العلمي الصحيح .؟ وأين وضع الأمور في مواضعها .؟ وقديماً قيل: لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ..! وكان في القسم المقابل لذلك بناء خاص للفنون الجميلة . وهو ما تندر به بعضهم قائلاً : هذه هي الأوبرا الخاصة بنا .! ففيها جميع أنواع الآلات الموسيقية من (كمنجات) و (ماندولينات) وأبواق وبيان و (أراغن) . . وقد حليت الجدران بصور كبار مشاهير الموسيقيين أمثال : بيتهوفن ، وشوبير ، وفاجنير .. ومما يجدر ذكره أنهم يفرضون على كل طالب وطالبة أن يحسن العزف على آلة ما ، لأن الفنون ترهف الذوق والحس كما يقولون .. ولن يغيب عن ذهننا ساعة وقف مرافقونا وعزفوا لنا قطعة مرتجلة جعلتنا نندب حظنا العاثر ، وأيامنا المفقودة ؛ حيث لم نتعلم في حياتنا المحترمة سوى طقطوقة الوحوي . . الوحوي ..

وهنالك بجانب هذه الحجرة غرفة الاذاعة..وفيها مذياع وآلة للبث وأسطوانات تتصل بسائر حجرات القرية . ولقد خلنا ان القائم على شئونها مهندس عظيم ،قضى ثلثي حياته في الجامعات والدراسات العلمية الفنية ؛ وإذا به طالب لم يتجاوز الخامس عشرة من سني حياته ، وقد تلقى كل معلوماته في القرية ..

وبجانب هذا الجناح ، مستشفى المؤسسة ومستوصفها ودار طبابتها ؛ فيه ممرضات — من الطالبات الرعابيب المرفهات — وفيه سرر نظيفة أنيقة ؛ لكنها خالية من المرضى ، فهل القوم لا يمرضون في تلك البقعة ، أم ان المرض يخشاهم ، ولا يخترق خطوطهم الدفاعية الحصينة، لحاجتهم الشديدة إلى النفوس والأيدي ..؟ لست أدري !؟

وأخيراً وصلنا إلى رحبة واسعة تحت الافياء . فوجدنا آلات زراعية بينها آلة ضخمة للحصاد والتذرية والتنقية ، لم يصل مسامعنا بعدأن في غوطتنا العزيزة الواسعة ، أو في سهول حوران الفسيحة العابسة ، آلة مثلها ؛ ولعلها رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ..!

رياضة تقهر الضعف — وفصول مدرسية

هل تخيلت يوماً مدرسة تقوم بين أحضان الطبيعة ، في الهواء الطاق ، والنور المتألق تحت الظلال .؟ وهل تخيلت مدرسة تحيط بها من كل جانب الأشجار الباسقات ، فلا تسمع إلا حفيف الأوراق ووسوسة النوافر ترش الزروع .. ؟ إذن ؛ فاعلم ان هذا موجود في (شفيا) وكل ما تخيلته هو حقيقة واقعة .. ! فثمة في ظلال الصنوبر ساحات للرياضة الحديثة كما يقولون ويزعمون .. وهي حقاً رياضة غريبة جديدة فليس فيها تمرينات (اسوج) ولا أنظمة عسكرية ولا قيود مدرسية..! فانظر إلى هذا العمود الخشبي المعلق في الهواء . . ، ففي كل صباح يمر عليه سائر الطلاب والطالبات ليتعلموا حفظ التوازن والاعتماد على النفس .. ! وانظر إلى ذلك المتوازي والثابت والكرات فهي لألعاب بهلوانية خلاف ما يظنه كل قارىء . . . وهذه هي الحبال المعلقة بالهواء للطيران بواسطتها بين الاشجار كما يفعل طرزان في أجمته حتماً .! ولقد رأيناهم يقفزون كالقردة من مكان إلى مكان، ويتسلقون الأشجار والأعمدة كالكوماندوس أو كأنهم يتدربون ويستعدون لحرب الأدغال مع اليابان في بورما ..!

وقرب المدرسة حوض للسباحة . طوله خمسون متراً وعرضه خمسة وعشرون.. وفيه مكان للقفز خاص ، وقد عريت من حوله الأشجار ليكون معرضاً للشمس والهواء، تدفع اليه الماء محركات خاصة من البئر ..!

وأخيراً دخلنا فصول التدريس : فهذا فصل للدرس كغيره من فصول المدرسة. وليس فيه على سعته مقاعد لأكثر من ثلاثين تلميذاً . فهي ثلاثة صفوف ، وكل صف منها يحتوي على خمسة مقاعد ، وفي كل مقعد تلميذان ..! وهذه المقاعد مجلوّة (مبردخة) جيداً . وفي صدر الفصل لوح يفتح ويطوى ، طوله بطول الجدار تماماً . وهنا وكزني صاحبي هامساً : رحم الله أيام (زمان) في مدارسنا، حيث تكتظ الفصول ببني آدم واللحوم البشرية ، كعلب الكونسروه أو السردين وحيث تملأ

الجوزفرات الطلاب الخانقة وغازاتهم الفحمية التي تمنع أضخم المعلمين وجداناً مسلكياً ان يبلغوا منتهى الصف .. !

وهذا هو المختبر العلمي للطبيعة والكيمياء . وهو مجهز بكل ما يحتاج اليه الطالب من أدوات ومواد . فهنالك لوحات خشبية ملونة لجسم الانسان ، ولأنواع الحيوان والنبات والحشرات . وإلى جانب ذلك توجد أنواع عديدة لكافة الأخشاب في العالم، مقطوعة على أوضاع مختلفة . وثمة خزائن لحفظ المواد الكيميائية ، ووسائل التحليل ، والأنابيب المترعة بصنوف البذور الزراعية . وفيها مجاهر ، وحيوانات صغيرة ، وزواحف ،ومعادن مختلفة ، محفوظة في الأوعية الخاصة البلورية..ويوجد أيضاً جسم الانسان وأجزاؤه ، ثم الأفاعي العديدة السامة وغير السامة . وأنواع العظام للحيوان والانسان ، وخزائن الكتب العلمية والآلات المتنوعة ، لتطبيق الدروس وللتجربة ..!

وليست هذه الأدوات والأجهزة برسم خداع المفتشين ورؤساء التعليم ، أو لتزيين الفصول وغرف الادارة أحياناً ، ولكنها وضعت ووجدت للعمل والتجربة والتطبيق ...

وبعد فلا تحسبن أنك في معهد من المعاهد أو جامعة من الجامعات .. لا . ! بل نحن أمام دارحضانة ومدرسةابتدائية صناعية للمؤسسة .! وإذا علمت انالصهيونيين لجاناً ثقافية خاصة بالتوجيه العلمي القومي الملائم ، لزال عجبك من وجود هذه المخابر والمتاحف المملوءة بالأجهزة والوسائل التي يتمنى كثير من مدارسنا على اختلافها أن يملكن مثلها ..! وإن العمل المنظم الدائب، كفيل وحده أن يخلق ألف متحف وألف مخبر . ولعمري ان قطرات الماء تذيب الصخر ..! أما أن ننادي طول الحياة بأن لا استقرار بلااستقلال،ثم نختبئ وراء هذه الأحجية ، ونجعلها سبيلاً للتكاسل وحجة للراحة ، فهذا ماتأباه الأمم الوثابة، طالبة المعالي ..!

وهكذا كان يثور صاحبنا لكرامته وقوميته ، كلما شاهد ما يهيج غيرته وفضوله. وكنت أصب على غضبه (دوشاً) من الآمال والتفاؤل حتى يلين ويبتسم ..!

وكانت الساعة تشارف الرابعة حينما وصلنا إلى مغنى تحت أشجار الصنوبر ، وكأنه صومعة ناسك أو جوسق راهب ؛ يقف على بابه الدكتور الفيلسوف مضيفنا منذ الغداء ..

وفي خارج المنزل سرير أبيض تغمره كلّة هفهافة بيضاء ناصعة ، وترقد تحتها طفلة صاحب الدار ، وهي في الخلاء حيث النور والهواء والطبيعة . ولما سألنا عن عن وجودها منفردة هنا .. أجبنا : إنما نقصد بذلك تعويدها حياة الحرية والاعتماد على النفس ، ونترك أمها تقوم باعباء المنزل وتدبير شئونه ..!

قبضة الصهيونية نزعة نازية ماكرة

كان الاستاذ يقف عن كثب من طفلته يبسم لمقدمنا ، فأقبلنا محيين. ثم قدمنا إلى زوجه،وهي ألمانية شقراء ، ناضجة حلوة، تظهر من سيماتها علائم الأسى والصبر تجللها مسحة من الرضاء المصطنع خلقتها يد الوحدة والعزلة .! وللوهلة الاولى يبدو على الزوجين الانسجام التام والتلاؤم ؛ فمن جانبه هدوء ودعة ، ومن جانبها إطاعة ونظام .. ولعمرو الله،لو كانت عندأحدنا هذه الغادة الأملود، بجمالها وسنها وهندامها، لدلت على زوجها الهرم، ولأصلته جحيماً لا يطاق .. ولربما نشزت عنه في هـــذا المكان النائي عن العالم وأقلقت المحاكم الشرعية بصراخها وشكواها .. ومن يشك فى ذلك فليزر هذه المحاكم ليظفر بأحسن جواب ويقين ..! ولكن يبدو أن حسن الاختيار، وتقارب الطباع مع الصبر والحزم، هو ما جعل الزوجين ، ينعمان بالهدوء والحياة العائلية المنظمة . !

جلسنا إلى مائدة أعدت لنا ، مثقلة بالأواني الخزفية الفاخرة والزبدة والعسل المصفى والمربى والقهوة والحليب .. وهي مائدة أنيقة سال لها لعاب الرفيق الصالح فشرع يبدي هيامه بها على طريقته الخاصة دون أن يثير حوله الشكوك .!

وقضينا ساعة أو بعض الساعة، تحادث عن الفلسفة أولاً وهي اختصاص المضيف ثم عن الفن والجمال .. ثم جرنا الحديث الى السياسة ، وما يتصل بذلك من أحاديث الصهيونية وفلسطين ...

ولقد ظهرت آراء الاستاذ شبيهة بآراء تلامذته في (شفيا) صورة طبق الأصل؛ فكأن الطلاب يلقنون أفكار أساتيذهم بالحرف الواحد ، وليس هذا غريباً عنهم ، فهم يتلقونها علماً وعملاً ، بفهم ووعي ..! وطفق الاستاذ يبرر قدوم اليهود الى فلسطين بما قاسوه من عذاب في بقاع العالم، بل حاول كما حاول غيره منذ سنين ، أن يثبت بأن الصهيونيين، لن يضروا العرب شيئاً بل سيكونون خير عون لهم.. ثم استشهد بقول (بن غوريون) وتصريحه ، بعدم طرد العرب من أرضهم ، أو سلبهم حقوقهم، أو مس أرض الفلاح بسوء .. فلقد قال وقرر (بن غوريون) منذ عام ٩٢٤ بأن مصير العامل العربي لن يختلف عن مصير زميله اليهودي ... أما الدكتور وايزمن — كما روي الاستاذ وعلى ذمته — فقد قال عام ٩٢٩ بأنه يأمل عند تحقيق الصهيونية ألا يطرد عربي واحد من أرضه ..؟ وكذلك الأمر في مبادئ وأقوال (جابوتنسكي) .. فهذا يرى ان يحافظ الصهيونيون على المساواة في الحقوق بين كافة المواطنين، بغض النظر عن الدين واللغة والطبقة ..! ويرى ايضاً بأن يكون نائب الرئيس في الوزارة الفلسطينية — عند الاستقلال طبعاً — عربياً وعكس الأمر إذا كان الرئيس عربياً فنائبه يهودي ..!!

ولقد كنا نعرف أنا وصديقي ، بان هذه الخيالات ليست أكثر من ألفاظ، لك أن تدعوها بالألفاظ المذوقة المعسولة ... ولعلهم يطبخون ويركزون القضايا كما يفعل لاعب الشطرنج على رقعته، دون ان يفكروا مرة واحدة، بقبول العرب لهذه الحلول ، أو بالحري بوجود يهودي واحد في أرض فلسطين ..! ولعل الاستاذ المحدث عرف من وجوهنا ، صورة التحدي وعدم الاقتناع ، فطفق يضرب على وتر آخر تعود أن يعزف عليه كافة يهود العالم فقال ، بينما كانت زوجته تصب لنا القهوة والحليب : كيف يستطيع اليهود الحياة في أوربا ، في جحيم الاضطهاد والتعذيب ، والغضب والتشريد ..؟

إن اليهود كغيرهم من البشر لهم حق الحياة ، وإن فلسطين وحدها بالادواسعة تتسع لمليون يهودي آخر .. وإن في منطقة بئر السبع مليوناً ونصف المليون من

الدونمات، صالحة للزراعة والسكنى تنتظر من يعمل .! وهي حل موفق للمشردين المضطهدين .! إن خمسة عشر مليوناً من اليهود، يحيون في كل زاوية من زوايا العالم ،لن يأتوا فلسطين كلهم ، ما دامت حقوقهم محفوظة ، بل على العكس فهم سيمدونها بثرواتهم وأموالهم عن بعد .. أما إذا نزلت بهم نازلة ، فليس لهم ملجأ سواها ، وما من أحد يستطيع أن ينكر استفادة عرب فلسطين والبلاد المجاورة ،من الاموال الصهيونية والمشاريع التي نفذت في هذه البقاع .

تخيلوا فلسطين قبل قدوم اليهود إليها ، وقيامهم بمشاريعهم الصناعية والزراعية الكبرى .. فقد كانت فلسطين عالة على البلدان المجاورة ، تستمد منها الغذاء والكساء والدواء .. أما اليوم .. وفي هذه الحرب الطاحنة .. بعد أن أغلقت أسواق العالم في وجه بلادنا ؛ فان فلسطين وحدها هي التي أمنت قسطاً كبيراً من حاجات البلاد المتاخمة لها .! فنحن نعمل لأنفسنا، ولأبناء عمومتنا العرب ، فليعمل العرب معنا.. وليضعوا أيديهم في أيدينا ، ولديهم الطريق معبدة ، والقدوة الحسنة .. أما المواقف السلبية ، فلن تجديهم شيئاً ..

وهنا انبرى صاحبي ، كالحصان في حلبة السباق، وضحك ضحكة خشنة، كادت تزعج الزوج المصون ، التي احمرت خجلاً ، ثم قال بلغته الفرنسية العالية ، ناقلاً نظراته بين الاستاذ ، والزهرة الفواحة ، يستمد من سناها عوناً ومدداً :

على رسلك يا أستاذي .. إن العامل والفلاح العربيين لم يجنيا مما ذكرته شيئاً، لأن الصناعة والزراعة لديهما مازالت ابتدائية يدوية.. وإن من يعمل من العرب في هذه الصناعات لا يتجاوز (١٨٠٠٠) عامل ؛ وليس ثمة مشروع واحد ضخم يضم أكثر من (١٠٠) عامل ؛ أما رأس مال المشاريع بصورة وسطية فهو بين الـ (٥٠٠)جنية والـ (٦٠٠) ، بينما نرى أن الصناعة اليهودية، يعمل فيها أكثر من مئة ألف عامل يهودي .! فأين هي المساعدة إذن .؟

إن (١٤) مصلحة حكومية شغلت عام ١٩٤٢ : (١٠٣٤١١) عاملاً كان بينهم (٩٠٠٠٠) عامل عربي مع (٣٠٠٠٠) عربي في الجيش ؛ أما اليهود فلم

يستخدموا العرب فقط ، حتى لدى ندرة اليد العاملة ؛ ويحرم تحريماً قطعياً على كل من يتناول المساعدات من المصارف الملية (كيرين كايمت و كيرين هايسود) أن يستعمل عاملاً عربياً واحداً ؛ حتى أن (الهستدروت) لم تستخدم في مشاريعها الصناعية والعمالية واحداً من العرب . وليس في التعاونيات المرتبطة بها عضو عربي .. وعند الضرورة القصوى ، في تنفيذ عقودها العسكرية أو الحكومية أو البلدية المستعجلة ، تتكرم بدعوة العرب : ولكنها لا تدفع للعامل منهم إلا ثلث أجرة العامل اليهودي ، أو نصفها ..

فأين ادعاءاتكم المزعومة عن التعاون مع العرب ؟ وهل التعاون يكون باجلاء أهالي البلاد الأصليين عن موطنهم لتحلوا محلهم . ؟ وهل التعاون يكون بتدبير المؤامرات ، والكيد للعرب ، واحتقارهم وازدرائهم . ؟

وهنا أدار الأستاذ دفة الحديث ، وعاد إلى نغمة الاستعطاف القديمة فقال :

لم يغتصب اليهود أراضي العرب ، بل اشتروها من أثريائهم وأغنيائهم مختارين طائعين .. وكانت جل هذه الأراضي صحارى وبقاعاً قاحلة بوراً ، صيرها اليهود حدائق وجناناً .. إن عصا موسى لا زالت في أيدينا ، فلئن شق كليم الله البحر لقومه ، فنحن نحيي الأرضين لليهود أينما كانوا ، في المهجر أو الوطن ..

أنظر إلى (شفيا) هـذه ... وما إن بدأ يتحدث ، حتى استأذنه بالكلام تلميذ قدم منذ هنيهة ، فقال :

شفيا .. كانت هذه الجنة مستنقعات آسنة ، فجاء قبلنا شباب مؤمنون ، غرسوا الأوكاليبتوس في أرجائها ، وبنوا الأدراج الجبلية ، وحفظوا الينابيع ، وشجروا الجبال ، وسمدوا الأرض ، وقلبوها ظهراً لبطن ، ونسفوا الصخور ، وطردوا الحيوانات المتوحشة ؛ لقد مات منهم الكثيرون في هذه البقعة ، مات منهم شباب غض ، متحمس مثقف .. لقد ماتوا بالحميات ، ولدغات الأفاعي ، ليخلقوا لنا أرضاً وملاذاً .. لقد أدوا الرسالة ، وإنا على آثارهم لمقتدون ...

وعاد الاستاذ إلى حديثه قائلاً : أذكر أن قرية (الأعناب) قرب القدس ،

كانت أرضاً ملحية ، لا يعيش فوقها حيوان ولا ينبت فيها نبات ؛ غير أن الجهد المتواصل ، غسل التراب بالماء مرات عديدة ، حتى ذابت الأملاح ، ورسبت في الأغوار ، ثم أصلحت الأرض وأحييت ، وغدت مستعمرة نعتز بها ، وقد تحررت من كل ديونها منذ حين .!

وإن تاريخ كل مستعمرة ، هو صورة طبق الأصل عن قرية (الأعناب) .

ولا تعجب من عملنا الجبار في سبيل الأرض ، فلن أذيع سراً إذا قلت : إن كيان الصهيونية برمته قائم على امتلاك الأرض وإحيائها ، فالأرض قبل كل شيء هي أملنا وهدفنا الأسمى .. ولا وطن لنا بدونها . . وإن يوماً تمنع عنا الأرض ستصيبنا الكارثة الكبرى ، سنعود إلى حياة (الجيتو) والجحيم الأبدي ...

إنا نشتري الأرض ، ثم نحييها ، وسندنا في ذلك معهدان للأبحاث العلمية والتوجيه الفني ، أحدهما : معهد الدكتور (وايزمن) في قرية (رحابوت) المحطة الزراعية الكبرى في الطريق بين يافا والقدس ، والثاني هو في الجامعة العبرية في القدس .. وتدرس فيها تربة الأراضي ، وخير ما يلائمها من المزروعات والأسمدة .

ثم استأذن الطالب بالكلام فقال :

أبداً لن نترك هذه الجنان لتعود بوراً .. لقد أسسناها على جثث الابطال ، وسقيناها بدماء النساء والرجال ، ونحن فخورون بعملنا ؛ فالحياة جهاد متواصل ، والبقاء للأصلح ..

أجل ، كان أولئك المستعمرون الأولون ، يحملون أرقى الشهادات العلمية ، والدرجات الجامعيـة ، ومع ذلك لم يأنفوا من أي عمل طلب اليهم تنفيذه . لأن هدفهم مقرر واضح وهو إنشاء وطن قومي .. ولن تجد صهيونياً واحداً يتوانى عن خدمة القضية المقدسة التي لم يبصر النور إلا لتحقيقها ؛ واذا كان لا شيء أدعى للاتحاد كالآلام ، وتحمل الأوصاب ، فان اليهود أعظم من اتحد في التاريخ لكثرة ما انتابهم من اضطهاد وعذاب ، في كل طور من أطوار التاريخ وتحت كل كوكب..

واليوم ؛ وقد عاد الأبناء الى أحضان أمهاتهم ، عاد شعب إسرائيل الى أرضه

المقدسة ، (باروخ لآدوناي) : (الشكر لله) ، ليبرهن على حقه وجدارته بالحياة..

وإذا كان شعار اليسوعيين : لمجد الله الأعظم ، فان شعار كل يهودي ، تحت كل خافق : لمجد الصهيونية الأكبر ..

وزفر صاحبي لضيق صدره ، ولسماعه هذه القنابل المدمرة ، وزفر الأستاذ وتنهد ، واندفع كرة اخرى يزمجر :

أليس جناية ترك هذه البقاع المقدسة ، بوراً لا تنفع إنساناً ولا حيواناً ؟ هل تعلم أن تل أبيب لم تكن قبل خمس وعشرين سنة شيئاً مذكوراً ؟ لقد كانت صخوراً جرداء ، لا ماء فيها ، ولا نبات ، ولا إنسان .. فاذا بها اليوم ، مدينة المدائن وعاصمة العواصم .. نعم ، ذلك هو العمل المخلص الواعي ؛ فانظر إلى أبنائنا كيف يعملون في كل مكان .. هنا ، وفي بيسان ، والخضيرة ، وزخرون .. يجففون المستنقعات ، ويفجرون الينابيع ، ويزرعون الكينا والصنوبر والسرو ، ليخلقوا طبقة أرضية ، زراعية ، فازرع ولا تقطع ، وابن ولا تهدم .!

وعندما كنت أسمعه يندفع في حديثه المؤمن به كل الايمان ، كنت أهيم في عالم الخيال .. فأبصر اليهودي التائه يجوب الآفاق ، عقب غضبة الديكتاتور الجرماني ، ليحط الرحال في فلسطين ، يندب حظه العاثر أمام جدران المبكى ، .. ولا يخرجني من خيالي سوى قدح الحليب مع القهوة ، تقدمه لي يد فضية بيضاء ، ألمح وجه صاحبتها ، فأرى فيه خطوط الهم والأسى ، تحت قناع الصبر والتجلد ، فابتسم ، واشكرها بفرنسية مهمشة كفرنسيتها ..

* * *

أيها العربي : هذا حديث من احاديث كثيرة ، تركناها بدون تعليق ، لتتفهم عقلية عدوك وحججه وأهدافه ومآربه ، وكلها مدمرة ...

ولن يسعفك في أزمتك ، ولن ينتشلك من هوتك ، سوى أمرين اثنين هما تعمير الارض وتعمير العقل .

فالأول يمدّ بالتضحية، والجلد والوعي الصحيح، والثاني يمدّ بالعلم والتثقيف والاطلاع.

لا رجعية بعد اليوم، ولا خيال، ولا أوهام. بل صفوف متحدة، وقلوب متآلفة تعمل للعرب، وللأجيال المقبلة.

فعلى المثقفين، والرأسماليين، والمتنفذين، في طول البلاد العربية وعرضها أن يجعلوا خلاص فلسطين من النفير الصهيوني والأخطبوط اليهودي هدفهم الأسمى، وشغلهم الشاغل، وخير لنا أن نخسف الجوامع والكنائس، وأن تزول آثارنا المقدسة، من أن تبقى أثراً يذكر الأجيال بأنه كان يوجد في هذه البلاد شعب عربي، لم يعرف كيف يحتفظ بها...

***

تحت ظلال الصنوبر

ما كدنا نغادر المغنى، حتى التقينا بلفيف من التلميذات والتلاميذ الدمشقيين، وبرفقتهم بعض اليمانيين والعراقيين واللبنانيين .. والأردنيين .. وكانوا قد انتهوا من عملهم، فتحلقوا حولنا حلقات، وجعلوا يمرحون ويرقصون ويهزجون؛ وراحت إحداهن تنشد أنشودة لم نفقه منها شيئاً سوى ذلك الصوت الجميل، يتهادى تحت ظلال الصنوبر.

ووقفت شابة لبنانية، كزهرة في أكمامها، لم يفح عبيرها بعد، وتبرعت بترجمة الأنشودة، التي زعمت أنها لشاعرهم الأكبر (بياليك) وقد استخفها الطرب فقالت:

لئن كانت كلمتكم متحدة قوية،
في كل بلد، وفي كل مكان،

فان البرقع الأسود سينحسر ويسقط ،
وسيرتفع بديله حجاب نير أبيض ...
وهناك ، حينما يحين الحين ، وتقع الواقعة ،
سيلبي النداء كل فتاة وفتى قائلين :
نحن من يبني دنيا جديدة ...

ثم جلست فانبرت شابة قائلة : أستاذ ،إنها لم تترجم المقطع الأخير ؛ اسمعوا :
ولتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم ...
وما دام العالم أجمع ينتظر فرج الرب لاعادة شعبه الى جبله المقدس ،
فان شعب إسرائيل حي ... إن شعب إسرائيل لا يموت ...

وكانت الوجوه الباسمة تحدى التشاؤم ، وتُصغي بهدوء الى الأنشودة الممتلئة أملاً وتوثباً ، وما كادت تنتهي ،حتى عاد الجميع الى المرح ،وعبق الضحكات الرنانة ، مما ينسي متاعب العمل ، ومشاق النهار الكادح ، ويضفي على النفس أملاً بمستقبل رحب رغيد .

وليس أبهج لأنفسهم من أن يدنو أحدهم من حرج الصنوبر ، فيومئ الى شجرة ويقول : هذه شجرتي .. لقد غرستها بيدي ، وتعهدتها بنفسي ، وهي رمز عملي ونضالي . ثم يشرحون لنا كيف ينظفون الأرض من أحجارها ، وكيف يقلعون صخورها باحدى ثلاث طرق : بنسفها بالديناميت ، أو قلعها بجرارات ضخمة أو بربطها بالثيران ، أو بطريقة الأقسام المجزأة ، على فترات زمنية ..

ووصلنا إلى ناحية منعزلة عن القرية ، وكان أول ما صادفناه حجرة الألبان ، وكانت جدرانها من البورسلين النظيف الأبيض ، وأخشابها مطلية بالدهان الابيض أيضاً ؛ وعلى النوافذ (مناخل)، وفيها مفرزة يدوية لفصل الزبدة عن اللبن ؛ وكانت الألبان موضوعة في أوان من الألمنيوم محكمة الغطاء ، وترى أكياساً ملأى باللبن لصنع الجبن ، معلقة فوق حوض خزفي أبيض ، تجمع فيه البقايا من اللبن الخفيف، والأمواه المنسابة ، التي تؤخذ طعاماً للدجاج بعد مزجها بالنخالة .

وقال أحد الطلاب : وغداً .. عندما نغادر شفيا آسفين ، نحمل العلم والمعرفة والخبرة .. سوف نؤسس مستعمرة ، ننقل اليها كل ما اقتبسناه في هذه الربوع ، وسننشئ حجرات خاصة للألبان والأجبان كما ترون ، وللزبدة أيضاً .. الزبدة الشهية المعقمة .. التي لن تكون عرضة للجراثيم ، وبؤرة للأمراض ..

فلم نعره اهتماماً ، شأن كل عربي يضايقه نجاح خصمه ...

أبقار يحسدها الانسان

ووقف الجميع مستبشرين أمام اسطبل البقر ؛ وهو اسطبل فني كالذي قرأنا عنه في كتبنا ، وشاهدناه في قواميسنا ، والشهادة لله ...

فسطحه شاهق ، تنير ظلماته نوافذ عالية ، واسعة ، تسترها (المناخل) وأبوابه واسعة أيضاً ، وأرضه من الاسمنت المائل ، فيها مجار متساوية الأبعاد ، ينساب فيها بول الحيوانات إلى ساقية صغيرة جانبية ،.. والاسطبل مقسم الى أجزاء متساوية ، في كل قسم بقرة بين حاجزين من الحديد ، وهي مربوطة من رقبتها بسلسلة لا تعوقها عن الأكل .. وهذه السلسلة مربوطة بعمود حديدي أفقي عالٍ .. وفي كل قسم لوحة كتب عليها اسم البقرة المحترمة ..

وكان الطلاب ساعتئذ منهمكين في الاستحلاب ، وقد أمسك كل واحد بين رجليه سطلا ، وجلس على كرسي من الخشب ، وراح يحلب البقرة ، لينقل اللبن بعد فترة الى المحال الخاصة ، وكان بعض الطلبة ينظفون الحجرات التي انتهوا من الحلب فيها ، فيفرشون التبن ، ويوزعون الماء والغذاء ، على البقرات المعززات ..

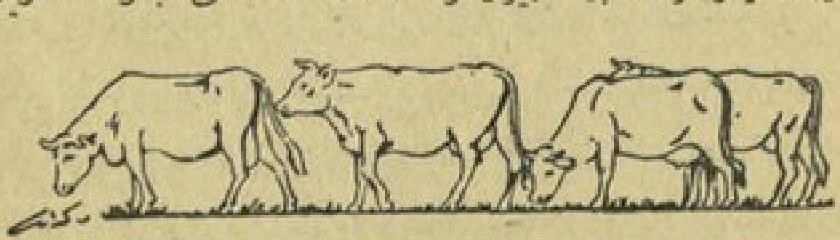

ووقف صاحبنا مطرقاً خاشعاً أمام هذه الاسطبل ، ينظر الى الأرض مرة ، والى البقر ثانية ، ويقول : ألا يتمنى كثير ممن نعرفهم أن يناموا هنا في هذا الاسطبل ؟

أليس هذا الاسطبل مرتباً ونظيفاً وصحياً أكثر بكثير من ألوف البيوت في قرانا التعسة .؟ ألم يشاهد هو في حوران أكواماً من الأحجار ، قيل له إنها بيوت الفلاحين ، وملاذ الحورانيين .! فهل يقول إن بعض فلاحينا لن يصلوا الى مرتبة البقرات التي يراها الآن بعد عشرات السنين .. واذا كانت البقرة محترمة ونظيفة أكثر من الفلاح ، فأي قيمة للكرامة البشرية ، وما عمل وزارات الزراعة من أقصى (أصوان) إلى أقصى (منقار البطة) إذا ما ظل الفلاح جاهلاً عارياً حافياً ، نطلب منه الواجبات، ونثني عنه الحقوق .؟ وهل تنجح أمة تسعة أعشارها يكدح لعشرها .. وهي لا ترتفع الى مرتبة البقر .؟ أليس هذا مما يثير النفس ، ويدعو الى الكفاح والنضال في سبيل رفع هذه المواشي البشرية الى مرتبة الناس العائشين في القرن العشرين .!؟

ثم كاد يخرج عن جلده من الغيظ ، وتابع قائلاً : لا .. لا ، ياقوم ! لا نجاح لنا بالخطب الرنانة ، والمقالات الزائفة ، والاجتماعات والمؤتمرات التي لا تنتهي إلا إلى نتيجة واحدة ، هي اتفاقنا على ان نبق متفقين أمام هذا الفلاح الكادح ، في صبارة الشتاء ، وحمارة القيظ ، نستغل تعبه ، ونمتهن كرامته ؛ ونستعبد زوجه وولده ، ونشيح عنه بوجوهنا ، لئلا يوسخنا بنظراته ، ثم نعلم أولادنا : احترموا الفلاح .. — شيء بيفلق ..

ولنترك هذه البقرات المثيرات للشجون ، ولننظر الى دار التوليد .. وحذار أن تحسب أنها لتوليد البشر .. لا ، لا ! بل هي خاصة بالبقر .. وهي مكان واسع غطيت جدرانه بالبورسلين الأبيض الناصع ، مقسم الى حجرات مستقلات ، تتسع كل حجرة لبقرة واحدة حامل ، وبجانبها جناح خاص لارضاع العجول الصغيرة ؛ ريثما يشتد عضدها .. وفي الجدار الخارجي لدار الولادة السعيدة ، أحواض تردها البقر يتدفق ماؤها نقياً ، من صنابير ضخمة ، يحيط بها حواجز حديدية قوية .

وهنالك اسطبل لثور هائل ضخم ، أنسانا ثيران غوطتنا التي نعتز بها ، ونحسبها مكتنزة شحماً ولحماً .. أما هذا فجسمه مكسو حقاً باللحم ، لا ترى له

عظما بارزا ، ولا ذباباً يتطاير حوله من كل جانب ، ولا يطين جلده روثه ، بل تراه نظيفاً ، مرعرعاً ، مستعداً لكل طلب .. ولعله (ثورإنسان) فهو يفهم الكلام والاشارات .. وما عليك إلا أن تقرع له الحديد مرة واحدة حتى يخرج رأسه ، ويطل عليك ، ومرتين فيخرج ليزور خايلاته البقرات، ومحظياته المحبوبات ، وثلاثاً ليرد المـاء ، وأربعاً ليعود الى قاعدته بعد طول جهاد ..

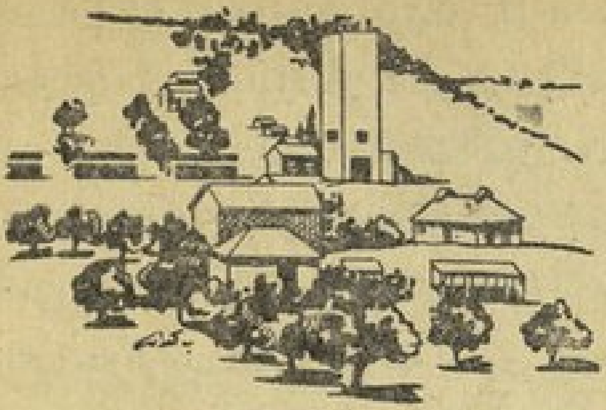

وكان بجانب مملكة البقر ، اسطبلات المـاعز ، ثم الضأن ؛ فثمة ترى الأوعية الخشبية مثبتة الى الجدران ، مترعة (بالنخالة) مع قطع (الخرنوب) الذي تكثر أشجاره هنالك ، ويوجد كذلك آلة يدوية (لجرش) الخرنوب ، وعرانيس(أمطار) الذرة .. وفى أقصى القرية ، منارة عالية ، بشكل متوازي المستطيلات ، وهي أنبار معدة للحبوب المعقمة بأبخرة (الهيدروسيانيك) حفظاً لها من الحشرات والعفن ..

وعن كثب من كل ذلك خم‍َمة الدجاج . وهي (أقفاص) ثلاثة واسعة جداً، مرتفعة عن الارض ، صنعت من الأسلاك الشبكية الحديدية ، فيها آلاف الدجاج الأبيض الصحيح ، لا سوداء واحدة بينها .. وعلى جوانبها عاب صغيرة ، لينحدر إليها البيض . وتسقى من بركة ، في وسطها نافورة ، يتجدد ماؤها دون انقطاع .. والبركة نفسها ذات أسلاك ، ابتعدت عن بعضها بصورة متسـاوية ، حيث تجتمع في القمة ، وكل دجاجة تدخل رأسهـا من شق بين سلكين ، لئلا تتعدى واحدة على أخرى .. أما الديكة ، ففي جناح خاص ، ينظرن الدجاجات ويرددن قول القائل : يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام ...

وانبرى الطالب المكلف بتربية الطيور والدواجن ، يحدثنا عن أولاده الدجاجات، وأفلاذ كبده الديكة ، بحماسة شهيد .. فحدثنا عن حياتها الميمونة ، وصحتها الغالية،

وغذائها وامراضها ، وانتاجها المتفوق ، وكيف ان الدجاجة استطاعت ان تبيض عنده مئتي بيضة تقريبا في السنة ؛ وهي سليمة من كل مرض . ثم ذكر نايبنات آوى التي تهاجم اطفاله بالليل ، وصوتها كمواء آلاف الهررة ولكنها لم تستطع حتى الآن ان تقتنص واحدة منها ، لمتانة الدفاع ... ولن تستطيع .!

مشتل ومطبخ

وقادنا الطلاب بعدئذ الى مشتل القرية ... فرأينا الاستاذ المكلف بادارته يعمل بنفسه ؛ وهو قدوة حسنة لطلابه ، وحبذا لو سمع بذلك اخواننا المعلمون .

والمشتل عبارة عن بهو زجاجي كبير ، ذي نوافذ متحركة ، وفيه آلة نفاثة للبخار في انابيب موزعة داخل المشتل ، لتعدل الحرارة في الشتاء ؛ وفيه ما شئت من الشتل والزهر والعشب ، وهو حقل خاص بالتجارب وتحسين الانواع ، أتت بأبهر النتائج ..

ولا يغربن عن بال القارئ ان كل مستعمرة ، او مؤسسة صهيونية ، تسعى جاهدة لاكتشاف طرائق جديدة زراعية او صناعية ، لتعممها على سائر المستعمرات ؛ ورحم الله زمانا كان العلم فيه محتكرا عند طائفة من الناس ، حتى اذا لقوا وجه ربهم رافقهم علمهم واندرس بموتهم ..! وتلك لعمري وصمة عار في جبين الامانة العلمية ، ونحمد الله على انها في طريق الزوال ..

واقبلت تلميذة مغناجة تمشي على استحياء وتقول : ألا تريدون أن تزوروا مملكتنا الصغيرة .؟ فتساءلنا عم تكون تلك المملكة التي تديرها فتيات يستسلم لهن كل جبار عنيد ..! وأخيراً ، علمنا انها تقصد دنيا المطابخ ، وعالم الطهي ..! وايس الذ لصاحبي وأمتع من هذه المشاهد المقبلة ... فما كاد يدخل المطبخ حتى بدأت خياشيمه ترقص (الرومبا) وتتحرك لتستنشق عبير الآكال والاطعمة المختلفة . وكان المكان نظيفاً جداً ، تدار اعماله بالكهرباء . امـا أوانيه فهي من الالمنيوم بلا استثنـاء . وتشرف على اموره امرأة بدينة قصيرة وسيمة ؛ تساعدها تلميذتان تتعلمان الطهي والتدبير المنزلي ، حسب دورهما في الدراسة . ولقـد شـاهدنا في ارجاء المطبخ ، قدوراً لطهي اللحم

واخرى لتسخين الماء ، فترتفع حرارتها، حسب الحاجة الى نوع الطعام ودرجة نضوجه، وذلك بمساعدة ارقام موضوعة على قرص يشير اليها سهم يدار بلولب . وثمة مقلاة كبيرة جداً تسخن بالكهرباء ، وادوات لطهي الاطعمة القليلة ، وبراد كبير لحفظ الفواكه والآكال وتثليج الماء ، ومكان خاص لتسخين الاطعمة الباردة على الغاز . وهنالك بيت مؤنة تستند الى جداره صناديق خشبية مطلية بدهان ابيض ، وقد خصص كل قسم منها لنوع من الحبوب والاملاح والتوابل . ويوجد الى جانب ذلك اخصاص على شكل مكعب ذات رفوف مثقوبة لحفظ البيض ، وخزائن لحفظ ادوات المطبخ وصحافه وزجاجه ، وامكنة اخرى لوضع الخلاقين اليدوية والقدور ، ذات رفوف من المعدن .. بجانبها احواض مختلفة تصب عليها صنابير ماء فاتر وبارد حسب الحاجة ، وذلك لانواع الادوات المتباينة عند غسلها .. فهـــذا حوض تغسل فيه الادوات الخزفية فقط ، وذاك للزجاج والبلور ، وتلك الاحواض للاواني المعدنية الملطخة بالدسم ، وغيرها للملاعق والسكاكين والشوكات ..!

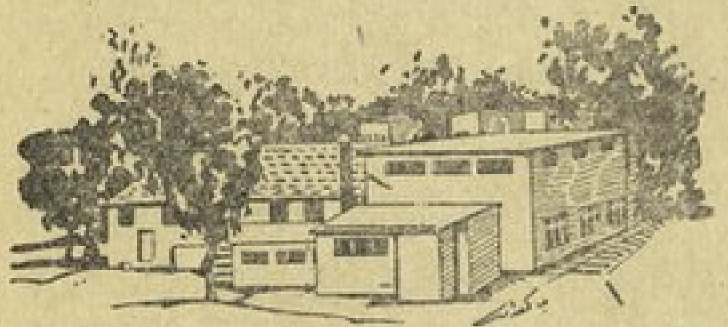

وهنا تحسر صاحبي وتأوه ، وهو يقضم (خيارة مكبوسة) قدمتها له المرأة الطاهية ، ولعلها اعجبت ببطنه المنتفخ وعينيه الجشعتين الى الطعام ، اكثر من الافكار التي يحملها في رأسه ... ولعله هو آسف ايضاً على انه لم ير في مدارسنا الثانوية ولا جامعتنا المبجلة حتى الآن ، مطبخاً مثل هذا المطبخ ، رغم ان الحكومة بوزارة معارفها لاتعجز عن خلق مثله ، ومثل موظفيه ، ومثل ادواته المكهربة ، وطهاته النظيفين ...! ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... والصبر طيب ...

وكان بجانب المطبخ مخبز (فرن) على الفن الحديث ، يحمى بمحركات نفاثة

لهب (المازوت) بمعايير تبين درجة الحرارة والضغط وشدة النار، خلاف ما نشاهده في مدينتنا المحبوبة .. وقد احيطت جدرانه واطرافه بالخزف الناصع ؛ وفيه معجن فني يدار بالكهرباء ، وآلة لقطع العجين ، وخزائن يبيت فيها الخبز ليلة ، ليجف ماؤه ويصلح للمعدة . ولقد حسبنا هذه الخزائن النظيفة الانيقة للثياب ، لولا ان تنبهنا الى وجودها في بهو (الفرن) ..!

وكانت الساعات تمر مر السحاب ، دون ان نشعر بالوقت الآفل ..! وفجأة وقفنا امام بناء حديث جميل الهندسة والتركيب ، حسبناه لاول وهلة احدى بنايات هوليود الحالمة ، او القصر المسحور للست بدور الذي حدثنا عنه قمر الزمان وولده شركان في الف ليلة وليلة ...

وسألنا عن البناء وساكنيه ، فاذا بصديقتينا تضحكان وتجران بيدينا اليه ، واذا به خدر الاناث الخاص وقصرهن المنيف .. وكأن قصراً برتقالي اللون تطل شرفاته الفسيحة على اشجار الصنوبر والسرو ، وحديقة المؤسسة العامة المترعة بالزهور ..! وعندما ولجناه فوجئنا بحجرات واسعة ، واسرة نظيفة ، تنافس ما للذكور وتكتسحها نظاما وترتيباً وتأنقاً ؛ ولا غرابة في ذلك ، فنحن في حمى الاناث ، ولعل الأناقة البادية على الاثاث ونظافته ، يعود الفضل فيها الى يد المرأة السحرية قبل كل شيء ..!

وطفقن يريننا بعض الاشغال النسائية ... وكان ادهشها تلك السلال والاكياس والحشايا ، المصنوعة من بقايا الأثواب ، ومزع القماش المقصوص ، حتى لا تضيع سدى دونما فائدة . وشاهدنا خزائن الاحذية الخاصة بكل حجرة ، وكأنها خزائن (التواليت) في غرف الغانيات ؛ حتى لقد همس صاحبي في اذني : وما رأيك في هذه الخزائن ..؟ الا ترى انها انظف واجمل من خزائن ربات البيوت في منازلنا ...! قلت بلا ريب ، وفي فمي ماء .. اما خزائن الثياب ، فقد رصفت على رفوفها وفي جواريرها الملابس التحتية وغير المكواة ؛ والى جانبها تلك الاكياس الآنفة الذكر ، يضعن فيها ادوات الزينة والصابون وفراشي الاسنان ..! وعندما خرج صاحبنا

من زيارة الحمام المفروش (بالبورسلين) سألهن ممازحا : هل يردن العودة الى الشام ..؟ فأجبن كما اجابنا الذكور، بصوت واحد فيه اغراء وفيه فتون : لا..لا.. ابداً ، لن نعود الى حياة الكسل والخمول .. لن نعود ارقاء عبيداً في دورنا ..! ومن الوفاء لهذه الجمعية التي خلقتنا خلقاً جديداً ، وبعثت فينا روح العمل والكفاح ان نؤدي الرسالة التي حملتنا إياها ..!

لقد مضى عشرون عاما على هذه المدرسة الريفية ، وهي تخرج الشبان والشابات فكانوا نعم العناصر الطيبة العاملة الواعية في بناء المستعمرات المختلفة ، وإنا على آثارهم مقتدون ...

قل كلمتك وامش

لم نر في طول هذه المدرسة او المستعمرة الصناعية الزراعية الكبرى، ناظراً او معيداً ، او مراقباً ..! فكأن كل واحد من الطلاب والشباب والمعلمين رقيب على نفسه .. ورحم الله امرأً عرف حده فوقف عنده ..!

ابداً ... لم نسمع ضجيجاً ولا هياجات ولا حركات ؛ فكأن النظام الحازم ، يقص اذناب البشر المتوحشين الجهلاء ، ويبتر أظفارهم بتراً . فلا احتجاجات ولا تظاهرات تقام ثلاث مرات في الاسبوع ، لتضيع على الطلاب الوقت الثمين ؛ ولا اضطرابات في سبيل اللوائح والقوانين المدرسية ..! بل هنالك : عمل وعلم ونظام. وان يوما يستتب فيه النظام في مدارسنا ، ويدخل في عقل الطالب ، ان مهمته في الحياة،هي الدرس والبحث ، وترك السياسات لاربابها ، وانه يسدي اجل خدمة لوطنه على مقاعد الدرس ، لافي الشوارع صارخا صائحاً : ليعش فلان وليسقط علان،

ان هذا اليوم هو رجاؤنا واملنا المكين ، لان نجاحنا ونجاح اوطاننا في طيه . وإنا لنعتقد مخلصين بانه سيُخلق ساعتئذ جيل واع هو مناط الامل ومعقد الرجاء.

إن الطالب في المدرسة الابتدائية او الثانوية او الجامعة هو انسان (بكر) عزيز النفس أبيها ، فمن الجرم ان يكون العوبة في ايدي غيره ، يحركونه حسب شهواتهم ومآربهم وميولهم ، قبل ان يكون له رأي شخصي ، صادر عن وعي

وفهم ودرس ...

فليكن حراً مستقلا ، لايفكر الا بفكره ، ولا يعمل الا برأيه ، لابرءوس الآخرين وافكارهم ونفوسهم ، لئلا يغادر المدرسة وقد فقد اعز امانيه واثمنها ، الا وهي : الشخصية ، وتلك وربي نكبة الاوطان منذ ربع قرن حتى اليوم ..!

* * *

ايها العربي :

لقد بسطنا امامك صورة جد موجزة عن (شفيا) ؛ هذا المخيم الصهيوني الذي يضم شتات ابناء اليهود من سائر بلاد العالم ، وانك لم تر فيه مدرسة ، بل مستعمرة كبيرة مترامية الاطراف ، تهيئ فتيان صهيون وفتياتهم ، للأمد الحافل بجلائل الاعمال ؛ وسترى في كل مستعمرة ، صورة مكررة (لشفيا) لصنع الشبان والشابات ، الذين يحملون رسالة الصهيونية .

واذا كان العرب قد قاموا بانشاء مزرعة (دير عمرو) لابناء المجاهدين ، فاكبر مانخشاه ، ان تبقى التجربة فردية ، ولن تكون سلاحه أفعالا ، الا بالكثيرات من امثالها . .

انا نؤمن بكل جوارحنا ، ان لجنة التحقيق الانجلو — الاميركية قد تحل القضية الفلسطينية ، وقد تقف الهجرة عند حدها ، وقد تحظر بيع الاراضي ، وقد تشل المقاطعة العربية اقتصاديات الصهيونيين ؛ ولكن هذا لن يدوم ،

ولا يمكن الركون اليه ، مادام في فلسطين صهيوني واحد ؛ فقابل اليهود ليس بقليل ، وان لديهم اساليبهم واحابيلهم الماكرة اللئيمة ، ولن نفل سلاحهم ، ونردهم على اعقابهم ، الا بسلاح العلم وانشاء امثال (شفيا) او بمضاعفة نموذج مزرعة (دير عمرو) ، وان نرفع مستوى القرية العربية ، ونكثر من التعلم بجانب العمل . وان يحيا الفلاح والعامل العربيان بجسمهما وعقلهما وروحهما في القرن العشرين .

أموالهم تخدم قضيتهم ...

أما أموالنا و ..؟

لم يطب لنا النوم عقب العشاء، رغم اتعاب النهار ؛ فجلسنا للسمر تحت اشعة القمر ؛ وكان فيلسوفنا الشاب مضطجعاً على العشب ، ينظر الينا بعينين ممتلئتين فحصاً وسبراً .. ! لقد كان يوجس شراً من زيارتنا ؛ ولولا بقية احترام لاستاذه القديم ، وحب للعلم متأصل في نفسه ، وميل للظهور كمحدث بارع ومطلع مثقف ، لما أجابنا على سؤالنا قط ..! ولعل كل يهودي في فلسطين يضن بالمعلومات القيمة عن نشاط الصهيونية وتنظيماتها ، وخاصة إلى العرب ..!

جلسنا وحولنا بضع فتيات ناعمات ، ونفر من الفتيان الساهرين ، نستمع الى هذا الشاب العالم ، ينثر علينا من معلوماته الشيء الكثير ... قال :

تسألونني .. من اين تجمع الصهيونية الاموال ، وتؤمن الموارد الضخمة ، لتحقيق مشاريعها الجبارة ..؟ سؤال بسيط ، ولكنه واسع متعب للذهن ..! وقبل ان اشرح ذلك ، أعيروني انتباهكم لحظة .. كيف تودون الاستقلال والخلاص من ربقة الانتداب ، والجهل ، والفقر ، دون مال ..؟ إن المال عصب العمل والانتاج والرقي .. وهو قوام الحياة والاستقرار والاستقلال .. فأمن رفيقي على كلامه بهزة رأس .. وتابع الشاب قوله كالحالم :

أبداً .. لن يكون هناك استعمار صهيوني ،دون مال وموارد مستمرة دائمة ..!

وإذا كانت الدول المنظمة ــ كما تعلمون ــ تعتمد في تغذية صناديقها وخزائنها، على وارداتها وضرائبها ؛ فان اليهود ليسوا دولة بعد .. بل هم أدنى من الدول المنظمة بكثير. إنهم منتشرون في سائر بقاع العالم ،ولا سبيل الى الجباية منهم، ومع ذلك، فيجب

تأمين المال لاستعمار فلسطين وانشاء الوطن ، أليس كذلك ..؟

فهز الجميع رؤوسهم صامتين.. ونعق بوم حينئذمن بعيد، بين أشجار (الاوكاليبتوس)، فضحك بعضنا وتشاءم الآخرون .. أما أنا فهمت في عالم غامض وكلي آذان صاغية.. ثم عاد الشاب يتمم حديثه :

ولذا فقد لجأقادة الحركة الصهيونية منذ فجر النهضة إلى الاشتراكات الاختيارية. فهنالك حاجات للانسان تتطلب نفقات مستمرة دائمة: كالتعليم، والمساعدة الاجتماعية، والاسعاف الصحي والطبي .. و .. أفلا ترون أنه لولا الموارد الوافرة ، والمال الغزير لما تأمن كل ذلك .؟إن نظرة واحدة تلقى على انتشار اللغة العبرية ،وخلاص الأهلين نهائياًمن الملاريا، والتراخوما،تكفي لتقدير النفقات الجبارة فيهذاالسبيل. وهنالك نفقات أخرى خاصة بالصهيونيين دون غيرهم ..! ألا وهي البذل في سبيل تهيئة المهاجرين ونقلهم الى فلسطين ، وإيجاد عمل لهم ..

فلا يمكن ان تنجح الحركة الصهيونية دونما إنفاق وسخاء . فالمال عصبنا – كما ذكرت – وهذا ما آمن به الرعيل الاول من زعماء الصهيونية فيفجر نهضتهم. فقد رأوا ان نجاح الحركة ومستقبلها ،يتوقفان على درجةتضحيةالشعب اليهودي؛ فأسسوا تلك المصارف الكبرى المشهورة ، فكان في الطليعة : (المصرف اليهودي الاستعماري) وغايته ..! وهنا ... زفر المحدث وكأنه يستعرض نضال اسرائيل التائه منذآلاف السنين ... ثم قال : لقد كانت غاية هذا المصرف سياسة أكثرمنها مالية ؛ ولذا فقد ظهر فيما بعد عدة مصارف تحت نحو ذات الاهداف ،وهي التي دعيت بمصارف : (الانكلوبالستين)

وقد أسست هذه المصارف عام ١٩٠٥ وجعلت إدارتها في (لندن) أمافروعها فكانت في القدس وحيفا ويافا وصفد وطبريا ... وهي بمثابة إدارة الهيئة الصهيونية العملية الفعلية ..!

ولست أنكر ما لهذه المصارف من امتيازات وفوائد هامة ،فيتقويم حركتنا؛ غير أن هنالك مؤسستين عظيمتين جداً ، هما قلب الصهيونية النابض بحق ،

أولاهما : (البنك الملي" اليهودي) ، وثانيتهما : (الكيرن هايسود) . وفجأة ..! زقزقت فتاة بغنج ودلال ..! فقد (زغدها) فتى كان بجانبها ، فلم تحمل لذة العبث الخفي ، فانفجرت رغماً عنها ، تتلوى وتتأوه ، مما أذهلنا وأدهشنا ..! بيد ان الشاب لم يتحرك من موضعه وهو يبتلع ريقه .. ـ وهنا نظر إلى صاحبي، ليؤكد لي ما قلته له في النهار، وهو أن الاباحية تجري في عروق (الصهاينة) وشرايينهم ، كما يجري الربا في تلافيف أدمغتهم. هذا وقد ابتسمنا للنكتة على فرض أنها نكتة ، وران على الجميع الصمت ؛ ثم عاد الشاب إلى حديثه : لقد تأسس المصرف الملي" اليهودي عقب اقتراح الاستاذ (شابيرا) عام ١٨٧٩ في سبيل تأسيس مصرف ، غايته إيجاد رأس مال دائم ، يكون ملكاً للملّة اليهودية ؛ ويستخدم في الغرض الاسمى للصهيونية وهو شراء الأراضي الفلسطينية ... ـ وتمتم المحدث بصوت وئيد : وأرجو معذرتي في هذه التصريحات ، فقد تكون مؤذية للعرب ، لأنها تبين مدى استعدادنا وتعاضدنا ، غير اني أقرر لكم ذلك كأمر تاريخي علمي ..! فابتسم صديقي ابتسامة صفراء أو خضراء ، وكلت له مثلها .. وتابع الشاب حديثه :

وبعد ، ، فقد اشترطوا ألا يمس رأس ماله ، حتى يبلغ مليون شلن أوخمسين الف ليرة فلسطينية، وعلى أن يبقى نصف هذه القيمة في المصرف ..!

غير أنه في عام ١٩٠٤ سجل هذا المصرف باسم (كيرين كايمت لاسرائيل) وعهد بأمواله إلى المصرف اليهودى الاستعماري . أما أمواله فتجمع من استعمال الطوابع البريدية الخاصة الاضافية ، التي تلصق برسائل الصهيونية ، كما تجمع من الدعوات ، والهبات الاختيارية ، ومما يدفع لقيد أسماء الأفراد ، والجمعيات في سفر الذهب ، أو ما يدعى بالعبرية : (سفرها ذهاب) وذلك عند كل ولادة أو زواج أو اختتان ..! ولليهود كما تعلمون اساليبهم الخاصة ..

ثم سعل الشاب ، واعتذر عن التطويل الممل" ، وقفز مسرعا إلى قوله : ولعل المؤسسة المالية الثانية ، أو العظمى ، واسمها كما قلت آنفاً : (الكيرن

هايسود) أو إن شئت فقل : شركـــة بناء فلسطين ، هي أخطر ما يفاد منه في فلسطين ، .! فان هدف هذه المؤسسة هو تأمين النفقات الاستعمارية كلها ، وخاصة نفقات المستعمرات الزراعية . وقد لاحظتم أن (الكيرن كايمت) هي لشراء الارض الفاسطينية، كيما تغدو وقفاً على الامة اليهودية بأسرها .. بينما هذه للانفاق العام ؛ فينتهي عمل الصندوق القومي الأول حيث يبدأ عمل الصندوق الثاني ...!

ولعلني لا أخطئ إذا قلت بأن مصير الوطن القومى يتعلق بمقدار ما يدفعه يهود العالم الى هذين الصندوقين ، فمستقبل الشعب اليهودي ، منوط بدرجة وجدانه القومي ، وبفكرة التضحية المالية لديه لتأمين موازنته . وهنا همس رفيق قائلاً : أما نحن العرب، فكل ما يقدمه المخلصون من الأموال هو : شيكات هائلة، من الخطب والنقد والمواقف المسرحية الشهيرة ..! ولا حول ولا ... وتابع المحدث :

وإن هذه المؤسسة المذكورة تشترك في كل المشاريع الخاصة او الاجتماعية ذات الصبغة الاستعمارية أو القوميه : كبنك الرهونات ، وبنك العمال ، وجمعية الانشاءات التعاونية ؛ وشركة كهرباء روتمبرغ وغيرها ..! في اشتراك (الكرين هايسود) في أمثال هذة المشاريع ، إنما تستهدف أهدافا تجارية بحتة .لأن جميع الأموال التي تغذيها ، تدر لهـا ربحاً وفيراً ؛ ثم تعاد اليها ..! وهذه الأرباح لا تعود الى جيوب الاشخاص أبداً ؛ بل إلى صندوق (الكرين هايسود) ذاتها فيزداد رأسمالها ، وتنمو مشاريعها الاستعمارية والقومية ... وهكذا تعمل بقية صناديقنا..

وهنا تثاءبت فتاة نجلاء العينين ، ناهدة الثديين ، ذات عجيزة (ومدوّرات) يتلمظ عليها أضراب الرياشي التائه ، وصاحبنا المفتون ، من عشاق الجمال أينما وجد ... ثم قامت تمطى وتعتذر ، فقد كحل النوم مقلتيها بالسحر ، ولم يعجبها الحديث العلمي ؛ فساحة معرفتها لا تتعدى المزرعة أو (الكيبوتس) وربما لا تتعدى لطائف ذلك العبث (والنكش) و و .. مما يحبذه أبناء صهيون ..!

وما أن ابتعدت ، حتى لحق بها آخر، وقد جفت شفتاه ، ولعل النوم كحل مقلتيه كذلك ؛ وغابا بين جذوع الصنوبر في ظلمة الظلال ، تحت نسيج واه من

خيوط الهلال تكاد لا تبين ...!

وشرع صاحبنا يتنهد ويكبت غرائزه وميوله .. بينما رحت أسأل الشاب وقد اعتدل في جلسته : وهل تجمع الأموال كلها من فلسطين أم من الخارج ..؟

فاشار بيده متمهلا وقال : لاجدل في أن منابع المال ليهود فلسطين ، هي من الصناديق العامة او من الصناديق القومية التي ذكرتها آنفاً .. غير أن هذه المنابع قد تكون من الخارج احياناً ،تصلنا مع اصحابها او ترسل من قبلهم،بينما هم يظلون في بلادهم . وقد تكون ايضاً ناجمة عن فيض الاموال الموظفة في فلسطين ،بسبب اعمال المؤسسات الآنفة ..! لكنا لانعتمد قط على ثروات المهاجرين،مهما كانت ضخمة، ولا على الملايين المكدسة ،التي يرسلها من الخارج ،يهود مثرون، فكلها في عالم الريب إذ من الممكن أن ينقطع واردها بين ليلة وضحاها ..! فرؤوس الاموال الاجنبية تختلف عن القومية كما ترون،ولايمكن وضعها موضع التداول إلا اذا أمن اصحابها على ارباحها في فلسطين . لان المشاهد ، هو أن اليهودي ويا للأسف ، مهما تحمس لوطنه ، ومهما حركه الشعور النبيل ، فان اعتماده في البذل قبل كل شيء هو على الربح ..! بيد أن الاموال المستخدمة في فلسطين قد لا يرجى منها خير احياناً، وقد يأمل الفرد منها ربحاً آجلا،او غير كاف او بين بين ..! وإن أشد الصهيونيين حماساً وغلواً ،لايرغب في توظيف أمواله،دون ربح اوفائدة مضمونة . ولذلك فان الجهود ستكون هائلة في سبيل جمع المال وتوظيفه ،وإرضاء الشعب المتمول وغير المتمول ليظل على منهاجه في البذل .

ورغم ان المؤسسات تفيد كثيراً من شتى النواحي المذكورة ،وتزيد مواردها لتأمين الموازنة اليهودية ، فان هنالك حاجات تبتلع هذه الموارد وتدرها ؛ كالحاجات التي تشكل أساس الاستعمار الزراعي في فلسطين ؛ وبكلمة أوضح ، أي : إنشاء المستعمرات الزراعية ...

* * *

وهنا .. انفرط عقد الجمع ، وتسلل واحد تلو الآخر أو الاخريات، حيث لم

يبق سوانا مع صاحبنا الفيلسوف الشاب، وهو جالس على العشب لايتحرك إلاقليلا، دون أن يغير جلسته أو يقطع حديثه الطريف .. وقال بينما كان يمضغ قشة من الكلأ الجاف :

على ان رؤوس الاموال الخاصة، لن تغريها المشاريع الزراعية ، ولن تغريها ابداً ..! ولو استندت اليها فقط ، لافلست هذه الاموال والمشاريع على السواء . بيد أنه لولا الزراعة، لمانشأ وطن قومي صهيوني ، ولرجع اليهود في فلسطين الى اسوار (الجيتو).. فالعمل الاساسي الانشائي إذن هو شراء الارض وتأسيس المستعمرات .. فإليها يستند كل عمل اليهود في المستقبل . ولقد نوقش عدد السكان الزراع في فلسطين، فوجدوا أنه يجب أن يكون الثلث زراعا ، والثلثان تجاراً وصناعاً ؛ ليقوم اساس الوطن القومي .

إن رؤوس الاموال الخاصة، لاتتقدم نحو المستعمرات الزراعية الا نادراً ؛ وعلى ذلك فهم يلجؤون الى الاموال القومية في هذا السبيل .

ولذا كان جل اعتمادنا على صندوقي ال (كيرين كايمت لاسرائيل) وال (كيرين ها يسود) : فقد جمعت المؤسسة الاولى خلال اثنتي عشرة سنة (١٩٢٠—١٩٣٢) مليونين ونصف من الجنيهات ، وجمعت الثانية ، في الفترة نفسها مايربو على ستة ملايين جنيه ...

وكل هذه الاموال هي تبرعات يقدمها الفرد منا ليساعد امته ؛ والأمة باجمعها توبخ بل تلعن كل عضو من اعضائها لايؤدي واجبه هذا ، وتعتبره خائنا خسيساً يود انقراض شعبه ، او دوام عذابه ، ولنذكر دائماً وأبداً كلمة زعيم الصهيونية الاول (هرتسل) « ان الشعب الذي يجهل التضحيات ، لايستحق الحياة . »

ثم سكت محدثنا ، وكأنه مل الكلام ، او ادركه النعاس . ولقد آذانا حديثه رغم حياده وسعة اطلاعه ؛ لان من أشد الالم أن ترى عدوك مجهزاً بكل عدة جديدة ضرورية ، وانت لاتملك سوى القليل من العمل ، والكثير من المعنات والصياح

* * *

فيا أيها العربي :

ان ما شاهدته اليوم ،من توسع الصهيونية وازدهارها في ربوع فلسطين ، وما يأمله القوم من تحقيق المشاريع الرهيبة في المستقبل القريب ، لخلق وطن قومي ، لايقتصر على فلسطين وحدها ، بل يشمل الاقطار العربية المجاورة ، وهي مجالهم الحيوي ، ولم يكن بالامكان ظهوره ، لولا التضحيات الكبرى التي يبذلها اليهود في مشارق الارض ومغاربها .

وان العربي الذي لايحجم عن البذل ، ولايتقاعس عن العطاء ، والذي يعلم ان فلسطين هي قلب العربية النابض ، ليشعر اليوم بعبء المسؤولية ،امام الخطر الداهم .

. واذا كان (صندوق الامة العربية) ، لازال يحبو ، رغم ماقام به من أعمال : من مشتريات الاراضي ، ومساعدة الفلاحين ، وارشادهم وتدريبهم ، فان الآمال معقودة على ان تضاعف له الحكومات العربية يد المساعدة ، وان يهب متمولو العرب ،في سائر اقطار الارض لتغذيته ؛ وليعلم كل عربي ، أن كل قرش يزيد في واردات هذا الصندوق ،هو طعنة موجهة في صميم الصهيونية ، وانقاذ لشبر من ارض الوطن العربي العزيز ...

واذا كان المؤرخون يجمعون على ان (نابليون) لم يهزمه اعداؤه إلا بعد ان حذقوا اساليبه ، وقبسوا عنه فنه الحربي ، فان خير حافز لكفاح الصهيونية ، ان نستعمل نفس اسلحتها ؛ والمال هو اعظم سلاح في هذه الدنيا ، وهو سلاح الصهيونية الاكبر ...

وبعد فيا أيها العربي :

ان المشاريع الزراعية ، والصناعية ، والتجارية ، والاعمال الثقافية ، وامور التنظيم والدعاية،بحاجة الى روافد لاتنضب من المال ؛ وإن (صندوق الامة العربية) لينوء عن القيام بكل هذه الشؤون . وإذا كانت الوكالة الصهيونية ، تشرف على اقتصاديات صهيون ، وتهيب بنفوس اليهود ،اينما ثقفوا ،الى مضاعفة العطاء ، فان لنا

الامل الوطيد بان تشرف الجامعة العربية ، بلجانها المختلفة ، على اقتصاديات فلسطين ، وتدعو العرب طراً الى نصرة القضية المقدسة .

وبذلك نخلق فلاحاً صالحاً يحتفظ بارضه ، وعاملا نشيطاً يخدم بلاده ، وتاجراً واعياً يعمل جاهداً لرفع الكابوس الصهيوني ، ويعيد الى فلسطين رونقها وكرامتها ، ويطمئن العرب جميعاً الى ان فلسطين لن تكون (اندلس) ثانية .

فإلى البذل والعطاء ، والى التنظيم ، ومضاعفة الجهد ، والى محاربة الصهيونية باساليبها واسلحتها ...

في الطريق الى تل أبيب

وداع شفيا

بعد نوم هادىء لذيذ في حجرة نظيفة أنيقة ، نهضنا قبيل الفجر، نستمتع بهواء الصباح ، وشروق الشمس ، وانغام الراديو ، التي يستيقظ عليها القوم كل نهار .

وبدأت تباشير النهار بأشعة الشمس الذهبية تكسو البطاح والروابي ؛ وشرع القوم ينهضون بحزم وعزم ويتجهون نحو الحمامات ، شأنهم كل صباح . واختلط صاحبنا بهم ، ليحظى (بدوش) على نفقة اسرائيل ، وليبيد حشائش ذقنه المرعة... وما ان قضى وطره ، حتى عاد متسائلا : كم عدد العمال والفلاحين في بلادنا الذين يغتسلون مرة في نهارهم ، أو أسبوعهم أو شهرهم ؟ ألا تعتقد أن بعضهم يحتفظ بماء المعمودية، حتى يلاقي وجه ربه طاهراً بتولاً ، وأن منهم من لا يتوضأ أو يغتسل ، ولو تصاعدت من جسمه روائح هي مزيج من العرق والتراب ، متناسياً الحكمة البليغة أن العقل السليم ، في الجسم السليم ..؟

وبعد طعام الصباح ، أحاط بنا الطلبة ، يزودون أستاذهم تحياتهم لأهاليهم وأترابهم في دمشق ، وقد هيؤوا لنا دابة تنقل أمتعتنا إلى (زخرون) يقودها (عاني) هو ساعي البريد ، لهذه المؤسسة الرابضة في شعفات الجبال .

غادرنا (شفيا) ونحن نفكر بطلابها وطالباتها ، وجلهم من العرب ؛ نفكر بهم وقد تناسوا قوميتهم ، وغدت دماء الصهيونية تجري في عروقهم ، حتى أصبحوا حرباً على بلادهم . ألم يكن بالمستطاع الاستفادة من هؤلاء الشابات والشبان في سورية ولبنان ، والعراق ، واليمن ، ومصر ، وتحت كل سماء عربية ؟ إن التنظيم والعلم والتربية ضمنت خلقهم خلقاً جديداً ؛ فعلام تترك هذه النفوس البريئة لقمة

سائغة بين شدقي الصهيونية ؟ إنا نستطيع الاستفادة منهم ،لخير بلادهم ،بالتوجيه الصحيح ، والعلم السليم ، والدعاية الحسنة ، وحرام علينا أن نفرط فيهم ، وبلادنا بحاجة الى كل عنصر نشيط ، وإن جريمة هجرتهم تقع على عاتق أوليائهم ، الذين رموهم طائعين مختارين في أحضان الصهيونية !

فنون التهريب الصهيوني

لم نكد نهبط زمارين أو (زخرون)حتى ركبتنا أبالسة الجحيم ، تغرينا باستعمال أسلحة المكر والخداع ؛ فاذا كانت القاعدة : (بين العوران أعور عينك) فكيف بنا ونحن تنتقل من مستعمرة صهيونية إلى أخرى ؟ وهل علينا حرج أن نتزيى بزي القوم ، فنمكر بهم ، ونحصل على أكثر مما يكون في حسابنا ؟ ليس أهون من هذه الطريق ... فما إن راودتنا الفكرة حتى حملتنا المردة الشياطين إلى متجر فخم في البلدة ، فدخلناه من أبناء العرب ، وخرجنا من أبناء خيبر أو أتباع صهيون ...

نعم ، فقد لبس صاحبنا القبعة ، والقميص المفتوح ، والسروال القصير ، وثنى جواربه الى الكعبين ، وبدا شعره الوحف ، ـ لا أراك الله مكروهاً ـ وبدا كارد جبار ...

وهكذا ظهرنا بالبستنا الجديدة الصهيونية ... حتى أن صاحبة الحانة التي تناولنا عندها أكواب مرطب(الاسيس) وبادلناها أشواقاً بأشواق ، قبل زيارتنا(شفيا) ذهلت لمرآنا ، وشدهت ، ونكصت على عقبيها ، تتأملنا من بعيد . فمن نحن ؟ وما هدفنا ؟ وماذا نصنع .؟ أيهود مهاجرون ، أم سماسرة أم مهربون ؟ وهل يرجى منا خير .؟ وقفت تتأملنا ، وعيون صاحبنا التواقة لكل جمال كانت تجوس جسمها المكتنز ، وتكاد تخترق ما وراء الثياب ...

ودنا منا يهودي ظنّنا هاربين ، فقال همساً : شالوم ، فرد عليه صاحبنا التحية باحسن منها : شالوم آدوني ، فسأله الرجل : هل أنتم هاربون ؟ أبداً ، هنا أمان ، لا تخشوا شيئاً أنتم في بلادكم ، وبين ذويكم ، ثم جعل يهرف ويهذي بينما كانت عيناه

الزائغتان تنتظران الثرثرة منا . فلما أجبناه بفرنسية عالية جداً ، كالتي ينطق بها أعضاء المجمع اللغوي الفرنسي، لم يفهم شيئاً ، وارتبك ، وخشي العواقب . .

فهؤلاء اليهود ، يعلمون ان الهجرة غير الشرعية مستمرة ، مهما أقيم في سبيلها من عراقيل ، وان الذين يدخلون الدار من نوافذها ، أضعاف من يدخلونها من أبوابها . فقد ثبت في جميع الادوار ، أن الذين دخلوا البلاد خلسة ، بصورة غير شرعية ، كانوا أكثر ممن دخلوها بجوازات . وحذار أن تحسب كل الجوازات رسمية . ! لا ، أبداً .. فهنالك جوازات مزورة ، كان يبتاعها المهاجر بعشرين جنيهاً فلسطينياً . .

أما طرق التهريب (الرائجة) فكثيرة ! فهي تحدث حين إقامة الحفلات الاولمبية الرياضية ، التي كانت تقام كل سنتين مرة ، ولقد دخل بفضلها عدا اللاعب الاصلي، ألوف غيره ، سمروا في فلسطين . .

وتحدث أيضاً حين إقامة المعارض الصناعية، التي تجري كل سنتين ؛ فينسل إلى فلسطين ، باسم زيارة المعارض،ألوف مؤلفة من اليهود الاغراب ، مع بضائع ومتاع، لا يجبى عنها رسم أو مكس ، بحجة أنها معروضات . ولا شك في أن الزائر الكريم وبضاعته يظلان في فلسطين حتى قيام الساعة .

وهناك طريقة الاستيعاب ، وهي سبيل علنية لهجرة اليهود .! فثمة تقارير صورية تقدمها المعامل الصهيونية ، وورش البناء ، الى الوكالة اليهودية ، تظهر فيها الحاجة الماسة للايدي العاملة ،وهذه بدورها تقدمها الى الحكومة ،فتصادق عليها، وتصدر أمرها باعطاء شهادات الهجرة ، بحجة قوة الاستيعاب ، التي عمل بها منذ عام ١٩٢٢ عندما أذاعها المستر تشرشل .. وزير المستعمرات ، حينذاك . .

ولا تنس أن الحكومة تسمح للمهاجر بادخال أقاربه ، كالزوجة والاولاد . . ولقد تعدت هذه القرابة الى الاعمام والأصهار والاخوال ، ومن هم في الدرجة العاشرة أحياناً .!

ويكفي المهاجر المهرب ، والمقبوض عليه لسوء حظه ، ان يضع خاتماً فى إصبع

احدى الفتيات، ليغدو خطيبها، ولا يجوز ساعتئذ إبعاده، بفضل هذا الزواج الصوري الصهيوني الخاطف ...

أما إذا تعذر على اليهودي الحصول على شهادة الهجرة ، فإنه يجعل نفسه خادماً أو طالباً ؛ وهنالك سيول من اللاجئين الذين يدخلون فلسطين سياحاً ويبقون فيها..

أضف الى ذلك هؤلاء الجنود اليهود ، في الجيوش الحليفة ، فلقد آثروا البقاء في أرض اسرائيل . ولكم حملت السيارات الحربية ، شباباً وشابات ، دون أن يشعر بهم رقيب . وفي الليل والنهار ،وفي البر والبحر، لا تنقطع سيول المهاجرين ، ولا سبيل الى مقاومتهم ، إلا بضرب نطاق حديدي حول فلسطين ؛ فلا يتسرب من البحر أو عن طريق البلاد العربية شيطان صهيوني ..

وسأل صاحبنا الشاب الذي يتبعنا كظلنا : أي المستعمرات ، أقرب الينا الآن ؟ فعجب من ذلك ودهش ، ثم قال : وهل تريدان العمل والحياة هناك ؟ فأجبناه : بلا شك ..! فابتسم ، ونظر الينا كمن يقلب بضاعة يرتاب فيها ، ثم قال بعصبية ظاهرة : أتودان أن يرى أحدكما أخته بين ذراعي رفيقه ولا يتحرك ؟ أتبتغيان إباحية الاعراض ، كالبهائم ، فلا يعلم أحدكما مصدر ابنه ، وهل هو شرعي أم طبيعي ؟ وهل أزعج من إباحية الصهيونيين ، واتصالهم الجنسي الفوضوي، الذي لا يعرف القيود والأغلال؟ إن الحياة بينهم جحيم لا يُطاق ، فالقبلات بسعر التراب، والعناق على قارعة الطريق، وفي وهج الضحى هو تحية مشروعة لأولاد إسحق ويعقوب ، لا تلفت الأنظار ولا تثير الاهتمام .! وإن الشبان والفتيات يهزون رؤوسهم للزواج ، ويسخرون منه سخرية مرة . . حتى ان الحاخام المبجل يطوف بالمستعمرات ، ويحاول ان يقنع البنات والأولاد الأشقياء ، بأن يجعلوا حبهم وغرامهم شرعياً على « سنة الله » ، فلا يجد لنداءاته من مجيب . ولعل حرارة شمس الشرق ، أثرت في نفوس المهاجرات والمهاجرين ، وجعلت الدماء تغلي في العروق ، والنضوج الجنسي يبدو باكراً ، فأصبحت قلوب فتيات صهيون كما قيل ، غرفاً أنيقة، لاتكاد تخلو من ساكن قديم ،

حتى يهرول اليها ساكن جديد ، ولا يكاد قلبهن يخلو حتى يعلقن لوحة عليه : للايجار ولو بالتقسيط . . !

فأومأنا بالايجاب ، ثم انطلقت من أفواهنا قهقهة عريضة ، فلم يدرك لذلك سراً ؛ ودنا صاحبنا منه ، هامساً في أذنه وهو يشير إليّ : حذار ، إنه من الانتلجانس سرفيس (دائرة الاستخبارات الانكليزية) فلا تتدخل فيما لا يعنيك ..

فلم يصدق الرجل ، ولكنه خرس بعد هنيهة ، وامتقع وجهه ، وهبط قلبه إلى سرته ، ومنها الى حذائه ،

وفي هذه اللحظة ، مرت صاحبة الحانة ، تلك النصف البولونية الحسناء ، وهي كنسيم البحر ، ينبه الحواس ، وينعش الأجسام ؛ فنظر اليها صاحبنا ساهماً ، فهو أبداً جائع القلب ، ظامئ الروح ، يريد ان يأكل من جسم حواء حتى يشبع ، وأن يشرب من ثغرها حتى يرتوي ؛ وآه ، ثم آه من جوع القلب وظمأ الروح .! وكانت عيناها تلمعان ببريق غلاب ، وكأنها تود أن تثق بنا حقاً ، فتحسبنا من ابناء اسرائيل المغامرين ؛ فتفتح لنا صدرها العامر ، لنقطف ما شئنا من رمان حان قطافه ، أو تتصدق علينا بشطيرة من شفتيها الجائعتين الصالحتين للقضم بكل معنى الكلمة ..

ولو لم تسعفه سرعة بديهته ليحييها بـ (شالوم) ، تلك الكلمة التي تعلمها بعد صبر جميل ، لما أنقذ الموقف ، أمام اليهودي المتطفل ، والمرأة التي رأت فينا مثال المغامرين .

وبينما نحن ننتظر السيارة ، انتهزنا الفرصة ، ورحنا نتحدث الى جماعة من العرب يذرعون الطريق ؛ ولقد خشوا أن نكون يهوداً ، فلم يهبونا ثقتهم وصداقتهم .. وهكذا أصبح العرب لا يعترفون بنا ، واليهود لا يقرونا ، وويل لذي وجهين . . . وكاد صاحبنا يخرج هويته ليثبت أنه عربي وابن عربي ، حتى اقتنعت الجماعة واسترسلت في الحديث . وفهمنا ان البلدة — زمارين — بأسرها لليهود ، لا يملك العرب منها شيئاً ، وهم يسكنون القرى في الجبال البعيدة ، ويؤمون الحاضرة ، ليبتاعوا حوائجهم من محلات الصهيونيين .

ومهما أوتي الانسان من قوة الخيال ، فلن يستطيع ان يدرك كيف زحزح العرب عن أراضيهم ، ليحتلها اليهود ، حتى ان عشرات القرى العربية ، قد اندثرت معالمها ، وزالت معاهدها في ظل الانتداب ، وقام مقامها مستعمرات صهيونية ، بعد أن أجلي عنها العرب ، ليعانوا شظف العيش ، ومرارة التشرد .

وهل تخيل الانسان ما ستكون عليه النتيجة ، فيما لو انتقلت الارض ، على مر السنين ، رويداً رويداً من يد مالكيها الاصليين العرب ، الى اليهود الدخلاء ؟ أيمكن ان تعيش أمة بدون أرض ؟ ربما ، نعم ! واليهود انفسهم حجة علينا . ألم يعيشوا آلاف السنين ولا أرض لهم ؟ ورغم ذلك ، فإنهم ألفوا الأمة اليهودية في التاريخ .. غير ان هذه الحال تكاد تكون نادرة ؛ ولو لم يتمتعوا بالثروات الضخمة ، والعلم الغزير .. والتعاون الوثيق ، لما قامت لهم قائمة .. !

على أن العرب إذا فقدوا الارض فقدوا كل شيء .. ! وهل تحسب الصهيوني الذي يشتري أرضاً يبقي ساكنيها فيها ؟ كلا .! ثم كلا ! إنه يشتري الارض ليطارد أهلها العرب .. إن الهجرة طردت كثيراً من العرب الفلاحين ، وهذه هي الوكالة اليهودية تعترف عام ٩٣٠ أمام لجنة التحقيق ، أن (٦٨٨) فلاحاً عربياً ، طردوا مع عائلاتهم من مزارع وادي (الجسريل) فقط ! ومن البديهي أن هذا العدد هو أقل ما يمكن أن يعترف به صهيوني ..

ولئن تشدق الصهيونيون بأنهم يدفعون تعويضاً سخياً للفلاح ، فاننا نعلم ان هذا التعويض السخي ، لم يتجاوز عن كل عائلة عربية ، الواحد والاربعين جنيهاً فلسطينياً تقريباً ، كما يذكر ذلك الدكتور (جرانوفسكي) مدير الخزانة الوطنية اليهودية . ولا يجب ان ننسى أيضاً ذوبان هذا التعويض في بوتقة ديون الفلاح ؛ فتسدد الديون منه قبلما يشد رحاله عن الأرض ، شريداً طريداً . ولقد كانت ديون الفلاح بصورة وسطية عام ٩٣٠ تعادل السبعة والثلاثين جنيهاً .

أما أثمان الارض الباهظة ، فلم ينلها إلا كبار الملاكين الاقطاعيين ، وجلهم من خارج فلسطين ، كآل سرسق مثلا ، الذين باعوا وادي الجسريل بأجمعه ، وبلغ

ما تناوله اليهود منهم عشرين قرية كاملة بأرضها وسكانها ، وحيواناتها ..

أجل، لم يفد صغار الملاك من مبيع الارض أبداً ، لان تسعين في المئة من الاراضي المباعة ،هي من أراضي كبار الروس ، عظماء الهامة ، كما يقول أحد رجال الصهيونية العالميين . .

***

فيأيها العربي :

أليس مما يحز النفس ويملؤها أسى ، أن ترى أبناءك وأطفالك ونساءك ، يهيمون على وجههم في الأرض ، لا يجدون لأنفسهم ملاذاً ولا سكناً ، بعد ان احتل الصهيوني أرضهم ؛ وجاس الديار ، وطمس الآثار ؛ لقد علمت ان أمل الصهيوني الأعظم،هو احتلال الأرض بأي ثمن ، ولولا الأرض لما قامت له قائمة ،ولولاها لعاد شريداً طريداً تحت كل كوكب ؛ لولا الارض لما استطاع الصهيونيون أن ينشئوا مزرعة ، او معملا ، أو مدينة؛ولولاها، لما توافدوا من زوايا الدنيا الأربع؛ فخير طعنة نجلاء تردبها في صدر عدوك الأرقم الغشوم ، هو حبس الأرض عنه، وحرمانه منها الى الأبد ، ليراها بعينه ، ويتمزق من أجلها قلبه ، ويتفطر كبده ؛ فليكن شعارك دائماً وأبداً : بيعوا اليهودكل شيء ، إلا الأرض ، ولا تشتروا منهم شيئاً إلا الارض ..

في تل أبيب

وكما تهفو قلوب الحجيج لرؤية البقاع المقدسة ، كانت كبد صاحبنا تذوب حناناً الى (تل أبيب) ، الى هذه المدينة الغربية ، في بلادنا الشرقية .!

كان يتلهف شوقاً الى رؤية قلب الصهيونية النابض ، ودماغها المفكر ، ودرة جهودها طيلة السنين ..

وفي الباص ، جلست الى جانبه بحكم المصادفة فتاة صهيونية ، والمصادفة كما تعلمون عمياء ؛ فانتهز الفرصة السعيدة ليغازلها عن طريق العلم والجد ؛ فمط رقبته نحوها ، وسألها باسماً بلغةلك أن تدعوها : كو كتيل لغات .. سألها عن تلك المعامل والمزارع التي تكتنف الطريق ، بعد ان تمنى لها عدم الازعاج .. فابتسمت له ، وقد أيقنت أن ليس في خلقته ما يشجع على عصيان الله ؛ ثم بدأت تحدثه عن كل بناء ، وعن كل بقعة نمر بها ، وتشير الى كل ما يجذب الانتباه . فهنا معامل النسيج ، والأدواء وأحجار الماس ، وهناك معامل السكاكر والشوكولاه والزيوت والسمن ، وهذه معامل الدباغة والنجارة والحدادة ، وتلك معامل الأسنان الصناعية والكيمياء والاسمدة .. معامل لا تنتهي ، إلا لتبدأ من جديد ..

ولعلها تمنت البقاء معنا لارشادنا الى ما يفيدنا ، كأبناء ملة واحدة ؛ ولليهودي الغريب مكان مرموق في (كادر) نساء صهيون ، غير انها اعتذرت وتلطفت بأنها لولا هدفها (هرتسايا) تلك المستعمرة القائمة في أرباض (تل أبيب) ، لكانت دليلنا ورفيقتنا ، وربما ملاذ لهونا — على رأي صاحبنا — ومتعتنا الى حين ..

ولم تنس قبل هبوطها من السيارة ، أن تهمس في آذاننا هاشة فرحة : إن الصناعة الصهيونية تتكاثف كما رأيتم في حيفا وما حولها ، وفي تل أبيب ، وماجاورها .. وقد خطت خطوات هائلة في مضمار الرقي ، وسنداها الرئيسيان : معهد الدكتور (وايزمن) ، والجامعة العبرية ، سندا الحياة الزراعية أيضاً .

وربت صاحبنا عندئذ على كتفها كالمتحبب الصدوق ، وقال : إن الصهيونيين بنوا المعامل ، نعم ، ورقوا الصناعة ، نعمين ، وغمروا الاسواق بمنتوجاتهم ، ثلاث نعمات ؛ ولكن لا تنسي يا عزيزتي تلك الخبرة الفنية التي انتقلت معهم من أوربا تامة كاملة ، كما تنتقل الثياب الاميركية من بلد الى آخر ، جاهزة مفصلة .. فأجابت وقد حملت حقيبتها تهم بالنزول : او تريد ان تقول : إن الصناعة انتقلت من الغرب في رجوله كاملة ، دون أن تمر في فلسطين ؟ فأجابها كما يقتضي المقام : طبعاً ، طبعاً ، وإلى اللقاء ، وألف شكر ...

ثم التفت إلي ، بعد أن شيعها بنظرات يفهمها اللبيب ، وقال : لقد سها عن بالهم أن هذه الصناعة ، إن تقدمت في ربوع فلسطين ، فليس الفضل في ذلك للصهيونيين ؛ بل لأسيادهم الانكليز ، الذين فرضوا حماية جمركية هائلة ، على المنتوجات المستوردة ، وأعفوا كثيراً من المواد الخام ، والمواد المصنوعة صنعاً أولياً ، والفحم ، والاكياس ، والآلات من كل رسم جمركي .

وإذا أدركنا ان أكثر المعامل في فلسطين ، يقوم برؤوس أموال انكليزية ، أو أمريكية ، تحت أسماء صهيونية مختلفة ، فهمنا عندئذ سبب هذه الحماية ، التي أضرت بالسكان العرب أعظم الضرر ، وجعلتهم أمام أمرين : إما أن يدفعوا ضريبة جمركية هائلة عن وارداتهم ، أو أن يشتروا البضائع الصهيونية . !

واذا علمت أن الصهيونيين يضيفون على ثمن كل حاجة يصنعونها ٢٥ ٪ من ثمنها الأصلي ، باسم شراء شبر من فلسطين ، أدركت دقة موقف العرب ، من هذه الصناعة الجائرة .

واذكر ان الحكومة لم تسلك هذا السبيل إلا تحت تأثير الصهيونيين ، الذين اكتشفوا أن الأراضي بطبيعتها الزراعية ، لا يمكن أن تستوعب عدداً عظيماً من المهاجرين ، ولا سبيل الى إنشاء الوطن القومي ، إلا بترقية الصناعة بجانب الزراعة ..

ولقد ثبت للخافقين ، أن الصناعة الصهيونية ، سيئة الصنع ، رديئة الجنس ، لا تحتمل مقاومة البضائع الأجنبية ، أو مباراتها ؛ ولذلك فرضت الحكومة حمايتها ،

لتساعد اليهود على حساب العرب ، الذين انتشرت بينهم البطالة، بشكل يدعو الى الرثاء..

محطة رائعة وشركة جبارة :

وبينما كنت أتململ من حقيبتي الثقيلة ، كان صاحبنا لا ينقطع عن الهمس في أذني همسات شاعر .. فجعلت ألتقط منه ما صفا ، وأهمل ما كدر ، سهواً ومللاً .

كان يتمتم لوحده : تيلاًفيف .. تل الربيع .. يقول الناس عنها : درّة غربية، في بقعة شرقية .. وهل العرب بحاجة الى درر في بلادهم ، درر ظاهرها الرحمة ، وباطنها العذاب ؛ ألا إن الفقر مع الحرية والاستقلال ، لخير ألف مرة من الغنى مع الرق والاستعباد ..! لقد دعا بعضهم (تل أبيب) بباريز الصغرى .. أو لا تدري يا صاحبي أن موقع البلد سابقاً كان رمالا برمال ، وأول من أسسها ستون رجلاً ، رأس مالهم أربعة آلاف جنيه فلسطيني فقط .!؟

هذه هي (تل أبيب) .. بلد حديث وغريب في الشرق .. غريب بجدته، وأبنيته، ونظامه ، ونسائه ورجاله ، ووجوهه وألسنته ..! فهي برج بابل القرن العشرين ؛ غير أن هنالك لغة رسمية، لايقوم مقامها لغة؛ هي اللغة العبرية ، لغه المدرسة والجامعة والمعمل والمزرعة ، يتكلمها القوم طراً ، ويليها الالمانية أو الانكليزية، ثم بقية اللغات .. إلا العربية . .! ولم أسر بضع خطوات حتى أدركني التعب ، فوقفت مع رفيقي على رصيف المحطة التي سكنت اليها السيارة ، وبدأنا نتأمل دنيا تل أبيب ، وما فيها من جديد . .

فهذه هي شركة السيارات اليهودية التعاونية المسماة (إيجد) — بالجيم المصرية — ولا غرابة فنحن في محطتها .! وعندما نقول محطة ، فلا نقولها مجازاً أو مبالغة ، بل حقيقة راهنة .. ولئلا يفوت القارئ من وصفها شيء نستحسن أن ندخل من باب لها يعتبر مدخلا ، لننفذ من آخر نعتبره مخرجاً ... فهي ساحة واسعة ، لعلها تعادل ساحة المرجة المحترمة في دمشق أو أكبر . بنيت بالاسمنت المسلح ؛ وفي واجهتها صف طويل من الحجرات الصغيرة ، لها كوات ، فوقها لوحات كتب عليها أسماء المدن والدساكر التي تمر بها السيارات؛ وكل كوة هي خط مواصلات خاص ..فاستمع إلي :

تقتطع تذكرتك ؛ وقد يكون القائم على العمل في الكوة رجلاً أو امرأة سيان..
ولا تنس أن تقف للقطع في آخر (الذيل) بترتيب ، وانتظر دورك؛فبعد التجربة ، ظهر للقوم ، أن في الترتيب والنظام فائدة وكسباً للوقت . ثم تعطى تذكرة عليها رقم ، وفيها دوائر ، تعين اسم الشهر والنهار والساعة ، فيعرف مفتش السيارة أو مراقبها مثلا ، متى ركبت .. لأن الحل والترحال في أوقات معينة .

ثم تنحدر في نفق، علت جدرانه أنواع الصحف والمجلات والكتب ، ويكاد لا يمر مسافر إلا ويشتري صحيفته كما يشتري تذكرته..وهنالك في بهو تحت الأرض، ترى منافذ مرقمة .. انظر الى رقم تذكرتك،واسلك المنفذ الذي يحمل نفس الرقم، تخرج منه الى سطح الأرض ؛ فتمر فوق رصيف طويل عليه لوحات بأسماء المدن والدساكر أيضاً . لا ريب أنك تعرف القراءة ، وإلا فسل بإحدى اللغات التي تتقنها ، إلا العربية لأنهم يجهلونها . . أو يتجاهلونها . . وبعد ، فقف حيث وجدت اسم المكان الذي تقصده ، حتى إذا أزفت ساعة الرحيل ، وجدت سيارة تقف أمامك ، وكأنما الارض انشقت عنها ، فانتظر دورك — من فضلك — .. ثم اصعد مبرزاً بطاقتك التي تثقب في دائرة الساعات والأيام ..! وإذا كانت السيارة تتسع ثلاثين راكباً ، وكنت الواحد والثلاثين ، فلا تفكر في الصعود ، لانه لن يسمح لك .. فيجب ان تنال راحتك ، ويرتاح جارك ، فهذه سيارة ، وليست علبة (كونسروة) ..! ولقد تحين ساعة الرحيل ، فتسير السيارة ، ولو كان فيها شخص واحد .

ولا تنس أن أمام كل موقف سلماً خشبياً ذا عجلات ، لرفع الامتعة وإنزالها ، دون أجر أو (بقشيش يا بيك) ، ودون ان يحتك دهان السيارة بالسلالم . ! وفي المحطة تكثر دكاكين بائعي المعجنات والمرطبات ، كما أن فيها غرفاً للاستعلامات والمخابرات الهاتفية .. وإذا خرجت من باب المحطة الحديدي ، فلن تستطيع الرجوع إلا من النفق ، فالباب يتحرك دائماً الى الأمام،بعناد وإصرار..هذا ولن تعدم في المحطة باعة الشاي المتجولين ، وقد وضعوه ساخناً في كؤوس مثبتة، فوق حوامل معدنية

نظيفة ؛ ولن تفتقد بائعي الفطائر ايضاً ، وهي محفوظة في علب بلورية ، وقد ارتدى صاحبها مئزراً أبيض ناصعاً ، وصفف شعره ، وحلق ذقنه، وشمر عن ساعديه ، ولمع حذاءه ، فكأنه مهندس أحد الخطوط الجوية ، لما وراء البحار .! وكذلك فأنت ترى باعة الدجاير والسكاكر ، يتنقلون بين المسافرين بهدوء وسكون ؛ ويعلنون عن سلعهم بصوت خفيض، لا كأصوات باعتنا الأكارم، الشبيهة بصفارات الانذار ، أو بأصوات بعض المغنين أيام محطة إذاعة الفرنسيين بدمشق .

ولقد أقسم صاحبنا بتربة أجداده الكرام ، أنه لا يصدق أبداً أن ما يراه الآن بأم عينيه ، هو من أعمال الأفراد الصهيونيين ، بل هو عمل حكومي جبار ..

فهذا التنظيم الدقيق ، عمل تعجز عنه الدول ، وتنوء به الميزانيات الكبرى ، ولن يعقل أبداً ، أن تقوم به شركة كيفما كان لونها ، ولو هبطت من المريخ . .

فقد كان يرى ، ولا يزال يذكر ، عندما كان موظفاً في الجزيرة والفرات ، أن أصحاب السيارات في تلك المناطق النائية من بلاد الله ، كانوا يملؤون سياراتهم ركاباً وأمتعة ومواشي وطيوراً ، حتى ليحسبها الرائي سفينة نوح ؛ فيها من كل زوجين اثنين ؛ ومن فاض ، أو بالحري ما فاض من الركب جملوه في (اللوج) على ظهر السيارة ، أو ربطوه بجانبها ، أو مؤخرتها كما يربط المتاع .. والحاجة أم الاختراع .

وكذلك فإنه لا زال يذكر بأن أصحاب السيارات في دمشق ، لم يستطيعوا حتى الآن أن يتفقوا على سعر واحد في سفرياتهم ، أو أوقات منظمة في تنقلاتهم . . ولا زال الجمهور تحت رحمتهم ، بين قيل وقال ، ومنافسة وشجار ، وإضاعة الوقت الثمين ..

إذن ؛ فهل هو على حق حينما يتساءل :

من أين لهؤلاء القوم ، أن يقوموا بهذه الجهود الجبارة ، وهم على عكسنا تماماً : ضربت عليهم الذلة والمسكنة ..!؟ ذلك ما يعتقده ويعتقد به الكثيرون ممن يرتاح ضميرهم ، ويتفاءلون تماماً ، ساعة يرددون هذه الآية الكريمة ، أو يرونها منقوشة على شاشة بيضاء في مظاهرة احتجاجية ، فيهمهمون ويسبحون ويصيحون : صدق الله العظيم ..! والحمد لله على الايمان ، ولا شيء عندهم غير ذلك ..!! أبداً ، ولا شيء

غير ذلك .! أو ليست النظافة من الايمان ؟.. ولكن لا .. وألف لا !

فلن ننال حقنا بالسباب والشتائم ؛ ولن نقهر عدونا بما نضمر له من حقد وكراهية ؛ فهذه الشركة الجبارة ؛ هي أعظم مؤسسة من نوعها في الشرق العربي حتى لقد فاقت مثيلاتها في كبريات مدن العالم ، وهي فخار الصهيونيين ، وذروة ما وصلوا اليه من التعاون والتنظيم والابداع ..

هي شركة تعاونية قبل كل شيء . لها محطاتها في كل مكان ، وأبنيتها الفخمة ، وموظفوها ، وعمالها ، وهم يرتدون ألبسة رسمية جميلة متشابهة ، ولها (باصاتها) تسير في كل اتجاه — اللهم إلا نابلس وخليل الرحمن — تسير في نظام دقيق ، مدهش ، يدعو الى الاعجاب ..

وإذا كانوا يقولون منذ أقدم العصور : لا يفل الحديد إلا الحديد .. فإن أولى واجبات العرب أن يضعوا يدهم على سر تقدم الصهيونيين ، وفي هذه الشركة التعاونية أبرز مثال .

***

إن الصهيونيين يسيرون في كل عمل يعملونه على سنة التعاون ، ونظامه الدقيق ، لأن الانسان قليل بنفسه ، كثير بأخيه . فما ضر اخواننا العرب ، لا في فلسطين وحدها ، بل في كل صقع عربي ، ان قبسوا هذا النظام التعاوني المدهش ، في سائر مشاريعهم ؛ وعندئذ يحاربون عدوهم الماكر بسلاحه ، ويدفعون عن بلادهم هذا الخطر المحدق الجارف ، ويد الله مع الجماعة..!

***

ووقف (باص) أمامنا ، فأسرعنا نمتطيه ، قبل ان يفوتنا ، مبالغة في الحيطة وبعد النظر ...

جيش صهيوني لأهداف رهيبة

أقول ... ركبنا (باصاً) واتجهنا نحو أقرب صديق لصاحبنا ، في (تل أبيب)، ليكون لنا دليلا في هذا الزحام الشديد .. ورغم أن (مفكرته) تحوي قائمة طويلة

من اسماء الادلاء والصديقـات ، فإنه لم ير إزعاجهن منذ وصوله ، وحبذ إبقاءهن ذخراً لصروف الليالي وأنصافها ..

والتقى بصديقه .! وكانت المفاجأة مربكة .. فكيف يرى زميله المسلم العربي هنا في دياره ، وقد تركه منذ سنوات في دمشق ، خاملاً كغيره من المثقفين ..؟ هذه مسألة يحسب لها كل يهودي ألف حساب ؛ غير أن الرجل مع ذلك أكرم وفادتنا ، ونزل بنا الى الشـارع ، وكل منا ينوء بحقيبته ؛ ولولا (الشورت) ولذة التعري ؛ لهلكنا حراً وعرقاً .. ولانتقلنا الى مقبرة (الدحداح) فرع تل أبيب..

وما كاد دليلنا الاستاذ الجديد ، يهبط بنا الطريق ويمشي بجانبنا ، حتى مرت بنا فرقة من الفتيات الناضجات المرحات، بلباس الكشفية القصير .. جداً.. والمرصوص على لحومهن الطرية الغضة ، وهن يكدن يرقصن دون موسيقا .! فأشار الاستـاذ إليهن وهو فخور مزهو قائلاً : هؤلاء من فرق النساء الكشافات .. ثم تمتم: ولعلكم لاتعلمون شيئاً عن الحياة الرياضية في ربوعنا.. فاسمعوا باسم الزمالة حديثاً طريفاً.. قد لا أحدث به عربياً غيركم .!

إن النظرية الصهيونية تقول : كما أن الشعب لا يسمى شعباً دون أرض ، فإن الامم كذلك ، لا تقوم لهـا قائمة دونما جيش .! ولعل الفرق الكشفية والرياضية خير ستار لنا لتشكيل الجيش المنشود .! إن فلسطين يجب أن تحمى .! فقال صديقي وقد وقف ليريح ذراعه من الحقيبة بعد أن وضعها على الارض :

وهل التفكير في هذه المنظمات ، بدأ منذ تباشير الصهيونية .؟ فأجاب : نعم ؛ لقد عقد أقطابنا الاولون المؤتمرات ، وأوصوا بالاهتمام بالجسم والعقل في كل جيل صاعد . ولن يتحقق ذلك إلا على سواعد الفرق الرياضية والكشفية . ! فهمس صاحبي ممازحاً : أتقصد أن ظاهرها رحمة وباطنها عذاب .. ؟ فهي ليست إذن ، كما تزعمون ، لتقوية الطفل اليهودي والطفلة اليهودية ؛ بل لتنمية العضـلات استعداداً لصروف الزمان ..!

فضحك الاستاذ ضحكة مباهاة ومكر وقال : لك ان تظن ما تشاء ، فان هذه

الجمعيات ، ما زالت في نمو وازدياد ، وهي تلقب عندنا بأسماء أبطالنا القدماء : كشمشون ، وباركوخبا وغيرهما ، لتوحي الى الجيل الصاعد بالنشاط والمحاكاة وتقليد الأجداد ، وبذا يعدونه ويهيئونه نفسياً وجسمياً للأيام العصيبة ..

وثمة غير ما رأيتم من الفرق والجمعيات النسائية ؛ فهنالك المنظمات الرياضية والأدبية والتهذيبية أو الاجتماعية .. كالهداسة ، واليهوديت ، وبنات صهيون . .

فقاطعه صاحبنا وهو يعاود السير : وإلى أي الفرق يستند إذن الجيش الخفي ، الذي نسمع كل يوم أخباره ..! فابتسم الأستاذ وتمهل قليلاً ثم قال : بعد أن أدار لسانه عشر مرات في فمه : أعتقد بأنه يعتمد على الفرق المتطرفة كالمكابيين مثلاً .. فهي الجمعية الصهيونية الأولى التي تضم أعضاء من الشباب المتحمسين ، والفتيات المتحمسات للوطن القومي . . وخاصة أرى أن شبان حزب الاصلاحيين أتباع (جابوتنسكي) ، و (ترمبلدور) القتيل أثناء دفاعه عن مستعمرة (تل حي) في اضطرابات عام (٩٢١)، هم أقوى وخير من يعقد عليهم الرجاء ..

أجل ! لقد رأى زعماؤنا أن الزحف على فلسطين، هو أعظم حل للمسألة اليهودية ، ولن ينقذ الشعب من الضغط والتشرد سوى ذلك ..ففلسطين هي الوطن الاول لنا .. وإن المثالية الدينية اليهودية ، قد أنمت في نفوسنا روحاً وطنية هائلة ، من جراء الاضطهادات الماضية والحاضرة ، فظهرت منذ أن كنا قابعين تحت أسوار (الجيتو) وإن تكن لم تتشكل بعد بطابعها السياسي الحاضر ... ورغم الفرق الشاسع ، بين الصهيونية ، والحنين الديني الى صهيون، فان زعماءنا ومفكرينا ، رأوا لزاماً عليهم، حماية فلسطين من الطوارئ في الحاضر والمستقبل ، بالقوى العملية الصرفة ، ولن يكون ذلك إلا بالجيش ، .. نعم ، الجيش ..!

وعاد صديقي الى مداعبة زميله قائلا :

أوليس عمل الفتيات في جيشكم ، هو الترفيه عن المعسكر، كرفهات الحرب .؟ وغمز بعينه وابتسم ، وأدرك الاستاذ المقصود، لكنه بلع ريقه ، فالحقيقة مرة محزنة كجميع الحقائق ، وقال: نحن في هذه الجمعيات نعلم الفنون العسكرية باسم الرياضة..

وتزيد عديدنا في الأرض المقدسة ، باسم الرياضة أيضاً .. ألم تسمع بحفلات (الأولمبياد) التي كنا نقيمها كل سنتين ، والمدعاة (المكابي) حيث يتبارى فيها رياضيو العالم الصهيوني .!؟ هي باسم الرياضة ولكنها من وسائل التهريب..—هدفان بحجر واحد..

وهنا ، وصلنا الى الفندق .. وهو نزل يطل على البحر ، وصاحبه صديق حميم للاستاذ الدليل المحترم .. وما إن دخلنا الحجرة ، حتى طلبنا ثلاثاً من (الأسيس) وجلسنا نستمع الى المحدث ؛ وعندما رشف الجرعة الأولى تابع : إن نواة المؤسسات الصهيونية العسكرية في فلسطين هي هذه الفرق المذكورة . وهي مختلفة الآن قوة وضعفاً وسلماً وثورة ..وليس أمتن ولا أبرع من فرقة (الهاجانا) بينها ، ومعنى ذلك (الدفاع عن النفس) .. فعندما بدأ الاستعمار الصهيوني ، في عهد الأتراك ، حين كان حبل الأمن ضعيفاً ، كانت القرى الصهيونية ، تجند فرقاً من شبابها وشاباتها ، للذود عن حياضها ؛ وقطع دابر اللصوص.وفي عهد الانتداب الانكليزي ،واستتباب الأمن ، جمعت أسلحة (الهاجانا) كما جمعت أسلحة العرب .. غير أن فلسطين كانت تغفو فوق برميل من المتفجرات ؛ فما كانت تنقضي فترة دون ثورات واضطرابات ، وأصبحت مصالح الصهيونيين مهددة كل حين ؛ فعولوا مرة اخرى على تشكيل فرقهم القديمة، وفرضوا على كل يهودي ويهودية الانخراط في سلكها ، وأن يكون نواة لجيش المستقبل ، فتسلحوا واستعدوا ..!

وهنا ، استرد الاستاذ أنفاسه ، وجرع جرعة أخرى ، فسأله صاحبنا : إذن فقد خلقتم الجيش دفاعاً عن النفس فقط .. أليس كذلك .؟ فقال الاستاذ : طبعاً، ولكن .. ليس هذا كل ما في الأمر .! ولعل الاستاذ (البارطوع) ترك لسانه أكثر من اللازم ، لجماعة من العرب ، يحرصون على كل كلمة صهيونية ، لينقلوها إلى أذن الناس ، الذين أوشكوا أن يستيقظوا بعد طول رقاد — وصح النوم — .. فلم يكتمنا أن للصهيونيين ثلاثة جيوش يهودية سرية — ستهدد السلم على كل حال — وأول هذه العصابات — ولا نسميها جيوشاً — هي عصابة (شتيرن) الشهيرة .. فهي كما يقول ، جيش مدرب صغير ، قد لا يتجاوز المئات من الأفراد .! غير أنه

شديد الخطر كالأفعى (الناجا) ، ويعزى إليه تدبير جريمة قتل اللورد (موين)..
أما الثانية فهي عصابة (إبرجون زفاي لويمي) أي الهيئة الوطنية العسكرية . ولا يزيد عدد أفرادها عن (١٥٠٠) نفس.. وهي تنتمي الى الحزب الصهيوني المتطرف الذي ينادي بضم شرقي الاردن الى الوطن القومي ؛ أما أعضاؤها فليسوا مجهولين — كما يقال — من السلطات الرسمية ولو أن زعيمهم ما زال في طي الخفاء ..!

ويقول الاستاذ بأن (الهاجانا) المذكورة آنفاً ، هي الجيش الثالث ، إذا لم نقل عصابة ثالثة ، وأن عدد أفراد هذه الفرقة يقدر بـ (٨٠) ألف مقاتل .. ولعل من أعجب العجب أن معظم أعضاء هذه العصبة ، كانوا سابقاً من رجالات الانتداب ، وأنهم ما زالوا حتى اليوم يحملون أسلحة شرعية حكومية باسم الدفاع ضد العرب.!

ولقد سألت الاستاذ : وهل حصل اشتباك بين هذه الفرقة والعرب فيما مضى.؟
قال : لا .. أبداً حتى أن (برنارد جوزيف) المدير السياسي للوكالة اليهودية،صرح بأن (الهاجانا) لم تقدم على قتل عربي واحد . فهمهم صاحبنا ساعتئذ بصوت مرتفع: لأنها لن تجرؤ على ذلك..

ولم ينتبه الاستاذ لهذا الرد الساخر ،لانهماكه في الحديث قائلا : إن أعمال الصهيونيين الارهابية ليست موجهة ضد العرب ، وإنما هي للتنبيه الى مطالبنا .. واذا لم تنل هذه المطالب كما يقول المدير السياسي المذكور،فان هذه الاضطرابات ستستمر وستزداد عنفاً .. نعم ، ستزداد عنفاً .. فقلت مؤكداً جاداً : ولكن أيها الاستاذ لو فكرتم ان فلسطين لا يسكنها إلا العرب واليهود والانكليز ،لأدركتم أن هذه العصابات والفرق العسكرية الارهابية،لم تؤسس وتسلح للفتك بالأصدقاء الانكليز فقط .. بل هي سلاح مرهف أيضاً لتهديد العرب ، كيما يستكينوا الى الضعف ، فلا يقوموا بمظهر عنيف ضد الصهيونية ..!

***

لقد تداول العرب منشوراً من إرهابيي اليهود جاء فيه : اعلموا أيها الجيران.. ان الحكومة العبرية المستقلة ، تمنحكم المساواة في الحقوق المدنية ، وتكون معاملتها

لكم إنسانية راقية ، وذلك بقبولكم في مراكز حكومية ، وتمكين جماهيركم من العلم ، فتتقدم زراعتكم وصناعتكم ، وستبنون بيوتاً بدلا من الخيام الحقيرة ..

لا تحملوا على اليهود ، ولا تنهبوا أموالهم ؛ لأنكم اذا رفعتم يدكم على اليهود ، فسنضطر الى قطع اليد بواسطة سلاحنا ، ونظن أنكم تحققتم وجاء الى مسامعكم ما هي قوة الشباب العبري الحالي ..

فهل هذا المنشور كتاب غرامي ، يقدم الى العرب ، أم دعوة حارة لوليمة فاخرة ؟

وضحك الاستاذ قائلاً : لقد فاتكم شيء كثير من الغرض ، كما فات العرب جميعهم فهمه . ! فاعلموا أن الصهيونيين لا يريدون قتال العرب بالسلاح ، لانهم يضنون بنفوسهم وأرواحهم ، فلم ينس الصهيونيون قط مواقفهم في الثورات الخالية ، حين قضى كثير منهم ضحية في سبيل بناء الوطن القومي .! فهم يهادنون العرب ، لانهم يعلمون ان قتالهم سيثير عليهم سخط الامم العربية المجاورة والمسلمة . عدا أن الحرب ستكلفهم الضحايا من زهرات الشباب والشابات ، الذين بذلوا في جلبهم من الخارج كل غال وثمين ..وان فقد هؤلاء الضحايا ، سينقص اليد العاملة اليهودية ، ويزعزع الانتصار الصهيوني ، ..! نحن نضن بسفح دمائنا ، وكفانا ما جرى في أوربا .! أما ملايين الجنيهات فسنبذلها في شراء الأرض ؛ ندفع في المئة الفاً ، وفي الألف عشرة آلاف ، لنصل الى الهدف دون قطرة دم .. أفهمتم ..؟ قلنا : ربما .!

ثم عاد الى بحثه عن (الهاجانا) فكأنه متيم بها عاشق ، أو كأنه أحد أفرادها فقال : لقد بدأت فكرة هذه العصبة كما ذكرت باسم الأمن ، من قرية صغيرة ، للدفاع عن النفس الى مجموعة موحدة ذات قيادة عليا .. فقال رفيقي : وكان من جراء ذلك أن جرد العرب من سلاحهم ، فذهبت عنهم الطمأنينة أمام عدد مسلح بين ظهرانيهم .. فأجاب باسماً : هذا أمر يعود الى الحكومة البريطانية ، وتنظيم صفوف العرب ، إذ انهم يستطيعون تأليف المنظمات السرية وتهريب السلاح مثلما نفعل .. وقد سبق لهم فعل ذلك بنظام وحزم .

وسكت كلانا على مضض وتابع الاستاذ (المتصهين) : إن الحامية الانكليزية الدائمة في فلسطين تتألف من (٢٥) ألف مسلح ، بينهم (١٠) آلاف عربي ، و(٤) آلاف من اليهود ضررهم أكثر من نفعهم،لانهم من ملتنا وجماعتنا .! أما(الهاجانا) فلا يقل عدد رجالها مع بقية أفراد العصابات الاخرى عن (١٠٠) ألف مقاتل بأحدث سلاح.!فعندنا مدافع الهاون ، ومدافع مقاومة الطائرات ، والبنادق سريعة الطلقات ، والمسدسات والقنابل ، و .. و .. ثم سكت ليبلع ريقه هنيهة، وليجرع كأسه قائلاً ، بعد تأمل قصير في دخان سيجارته :

إنكم ولا شك تتذكرون وصول جيوش (روميل) الى العلمين ، حين أصبحت على مرأى من الاسكندرية ، وحاق الخطر بوادي النيل ، وتعالت الهتافات العدائية في مصر : إلى الامام يا روميل ، يا روميل دربك مفتوح . .! ونشطت حركات الانهزاميين ، ورجال الطابور الخامس .! نعم .! لقد استولى علينا — نحن اليهود — فزع عظيم ، وأيقنا أن مأساة يهود أوربا ، ستتجدد كرة اخرى في فلسطين . . . فطلبنا من الحكومة ملحين أن تسلح للدفاع عن أنفسنا، ومساعدة الجيش البريطاني فظفرنا بما أردنا .. ثم بقيت عندنا الاسلحة حتى الآن ، وانضم الينا كثير من جنود الحلفاء اليهود ، إذ سمح لهم بالاقامة في فلسطين، عدا ما ابتعناه من الجنود الآخرين من مختلف الاسلحة المهربة،كما استطعنا استخدام بعض بدو الاقطار المجاورة ، في هذا السبيل ..!

وتمتم رفيقي : أجل ، لقد كانت التحريات ، تثبت دوماً ، وجود مستودعات للذخائر عندكم ، ومعامل خفية للاسلحة ، والقنابل اليدوية . . وربما للدبابات ، والطائرات ، والغواصات .. وزاد رفيقي متهكماً : إذن ، فان الاسد البريطاني ، لن يكون أمامكم سوى حمل وديع ، لا يمكنه قمع اضطراباتكم بقوى جيشه وبوليسه.؟ فقال الاستاذ : لو شئنا المضي في النضال .. فنعم .! وهو الواقع .!

ثم قام الاستاذ مودعاً على أن يعود مساءً في الساعة الرابعة ، ليرينا أشهر مشاهد (تل أبيب) .. ولكنه قبل أن يغيب في فرجة الباب قال : ولا تنسوا أبداً أن عندنا

فرقاً للسلام أيضاً ، والتفاهم مع العرب . ! فهنالك حزب (بريت شالوم) أي عهد السلام أسسه عام ١٩٢٦ خمسون رجلا منا .. ! أي من أبناء الزمالة — ويقصد المدرسين — ومن المهتمين بالاستعمار ،وذلك للتوفيق بين العرب واليهود .! فأغرق صاحبي بضحكة استمرت ثلاث دقائق ، ثم قفز لاحقاً به وهو يقول : يجب أن تعلم بأن العرب لن يخدعوا بنعومة الأفاعي ، ولهم من تجاربهم وقوامهم واتحادهم الحديث ما سيطير بالحلم الصهيوني ، بعيداً عن الروابي السبع ، الى أحجار (الجيتو) ..! فقال له الاستاذ : أوتمزح .؟ إن للجدران آذاناً .. وستسمعك (الهاجانا) ، فابتسمنا ، وضاع الحديث بين ضحكات عاليات وأصوات : الى اللقاء .. الى اللقاء ..

وما إن أغلق الباب، حتى ثار صاحبنا غاضباً متألماً وقال: لقد نظم هؤلاء القوم الزراعة فأبدعوا ، واهتموا بالصناعة فتوفقوا ، وانكبوا على التجارة ، فأتوا بالعجب العجاب، وهاهم يتسلحون ، ويستبقون الحوادث، كأنهم سيقيمون في فلسطين أبد الدهر ..

فأين العرب ، وماذا يفعلون ..؟

لقد انقضى عهد الكفاح السلبي ، وأمامنا الخطر الأكبر ، وإن لم نقف وقفة الرجل الواحد ، فان مستقبلنا قاتم حزين .

إنهم يتمرنون على الاسلحة واستعمالها ، نساءً ورجالا ، وفي كل يوم نبأ عن نشاطهم ، حتى ضجت الأرض من فعالهم والسماء .

والانكليز بعيدون عن المقاومة لهذا النشاط الارهابي العسكري ، خشية الرأي العام الصهيوني العالمي ، ففي العام الماضي اعتدت عصابة على حياة الحاكم العام (السير هارولد ماكمايكل) وفرت آمنة مطمئنة ... ومنذ بضعة أشهر ، قتل اللورد (موين) ، وقائد سيارته ؛ فأعدم القاتلون ، وظل أفراد منظمتهم يرتعون آمنين .. وفي كل يوم ، تنسف محطات ، وجسور ، ومخافر ، وقطارات ، ودوائر رسمية ، دون خوف أو وجل ؛ والانكليزي يقف وقفة المتفرج .. حتى لقد هرف البعض بأن ثمة أوامر صدرت تمنع البوليس من استعمال السلاح ضد اليهود .

فماذا أعد العرب لليوم العصيب ؟ كفانا الارتجال في سائر أعمالنا ؛ ودرهم وقاية

خير من قنطار علاج ؛ ومن العار أن يرجف معتدصهيوني أثيم، قائلا، بعد أن تحدث عن قوة الجيش الصهيوني : «على أن العرب قد أعدوا جيشاً قوامه فرقة تتألف من مثتي كشاف ، سلاحهم الوحيد النشيد العربي الفلسطيني . . »

لن يفل الحديد إلا الحديد ، وقضيتنا في فلسطين قضية حق وعدالة ، ولكن هذا الحق ، لا قيمة له ، إذا لم تدعمه قوة ، وفي صفحات التاريخ خير مثال لقوم يعقلون . . .

نعم .. للصهيونيين ان يدعوا ما شاؤوا ، وليلبسوا جلد الحمل متى أرادوا . فلن يخدع عربي واحد بمزاعمهم .. لأننا لن ننسى الحوادث الماضية في الثورات الخالية، وما فعله اليهود في كل مكان من تقتيل العرب ، وتشويههم وتدمير بيوتهم . وإن من أهم الأسباب التي تخيف العربي على مستقبل بلاده ، هو ما يراه من رغبة اليهود في العيش في هذه البلاد كيهود، لا كفلسطينيين، يعيشون في بلاد عربية ، مع العرب..

وحتى يوم الناس هذا ، لا يستخدم اليهودي في مصانعه أو مكاتبه أو أعماله إلا اليهودي ؛ وإذا صادف أن أحد المتعهدين اليهود ، استأجر أحد العمال العرب في تعهداته ، قام عليه اليهود ، وأخذت الحاميات اليهودية ، تهجم على العمال ، واضطر صاحب العمل ، لطرد العمال العرب . .

هذه الحاميات التي سمحت الحكومة بتشكيلها ، دون أن تسن لها أي قانون أو تطبق أي تدبير لايقاف حركتها ، برهان جلي على ما يضمره اليهود للعرب ..

ولعل أبلغ وصف لقوى اليهود ، وجيوشهم — ونحن لا نعتقد بوجودها — ومنظماتهم ما قاله أحد الأدباء :

إن الارهاب اليهودي في فلسطين ، وقوة اليهود المزعومة ، هي أشبه بلوح من (الصبارة) ظاهره أشواك تدمي ، ولكنك إذا ثنيته انكسر إلى الأبد .

وبريطانيا لم تحاول حتى الآن ان تكسر لوح (الصبارة) هذا ، فلم تعدم إرهابياً واحداً ، ولم تنسف بيتاً يهودياً واحداً ، ولم تقتل زعيماً يهودياً واحداً ؛ وشتان بين

بدليلها للارهاب اليهودي اليوم في فلسطين ، ومن بطشها بثورات العرب في السنين السابقة ، حين أعدمت بكثرة ، واعتقلت بالألوف ، ونفت بالعشرات ، أو نسفت قرى بكاملها .! ؟

ولو أن العرب تركوا الارهاب اليهودي ، بجرداً عن الحراب البريطانية فستجدون بأي سهولة سينكر لوح (الصبارة) هذا ..

ألا فلننتظر ، وإن عهد (طيتس) لا زال يرن في الآذان . . .

***

كان الفندق يطل على البحر من شارع فخم .! وفي صالته السفلى تعزف الأنغام الموسيقية لتشنف آذان الآكلين على موائدهم الناصعة ، وتهدهدهم كأنهم في عليين.. وكان الوقت ظهراً ، وتل أبيب غارقة في سبات القيلولة ؛ فهم يغلقون محلاتهم حباً بعيون النوم والراحة ، وتلبيةلنداء الروح والجسد . . ومن الخير ان تعلم ، أن كافة مرافقها، من حوانيت ومخازن ومتاجر ومعامل ودوائر ، تفتح الساعة الثامنة صباحاً، وتغلق الساعة الواحدة ، ثم تعود الى العمل في الساعة الثالثة لتغلق في السادسة ..

وقد شك صاحبنا كثيراً ، في أن لا يكون هنالك من يتذمر من هذا النظام الكسول ، لأنه دليل على إهمال الكسب وهجر الربح ، وهذا أمر لا يستطيع تحمله يهودي من فصيلة شيلوخ .. وصاحبنا يذكر بأن من يعرفهم من التجار في بلده يصلون ليلهم بنهارهم ، فلا يرون أولادهم ولا زوجاتهم إلا في المآتم والأعياد ، ولا يستريحون من العمل إلا اذا أصابتهم مصيبةغير منتظرة ، لأن العمل عبادةوالبطالة لهو وزينة من عمل الشيطان .!

وهكذا فقد اضطجع كل منا على سريره بعدغداء دسم ، مما جعل رفيقي يضيع بين أمواج النوم العميق ، منتظرين قدوم الدليل المتبرع الصهيوني ..

هل نهزم تل أبيب .؟

وأقبل الرجل في تمام الخامسة ، كأنه مختبئ وراء الباب ؛ وهتف قائلا : هيا

بنـا ..! وأسرعنا نهبط سلالم الفندق كالسناجب ، فسار بنا الى (الكورنيش) ، حيث الأجسام البشرية ، على رمال الشاطىء ، لا عداد لها ، تمرح وتسبح ، وطفق يحدث كصهيوني متعصب ، فخور معتز بمدينتـة ، التي هي رمز الصهيونية ، وثمرة جهادها الجبار .. فقال بعد أن زفر زفرة خرجت من أعماق قلبه : أتدرون لو أن شركة (آشوزات بايت) لم تشتر لبناء (تل أبيب) تلك المئة والاربعين (دونماً) بل اشترت عشرة آلاف (دونم) ، لكسبت فروق الاسعـار التي دخلت جيوب العرب فيما بعد ، لأنهم رفعوا ثمن الاراضي بجنون أسطوري . ؟ وكذلك لو أن تلك الشركة ، فعلت ما أعناه لبنيت مدينةأوسع مما ترون الآن ، وأكثر جمالاوصحة من المدينة الحاضرة .. ولو أن صناديقنا اشترتها لربحت ألوف الجنيهات وملايينها ، ملايين نحن بحاجة الى كل مليم منها ، لبناء الوطن ..

والآن ، دعونا من هذا ؛ فهل يروق لكم أن تروا بيوت الفنـانين والأدباء ، ونواديهم ومقاهيهم الخاصة التي يجتمعون فيها .؟ فخلناه يسخر بنا ، فنحن نعرف أن الادباء في بلادنا حليفهم الفقر،وخدينهم الاملاق ، ولكنه قال : ها كم هي .!وأشار بيده الى بنايات ومقاه كانت تملأ الرصيف وتكتظ بالزوار .. ثم تابع : إن البلدية هي التي تؤمن لهم الدور اللازمة ، وهم يدفعون ثمنهـا بالتقسيط ، على طريقة : ادفع الاجرة مع شيء من الثمن .. وكانت تلك البيوت تشبه بعضهـا بعضاً ، أما الدور الاخرى الفخمة فهي مختلفة عن مثيلاتها اختلافاًبيناً في العظمة ، والتسابق الى التفنن في الهندسة ، وكان على أبواب بعضها لوحات مستطيلة نحاسية ، أو خشبية ، فيهـا كوة كفوهة مكبر الراديو ، وبجانبها أزرار مختلفة ، تحت أرقام وأسماء .. وقـد شرح لنا الاستاذ ، تلك الطلاسم ، بأن الطارق يضغط على الزر المشير الى رقم المنزل المقصود ، فيسمع صوت الخادم من المكبر ، ثم يتخاطبـان ؛ فاذا شاء صاحب المنزل استقباله فتح له الباب ، بواسطة جهاز كهربائي ، وإلا رده رداً جميلاً .. وهـكذا ينجو القوم من الضيوف الثقلاء ، واللصوص والمفاجآت ..

وانطلقنا من حي الى آخر ؛ فهنا حي المدرسين ، وهناك حي الأطبـاء ، وهذا

حي التجار، وذاك حي المحامين، والموسيقيين.. وهلم جرا .. وكل بيت تحيط به حديقة، تطل منها أشجار متنوعة، غرست تحت إشراف البلدية، لأنها صاحبة الحق في تعيين البناء وتوابعه .. فهي تعين نوع النبات، والورد والزهر، والشجر، مقدرة في ذلك ارتفاع البناء، وعرض الشارع، وضخامة القصور . فبعض الأشجار طويل، وبعضها قصير، وغيرها مثمر، والآخر للزينة وهكذا ..!

ولقد شاهدنا ميتماً فخماً تحيط به حديقة مكللة بالزهر المختلفة ألوانه، فذكرنا ميتمنا وملاجئ متشردينا، — اذا كان ثمة ملاجئ — وتسلسلت بنا الافكار، الى فقرائنا وأيتام مجاهدينا — أصحاب العائلات الفقيرة المستورة، لا الاغنياء الأكابر — وكيف أنهم مهملون، منسيون على سطح الارض، دون معين أو مسعف ..!

تذكرنا كل ذلك ونحن مشدوهون أمام الواجهات البلورية الحديثة، والطبقات المتعددة من البناء، والاشجار السامقة، والنوافذ العريضة النظيفة ..!

وهبطنا نفقاً خرجنا منه الى (ساحة لندن) وهي من أحدث الحدائق في مدينة الربيع، وربما في الشرق كله ..! وهي مخصصة لنزهة الاطفال كما يظهر .. فقد رأيناهم في عرباتهم، بأجسامهم العارية، تحت شمس مشرقة، ونور مظلل بالخمائل، وأمامهم مربياتهم يتنقلن بهم من مكان الى مكان، حيث يؤرج الجو فوح الأزاهير، ويظلل المتنزهين أفنان كثيفة .. وكانت نافورات المياه تغسل الأوراق وتصيرها زمردية لامعة فتسبغ على الحديقة رونقاً وبهاء ..

ولن يستطيع الانسان مهما أوتي من سحر الوصف، وصدق الملاحظة الدقيقة، أن يحيط بدقائق هذه الحديقة، فهي آية من آيات الجمال؛ ولو لم يكن في (تل أبيب) سواها، لكفاها أن تسمى بحق (تل الربيع) ..!

مررنا بدار (الأوبرا)، فشاهدنا ضخامة بنائها وروعته، وتمنينا لو تحظى مدننا الكبرى بأمثالها .. فليس من الحضارة، في القرن العشرين، أن تظل مدينة تحترم نفسها دون (أوبرا) أو صالة عظيمة للموسيقى والتمثيل ..

ثم رأينا دور السينما، التي تنيف على العشرين داراً، ويحتوي بعضها أجهزة

لتكييف الهواء وتلطيفه في الصيف ..!وتسخينه وتدفئته في الشتاء .! وبذلك يظل الجو معتدلا ملائماً للرواد والزبن في كل آن وحين..!ولقد قيل لنا بأن بعض الافلام يستمر عرضه في صالة واحدة أكثر من ثلاثة أشهر ، إذ لا يوجـــد رجل يحترم نفسه ولا يذهب الى السينما ، ولو مرة في الاسبوع ؛ فالسينما مدرسة الشعب،ومثقفة الجيل ، ولو كره الجامدون .. ثم انتقلنا من شارع الى شارع ، ومن درب الى آخر ، فاذا بهـا كلها عريضة نظيفة ، غرست على طرفيها الاشجار منذ نشأتهـا .. تحت إشراف البلدية ، التي يقدر عدد موظفيها بموظفي دولة جبارة .

ولقد مررنا ببعض الدور ، فكان الاستاذ يشير الى وحدات منها قائلاً : هذه هدية البلدية الى الفنانة فلانة ، وهي الآن ترفه عن الجنود في الميدان الفـلاني . . ! وتلك هدية للعلامة فلان تقديراً لجهوده العلمية، وغيرها هبة للموسيقار علان .. وهكذا . . !

ولن ترى من وسائل النقل في شوارع تل أبيب (ترامو ايات) ولا (طنابر) أو عربات (كارو)أو خيولا وحميراً لتركبوها،لن تشاهد(جمالا)تسير على الرصيف، مع المحترمين من بنى آدم . بل تبصر(باصات) تتجه الى كل أطراف المدينة . فلا يتيه الترام هنا ، أو تحيد (سنكته) عن شريطه ، او تتغير أوقاته ، أو يتعطل ، وتحمل الناس ثقله وسماجته وبطأه .. وجل ما هنالك حركة دائمة منظمة ، تؤديها (باصات) أنيقة ، ذات طبقة واحدة أو طابقتين ، لم نشهد مثلها من قبل ، إلا في دور السينما . حتى لقد شاء صاحبنا ان يجرب إحداها ، غير هياب ولا وجل ، فما كاد يضع قدمه على السلم ، حتى تصور انه وضعها على أولى درجات الجنة ، فقد صعد في إثر حسناء عارية الساقين ، يشعشع من تحت ثوبها شموس وأقمار.. وفجأة رأيناه يعود القهقرى، وبتلمس جلده ؛ فقد خشي ان يتدهور الباص إذ لم يجد فى طبقته العليـا سائقاً .. فمن يسوقه إذن ؟ الشياطين ؟ ولم يدر أن السائق الظريف في الطبقة الاولى،وهكذا هبط وقد فشل فشلا ذريعاً تحدث عنه الركبان ..

وأخيراً وصلنا الى (حديقة الحيوانات) ، أو كما يسمونهـا (جان لاحيوت)

فأسرعنا بدخولها، لمشاهدة غرائب وعجائب البر والبحر، وهي كما بدا لنا مازالت صغيرة فقيرة في دور التكوين . ! فالحيوانات حبيسة في أقفاصها وحجراتها ، وقد كتب على كل قفص أسماؤها باللغات الثلاث أو الأربع : العبرية ، والانكليزية ، والعربية ، والفرنسية .. وهنالك أقفاص الأغربة والواق، والحمام والكنار ،والببغاء وطيور (جاوا) ، وما الى ذلك من صنوف الطير وألوانه.. وعن كثب منها تشاهد الدببة الفارسية والهندية ، وهي بنية اللون ، أو سوداء دامسة .. وثمة سباع ، ولبؤات ، وأشبال ، الى جانب نمور ، وفهود ، تقضم جميعها لحم البقر وعظامه ، كما يقضم أحدنا (كعب الغزال) .. أو (حلي سنونك) .. وتكثر أقفاص القردة المتنوعة المختلفة وهي تصيح وتزقزق لتلتهم كل ما يلقي إليها من الفواكه ، والموالح ، حتى أعقاب السكائر ..! أما الأرانب ، وبنات آوى ، وفأر المسك والجرابيع والرول والقواضم وآكلة اللحوم ، فلا يحصرها عد أو ذهن .! وليس أجمل من بقر الوحش ، والوعل والبجع والطيور المائية ، وهي تصول وتجول، برقابها الطويلة الرفيعة ، او بقرونها المتفرعة المتشابكة .. وتكثر العقبان والنسور ، وجوارح الطير ، فوق الأغصان ، وهي فخورة مزهوة كملوك الطير ، وسلاطين الجو.. أما السلاحف البحرية والبرية، وذلك التمساح الهائل ، فانها تفزز النفس ، وتبعث فيها شيئاً من الرهبة والتعجب . وقبل أن نبارح الحديقة ، شاهدنا قاعة الأسماك الصغيرة ، وهي قبو واسع ، أنيرت خزائنه البلورية ، المحفورة في جوف الجدران ، ترتع فيها الأسماك من كل صنف ولون ، ويتجدد هواؤها ، ويتلطف ماؤها ، بواسطة نفاثات الهواء الداخلية . . . وتجد فيها أصغر أنواع أسماك (الشيلي) أوسيلان، أو الحرابي البحرية والسرطانات..

وأخيراً أبصرنا بمجموعة الأفاعي والثعابين ، من أصدقاء والدتنا المرحومة حواء، وبقربها حاخام كريم ، يرمقها شذراً ، وكأنه يردد أمامها ما وعدها به الرب : على بطنك تسعين ، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ...

جمال في كل مكان

عاد صاحبنا الى الفندق ، وراح يفتش في دفتر مذكراته ، عن صديقة أوصديق

يكون له نعم الهادي ، ونعم الدليل ، في هذه المدينة التي لا يجوز أن يعيش فيها الانسان بلا رفيق .. وسرعان ما عثر على ما يبتغي من صديقة وصديق،وها هو يتجه معها الى أقرب (بار – مقهى) على شاطئ البحر ، في مدينة الربيع ..

وما كدنا نجلس ، حتى ناديا بعض صديقاتها وأصدقائها في المقهى المذكور ، وكانوا خليطاً من الأوربيين والشرقيات والشرقيين ، اجتمعوا حول مائدتنا فعرفاهم بنا ، وكانت ورطة .! فنحن لا نعرف سوى الفرنسية والعربية ، وكان لسان الجميع عبرية فصحى ولغات اخرى .. ولولا أولئك النفر، الدمشقيون والدمشقيات، لضعنا في جو من الكآبة والخذلان ...

وخطرت أمامنا (الكرسون) غلامة المقهى ، التي سمع صاحبنا أن أجرها الشهري يبلغ السبعين جنيهاً – على ذمة الراوي – وقد ارتدت ثوباً شفافاً يعلو الركبتين ، ووضعت (مريولا) فيه أزهار وأطيار ، وصففت شعرها حتى لتحسبها تمضي الى حفلة لانتقاء ملكات الجمال ، أو لموعد أحمر يهب صاحبنا في سبيله عشر سنوات من عمره .. وكان على شفتيها جمرة،وفي خديها وردة ، وفي صوتها إغراء، وفي سيرها اختيال وتثن ؛ وعلى جانبها الأيسر جعبة فيها النقود ، حتى اذا انعطفت نحوك ، اهتز نهداها الرجراجان ، ذات اليمين وذات الشمال ، ورنت نقودها ،فأرتك الاغراء فنوناً ، مما يحتم حضور مضخات الاطفاء .! ثم تطلب إليك ما تشتهي من شراب ، فتلبي أنت الطلب مسرعاً صاغراً مستسلماً ، رامياً لها السيوف والأتراس.!

ولا تحسبن هذه (الكرسون) فريدة دهرها ، ووحيدة زمانها ، في هذا المقهى .. لا ، بل إن مثيلاتها موجودات أينما سرت،وفي أي (بار) دخلت ... فانك دوماً تجد نفس النماذج ، ولكن عليك أيضاً أن تضع يدك على جيبك ، حيثما توجهت ، لتكون نعم السفير بنقل النقود .! ولقد تحلقنا حول مائدة يوحي خوانها بالنظافة ، فوقها زهرية تغص برائع الورد ، بينما كانت الفرقة الموسيقية تعزف بين الحين والحين ، قطعاً غنائية أو راقصة ، علوية ساحرة . وإذا كنا لم نزر أوروبا ، فقد حدثونا بأن ما نشاهده الآن قد لا نعثر عليه حتى في أفخم عواصمها ومدائنها ..

وطفق القوم يتحدثون ، والحديث ذو شجون، فيستعيدون ذكريات دمشق ، ورياضها وغوطتها، ويترجمون ذلك الى العبريات الغربيات .. ولله يا دمشق ،كم تركت في قلوب عشاقك ، من ذكريات لا تفنى ، ومن صدى لا يذوي على ممرّ الدهر ..! وهل يسكت السائحان المغامران في هذا الجمع الحاشد من (المتصهينين) المتطرفين الغلاة .. والخبثاء .؟ أم ينتهزان الفرصة لالقاء ذرة من البارود في قلوبهم فتنثر الأحاديث ، وتقذف الأسرار ، وتفك عقد اللسان .؟ وهذا ما كان ، بل وماينبغي أن يكون .! وفي ذلك الجو الساحر ، بين الغواني والفتيان ، صدرت آراء صهيون سافرة مكشوفة تلقفتها أذنا الضيفين الكريمين بكل ترحيب . .

امرأة تحدث عن العنصر الصهيوني

وتحدثت فتاة بلغة فرنسية ،تضع نظارة زرقاء ، لتخفي بها شيئاً من صغر تينك العينين ، ولتعطيها بعض الجمال المرموق قالت : كان هتلر — ولأول مرة نسمع أسمه في فلسطين — يقول : إن اليهود في ألمانيا ، ليسوا سوى ضيف كريم قدمته لي يد الديموقراطية . . » ثم سكتت ، فاتجهت إليها العيون والاسماع . . وتابعت : وقد كان الديكتاتور (غول) العنصر اليهودي ، يعرف ما يريد من مغزى الجملة هذه ، فقد سبق له أن قرر كيف يتخلص من ذلك الضيف الكريم ، ما دامت فلسطين الموعودة تنتظره .! ولست أدري أية مجزرة كبرى ستحدث لو لم تكن هنافلسطين .؟

إن كبش الفداء ، الذي جعله منا هتلر ، لتخفيف سخطه على الحلفاء ، كما تفعل كل دولة رأسمالية ، أو فاشية أحياناً ، كان عنصراً فعالا في شحذ الهمة للتشبث بأرض إسرائيل . . وإن الهمجية العنصرية المنافقة وحدها ، هي التي خلقت مشكلة فلسطين . وليس مستطاعاً اليوم ، أن يرجع اليهود ، الى ظلمات (الجيتو) ،وليس بالمستطاع أيضاً أن يتحملوا المذابح كل حين .! لقد كان (هتلر) يؤمن بالعنصرية الجرمانية، كآله معبود ، كما يؤمن الكثير منا بصفاء العرق ، فلم تستطع ساعتئذ ألمانيا تحمل عنصرين صافيين .! فنحن — شعب الله المختار — .. هي فكرة، أنا لا أميل الى التمسك بها ، ولكنني كصهيونية مثقفة ، آمل العيش براحة في وطن تربطني به

أواصر الروح والذكرى والعنصرية اليهودية ...

ثم أمسكت بجريدة عبرية ، ولعلها — دافار — تقلبها حيناً ، وتثنيها أخرى ، وتناولت سيكارة من أحد الرفاق ، أشعلتها بهدوء وتؤدة ، وقد ران على الجميع صمت، حتى لكأنهم في مقبرة.. وليس ذلك السكوت بغريب ، فالناس دوماً يتكلمون هنالك همساً ، كما ليس غريباً ، أن نسمع كثيراً لنتكلم قليلا ، فهدفنا : إملاء الجعبة قدر ما نستطيع .!

غير أن صاحبنا حبذ — علم الله — أن يظهر بلاغته وثقافته ، فاعتدل في جلسته وتهيأ ، وكاد أن يصيح مزمجراً ، لولا شيء من هيبة المكان ، ولولا أن بين الجمع من الفاتنات ما يسيل لهن لعاب الزاهد ، أو ترقص لسحرهن حواجب العابد ؛ فلطف من لهجته وقال : ولكن .. ولكن يا حضرة الآنسة : إن مفهوم العنصر — منطقياً — مبهم وغامض جداً ، لانه يتكيف دوماً حسب علم (الاتنولوجيا) ورجاله ، أو تبعاً للساسة المغرضين ، كالنازيين مثلا .! فلو قصدت بالعنصر ، أولئك الناس الذين انحدروا منذ آلاف السنين الى اليوم ، وقد صفا دمهم من كل لون خليط ، فهو خطأ فاحش ، وتفكير مترع بالخيال ، لوجود ما يسميه الفلاسفة والمثقفون ، (استحالة تاريخية) ؛ أما اذا شئت بذاك جماعة معينة ، لهم لونهم ، وشكلهم ، ومزاجهم الخاص ، فربما يحتمل الأمر النقاش .

وهنا أخذ يلتفت يمنة ويسرة ليتأكد من وجودي الى جانبه أشد أزره ، ولو بإيماءة رأس أو غمزة عين ، فقد كنت الوحيد الذي يوافقه على بياض ، في كل ما يقول ، فتابع : إن الواقع والحقيقة يجعلان كلمة العنصر المتفوق أو الممتاز ، كما يرتئي المغالون من رجالكم ، كلمة لا وزن لها من الناحية العلمية والمنطقية ، فليس هنالك عنصر منحط ولا متفوق ؛ لأن العناصر لا تثبت أو تستمر مع طول الأجيال من هـــذه الوجهة ..!

إن مدرسة (هتلر —ستريخر) لم تستطع إبادة ماركس ، وفرويد ، وآنشتاين ، من صفحات التاريخ ، كما أن مدرستكم المفرطة — المقدسة — بيولوجياً ، لم تستطع محق الأمم الاخرى وسحق رجالها البارزين ..!

ثم ازدرد ريقه وعلى أثره — حمداً لله — تقدمت (الكارسون) الناعمة بالآسيس ، شرابنا المفتخر ، فأسرع كل يأخذ كأسه ، ليردها بيضاء من غير سوء ؛ ولم ينبس أحد من الجماعة ، سوى الفتاة اللعوب ، صاحبة العوينات ؛ فقد كانت أكثر الجميع ثقافة واطلاعاً . . وكأنها دائرة المعارف الافرنسية . . قالت : والآن نستطيع أن نتفاهم يا عزيزي . . ولكننا سنبدأ حديثاً أطرف مما بدأنا به متذهنية.. سأحدثك عن نواح يهودية من اختصاصي ، وذلك حينما سنخرج الى التجول على الساحل . . وهمس ساعتئذ صاحبنا في أذن أحد الجالسين : ما هو اختصاص حضرة الآنسة .؟ فأجاب : إنها الاستاذة . . مدرسة الاجتماعيات ، في مدارس تل أبيب الثانوية ، ومن الاعضاء العاملات في (الهاجانا) ، فسكت صاحبنا وتقاص ، وقرر أن ينجو بجلده ، تاركاً أمره الى الله . . فلم يكن هو مؤرخاً ولا عالماً اجتماعياً من رجال هذا (البازار) . . فتحمل الصدمة المزلزلة وهمّ بالانصراف . . غير أني أسعفته بالمواد المشجعة من السفسطات التي يتقنها المغامرون ومن لف لفهم ، فتحمس وعزم على الوقوف في وجه العاصفة مهما كلفه الأمر ، وذلك خير له وأبقى .!

كانت الساعة تدق العاشرة ، عندما غادرنا المقهى ، وسرنا على الشاطئ مثنى مثنى ، تاركين المكان يتلألأ بالأنوار ، وتملأ جوه رنات الموسيقا والضحك ، وأصوات الغناء ، كأنما قرر زواره وسماره ، أن يعيشوا ليلة لا غد لها . .

سرنا على الشاطئ حيث يحلو السمر ، في ذلك الوقت اللطيف من الليل ، وحيث تكثر الهمسات تحت الظلال ، وعند كل شجرة أو جدار او جسر أو نفق .! وهنا ، اقترب صاحبنا من الفتاة ، وسألها بعد أن حاذى كتفها : نحن لا زلنا على الوعد ؛ فحدثينا يا آنستي — غير مأموزة — عما تعرفينه عن النهضة العلمية اليهودية ، المرافقة للصهيونية الحديثة .. ثم لمس ساعتئذ كتفها العاجي ، متحسساً لحماً كان يحسبه طرياً ، فاذا به من لحوم (الموضة) قد أهلكه (الريجيم) حتى تركه بشرة وعصباً وعظماً .! فابتسمت وقالت بدلال مقبول رغم كل شيء . . .

سؤالك واسع ، وجوابه أوسع ، غير أني سألخصه ، فاستمع إلي :

وهنا التفتُّ الى الوراء ، فرأيت القوم وكل واحـد منهم يخاصر صاحبته ، فلم يبق هنالك من رواد العلم والمعرفة ، سوانا نحن الثلاثة .. ولكم تحرق صاحبنا على حظه ، وندب بخته ، لأن الاستاذة لم تكن جميلة كما يريد حضرته ؛ ولعل العلم لا يجتمع مع الجمال في صعيد واحد .. قالت :

كانت آمال اليهود ، في القرن التاسع عشر ، وأواخر القرن الثامن عشر تقريباً ، تنحصر في التخلص من الارهاق والضغط ؛ ولقد تخلصوا مبدئياً في فرنسا عقب الثورة الكبرى من أسوار الجيتو الحقيرة ، فكان من أثر ذلك فيهم ، أن هـاجت حميتهم الثقافية ، ونمت فيهم فكرة البعث اليهودي ، وهو ما نسميه نحن بال (هسكالا) أي ما معناه التنور .. وكان ذلك في بولونيا وألمـانيا وروسيا وغيرها ؛ مما حدا بأرباب هذه النهضة ، الى فصل ثقافتهم العصرية عن الدين ، فمزجوها بروح علمية وعقلية ، مناسبة للعصر ، حتى أنها باعدت بينهم وبين الحنين الى أرض يعقوب في فلسطين .!

وكان رائد هذه الروح مبادئ الثورة المذكورة الثلاثة ، وهي الحرية والمساواة والاخاء ، ذلك أنهم كانوا يعتقدون بانتهـاء المسألة اليهودية ، بعد انبثاق نور الحرية الفرنسية وأن كبش الفداء الأزلي سيمحق اسمه من سفر التاريخ وأدمغة الاجيال .! غير أن الواقع بسفه رأيهم ، وقضى على تفاؤلهم ، بعد عدة مذابح وتعديات ، على ذلك اليهودي التائه اليائس نفسه ، حتى تطور الأمر بعدئذ بهم نحو الصهيونية المعاصرة .!

وكانت هذه الحركة ، وليدة التحول الدولي أيضاً نحو الاستعمار .! وقد طالت مدة هذا الانعكاس سنوات مديدة ، فالبذور بدأت تنتج ـ وبقاتها وجذراتها ، منذ أن لقحت في التحالف المقدس عقب الحرب (النابولونية) . فقد ظل الأوروبيون وما لبثوا ، يضعون الشعب اليهودي في المؤخرة ، رغم المساهمة الفعالة ، التي قام بها في الحركات التحريرية حتى عام ١٨٤٨ . الى أن قال أحد الألمـان اليهود ولعـله (موئيز هيس) : إن الشعب اليهودي ، سيظل غريباً ، بعيداً عن الاحترام ، ما دام يترك ذكرياته ، في الصف الأخير أو الثاني من مطامعه .! واذا كانت هنالك بعض الحقوق لليهود ، فانما هم توصلوا اليها ، بدافع الانسانية والرحمة لا بدافع الحق . !

ومنذئذ ، والحركات تترى في سبيل خلق أرض جديدة ، ووطن جديد، لنمو العبقرية اليهودية ، والنبوغ الاسرائيلي ، ولا شك أنكما تعرفان نهاية هذا التطور ، وانتقال الفكرة الى حيز الواقع السياسي ؛ أي من عام ٩١٤ — ٩١٨ وخاصة بعد وعد بلفور .!

وبالرغم من وطنية هذه الأنثى الصادقة، ونضوجها الفكري ، فان خيلاء المرأة ظلت تعبر عن نفسها في كل حركة من حركاتها ؛ فقد كانت كل ساعة ، تلمس ثوبها، وتصفف شعرها ، وتتحسسه ، أو تعطي بعض النظرات الناعسة الحيرى ، إلى السامعين العربيين .! ولقد طال الحديث بين أخذ ورد وهمسات وراءنا ناعمات ؛ وإني لأعترف مخلصاً ، ان الاستاذة المحترمة ، رغم حديثها السياسي العلمي ، ورغم الجد الذي تظاهر به صاحبنا أمامنا ، فقد استطاع ببراعة يحسد عليها ، أن ينال منها بعض اللمسات ، التي يعتبرها بريئة، وإن كانت قريبة من النهدين المتحجرين ، ومن صهيونية دون الوسط جمالا .! فهو يعتقد بوجوب هذه الألطاف ، والهدايا ، من شاب عربي خداع ، لينال الحديث دوماً مع الغواني من القلب ، بعد (جبران الخاطر) والاحسان للمسكينات من بنات حواء .!

ومع كل تلك الرقة والنعومة التي أبداها العالم الغلبان ، فان الحديث ، كاد يتطور الى صخب ، عندما وضعت السياسة والعروبة أصبعها .! فحاولنا ما استطعنا تحويل دفته، وتكلمنا عن الساحل الثائر في ذلك الحين ؛ وكان القمر ينزوي خلف الأبنية الشاهقة ، فبتنا في ظلام دامس ، وكانت الساعة تقارب الثانية عشرة ، حين ودعنا الانسة المغالية الصهيونية؛ ومن بعيد لبعيد ، صاح صاحبنا بالمنزوين والمنزويات، تحت الأشجار والزوايا .. شالوم .. شالوم ..

شفايم ... أرض التلال ...

لم نعدد كم ساعة نعمت فيها عيوننا بالكرى ، ولكننا نعرف اننا استيقظنا كغصن رطيب ، في تمام الخامسة صباحاً ، فارتدينا (مايوهاتنا) ، وهبطنا عراة من الفندق، كما هبط غيرنا من الرجال والنساء، وسرنا كما خلقنا الله ،في شارع الكورنيش.

ها نحن بين أمواج البحر الهائج ، مع جموع الاهلين ، الذين أقبلوا منذ الصباح الباكر ، — وقبل أن يؤموا مخازنهم ومحلاتهم — ننعم بالسباحة ، وهي متعة لا تفوقها متعة عند سكان الشواطئ .. وكانت ساعة صارعت فيها جسومنا أمواه البحر وأثباجه ، بين الظباء العائمة ، والغواني الغائصة ، وفي جو كله سحر وفتنة .!

وما إن نشطت أعصابنا وعضلاتنا، حتى عدنا مسرعين لنمتطي أول سيارة، تقصد مستعمرة (شفايم) . وهل ينسى صاحبنا أنه خرج من البحر ، دون أن يغتسل بالماء العذب ، فأبصره في الشارع العام ، جنّان يسقي الاشجار ، ويغسل أوراقها بخرطوم مائه ، فدعاه الى (دوشه) المجاني ، وكانت دقائق ، وقف فيها صاحبنا ، تحت خرطوم غزير المياه ، بين قهقهات المارات ، وتوابل نكات العابرين الفكهة .؟

وهل هو في نظر الجميع ، إلا صهيوني عريق في الاقتصاد والكسب .؟!

سار السائحان عاريين في الطرق ، إلا من(مايوه)، أصغر من عقل الجاهل ، أو رزق الفقير ..ولا تحسبن المارات والمارين، قتلوهما بالنظرات الساحرة ، و(تبويزات) الوجوه ، المشمئزة الثائرة ، على الفضيلة والاخلاق .. أبداً ، لم يلاحظا ذلك على الناس .. فلكل حريته ورأيه وعمله .. ولا تنه عن خلق وتأتي مثله .!

نشاط يبعث على الأسف

كانت الطريق الى (شفايم) مترعة الجانبين بمزارع الموز ، وأشجار الصنوبر،

و (بيارات) البرتقال ، وأنواع الحمضيات . ومما يلفت النظر ، تلك النافورات اللولبية ، التي تسقي الأشجار ، مهما علت ، وتغسل أوراقها ، فترى أوراق شجيرات الموز والبرتقال ، تتلألأ خضراء نظيفة ، تحت أشعة الشمس المشرقة . وعلى طول الطريق تلوح المستعمرات المثالية الصهيونية ؛ دون أن تبصر قرية عربية واحدة . . . فهل أحدث الصهيونيون شبكة طرقهم ، بعيدة عن أراضي العرب ، لتصل بين مستعمراتهم ، فلا تنالها أيدي أعدائهم بسوء ، من قطع أو تخريب ، اذا ماجد الجدّ وحمي الوطيس ، أم أنهم أجلوا العرب عن ديارهم ، في هذه الربوع ، فلم يبق لهم أثر .؟ إنما نحن نعتقد بالشيئين معاً ؛ فللصهيونيين تدابيرهم الجهنمية اللعينة في الاستعمار ، والاطمئنان الى مستقبل الأيام والمفاجآت . . أوليس درهم وقاية خير من قنطار علاج .؟

كانت العلامة البارزة والدالة على قيام المستعمرة ، خزانات هائلة مرتفعة مدهونة بالبياض "تملأ" بمحركات تدفع الماء من أعمق الأغوار ، الى أعلى الطبقات ، ليستطاع توزيعه على سائر أجزاء الأرض ، سواء علت أو انخفضت . وهكذا فان فقدان الأنهار لم يحل مانعاً دون قيام المستعمرات والجنان ؛ فليس هنالك أنهار قط بل آبار ؛ ومتى وجد الماء وجدت الحياة . فالخزانات أول عمل يقوم في المستعمرة ؛ وهي الخلية الاولى في القرية المستحدثة .! وهنا تذكر صاحبنا آلاف آلاف (الدونمات) من الأراضي الزراعية الخصبة ، على ضفاف الفرات والعاصي والخابور ، مهملة إهمالا زرياً ، يبعث على الأسف .! فهل يقول إن ماء الخابور ، لا يروي على ضفتيه ، إلا مسافات يتراوح عمقها بين عشرة وعشرين متراً .. بينما المياه تسيل غزيرة تقطع السهول والقفار .؟

أيها الماء كيف تجري سراعاً   وحواليك قاحلات البوادي .!
لو سقينا بك الحبوب شتاءً   لحصدنا النضار يوم الحصاد .!

أجل ، لقد تذكر صاحبنا ساعتئذ ، أنه قطع في غابر الأيام ، سبعمئة كيلومتر من دمشق الى القامشلي ، فنصيبين ، دون أن يجد في طريقه أرضاً مزروعة ، تجاوز ثلاثين كيلو متراً طولاً .! فهل هذا شأن أمة تطالب بحقها تحت الشمس ..؟ وهل هذا شأن أمة تتطلب الحياة والنجاح ، وشبابها يطرقون أبواب الوظائف ، يتسكعون

لزيد وعمرو، أو يدفعون اشتراكات شهرية (آبونه) في المقاهي .؟! بينما هنالك في بطن الثرى كنوز، وكنوز عذراء، لم تمسسها يد إنس ولا جان، تنتظر من يشق الأرض، ويحيي الموات ..

ألا لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وأن ليس للانسان إلا ما سعى .. فهل من مجيب .؟

هاهي ذي السيارة تقف في (شفايم)، وها نحن نغادرها، الى باحة رملة، تحفها بيوت المستعمرة البيضاء، وحدائقها الخضر. ولم نكد نخطو بضع خطوات، حتى خف العمال من كل جانب، بألبستهم الملوثة بآثار العمل، ينظرون الى من تحملهم السيارة؛ وسرعان ما اكتشف صاحبنا قدماء طلابه وطالباته، وقد طفح البشر على وجوههم لمرآه، فأسرعوا بنا الى حجراتهم الخاصة، لنستريح من وعثاء السفر ..

كان الوقت ظهراً، وقد جلجل ناقوس ضخم يؤذن بالطعام. فدعانا الطلاب لتناوله، فسألناهم: ألا يجب الاستئذان من مدير المستعمرة .؟ فأجابوا بصوت واحد: لا، لا .. كلنا هنا مدير، وكلنا راع، ومسؤول .. وبدهي أن مستعمرتنا، ليست مفتوحة الأبواب للعاطلين المتشردين المتسولين، ولن تكون هدفاً للمحتالين (النصابين)؛ ولكننا نحترم الضيوف، ونكرم الزائرين. وخاصة من نثق بأدبهم وأخلاقهم. ولعل صديقي كادت تصم أذناه في طريقه الى المطعم، لكثرة أسئلتهم عن أهليهم وإخوانهم ودمشقهم وأشواقهم وذكرياتهم .! إنهم يرغبون في رؤية دمشق دونما عودة، بعد أن تقرر مصيرهم هنا في هذه المستعمرة كصهيونيين مستعمرين، عن طواعية واختيار، وبعد تفكير واقتناع .!

كان المطعم قاعة واسعة، ولكنها لا تتسع دفعة واحدة، لسكان المستعمرة البالغ عددهم، أكثر من سبعمئة نفس، ولذا فهم يتناوبون على دفعتين أو ثلاث .. أما أدوات المطعم فكلها من الألمنيوم، وهي نظيفة مرتبة على الموائد بنظام. غير أن الماء — حياة الانسان — ما زال كما نعهده مفقوداً، وهم يستعيضون

عنه بالشاي الساخن ، مع قطع السكر التي توضع في الفم قبل ارتشافه ، تطبيقاً لآخر نظريات علم الاقتصاد .! وكان الطعام مؤلفاً يومئذ من أكباد البقر وطحالها، مقلية مع البصل واللحم والدهن ، وبجانبها (البرغل) وحساء الخضر . ويقدم هذا الطعام الى كافة سكان المستعمرة السليمين دون استثناء ؛ فيتناولون أربع وجبات يومياً ؛ أما المرضى فيتناولون ست وجبات ، أو كما يشير الطبيب ..

هذا ولن ينسى صاحبنا ، قطعة من اللحم البقري الصلبة ، لم ترضخ لتوسلات شوكته ، أو تشفق على زفراته ، أو ترثي لعصافير بطنه ، بل ظلت رافعة رأسها بكبرياء لا تلين ، كبعض أثرياء الحرب المعروفين ، أو أدعياء العلم ، وأنصاف العلماء الجاهلين .. وأخيراً وبعد صولات وجولات في ميدان الصحن ، وحركات التفافية بارعة ، استجابت لتوسلاته ، واسلست القياد ، فأسرع يدحرجها في حلقه كحبة من (الاسبرين) .. وفي هذه الأثناء ، أقبل استاذ الطلاب ، وهو بولوني يتكلم الفرنسية بطلاقة ، فقدموه الينا، وجلس بجانبنا ، يشاركنا الطعام ، ويبدي ضروب اللطف والعطف ، ويتمنى مرافقتنا في زيارة المستعمرة ، لولا كثرة أشغاله واعماله الشاقة ..

غزل في معركة انتخابية

ونادى مناد يدعو فتيات (الكيبوتس) وفتيانه ، لحضور الانتخابات العامة التي تجري بمناسبة دخول العام العبري الجديد ، لانتخاب اللجان ، والاشخاص الذين يناط بهم أمر تنظيم المستعمرة ، والاشراف على شؤونها .. فدعينا كضيوف شرف .!

وكانت حجرة الاجتماع أشبه بفصل مدرسي ، نضدت على اطرافه الموائد ، وجلس الجميع اليها ، بعضهم بلباس (المايوه) فقط ، والآخرون بسراويل قصيرة جداً ؛ أما الفتيات ، فكن يرتدين طراً لباس (الكيبوتسيات) التقليدي ، سروالا قصيراً مزموماً حتى نهاية الفخذ ، حيث تبدو سوق ذابت فيها أشعة الشمس ، وتكور نهود خلف القمصان ، تنادي بحقها في الحياة ..

جلس أستاذهم البولوني الى مائدة صغيرة ، يدير الجلسات ، ويوجه المناقشات ، ويسجل الأصوات، وكان جدول الاعمال يتألف من : بث الشكوى ،والاقتراحات، الجديدة ، وتوزيع الاعمال ، وانتخاب اللجان ..

وما قرئت أسماء الحاضرين والحاضرات ، حتى احتدمت المناقشات ، وعنف الصراخ بين الفتيات والفتيان. وبدأ الشغب واللعب والمزاح، حتى لقد قال لي صديقي هامساً : (قاضي الولاد شنأ حالو) .! وزعم أن الاستاذ حازمٌ ، طويل الأناة ، لا يوجه كلمة جارحة الى أحد الطلاب ، فقد انتهز أحدهم الفرصة ، وهو دمشقي — ابن حلال — ووضع ضفدعة صغيرة على الارض ، جعلت تدنو من قدم الاستاذ وهي تقفز ، والجميع ينظرون اليها لاهين عن الانتخاب ، بابتسامات مكبوتة ولغط صارخ .! وهنالك غلام كان يشاكس فتاة ويداعبها. فوخزت رفيقي أنبهه الى ذلك، فحرك عينيه نحوها ، فاذا بها سمراء ، فيها كل ما في الشرق من سحر وسر ، تنضح من عينيها خمرة بابل ، ومن شفتيها تمتمات،لو ترجمت الى لغة سدنة الجمال لكان معناها تعال وقبلني .!

كان الفتى يداعبها ، ويدعو الى انتخابها ، وهي تتضرج هياجاً ، وشهوة سافرة.. ولا نعلم إن كان في هذه الاساليب ، رشوات ووعود ، أم أنها انتخابات نزيهة . . ! وكانت المرشحة تدل على الفتى ، وتشمخ غراماً ، وتهوراً صادراً عن غريزة الانثى في دور المراهقة .!

كل هذه المناورات الانتخابية دعت صاحبنا أن يبرز الى الوجود ، ولو نال بعض المتاعب ؛ فلم يكن بوسعه ان يتجاهل شفتين توحيان بالقبل ، ونهوداً صلبة ساحرة، تصرخ مذعورة تطلب الحماية والوصاية والانتداب .! فانتقل محتجاً بضيق المقعد الى جانبها .! وقد حدثني فيما بعد ، عن انتصاراته الهائلة في ميدان المعركة ، وأنه اصطدم مرات ثلاثاً ، بصدرها العامر ، بمرفقه دون عمد — أو عن تصميم — ولعن الله الشيطان .! وكانت رفيقتها بجانبها ، في شبه نهم جائع الى الرجل ، رغم كثرة المراهقين في المستعمرة،وقد وجدت فيه بضاعة جديدة ، فأعطته من عينيها ما ينتظره

من وعود لأجل غير مسمى .! وكان للقوم — كما زعم صاحبنا — بعض العذر في هذه الاباحية السافرة البارزة .! فهؤلاء فتيات غضات ، بلغت إحداهن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها ، دون خطيب أو زوج ، وهؤلاء هم شبان وفتيان لهم مثل هذه السن والجسم والقلب ، وجميعهم يعيشون معاً ، ليلا نهاراً ، حفاة عراة ، تحت أشعة الشمس القوية ، وفي عمل منشط ندّال ؛ في الحقل ، وفي المعمل ، وفي الحجرات .. وفي البحر .! فكيف يمكن لأمثالهم وأمثالهن ، أن لا يحظوا ببعضهم بعضاً ، ولو على سبيل التسلية والمزاح ..!!

واستمرت الجلسة بعض الساعة ، وكانت النتيجة أن انتخبت فتاة ، لجلب طعام المرضى ، وفتى لتفتيش النظافة ومراقبة المعلولين ، وأخرى لتقدير الأذون والاجازات ومحاسب وخازن وأعضاء لملاحظة الاتجاهات الثقافية والمطالعة ، وفتيات لتنظم الحفـــلات .

البحر نشوان (بيضحك)

وما كادت الجلسة تنتهي ، حتى دعينا الى زيارة البحر ، الذي يبعد كيلومترين عن (شفايم) ، فجلبوا لنا (مايوهات) ؛ وها نحن في طريقنا الى الشاطىء ، في موكب من الفتيان والفتيات .. وما هي إلا أمتار من المستعمرة ، حتى خف صاحبنا الى شجيرات التين ، حيث تجري غادته الملتهبة الموعودة ، وسار الى جانبها ، فأوشك أن يلتصق بها وهو يحادثها ؛ ولعله ود ان يكون ثوباً من ثيابها ، تستتر به عريتها اللذيذة عن الأعين الجشعة الفضولية .! ولا عجب من ذكائه النادر ، فهو أستاذ ماهر ، في نبش الكنوز والألغاز من صدور الغواني ؛ فقد اكتشف في هـــذه الجولة مع (المحبوبة) ، أنها عراقية بغدادية ، ومن الأراضي الحارة ، فقرأ على مسامعها ما قاله امرؤ القيس منذ قديم الزمان : أجارتنا إنا غريبان ههنا .. فنظرت اليه نظرة حيرى وكأنها تقول : وكل غريب للغريب نسيب ..

كان أكثر السابحين والسابحات من العرب (الصهاينة) ، يجرون حفاة على

الكثبان المتوهجة اللاذعة ، المترعـة بالشوك ، دون أن يعثروا أو يقفوا هنيهة ، كما نقف نحن ، لانتزاع الشوك من الاقدام ، فقد اعتادوا في كل يوم ، وفي كل فصل ، أن يذهبوا الى البحر ، من نفس الطريق ، لينعموا برياضة محبوبة لطيفة .. وقبل أن نشرف على البحر ، دخلنـا غابة من التين ، عثنا فيها نقطف الثمار ، ونملأ البطون والأفواه ، من كل ما هو لذيذ مبهج .!

وكان منظر البحر فريداً في نوعه ، لم تقع أعيننا على مثله من قبل .!

تخيل أيها القارئ كثباناً عالية من الرمال الحمراء ، بارتفاع ثلاثمئة متر تقريباً ، تنحدر شاقولياً ، مع بعض الصخور الرملية ، نحو الشاطئ المذهب المتألق .. وليس ثمة طريق ، سوى منحدر رملي ضيق متعرج جداً ، كانت تغوص فيه أرجلنا حتى الركب .! وفي أعلى التلال الشاهقة ، بقرات ترعى على شفا الهاوية ، قرب شجيرات التين المطلة على الجرف تماماً ، الى جانب قرية بعيدة عربية تشرف على اليم .. ! وأما رمال الشاطئ ، فهي نظيفة ناعمة حمراء ، يغسلها البحر منـذ ألوف السنين .. ومن بعيد ، كان الأفق يبدو مغرياً ، حيث تتصل السماء بالماء الأزرق اللازوردي ، ولا يفصل اليمّ عن أرجوان الرمال ، سوى صخور بنية عابسة ، وأثباج من الموج الناصعة تثور مع البحر ، لترسم شريطاً أبيض متعرجاً فوق الرمال الرطبة .!

وبدأ الغانيات يرقصن كجنيات البحر ، والمـاء يقبل أقدامهن ، وقد تحلقن حلقات تحت شمس صافية ، وفوق أرض كالعسجد ، وأمام بحر مائج بلون البنفسج ، وكثيراً ما تركن رقصهن الايقاعي ، وارتمين كيفما اتفق في المـاء ، وشعرهن ينساب على أكتافهن ، أو يتهدل وينوس في الهواء ، وهن يقفزن ويطفين مرة ، ويرسبن أخرى ، وقهقهاتهن تغلب هدير الأمواج .

جلسنا على الشاطئ ، وافترشنا الرمال ، والموج يضرب أقفيتنا ؛ ونسينا أفكارنا العلمية ، ومهمتنا (الصحفية) فترة ، ونحن نلهو برسم القدود ، والنهود على الرمل .. فلكم كومناها تلالاً ، تمثل السابحات ، وكم غمرتنا نشوة علوية أنستنا الدنيا وهمومها .!

ولم يغط صاحبنا سوى اثنين فرّ مع اثنتين الى مكان بعيد .. خلف الصخور .!

وكأنهم يلعبون (التنمية) ، وغابوا عن أبصارنا ، ثم بدوا بعد مدة طويلة .!

فلِمَ فرّ هؤلاء الخبثاء الى ذلك المكان السحيق .؟ هل راحوا يلبون نداء الجسد أو القلب ..وراء الصخور .. وفي منأى عن العيون .؟ ربما .! فالغذاء الدسم، والرياضة ، والشمس والعري ، هي قنابل ذرية ، تنسف أقوى حصون الفضيلة والطهارة في تلك الربوع .! ولا عجب إذن ، إن قل المتزوجون والمتزوجات ، وكثر العزب والعوازب ..

عدنا وماء البحر المالح على أجسامنا لم يجف ، وقصدنا لساعتنا الحمام ..والحمامات هنالك قسمان ، قسم للرجال وقسم للنساء ؛ وليس للرجال أن يزوروا الاناث ، أما اذا شاءت أنثى ، أن تغتسل في حمام الرجال ، فالمفرط أولى بالخسارة ..!

لقد كانت تلك الساعة في الحمام ، تاريخية لا تنسى .. فقد دخل صاحبنا — بالمايوه — فرأى العيون ترمقه ، وتقيسه طولا وعرضاً ، فأراد أن يرمقهم ايضاً وأن يكيل لهم الصاع صاعين ، فارتد بصره حسيراً كليلا . ! ذلك انه شاهد ، ويا لهول ما شاهد .! لقد رأى القوم كما خلقهم الله بعوراتهم وعريهم ، فانعقد لسانه من الدهشة،وما أكثر ماينعقد لسانه لأقل سبب.ولكنه لم يفقد ذكاءه ومواهبه، لان الحماسة عاودته ، وهاجمه الفهم دفعة واحدة ، فأسرع دون تفكير أو تعايل ، بخلع (المايوه) ؛ ولعله شجعني أيضاً على الظهور بمظهر الاب المحترم (آدم) — عليه السلام — لئلا نكون هدفاً لسهام الناقدين ، ومنالاً لتعصبهم ، وقليل منهم من يعرف هويتنا تماماً ، — كاسلام عرب — . ثم نعمنا بـ(دوش) لن ننساه على مر الايام ، لانه راح أقصوصة الندوات ، وسمر الرفاق (النكاتين) . !

كتاب مفتوح يجب قراءته

عدنا بعد تعب ورياضة واستحمام ، نلذ بوجبة ثالثة ، ونكثر من الزبد والحلو أيما إكثار ، استعداداً لجولة واسعة في أنحاء (الكيبوتس) . ولقد لفت نظرنا هذه المرة دخول الكهرباء في كل شيء .. دوماً وأبداً .! فكأن الصهيونية ، تريد كهربة

جميع مرافق الحياة في (الكيبوتسات) ؛ وما ذلك بغريب عنهم .. فانهم ينقلون الى فلسطين كل ما في الغرب من علم وفكر وعمل .! فالكهرباء هي وجه القرن العشرين المشرق ، ولعل حضارة أمة من الامم اليوم، تقاس بمقدار تغلغل الكهرباء في حياتها ومرافقها ..

هوذا المطبخ ، وجميع آلاته تدار وتعمل بالكهرباء ، غير انها تجري على مقياس أوسع مما رأيناه في (شفيا) ولو كان الاتقان والنظافة هنا ، أقل ظهوراً وتفشياً من هنالك ، وذلك لاتساع العمل والحركة والنفوس في هذه الديار ، ولأن (شفيا) ليست مستعمرة بالمعنى المفهوم ، بل هي مدرسة لانتاج الشباب العامل بصورة سريعة منظمة .! وأغلب آلات الغسيل ، من صنع (تل أبيب) وكلها تدار بالكهرباء أيضاً، فتضع العاملة المختصة الماء والصودا والصابون المبشور بمقدار متقن ، ثم تدير الآلة ساعة واحدة ، وهي تتسع لما يعادل (٢٥) كغ من الثياب . ولها دورات ثلاث باتجاه ، ثم دورتان باتجاه معاكس ، وثمة آلة لعصر (الغسيل) مؤلفة من وعاء أسطواني كبير مثقوب الجدران ، يدور حول محور مرتبط بآلة متحركة ، ويحيط بهذا الوعاء ، وعاء آخر ينتهي من أسفله بصنبور ؛ فاذا دار المحرك ، دار الوعاء الداخلي ، فانطلقت قطع القماش الى محيط الوعاء ، بتأثير القوة النابذة فيها ، وعندئذ يتطاير الماء ذرات ، تجمع في الاناء الخارجي ، ثم تسيل من الصنبور .!

ويلي ذلك ، حجرات رفء الملابس وترميمها ورقعها وخياطتها وكيّها ، فترى قسما منها لألبسة المراهقين العرب ، وقسما للأطفال ، وآخر للبنات ، وغيره للاغراب من غير العرب .. وترى الى جانب هذه الحجرات ، معامل النجارة الخاصة بصنع لوازم المستعمرة الخشبية ، فتؤمن مطالبها من أسرة ومقاعد ، وأخشاب بناء وأبواب وغيرها على أكمل وجه ..

وهنالك معمل ، يصنعون فيه نوعاً خاصاً من الأحذية للزراع ، لا تدق فيه المسامير الحديدية ، بل تستبدل بمسامير خشبية وخيوط .. ولعل هذا النوع مما يوافق الحياة الريفية موافقة تامة فلا يفنى ولا يبلى . . وتذكر صاحبنا عندئذ ، قرويات أرباض

دمشق ، حينما يهبطن المدينة فيخلعن أحذيتهن لئلا تهرأ في الطريق ، ولأن الطريق نفسها أنظف من دورهن ، عدا أن جلودهن تجـدد دوماً بلا ثمن ، أما الأحذية فتجديدها يتطلب الثمن المضمون .!

ولقد كانت أعمال البناء ، قائمة على قدم وساق كالعادة دوماً ، ذلك أن المستعمرة في اتساع مستمر،لا تقف عند حد، فكلما استولوا على قطعة من الارض ، أصلحوها وأحيوها ثم فتشوا عن غيرها ، ولذا فالبناؤون يعملون طيـلة الايام بصب القوالب الاسمنتية المفرغـة ، ليستطيعوا بناء حجرة في ساعات معـدودات . . . فلقد يصل المستعمرون الى الارض صبـاحاً ، فترى في المسـاء قرية كاملة ظهرت للوجود ، أما أبنيتهم هناك فهي مريحة وصحية وعملية ..

وانتقلنا في أرجاء المستعمرة ، فشاهدنا خمة الدواجن وأقفاصها ، فيهـا البط والأوز والدجاج ، وقد أنشئت أقفاصها بطريقة تمكن من أخذ (السرقين)،وذلك بجعل أرض القفص من شريط تمتد تحته ألواح واسعة متحركة ، يسحبونهـا حينما يريدون ، ويجمعون من فوقها السرقين المتراكم .. ذلك السماد الطبيعي الغني ..

ثم زرنا الاسطبل ، فوجدناه أقل ترتيباً مما شاهدناه في (شفيا) ؛ غير أنه لا يقل نظافة.وكذلك مكان الاستحلاب،ففيه مفرزة يدوية ، وأوعية معدنية نظيفة ..

وهنالك مكان خاص بالعجول ، ولـكل عجل اسمه الذي ينادى به ، وقدشاهدنا الى جانب كل ذلك حجرة خاصة بثور ضخم يدعى (تشرشل) — كذا — أنسانا منظره ثور (شفيا) ، وتلاصق حجـرته حجرة ثور آخـر أضخم منـه يدعى (بودا) .. وهمامخصصان (للانسال) والقيـام بشئون الحريم ..! ولعل خصيتي أحدهما

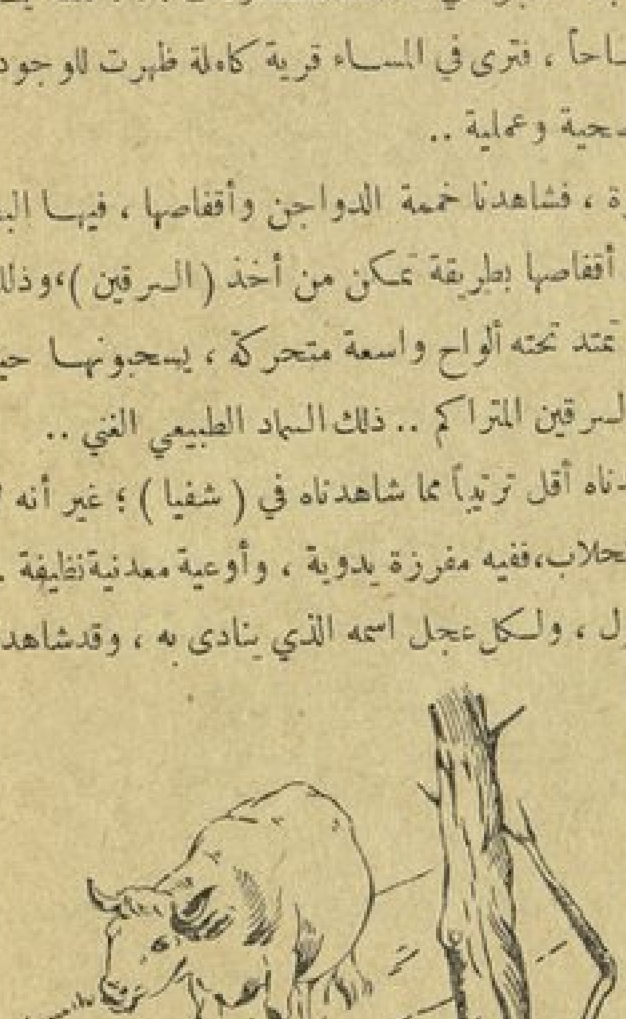

البيضاوين ، تجعل الرائي ينشط الى ذكر أجراس الفضة المتألقة ، بالنسبة لسواد جلد الثور الدامس ونظافته .! ثم سرنا نمتع البصر بحريم الثورين : البقـــرات العزيزات ، وكان اسم كل واحـدة منهن فوقهـا ، فهذه هي (هيلانة) ، وتلك هي (تيكفا) ، وهذه (دينا) ..

وتحلب البقرة هناك ، ثلاث مرات في اليوم ، وفي كل مرة تدر ما لا يقل عن سبعة ليترات أو ثمانية من الحليب . وتقسم اسطبلات البقر حسب السن والنوع ... فهنالك نوع يقتنى لحليبه فقط ، ونوع للحمه ، ونوع للجرّ والأعمـال . ! ولبعض البقر الحلوب عندهم أنساب طويلة عريضة .! فمنها الارستقراطي الأصيل بشهادات رسمية ، ومنها المجهول الوضيع .. ولعل النظام الارستقراطي ، أو البورجوازي لحق طبقة الحيوان اليوم أيضاً .!

وأعجب من كل ذلك — وليسمع سكان الأرياف — أنهم جعلوا مكاناً خاصاً للسفاد بين البقر .. فتدخل البقرة في مكان محدد بالأنابيب الحديدية الضخمة ، فتحجزفيه ، وتربط من رقبتها ، عدا مؤخرتها الناتئة عن المكان ، مستعدة لمقدم الزوج السعيد ، ولا فرق هنا بين (تشرشل) أو (بودا) إذ يجب أن لا يخيب رجاء اصحابه في عملية الالقاح ؛ غير انه يجب ان لا ننسى أيضاً بأن مكان الزوج الطيب أوسع مما للبقرة ، بالنسبة لضخامته ولمقتضيات الفن ، فكأن إطـارها ضمن إطار الزوج العتيد . .! وأخيراً ، هاكم معاطن الإبل ولا شيء فيها يستحق الذكر والاعجاب ..

وعندما وصلنا أقصى المستعمرة ، وقف الجمع أمام مقبرتها خاشعين خاضعين ، فهي عندهم — كما حدثونا — رمز العمل المتواصل ، والكدح المخلص .! فهنا يرقد من قضوا في سبيل الواجب ، ممن هجروا بلادهم ، وهبطوا أرض الميعاد ، وعملوا في الأرض المحبوبة ، التي ضمتهم اليهـا في النهاية ؛ واحتوتهم في جوفها آمنين .. ولقد قالوا : إن أكثر من مات في أوائل تأسيس المستعمرة كانت ميتته بسبب فتك الحيات ، ولدغات الثعابين ، والتعرض للأوصاب .!

وكان الى جانب المقبرة ، منحـلة فنية ؛ وهي أول ما شاهدناه من أمثالهـا في

المستعمرات .. ففيها مئة وستون خلية مصنوعة من الخشب والتوتياء . بذوق فنان، وتوصية عالم .! وأمام المنحلة جام من البلور ، فيه نماذج من الخلايا ، ومقادير من العسل والشمع والنخاريب . ويصفى العسل بجوار المنحلة ، في غرف خاصة مبنية بالاسمنت المسلح ، ولا يحتاجون في إخراج العسل الى دخان أو غيره لطرد النحل، وإنما هم يضعون في أصل الخاية رفوفاً ذات شباك وأطر ، يجمع عليها العسل والشمع، ويكفي أن تسحب هذه الاطر ليُجنى ما تراكم فوقها ، ثم ترجع الى أمكنتها ..!

وحدثنا أحدهم بقوله : إنهم مستعدون لتقديم العسل ، بمذاق مختلف الطعم والنكهة ، فاذا شئت عسلا ، ذاطعم وردي ، أو صعتري ، أو (يوسفي) ، فما عليك إلا أن تضع الخلايا ، أمام حديقة ذلك النوع ، المرجو من الزهر .! لأن النحل يتغذى منه ، فلو امتص رحيق الزنبق ، أو البنفسج ، فان عسله يصبح ذا عبق زنبقي أو بنفسجي .!

وللمرة الاولى بدأنا نجول في (بيّارة) أو (باردیس) . فقد كانت الاشجار قليلة الارتفاع ، خضراء الأوراق ،لا تعثر فيها ، على أغصان ذابلة يابسة ، أو ورقات ذاوية ، وإنما هي في خطوط مستقيمة هندسية، تسقى بواسطة النوافر اللولبية حيناً، وبأنابيب ضخمة من الاسمنت المستور تحت التراب ، حيناً آخر . . . وكان الماء — عندما فجروه أمامنا — يتدفق منها ، بقدر وافر ، دون ان يضيع منه شيء ، في الأخاديد التي تدر هناك .!

وفي هذه (البيارة) — ولعل الاسم مأخوذ من بئر ، نسبة الى الآبار التي شقها ابراهيم باشا المصري — من الحوامض ما يدعو الى الاعجاب . . فرغم أن الثمر لم ينضج بعد ، فانه كان كبير الحجم ، جميل الشكل . وإنك لتجد فيها الليمون ، والكريفون ، واليوسف ، والفلانسيا .. وكل نوع في قسم من الأرض على حدة، للعناية به حسب خواصه . .

ولم نر في أرض (البيارة) حشائش طفيلية ، لأن القوم يحرثونها مع الارض دوماً ، فتصبح أسمدة طبيعية ممتازة . ولا بد لك من ان ترى حول كل بيارة، سوراً

من أشجار السرو ، يحدق بها ، ليكسر من حدة العواصف ، ويقي الاشجار من كل سوء .

أرخى الليل سدوله علينا ، ونحن بين أشجار البرتقال والليمون .. فعدنا وفي نفوسنا جوع ، لم ندر من تفسيره سوى أن نكيفه ونحوله الى جوع البطون ، لننسى قليلا ألم الغيرة ، والنقد ، والشعور بالنقص ..! فدخلنا المطعم .. ولاحظ صاحبنا أن هنالك امرأة رومانية ، أيئستها الحياة ، في هذه المستعمرة — كغيرها من الرومانيات — فبدا على سيمائها ، شحوب وكمد وقنوط .. فكانت تشرب الشاي ، الساخن الخفيف ، دونما سكر ، — كالعادة — ثم تمضغ معه (مرملاد) السفرجل ، والحزن يزداد على محياها ، كلما أوغلت في الشراب ..

وهكذا استطاع صاحبنا ان يكتشف ثغرة جديدة ، في حياة الصهيونية ..

فها هي واحدة من عشرات الآلاف تجرع غصص الآلام ، وتشمئز ، ويبدو من محياها أنها تبتغي شيئاً .. إن سكان المستعمرة ، ليسوا سواء في البهجة والانشراح ، ولن يحيا الانسان بالخبز وحده ، وإنما هنالك قيم معنوية ، يلتمسونها في هذه الربوع فلا يقعون لها على أثر ، فهل يعني ذلك ، أن بعضهم يريد العودة الى المدن ، وحياة المدن .؟ أم أنه يتمنى العودة الى وطنه وبلاده ، ولا يجد عن ذلك بديلاً . ؟ سؤال عجيب ، ستجيب عليه السطور ..!

الهستدروت قوة

— فجارِها أيها العربي —

أخبرنا بعضهم ، أنهم سيعرضون الليلة ، شريطاً سينمائياً في المستعمرة ، فلنستعد لحضوره .. فهنالك سينما متنقلة ، جوالة ، بين المستعمرات ، تعرض الافلام ، دون أجر أو ثمن .. وقد تمر بهم أيضاً ، فرق تمثيلية ، تضم أشهر الفنانين والفنانات من بني صهيون ، لترفه عن السكان ، وتشيع فيهم ، جواً من السرور والحبور ، يستعيدون به نشاطهم وقوتهم ، للنضال والعمل ، في هذه الأرياف النائية ..

وقد يستدعون أحياناً بعض الفرق الرياضية والبلهوانية ، فلا يتركون مظهراً من مظاهر الترفيه والتسلية ، مما يوجد في المدن إلا وأتوا به ، لئلا يعيشوا في عزلة عن العالم ، وهم بهذا العمل ينقلون آثار المدينة ومعالمها الى المستعمرة ، فلا تنقطع صلتهم بها ولا يبتئسون .!

فهل سمعت أيها القارىء ، أن قرية من قرانا تزورها السينما ، أو فرق التمثيل والرياضة .؟ وهل تحسب أن الأمر تافه لا قيمة له .؟ لا .. لا .! إياك وأن تظن ذلك ، حتى لا أتهمك بالرجعية والتقهقر ؛ فان تأثير السينما في العصر الحديث ، هو فوق الجدل ، والتمثيل مدرسة الشعب ، والرياضة خالقة الابطال .!

ولقد قادنا الطلاب ، أو بالحري عمال المستعمرة الشباب ، من العرب الصهيونيين ، الى شخصية من شخصياتهم المسئولة ، ورجالهم العاملين ، لنتحدث اليه ، ريثما يحين وقت عرض الشريط ..

وكان شاباً دمث الطباع ، لين الجانب ، على درجة كبيرة من الثقافة والاطلاع ؛ يتقن ثلاث أو أربع لغات حية بينها العربية .!

وجلسنا نسمر وإياه ، في شرفة تطل على الحدائق والبيوت ، فإذا بآرائه ، صدى لآراء زملائه الآخرين ، في المستعمرات ، وتعبر عن الصهيونية وأهدافها بأجلى بيان..

وانتهزنا الفرصة المناسبة ، وانهلنا عليه بفيض من الأسئلة عن حياة المستعمرة ، وإدارة شؤونها وعلاقتها بالدولة ؛ فما ضن علينا بما تحوي جعبته من المعلومات ، فقال : إن لكل (كيبوتس) لجنة إدارية خاصة ، تنتخب سنوياً على درجة واحدة ، يشترك في ذلك الاناث والذكور . أما عدد أعضائها فيكون حسب ضرورة الاعمال المطلوب إنجازها ، وبنسبة السكان ؛ على أن لا يقل عمر العضو عن الثامنة عشرة ، وتبدأ اللجنة أعمالها في رأس كل سنة عبرية .

وإن كل (كيبوتس) — مستعمرة — هي مسجلة رسمياً لدى الحكومة ، باسم (جمعية تعاونية زراعية) . ولكل منها ، أمين صندوق ، ومأمور أشغال وتنظيم . أما المسئول رسمياً تجاه الحكومة عن كل ما يحدث في المستعمرة ، من ولادات ، أو وفيات ، أو حوادث .. فيدعى (مسكير) أو المختار ... وهذا هو الذي يتولى دفع الضرائب الى الحكومة ، عن المجموع دفعة واحدة حسب تقدير أولي الامر .! فكأن كل فرد منهم مساهم في إنماء المستعمرة .. والمال هو للجمعية .. فمن شاء أن يغادر (الكيبوتس) فليغادره دون أن يأخذ شيئاً ، وأما من أصبح عاجزاً فتجري عليه النفقـــة ..!

والمستعمرة حق التملك ، بصفتها شخصية معنوية ؛ وعندما تؤسس تسجل في دوائر الحكومة ، ويذاع أمرها في الصحف ، ويعلن عمن يفوض بالتوقيع عنها ، والتعاقد باسمها ، فكأنه المدير المسئول في الشركات التضامنية أو المساهمة التجارية .! وإن (الهستدروت) تسعف المستعمرات بتأمين حاجاتها ومطاليبها ، لانها تملك الكثير من العناصر الفعالة في هذا السبيل .! فهي تدخل في كل شيء ، ومن يشترك في الغنم يصيبه الغرم .! وعلى هذا فهي تصادق على موازنة كل مستعمرة ، وتقدم لها المشورة في زيادة الحاصلات والانتاج ، وترسل من لدنها دون سابق إخبار ، كل أربعة أشهر مفتشاً ليدقق حساباتها ، ويراقب الدخل والخرج .! أما الانتاج فغالباً

ما يستهلك في المستعمرة ذاتها ، وأما الفائض عن الحاجة ، فثمة جمعيات خاصة كمؤسسة (تنوفا)مثلا تعنى ببيع المحاصيل الزراعية . . وبهذه الطريقة تمتنع المضاربات والمشاكسات، وتسهل على كل مستعمرة معاملاتها ؛ ولا يبقى الفلاح تحت رحمة التاجر . .

وهنا همس رفيقي بصوت مرتفع قليلا : ليت تجار (سوق الهال) عندنا يعرفون ذلك ، أو ليتنا نسعف الفلاح بعشر المؤسسات ، أمثال (تنوفا) وغيرها .؟ ثم تابع المحدث :

أما ما يحتاجه(الكيبوتس) فيؤمن من شركة خاصة.ترتبط كذلك بالهستدروت ، تسمى (هاماشبير) . . فهي تقدم المواد الاولية ، وكل ما يلزم المستعمرة من رؤوس أموال ، حتى إذا ما ربحت أرباحاً طارئة ، أعادت توزيعها على المستهلكة من المستعمرات ؛ وليس في ذلك إضاعة وقت ما ، أو مساومات باطلة . . وحسابات لا يعلم فحواها إلا الله . ! وكل ذلك تشرف عليه (الهستدروت) كما تشرف على مطالب المستعمرة الصحية،فتؤمن لها الأطباء الجوالين، وأطباء الاسنان،والبياطرة، والمهندسين .. أما واجب المستعمرة هنا ، فهو أن تدفع لقاء هذه الخدمات مبلغاًمعيناً من المال . . .

ثم سكت المحدث ، والطلاب يرمقونه باجلال واحترام . فسألناه عن هذا (الهستدروت) الذي يتدخل في كل شأن من شؤون المستعمرات ، والذي تردد ذكره أكثر من مرة في حديثه ، فأخرج سيجارة وأشعلها ، وجعل يعب منها بصورة متواصلة ، لعله يستجمع نقاط بحثه ، ثم قال : •

مضى على (الهستدروت) خمسة وعشرون عاماً ، منذ نشأتها في (تل أبيب)، عام ١٩٣٠ . وأنا أعتقد ، بأنها أعظم منظمة اجتماعية للعمال في الشرق الادنى كله . . ولقد كان تقدمها نتيجة لعوامل خارجية مختلفة ، ولمساع مستمرة ذات هدف معين، يُعنى به الشعب اليهودي . وهي تقوم اليوم بتحقيق غايات قومية خاصة ، وخدمات فلسطينية عامة ، كما أنها ذات اعتبار دولي باهر باشتراكها في الاتحاد الدولي العام لنقابات العمال الكائن في لندن . . !

وقد بلغ عدد أعضائها في عام ١٩٢٥ : (١٥٢،٥٠٠) عضو أي ٧٥ ./. من جميع عمال اليهود في البلاد . وكانت خلال هذه الحرب، تشمل زيادة على ما ذكر (٢٥٠٠٠) عضو .!

إن في فلسطين (١٤٥) قرية زراعيـة صهيونية ، ينتمي جميـع من فيهـا الى (الهستدروت) ، ويبلغ عددهم نحو (٥٠٠٠٠) نسمة . وقد أنشأت خلال هـذه الحرب أيضاً (٤٨) قرية جـديدة ..! ويشتغل نحو خمسة آلاف عامل وعاملة في المشاريع الصناعية ، التابعة للعمال وللهستدروت ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة . أما هذه المشاريع ، فأكثرها منظم على طريقة شركات تعاونية .

هذا وقد أنشأت (الهستدروت) شركة خاصة تدعى (كور) ؛ وذلك لادارة هذه المعـامل والاشراف عليهـا . ولأضرب لـكم مثلا عن اهتمام (الهستدروت) بالعمال ومصالحهم .. فقـــد أضربت خلال الحرب نحو (٥٠٠) اضراب، اشترك فيها ما لا يقل عن (٢٥) ألف عامل وعاملة ، في سبيل العمال ورفع مستواهم المعاشي. ولذا فنحن نفخر بها ، وهي تفخر أيضاً بما تقوم به من المساعدات المتبادلة ، وذلك بتضامن أعضائها ، ضد الامراض والبطاله وغيرهما .! حتى أنهم يدفعون لورثة العامل المتوفى خمسين جنيها كتعويض رسمي سنوي ..

وللهستدروت .. صندوق تدعوه بصندوق المرضى، وقد اتسع كثيراً ! وأسست له فروع عدة في أطراف البلاد جمعـاء ، حتى أصبح يمتلك اليوم ثلاثة مستشفيـات كبيرة، ومصحات عديدة للنقـاهة والاستراحة . وإن لمحـة واحدة تلقى على مشفى (بيلينسون) التـابع للصندوق المذكور ، تذكرك ببنايات هوليود ، وحــــدائق لوكسمبورج ، وغابات بولونيا في باريز ..!

ولـكل مشترك الحق في العلاج الطبي الـكامل، ولكل من بلغ الستين من العمر معاش شهري ؛ يدعى معاش الشيخوخة .. ويدفع العمال ومؤسساتهم نحو ٨٣ ./. من نفقات (صندوق المرضى) أي ما يعادل ٦ ./. من أجرة العامل ، يدفعها اشتراكاً شهرياً ؛ أما المرأة فتدفع قليلا من أجرها لقسم النساء .! هذا وقد بلغت موازنة هذا

الصندوق عام ١٩٤٥ مقدار (١٠٣٧٠٠٠٠٠) جنيه فلسطيني . وكان دخل صندوق البطالة في السنة الاخيرة نحو (٢٠٠٠٠٠٠) ج ف ! ومن جملة الاعمال ذات العلاقة بالمساعدة المتبادلة أيضاً ، صناديق (الاقراض والتوفير) وعددها عشرون صندوقاً، وتضم نحو (٢٨) ألف عضو ؛ أما الرأسمال الذاتي لها فهو : (١٦٠٠٠٠٠) ج‌ف.!

وعندما رأى الرجل ، أمارات الاستغراب، والانتباه الشديد ، تبدو على وجهينا تشجع ولذّ له الحديث فمضى قائلاً :

وقد تدهشون اذا قلت لكم ، بأن بين منظمات (الهستدروت) شركة للتأمين تدعى (هسنه) ، وأن عدد (بوالص) أسهمها التي صدرت حتى اليوم هو : (١٣٤٤٢) بوليصيه وقيمتها (٢٠٨٠٧٠٠٠٠) ج ف .! ثم رشف سيجارته وتابع:

وتقوم (الهستدروت) بمشاريع هائلة ، في سبيل إسكان العمال ... إذ يستطيع العامل والموظف الحصول على مساكن صحية رخيصة كل حين . فقد أعدت شركة (شيكون) الهستدروتية ، مساحة من الارض ، تكفي لاسكان (١٣٠٠٠) عائلة ..!! وستبني الشركة أيضاً في هذه السنة وما يليها (١٦٥٠) منزلا ، سيكلف بناؤها مليون جنيه فلسطيني .!

أما بنك العمال ، الذي يمنح القروض المشاريع فقط ، — لا الافراد — فان رأسماله الذاتي ، يزيد على (٣٠٠) ألف جنيه فلسطيني ، وتنيف ودائعه على المليونين من الجنيهات . وعلى هذا يمكنني القول بأن المشاريع العمالية ، مدينة للبنك المذكور الآن ، بما يزيد على مليون جنيه فلسطيني، منها الثلثان للقرى الزراعية العمالية ، وأكثر من مئة ألف جنيه فلسطيني للشركات التعاونية ، وصناديق الاقراض .. وهنالك شركة (نير) . وهدفها مساعدة القرى الزراعية ، وذلك بأن تمنحها القروض ،على سبيل توسيع الزراعة بشتى الوسائل . كتنظيم الري ورفع مستواه الفني ، وإنشاء مخازن للغلال ، ومشاريع التبريد ، وأحواض السمك .! أما رأسمال هذه الشركة ، فيبلغ (٨٠٠) ألف جنيه فلسطيني . ومن البدهي أن الفائدة لهذه الشركة هي أقل مما تتقاضاه المصارف العادية ، حتى نفس مصرف العمال ..

وهنالك شركة أخرى للهستدروت، خاصة بالمقاولات الكبرى تدعى (سوليل بونيه) أنجزت أثناء الحرب، في فلسطين والبلاد المجاورة، أعمالا لا تقل قيمتها عن مليوني جنيه فلسطيني. أما فروعها الصناعية، فقد أنجزت أعمالا تقدر بـ (٨٠٠) ألف جنيه فلسطيني ..

تعب المحدث من حديثه، وتنهد، ثم قدم لنا بضع سجائر، اعتذرنا عن تناولها لعدم اعتياد التدخين .. واستراح قليلا، بينما قال أحد التلاميذ من العمال: إن للهستدروت دائرة خاصة بالمقاولات الزراعية فقط، وتدعى (ياخين) .. لأن الحركة التعاونية (الهستدروتية) واسعة جداً وكثيرة الفروع .. فهي تشمل شركات الانتاج، والاستهلاك، والاقراض، والنقل، وغير ذلك .. فمثلا شركة (تنوفا) الزراعية التعاونية التي ذكرها (الرفيق) — وأشار هنا الى الرجل — باعت من الحاصلات في السنة المنصرمة ما ثمنه خمسة ملايين جنيه فلسطيني تقريباً؛ كما باعت شركة (همشبير) الزراعية الاستهلاكية محصولات لأعضائها، بما يقدر بثلاثة ملايين جنيه فلسطيني؛ ولهذه الشركة مشاريع صناعية مختلفة، يشتغل فيها مئات عديدة من العمال؛ حتى لقد ساهمت فعلا بشراء معمل (شيمن) بنصف قيمته ..!

وهنا افتر ثغر محدثنا الاول، فكأنه سر لثقافة العامل الصغير، فجعل يربت على كتفه باسماً، ثم قال بعد أن أشار على التلميذ بالصمت:

وفي الهستدروت نحو (٧٠) ألف عضوة، ولها دائرة خاصة للعناية بالعاملة وشئونها، كما تعتنى بالشباب العامل — حتى السن الثامنة عشرة — المنظم في نقابة تشمل (١٣) ألف فتى وفتاة .؛ وتقوم الهستدروت بمشاريع علمية وثقافية واسعة ... فلديها (٢٠٧) حدائق للاطفال، و (١٣٥) مدرسة ابتدائية تضم نحو (٢١٠٠٠) تلميذ وتلميذة، . وجلها من طراز مدرسة كيبوتس «جبع» من حيث البناء والهندسة، حتى ليحسبها الرائي دار (أوبرا) تحيط بها أشجار السرو والأوكاليبتوس من كل جهة .. وثمة دار المعلمين والمعلمات الخاصة بالهستدروت أيضاً، وعدد من المدارس الثانوية والفنية من صناعية وزراعية .. كمدرسة الصناعة (ماكس فاين) للاحداث

وكمدرسة الزراعة لتدريب الفتيات في (تل أبيب) .. وكلها تعتبر نماذج حديثة للمدارس بصورة عامة .

وهكذا فأتما تريان : أن من أهم نقاط القوى فينا ، أننا نعمل دوماً في سبيل المستقبل ، لا الحاضر فقط .. إن كل طفل عندنا، تتعهده مربيات مختصات بالحضانة، وتسليم ستة أطفال الى امرأة تعنى بهم ، خير ألف مرة من انشغال أمهاتهم الست بهم.! فنحن نرسل خمساً منهن الى العمل ، لنترك الأطفال للمرأة السادسة .. وهذا غاية الاقتصاد في الجهود البشرية واستغلالها .! وعند المساء ، وبعد العمل ، يستطيع الأبوان، أن يحملا أطفالهما الى العش العائلي . واذا بلغ الطفل سنتين ، أرسل الى رياض الاطفال ، ولا عمل له هنا ، سوى اللعب والغناء والرقص في الهواء الطلق . ويمكث في هاته الرياض حتى الخامسة من عمره، ثم يدخل بعدئذ مدرسة (الكيبوتس) الابتدائية ..! أما برامج التعليم عندنا ، فهي لا تختلف عن المواد المدرسية في دور الحكومة والمعارف ، غير أننا نفترق في أساليب التدريس ومناهج التعليم .. فنحن نقسم الساعات اليومية الى مادة أو مادتين من الدروس. ذلك أننا ندرس مثلا القراءة والحساب بصورة مستمرة ، أما التاريخ والجغرافيا وغيرهما من الدروس ، فنسير بها على طريقة دورية ؛ فندرس التاريخ وحده ، حتى تنتهي مادته المقررة ، لكل فصل على حدة ؛ ثم ننتقل الى الجغرافيا ، وهكذا دواليك .. ولقد أثمرت عندنا هذه الطريقة ثمرتها ، وآتت أكلها ، ونحن عنها راضون .؟ وأكثر المستعمرات ترسل أبناءها الموهوبين بعد إتمام دراستهم الابتدائية الى المدارس الثانوية في (تل أبيب) فيلاحظ المشرفون على المستعمرة الطلاب ، ويدرسون مواهبهم وميولهم ، للافادة منها ولو كانت تلك الموهبة لا تفيد (الكيبوتس) مباشرة ، كأن يكون الميل الى الموسيقا أو الرسم ، لاننا نستفيد عندئذ من ذلك بصورة غير مباشرة ... وتتم الدراسة في الجامعة العبرية لمن أراد وكان مستحقاً الانفاق عليه ..!

والتعليم عندنا بسيط التناول قوي الهدف .. إذ أن غايته إيجاد رأس مرتب للعمل الصناعي والزراعي فقط ، ليكون أداة صالحة للتفكير والانتاج .! فالعلوم التي

تفيد الطالب في آتيات أيامه ، وتجعله مواطناً نافعاً شريفاً ، هي تلك العلوم التي يهضمها وتحملها دماغه حقاً بصورة ملائمة .! فليس القصد من المدرسة حشو ذهن الطالب عالذ وطاب للكبار الهرمين من أنواع التفكير والثقافة .! فهمس بي صاحبي قائلا : لقد ظلت الحال في سورية تجري أمداً طويلا على طريقة (حشو الذهن) الاستعمارية، ومازالت كذلك وإن اختلف العرض ، وأصبح الشكل غير الشكل ، والترتيب غـــير الترتيب .! وما ذاك الخطأ الناجم إلا عن الأعمال الارتجالية التي تحمل مسئولياتها رجل واحد ، أو رجال غير أكفاء لكثرة ما يحملون من أعمال .. وعاد المحدث يقول :

أما الشهادات التي يتناولها الطالب ، عقب انتهاء تحصيله ، فهي شهادات بسيطة لا زخرف فيها ولا طلاء، حتى ولا ورق صقيل؛ ولو أسعفك الحظ وشاهدتها، لضحكت، كما ضحك بالامس ، حاجي بابا أصفهاني ، حين زار (لندن) وأبصر الانكليز .. فهي بضع كلمات تشير الى أن الطالب قد أنهى دراسته واختصاصه ، مع التوقيـــع والتاريخ ، على الآلة الكاتبة .. فالمدرسة والعلوم لم تخلق لمنح الشهادات ، بل لخلق جيل من المواطنين الواعين ، جدير الحياة ..

وعدا ذلك ، فقد أوجدت (الهستدروت)، مدارس ليلية، لتوفير التعليم في المدن للعمال الأميين أو أنصاف المتعلمين ، ممن لم يكملوا دراستهم بسبب نقص الوسائل المادية لديهم أو لسبب آخر ؛ كما أنها أوجدت دائرة خاصة لتثقيف البالغين بواسطة المحاضرين الجوالين في البلاد ، وبواسطة الجوقات الموسيقية والمسرحية. وقد تدعو (الهستدروت) أحياناً فريقاً من العمال للاستماع الى محاضرات معينة طيلة يوم كامل ، أو يومين أو اسبوع فأكثر . كما تصدر كراسات في شتى المواضيع . وللهستدروت جريدة يومية تدعى (دافار) وهي أكبر صحيفة في فلسطين سعة وانتشاراً ومادة ؛ كما أنها تصدر مجلة اسبوعية خاصة بالاولاد . وثمة كثير من المنظمات (الهستدروتية) تقوم باصدار نشرات ومجلات يومية وأسبوعية وشهرية .. وهنالك فرع لتعليم اللغة العبرية للمهاجرين الجدد من العمال ؛ ولقد كان عدد طلابه في السنة الاخيرة (٤٠٠٠) تلميذ وتلميذة .

وكذلك نحاول تفهم العرب ودراسة لغتهم ؛ فاللغة العربية تدرس في جميع المدارس اليهودية ، والوكالة نفسها تمنح المكافآت والجوائز للمدارس التي تتفوق في تدريس العربية ، ونعلم الكبار عادات العرب وتقاليدهم وقوانينهم ؛ بينما لا توجد مدرسة عربية واحدة تدرس اللغة العبرية ..

وهنالك دائرة تدعى (عم عوبيد) أي شعب عامل . وهي تختص بتأليف الكتب ونشر التراجم ؛ وقد نشرت في السنة الاخيرة ، نحو مئة كتاب اختص بعضها بالنشء الجديد .

ولعلكم سمعتم بالفرق التمثيلية للعمال المدعاة (أوهل) .؟ فقد نشأت هذه الفرق بمساعدة الهستدروت ، فقامت بدورها حق قيام ، ولا عجب من ذلك طالما أنها تتمتع بمستوى رفيع في ميدان التمثيل .. أما مواضيعها فلا تخرج عن المواضيع العمالية العامة اليهودية .!

ولا تكتفي (الهستدروت) بالتربية المعنوية للشعب اليهودي ، بل تعنى أيضاً بالتربية البدنية . ولذا فقد أنشأت جمعية رياضية ذات فروع عدة في البلاد ، تحت اسم (هبوعل) أي : العامل . وهذه الجمعية توشك أن تصبح أكبر جمعية من هذا النوع في فلسطين،فتشمل فروع الاحداث ، وتعنى بكافة أنواع الرياضة البدنية .!

وللهستدروت عناية خاصة بالسياحة والترفيه عن الشعب العامل اليهودي . فلها دائرة لتعضيد السياحة والنزهة في أطراف البلاد لتنشيط الحال المعنوية والجسمية لدى العمال .. ورغم أن الحرب قد قيدت من هذه الحركة ، فان ثلاثة آلاف عامل وعاملة ، اشتركوا في السنة المنصرمة ، في نزهات نظمتها هذه الدائرة ..

وهنا ، اعتدل المحدث في جلسته ، وكأنه يريد أن يبدي أمراً جللا فقال :

إن الهستدروت تؤيد (اتحاد عمال فلسطين) في مساعيه لرفع شأن عمال العرب، بواسطة (الدائرة العربية القائمة) كأحد فروع اللجنة التنفيذية للهستدروت . وإن الاتحاد المذكور ، يعد في طليعة الجمعيات ، لتنظيم العمال العرب ، في ميادين شتى ؛ وغايته التنظيم المهني البحت ..!

وأصدر الهستدروت صحيفة عربية تدعى (حقيقة الامر) لتظهر غايتها للعرب وأعمالها .. ولكي تتكون عندكم فكرة عن نمو (الهستدروت) ، ومدى قوتها التنظيمية ، يكفي أن أذكر لكم مبلغ (الرسوم الموحدة) التي دفعها الاعضاء في هذه السنة ، لصندوق الهستدروت .! فقد بلغت (١٠٢٦٥٠٠٠٠) ج ف .! وهنا قال صاحبنا : بيد أن الظروف السابقة لم تكشف عن نوايا الصهيونية التي تدعونها وتزعمون أنها في صالح العرب ؛ كما تقول عن تأييدكم لرفع شأن العامل العربي .. فان هذا القول يخالف الواقع تماماً .. و .. فقاطعه السيد .. في حديثه وقال :

لا ، لا .. أبداً ، إن هذه القوة التنظيمية العظيمة ، مستعدة لمد يدها للعامل العربي وإرشاده ، فقد أنشأت عام ١٩٣٤ (عصبة عمال فلسطين) التي تضم بعض العمال العرب والأرمن ، ولهذه العصبة تسعة فروع ضمت حوالي (٢٥٠٠) عامل ؛ لهم حق الامتياز في العلاج المجاني ، وصندوق الاخاء ، وهي تحت إشراف (مجلس عمال حيفا) التابع للهستدروت .!

إن أعمالنا في الهستدروت تهدف الى ايجاد مجتمع جديد في فلسطين ، يقوم على قواعد عمالية اشتراكية ، بواسطة كفاح الطبقات من جهة ، ثم بواسطة المشاريع العمالية البحتة من جهة اخرى .!

هل يمحى الخلاف بين العرب واليهود ..؟

قال صاحبي: ولكن.. ربما كان مستحيلا على أي عربي ، أن يعتبر (الهستدروت) مخلصة للعرب ، أو تعمل لصالح العرب وعمالهم ؛ فان صكوك التعهد التي يوقعها المستعمرون الصهيونيون (للكارن كايمت) أو (للكارن هايسود) ، بعدم تشغيل أي عامل عربي في المستعمرات الزراعية ، هي حجة على سوء نية الصهيونية ، كما أن الاعتداءات الكثيرة ، التي تقوم بها الحاميات الصهيونية ، على كل عامل عربي يعمل عند يهودي ، هي أشهر من أن ندلك عليها ؛ وعلى هذا يرى العرب كافة ، أن الهستدروت ليست سوى أداة استعمارية صهيونية ، توجه سهامها الى قلب العامل العربي .!

إنها ترفع العامل الصهيوني على بطالة العامل العربي ، وتضحي هذا الأخير في سبيل سعادة الاول .. فسكت الرجل شارداً ذاهلا ، ثم تابع حديثه فقال :

أنا لا أعتقد بوجوب هذا العداء بيننا ، بل اني أوقن بأن عدم التفاهم الموقت بيننا ، إنما هو ناشئ عن اختلاف وجهتي النظر للقضية الفلسطينية لكل من الفريقين .!

إن جهل كل منا الآخر ،أورثه عدم الثقة به ،ومن هنا نجمت المشاكل المستعصية خلال خمسة وعشرين عاماً .. فالعرب يعتقدون ان اليهود غرباء متطفلون .! واليهود يعتقدون أنهم أصحاب حق مستند الى وثائق دولية ، واعترافات صريحة وتاريخ ..! وأنا كيهودي صهيوني ، أؤمن بأنه لا بد من مرور جيل كامل على فلسطين ، كي يتغير التفكير عند كلا الطرفين ، ليستطيع الجميع أن يعيشوا اخواناً .!

وهنا سعل سعالا شديداً ، وصمت هنيهة يستعيد راحته ثم قال :

إن إخراج اليهود أو العرب من أرض الميعاد ، أمر مستحيل قطعاً ، وفي اختلافهما الشديد ،وتناحرهما المستمر ،فائدة لقوة ثالثة ، يستطيع كل انسان إدراكها .

فقاطعه صديقي قائلا : ولكن هذه القوة الثالثة ، هي صديقة الصهيونيين ،وهي التي وعدتهم بالوطن القومي ،وساعدتهم في هجرتهم وتسربهم غير المشروع الى فلسطين .!

فابتسم الرجل وتابع : إن انكلترا هي صديقة مصلحتها دوماً ، كما علمتنا وما عرف التاريخ البشري أمة ، أشد أنانية من هؤلاء القوم .. فكل الحلول التي عرضتها منذ بدء المشكلة حتى اليوم ، هي مسكنات موقتة ، ولكم أن تسموها أقراص (كالمين) قوية مهدئة لأعصاب الطرفين .: ولقد مر عليها في الهند ثلاثمئة سنة وما زالت تسعى لايجاد الحلول ، تلك الحلول التي تنطوي في الغالب على خمائر الفتن ، والاختلافات المستقبلة .. ثم تنهد وشرع يقول بلهجة حادة .. إن سند انكلترا الوحيد ، هو الزمن . ! والزمن كما يقول (جيبون) مؤرخهم الانكليزي المشهور : كفيل بقرض هذا العالم .!

وقهقه محدثنا بصوت عال وعالج الفكرة بقوله : فالمسألة الفلسطينية إذن ليست بين اليهود والعرب ، ولو كانت بينهما فقط ، لحلت منذ أمد طويل ؛ وذلك بحسن

التفاهم ، وتقريب وجهات النظر .! غير أنها قضية بينهما معاً وبين انكلترا . . الدولة المنتدبة الشرعية .!

فليرفع الانتداب مرة واحدة عن فلسطين — ولو ساءت هذه الفكرة بعض الصهيونيين الغلاة — ولتروا كيف نتفاهم ..!!

فقلت له : ولكن العناصر الصهيونية الكبرى ، لها أقوال كثيرة في تعضيد الانتداب وبقائه ، وهذا أمر مشهور عنهم .! قال : إنما أنا أعبر عن رأيي الخاص الآن ، وهو رأي يتبناه الكثيرون . . ثم عرج على فكرة سمعناها كثيراً من أفواه الصهيونيين ، وتدل دلالة واضحة على أطماعهم المستقبلة .

إن اليهود اليوم ، يؤلفون ثلث سكان فلسطين ؛ وفي أوربا ما لا يقل عن مليون ونصف المليون من المشردين المضطهدين ؛ وإن بذور الجرمانية والنازية ، ما زالت متغلغلة في قلوب الناس هناك ، أفليس من الواجب الانساني ، أن نجد لهم مأوى ، ولقضيتهم حلاً ..؟ وهل يمكن قبول هذا العدد الضخم في فلسطين .؟ فقلنا : لا.. أبداً . . إن العرب لن يقبلوا يهودياً واحداً جديداً ، وإن في أمريكا ، وأوستراليا ، وجنوب افريقيا لمتسعاً من الأرض لهؤلاء المتشردين .! فليبتعدوا عن فلسطين والله معهم .! فضحك وقال : ولكن الارض تتسع لكثير من عباد الله ، وإن فلسطين مقدسة في أنظار اليهود لا يبغون عنها حولا ، فهي مصدر الوحي ، ومنبت الدين ، ومسقط رأس الانبياء ، ومستقر الهيكل .. وهي زراعية قبل كل شيء ، ومناسبة لأهوائهم وغرائزهم وروحهم .!

إن اليهودي عاش قروناً في أوربا دون أن يجح في الزراعة واستعمار الأرض ، بينما نراه متألق النجم ، في فلاحة الأرض في فلسطين .! فلم ذلك .؟ إنه يعمل هنا بروحه وإيمانه ، فيحرث الأرض بشغاف قلبه ، وحنايا صدره ، ويسقيها بدمه ، إن أعوزته المياه .. وإن سهول بيسان وسارونة تكفي جميع يهود العالم ، دون أن يطرد عربي واحد من أرضه .! ولكم تكثر الأراضي البور في فلسطين ، وهي اليوم خالية دونما عامل أو زارع .. نحن لا نبغي سوى الأراضي المتروكة العاطلة الرديئة ..

سوى تلك التي يهملها العرب ، ولا ينتفعون بها ، أو لا يجدون سبيلا الى إصلاحها، بالجهود المبعثرة التي لا تغني ولا تسمن من جوع .. فهي أراض بحاجة الى مال وعلم وتضحية ، مما لا يتوفر عندكم .! وأذكر أن أراضي بئر السبع هي خير ما يمكن اللجوء اليه في هذا السبيل ، فهي ذات مساحه تبلغ نصف مساحة فلسطين . فيها خمسة ملايين (دونم) صالحة للزراعة ، بينما لا يتجاوز عدد سكانها السبعين ألف نسمة .. وهنا سألناه :

ومن أين تأتون لها بالماء .؟ فأجاب : إنما نحن مستعدون لايجاده ، فمهندسو الري عندنا ، يحملون عصا سحرية ، كعصا نبيهم موسى ، يضربون بها الأرض ، فتتفجر الينابيع .! ونحن اذا لم نعثر على المياه ، فلدينا مشروع كبير جداً ، قد يكلفنا الملايين من الجنيهات الفلسطينية ؛ وهو أننا نود جلب المياه في سواق وقنوات من الأنهر الشمالية في فلسطين .! وهذا المشروع كفيل بأن يروي هذه الاراضي، ويقلبها الى جنات وارفة الظلال عامرة بما لا يقل عن مليون يهودي .! واذا علمنا ان كل فلاح ، هو بحاجة الى شخصين اثنين، يعملان من أجله في المدينة ، نستطيع عندئذ أن نتخيل ازدهار المدن ونمو الحركة الصناعية التجارية في فلسطين . !

إن نصف مليون يهودي جاؤوا فلسطين في مدة ربع قرن، فخلقوا ما ترونه من نهضة ، فكيف تغدو الحال لو وافاها مليون ونصف المليون أيضاً .؟!

ولكن ، لتر ماذا يصيب الانكليز من جراء ذلك ؟

إن انكلترا تخشى فقدان فلسطين من يدها اذا قويت وقدرت .. وان استقلال فلسطين معناه ضياع نقطة (استراتيجية) هامة من حوزة بريطانيا ، التي خرجت من حرب كادت تعصف بها ، فراحت الآن تبذل جهد الجبابرة ، لتثبت أقدامها في مراكزها السابقة ؛ فلا يمكن إذن أن يفتش الانكليز عن حل ملائم قط .!فاليوم انتداب ، وغداً وصاية..وكل ذلك باسم حماية طريق الهند، والاحتفاظ بالستراتيجيات والمطارات والموانئ ومصافي البترول والدفاع عن قناة السويس .!

إن نظرة واحدة إلى مؤسسات انكلترا الحربية ، والتحصينات الساحلية ،

والمطارات الفلسطينية ؛ كافية للدلالة على أنهم لن يخرجوا من فلسطين .! لأنها في نظرهم مركز للتموين ممتاز ، وحصن هائل ، وخط دفاعي كبير .! رغم ان من يملك ترعة السويس، لايني دفاعه بجانبها تماماً في عصر الطائرات والقنابل والصواريخ.. بل يبتعد عنها بقدر يسمح له بالترصد لكل مهاجم .!

وهكذا كان يتدفق الرجل في حديثه ودفاعه عن بني جلدته .. بينما كانت كل جارحة تنطق في وجهه وتهتز معلنة إخلاصه لصهيونيته واعتداده بها . ويكفي أن نذكر للقارئ بأنه نسي سيجارته بيده حتى أحرقت أصابعه دون أن يعب منها رشفة واحدة .!

ولولا أن عرض (الفيلم) السينمائي قد حان ، لظل يحدثنا حتى مطلع الفجر ..

نهضنا أخيراً لرؤية العرض ، وقد أطل الهلال على حديقة واسعة بشكل مدرج، نضدت فيها المقاعد والكراسي ، ونصبت في صدرها شاشة بيضاء مثبتة ، وتراص القوم من كل زوجين اثنين على مقاعدهم ، وحلا لهم السمر تحت أشعة القمر في انتظار (الشريط) ..

أنا ساهر والكون نائم ..

كان موضوع الرواية لطيفاً جداً ، بعيداً عن الخلاعة والمجون ؛ وربما كان ذلك مقصوداً ، لتقريبه من ذوق الشباب والفتيات ، وابعادهم عن المثيرات ، من روايات الحب والمغامرات ؛ فهم كما يقول المثل : (من غير دف بيرقصوا) .. ولذا فان أكثر الأفلام التي تعرض في المستعمرات هو أخلاقي بالدرجة الاولى ، ليلائم الفتيان والفتيات والمراهقين على السواء ، خشية النتائج السيئة ، والعواقب الوخيمة ..غير أن هذا لم يمنع بعضهم من اختلاس فترات ، يتوارى خلالها القمر خلف الغيوم ، ليمعنوا في العناق الحاد ، والقبلات الرقاق . .ولقد شاء مضيفنا أن يبرر مسلك القوم ، فعزا ذلك الى الأزواج وحدهم ، لا العشاق المناميد .!

وما كاد الشريط ينتهي ، حتى شكرنا الجميع ، وتمنينا لهم لذيذ الاحلام ؛

وهرعنا بأنفسنا الى النوم ؛ وهنا ، أقول ما قاله بشار من قبلي :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ...

ودون أن أتمم البيت .. فان صاحبنا المحترم ، لم يكد يمتلك ناصية الوسادة ، ويمتطي صهوة الفراش ، حتى غرق في سبات عميق ، وبدأ شخيره يرتفع على جميع الأوزان والألحان .! وأقسم أنك لن تجد لغطيطه مثيلا .! فأين هو من هدير الطائرات ذات المحركات الأربعة ، وخرير الشلالات ، وزفير البراكين . ؟ أين هو من طلقات المدافع ، ودق الطبول ، وصفارات الانذار ، وجلاجل الاخطار .؟ إنها طرأ دون شخيره وغطيطه .! وسأذكر ما حييت أنني حاولت إيقاظه ، لعله يقطع شخيره ، فلم يستيقظ ؛ وعبثاً نهرته ووخزته ، فلم يسمع .. (فزعوطت) فلم يشعر .! وأخيراً جررته من قدميه ، ومن يديه دون أن يفيق .! فتركته عندئذ مكرهاً .. ولله الامر من قبل ومن بعد .. فقد خفت أن يسقط عن سريره ، فتسجل مراصد العالم القريبة والبعيدة ، اهتزازات تدل على حدوث زلزال مريع ، أو أن يحدث له ما يزعجه ويفجعه في لذيذ أحلامه .!

أما (البق) فقد كاد يهلكني،رغم أنهم وضعونا في سرر نظيفة لا غبارعليها، وأنهم يدهنون الغرف كل شهرين مرة بالكلس والجص .. ولكن البق على مايظهر يحب التقليد ، فقد استعمر الفرش القشيةوالأسرة، وراح يبني فيها ممتلكاته ومزارعه، على غرار أسياده الصهيونيين ، والتابع تابع .. ولا يُفصَل في الحكم ..

وأصبح الصباح فهرع صاحبنا الى الحمام المهبرد ، حيث يبدو المستحمون ، ومن شاءت من المستحمات ، كما خلقهم الله ، حفاة عراة ؛ ثم انتقلنا الى المطعم ، لنزدرد بيضاً مسلوقاً وزبدة و (مرملاد) السفرجل ، وشاياً وخبزاً ..

وأخيراً ، ، ودعنا الجميع ، وعدنا الى (تل أبيب) يرافقنا في السيارة فئة من سكان (شفايم) نالوا إجازاتهم السنوية ، وهم الآن ذاهبون ، يقضونها في الساحل ، أو في الجبال ، أو يحيون في المدن الصاخبة ، ليستعيضوا عما حرموه من متع المدنية ، ومباهج الحضارة ، في قراهم النائية ...

بتاح تيكفا

أجمة الورد والبنفسج

هيا إلى (بتاح تيكفا) أو (ملبس) كما سماها العرب ، ولو كان الاسم العبري قد غلب عليها ؛ فهل بين الاسماء أيضاً (بقاء الاصلح) .؟ أو أن (داروين) الطيب الذكر ، حشر أنفه في هذا الصدد .؟ الله أعلم .!

وفي (بتاح تيكفا) أي – عتبة الامل – مستعمرة من نوع جديد ، حقيق بالتدبر والنظر ، تدعى (ميشيك بو علاّوت) تلك التي أوصانا جميع من شاهدناهم بزيارتها ، لنكون فكرة صحيحة ، عن حياة المستعمرات واتجاهها ومستقبلها .!

فهيا إليها .. ولو أنه كتب علينا الانتقال ، من سيارة الى اخرى ، دون أن نذوق للراحة طعماً ، ففي سبيل (الصحافة)التي نعشقها دون أن ننتسب اليها ، وفي سبيل خدمة العرب والعلم ، يهون كل شيء .. ولا فضل لنا في ذلك ، فعلى الشباب أن يضعوا ولو لبنة صغيرة في صرح أوطانهم .! وحذار أن تستحي من فعل القليل، فالحرمان والعدم أقل منه . ولو أن الشباب في انكلترا وأميركا وروسيا ، لم يركبوا الاخطار ، ولم يغوصوا في البحار ، ولم يطووا القفار ، لما استطاعوا التغلب على عدوهم الماكر الخطر .! فالعزلة والخمول والانطواء على النفس ، تعابير بالية يجب أن تطوى من سجل اللغة العربية ، ويستبدل بها النشاط والمغامرة والكفاح ، ويومئذ يفرح المؤمنون .!

وما إن ركبنا (باصاً)من محطة (امجد) الكبرى ، حتى سأل صاحبنا مفتاحة، فيها طيبة الملائكة وذكاء الشياطين ، كانت بجانبه ، تميل مع السيارة وتتثنى مع التواءات الطريق .. سألها عن محطة (بتاح تيكفا).. فأجابته : انظرني في أية محطة

سأنزل ، وانزل في المحطة التي قبلها .! ثم صمتت فأدرك بفهمه الغريزي أن الحركة الالتفافية من الغادة ، وكانت قهقهة ناعمة كادت تتلاصق فيها الخدود ، وتدغدغ النهود .. ولولا أنه كان يعرف حق المعرفة نكات العبريات في أمور الغزل ، وأن لهن معدات عوض القلوب ، وأنهن يؤثرن رؤية عاشقهن العربي بغير ساق على أن يردّن محفظتهن خالية من دراهمه .. لولا كل ذلك،لغامر مغامرة أخرى مع الغادة، يضيفها الى الألوف من غرامياته ، رغم الاعتقاد الجازم ببعد القلبين الهائمين كما يبعد القطبان الأرضيان عن بعضها ..

وهبطنا أرض القرية التي تقوم عن كثب منها المستعمرة المقصودة ؛ ففوجىء صاحبنا بمشاهد مزعجة ؛ هتف بي مسرعاً على أثرها ، وهو يدلني على علم رأيناه للمرة الأولى يتأرجح في الهواء .. وكان — كما شاء الحدس - العلم الصهيوني، وهو يتألف من خطين أزرقين جانبيين، على أرض بيضاء ، في وسطها نجمة هي ترس داود أو ما يسميه العامة عندنا (خاتم سليمان) .!

ولقد علمنا فيما بعد ، أن هـذا الترس المؤلف من مثلث مزدوج ، يرمز الى أن مدينة داود (القدس) قامت قديماً على ثلاث تلال ، يحيط بها ثلاثة أودية ؛ وإلى أن بني إسرائيل ينقسمون الى أقسام ثلاثة : الشعب ، واللاويين والكهنة . وقد اقترح هذا العلم ، زعيمهم الأكبر (هرتسل) في أحد مؤتمراتهم السبعة عشر ..

وبعد سؤالات عديدة للمارات والمارين،بلغة سمها إن شئت : كوكتيل لغات.. وهي من ابتكارات صاحبنا واختراعاته ، وحقوق النشر والاقتباس محفوظه له؛ ذلك أنها تتألف من مزيج العبرية ببعض الانكليزية والعربية ، والهيروغليفية أحياناً على أكبر الظن .. يجمع كل ذلك ثوب مبرقش منّ الفرنسية ؛ أقول بعد سؤالات جمة ، ومساعدة العناية الالهية ، استطاع أن يبلغ سؤله ...

وكم رضي عن الحظ ، ودعا له بالخير والبركة ؛ وحسن الختام ، فقد كان خير عون لنا ومسعف في رحلتنا ؛ فان القوم كانوا يحسبوننا غالباً من سلالة العم شالوم.. بلباسنا الخاكي القصير ، وبشرتنا السمراء ؛ وقبعاتنا الفلين .. وعندما كنا نقحم

بجلنا العبرية نجيب بكل اتزان : إن ساداتنا الحاخامين في دمشق ، يهتمون بتعليمنا سور الصلاة ، والمزامير والتراتيل ، دون أن نفقه لهـا معنى ، ولو أنهم لقنونا لغتنا المقدسة ، لما كان في الامكان أبدع مما كان . .

ولقد أخبرونا بأن هذه المستعمرة هي خاصة بالفتيات . . فما سر ذلك يا ترى .؟

ونحن لم نعهد في القوم الطهارة والعفـاف .؟ فهل ثابوا الى رشدهم ، وراحوا يقومون بتجارب أخلاقية جديدة ، شعارهم فيها لا مساس .؟ أم أنهم يسيرون اليوم على مذهب السادة الرهبان ، لعل فيه خلاصاً لنفوسهم ، ومناعة لاجسادهم ، بعد أن باعوا الفضيلة طيلة القرون ولو بالتجزئة في مخادعهم .؟

ولكن ، فلندخل حمى الأسد ، ولو أن دونه خرط القتـاد . فهل نحن أوهى عزيمة من ابن أبي ربيعة ، واضرابه من أجدادنا المغامرين الميامين ، تغمدهم الله برحمته .؟ لا . . لا . . ! نحن نستطيع اليوم ما استطاعوه بالأمس ، نحن أحفادهم لحماً ودماً ، نختال بشجاعة الفرسان ، وكبرياء الملوك . .

وراعنا سرب من المها ، في جمال غانيات ألف ليلة وليلة ، كاشفـات السوق ، بارزات النهود ، مشمرات عن السواعد ، مصففـات الشعور ، يحملن أدواتهن الزراعية ، لحفر الأرض ، وسقي الزرع وقطف الأزهار والورود .

وصافح أسماعنا صوت رخيم رقيق ، فيه شوق وفيه حنين ، يزيد في حلاوته أنه ممزوج بنغمة عذبة ، هي نغمة الحياء والخجل . . واذا بتلميذة من تلميذات صاحبنا ، تقبل مسرعة لتحييه مؤهلة مرحبة ، بأدب واحترام ، دون أن تصدق عينيها ، فما تريان ؟ فهل هي

في حلم .؟ وإلا فكيف يهبط عربي من الشام هذا الحصن الحصين ، بل هذا العرين الذي تحاماه الأسود .؟ ولكنها حقاً أمام أستاذها القديم ، الذي شاء أن يبرهن على وجوده ، فاحتواها بين ذراعيه ، وتوَّج عودها بقبلة .. وما أحلى اللقاء .. بعد طول افتراق ..!

وراحت تنادي أترابها الشآميات : ايفون ، استير ، ليلى ، فيفي .. فأسرعن يلبين النداء ، كأن هنالك حدثاً جللاً .. وأسرع صاحبنا يضم الجميع ، ويرد على أسئلة الجميع ، الزاخرة بالشوق والحنين ، ويمسح الغبار عن الذكريات السعيدة ، وفي الوجوه إشراق وسرور ..

ولقد طفنا بأرجاء المستعمرة ، فاذا بها من طراز جديد ، لم نسمع بمثله من قبل . فهي خاصة بزراعة الورود والأزهار ؛ وهذه الزراعة رابحة جداً ، اذا علمنا أن الوردة الواحدة من انتاج هذه المزرعة تباع في تل أبيب بخمسة قروش فلسطينية .. والقوم هناك يرون في الزهور حاجة ضرورية ، كحاجتهم الى الخبز الذي يبتاعونه كل نهار ، ويعتقدون أنه لا يجوز أن تخلو مائدة في الدار من إناء تزينه الأزهار والرياحين ..

ولقد تفننوا في شتلها وغرسها وتحويلها . فهناك أنواع لا تحصى من الزهور في أصص فخارية ، تسقى بالنوافر اللولبية ، تحت سقوف من أخصاص خشبية ، تغطيها أغصان متسلقة لتحجب أشعة الشمس الحارة .

وثمة أحواض واسعة يغطيها البلور ، لحفظ الشتل في الشتاء ..

وهناك أمكنة خاصة بزراعة البذور ، مغطاة بالزجاج ، ريثما تنمو ، حتى اذا استوت على سوقها ، رفعوا الزجاج وغطوها (بالأخصاص) . وبعد أن تنمو وتترعرع تنقل الى أمكنة أخرى .

وشاهد صاحبنا بطيخاً أبيض اللون ، حسبه لذيذ الطعم ، يطفىء الظمأ في الحر الشديد ؛ فلما علم أنه خاص بالبقر ، يدر لبنهن ، ويكثر لحمهن ، خاب فأله ، وكان كالبستاني الذي يزرع الورود فتنبت له ضفادع ؛ ثم مررنا بخممة الدجاج ، فكان

وجاء حار من مرافقاتنا بأن لا ندنو منها ، لانها مصابة بمرض سار ، هن في صدد معالجته ، والطبيب البيطري يشرف عليها كل يوم . وعندهن مذود للبقر فيه خمس وثلاثون بقرة ، يعتنين بها أشد العناية ، ولا غرابة في ذلك ، فالاثنى تتقن هذه الاعمال كما ثبت أكثر من الذكور ، ولم نعثر في المستعمرة إلا على رجل واحد ، هو مهندس زراعي .

وتتعلم البنات في المستعمرة عدا الأساليب الزراعية ، فن الطهي ، لمدة ثلاثة أشهر ، والغسيل لثلاثة أخر ، والكيّ ورفء الملابس ، ولهن عطلة ثلاثة أيام في الشهر ، وأسبوعان في السنة . أما الدراسة فهي باللغة العبريه ، ومدتها سنتان ونصف ، تحمل الخريجة بعدها شهادتها ، وتمضي الى مستعمرة ، لتعمل فيها .

ولقد طفنا بغرف الدرس ، والراحة والمهاجع ، فكانت كلها تنم عن نظافة واعتناء زائدين . أما صالة الطعام فهي من أجمل ما شاهدناه حتى الآن في المستعمرات . فجدرانها من البورسلين ، وموائدها أنيقة تتألق بالدهان ؛ وتنار بثريات كهربائية ، ولعل ذلك عائد لحداثة بنائها . فقد أفرغ فيها مهندسوها منتهى ما وصل اليه فنهم الحديث ، وإبداعهم ؛ ولولا أنها خصصت بالبنات فقط ، لأشبهت (شفيا) بترتيبها وهدوئها . أما عمرها فلا يتجاوز العشرين عاماً . . .

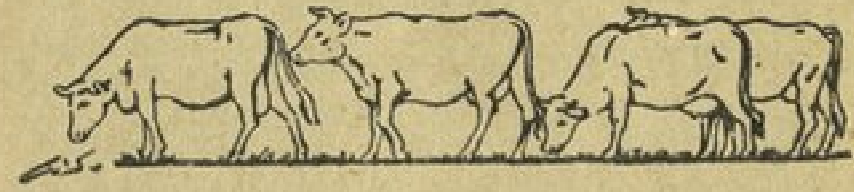

برلمان في الخيال

كانت تلك العجوز جاثمة على ركبتيها العاريتين، في مؤسسة (ميشيك بوعلوت) مستعمرة الزهور، تشذب وردة مريضة، وتبعد عنها الأوراق الجافة ثم تجمعها على شكل كومة .. وكان الى جانبها زائر صهيوني، لا أغالي اذا قلت بأن الصهيونية المسلحة تمثل في وجهه، و(بلطجية) عصابة (شتيرن) أعطته ٧٥ ./. من شرها الخام .! فان فكيه العريضين، وأذنيه المتأرجحتين كأيادي السلال، وعينيه المستديرتين الصغيرتين، الاين تنفثان المكر والذكاء، كانت تؤكد لنا أن هذا الرجل من (محاسيب) نظرية (لومبروز) في الاجرام، ومن أقحاح صهيون، وعباد الهيكل، ونادبي الحظ في ربوع العالم .!

ولعل الشرير خدع بزيّ صاحبنا، وحبذ مصادقتنا، فدعانا الى مقعده المؤلف من صعيد الارض، وبعض العشب، قرب العجوز الهادئة الجامدة، وكأنها لم تر إنساناً يقرب منها .!

وكاد صاحبي أو كدنا أن نستر هويتنا — كالعادة — لولا أن أقبلت إحدى البذيّات من تلميذاته القديمات، فعرفت الرجل بنا، وقامت مقام المترجم الحاذق، — رغم اطلاع الرجل على العربية — فاربدّ وجهه لاخفاقه في فراسة الاشخاص، وقد حسبنا من أبناء عشيرته، واذا به يرانا عرباً .. وعرباً — مفتحين — يعملون ما لا يحلم به هو وقومه، فيجوسون الديار، يتفهمون الصهيونيين ويسبرون الاغوار .!

خاب فأل الرجل دون أن ينهزم؛ ولكنه فاجأنا بعربية محطمة من بضائع (تل أبيب) ..

— كيف ترون المكان .؟ وهل يعنى العرب بالزهور . ؟

فأجابه صاحبنا : إن العرب في غنى عن الزهور والرياحين، نقرانا عامرة بها

منذ خلقها الله ، غير أنهم يعملون اليوم ، في رفع مستوى القرية العربية من ناحية الزراعة والتعمير والتنظيم .. ويرون الحياة جهاداً متواصلا ؛ لأنهم مهددون في رزقهم وبيتهم وأرضهم وغدهم وذريتهم ؛ إنهم يعلمون أطفالهم أنهم اذا شبوا، فقد لا يجدون لأنفسهم دياراً .. ولا حديث لهم من شبان وشيب إلا الثبات في الارض ، والدفاع عن البيوت والحرمات ، ولو أدى ذلك الى قتال يكون من ورائه الفناء ..

فأين هم من الزهور والرياحين . ؟ إن همهم الوحيد ذلك الوضع السياسي الحاضر العجيب الغريب؛ وإن لاعمال الزراعية والتجارية والصناعية طراً ، إنما تنجح بالاستقرار السياسي وهو ماحرموه .. فأجاب الرجل: لا .. لا.. هذا قول فيه كثير من الخطأ.! فلو فرض أن الانكليز لم يتزحزحوا عن فلسطين، ولن يتزحزحوا ، فهل يظل العرب بعيدين عن الحركات الاقتصادية والزراعية والعلمية .؟ — فقاطعته : دعنا من هذه المقارنات والمحاورات ، فكل من الفريقين يناضل ، وسيكون البقاء للأصلح . غير أنه ينبغي على كافة اليهود، مهادنة العرب والاخلاص لهم ، فمهما تكاثرتم فهم يحيطون بكم كالسوار .. فاغبرّ وجهه وقال :

نحن نعرف هذه الحقيقة دون أن نيئس، ولن نحارب العرب أبداً ، لأننا بحاجة الى النفوس والأيدي العاملة .! أوتدري أن البلاد تقاس اليوم بانتاجها الاقتصادي، وقدرتها الثقافية الفكرية ، لا بعددها وتعدادها . ؟ لم تعد يد الانسان في الحروب الحديثة ، كل شيء في الكسب ؛ ولكن المادة الاولى فيها هي الفكر والعلم .. فاذا كان الناس قديماً يخضعون لقاعدة «جاهد لا تجع» فثقافة اليوم «فكر لا تهلك» وهذا .! ثم نفخ في الهواء ، يعني أن العرب يملكون (صفراً)من هذه البضاعة .!

فأجبت : ربما يكون في هذا القول بعض الحقيقة ، لو دامت الحال على ما هي عليه ؛ غير أن فلسطين لن تبقى في وضعها السياسي الحالي ، بل ستتمتع باستقلال قوي وحكومة عربية وطيدة .! وبعدئذ ، يمكنكم على ما أعتقد أن تفتشوا عن ظلال هذه الأفكار تحت الحكم العربي .! إن اليهود لم يسعدوا في حياتهم وتاريخهم كما سعدوا تحت حكم العرب .. وفي اسبانيا المسلمة أبرع مثال .. واذا ما استقلت فلسطين ،فلن

يكون هنالك صهيوني وعربي بل فرد فلسطيني فحسب..! إن بذور الصهيونية هي التي سممت أفكاركم، رغم أنها ما زالت من حواشي السراب والخيال .! فقال بغضب يشوبه ضبط شديد لانفعالات النفس: إنك تتكلم عن الاستقلال كما تحسب دراهمك في محفظتك..! إن استقلال فلسطين ، شاق جداً بالنسبة لانكلترا واليهود كافة . . لانه سينجلي عن (برلمان) للعرب ؛ وسيكون من أهدافه محق الصهيونية وسحق الوطن القومي من الوجود . !

وكان متحمساً جداً ، يكاد يلاكم .! أما العجوز فكانت تؤمن على قوله بهزة رأسها وبالتفاتة الينا بين الفينة والفينة ، وغمزة ناعمة للبنية ، توثيقاً للقول الحق . ! وكدنا ننفجر من غلاظة الرجل وحماسته . . وأخيراً فح كالأفعى الظمأى وقال :

ألا ترى أن النظام الحاضر يستند الى المادة (٢٢) من صك جمعية الامم ، التي عهدت الى انكلترا بالانتداب على فلسطين ، لتنهض بالشعب ، وتسهل إنشاء الوطن القومي .! ولذلك فلن تنتهي إذن مهمة الدولة البريطانية ، ما دامت النهضة لم تحقق ، والوطن اليهودي لم يعزز بعد أو يتم . .

ثم نطقت العجوز لأول مرة . وقد نزعت غصناً جافاً من شجيراتها . . تمتمت في جملة طويلة بالعبرية فسرتها لنا الفتاة ، وضحك على أثرها الصهيوني ضحكة صفراء . . قالت :

ولذا فان العرب ، عندما يطالبون بانشاء دولة مستقلة ، وإزالة الانتداب ، فطلبهم سابق لأوانه .! قال صديقي : نحن نعلم أن انكلترا تماطل وتعد ، دون أن تفي بشيء للعرب أو للصهيونيين ، وهي تعلم حق العلم ، أن اتفاق العرب واليهود على الاستقلال معناه نزع يدها عن فلسطين ، وهي في نظرها مركز (استراتيجي) هام ، ظهرت أهميته حقاً في هذه الحرب .! إنها مع أنصارها تحاول دوماً تفسير صكوك الانتداب ، ومعاهدة لوزان في صالح المستعمر . . وفحوى هذا التفسير ، ان الامة البريطانية ، ستساعد على الحكم الذاتي ؛ ولا يعني ذلك إنشاء البرلمان ، ولكنه يعني دفع البلد الى الازدهار والرقي وتوسيع المؤسسات القومية ، ريثما تصل الى الاستقلال . . فهل

حال العرب الاقتصادية والثقافية الآن كافية لانشاء برلمان .؟ قد تقولون ويقول رؤساكم ، إن الأكثرية الساحقة من العرب ، فقيرة جاهلة مغمورة بالخرافات والتعصبات الدينية والميل الى القسوة والسلب ، ولذا فهي تحتاج قبل الاستقلال الى تهذيب مدني طويل .! ولكن هذا الرأي فيه خطأ فاحش ، وتعمية ضالة .. فأي بلد لا يوجد فيه فقراء ، وأي صقع لا يضم بين جدرانه وبيوته جهلاء متعصبين .؟ إن الثورات السابقة ، ليست سوى أعمال دفاعية شريفة ، قام بها العرب مقابلة لاعمالكم الانتقامية ، ومعاملتكم الشاذة لهم ؛ وان يوجب ذلك بقاء الانتداب .! لأن هذا النظام غل يمنع العرب من التقدم ، ويحجز مثقفيهم عن نشاطهم في رفع المستوى الاجتماعي والاقتصادي . . . إن بين العرب طبقة مثقفة كبيرة وغير متطرفة، وهي ناضجة سياسياً واجتماعياً ، ستصل عاجلا أو آجلا ، رغم كل العقبات الى استقلال فلسطين السياسي ، وإلغاء وعد بلفور .! فأسرع الرجل يقاطع : وستصرون طبعاً على مقاطعة الصهيونية ، تنفيذاً لأغراضكم السياسية .. فقلت : بكل تأكيد ..فنحن نعتقد أن هذه الوسيلة هامة جداً، اذا نفذت بحذافيرها ، وخاصة اذا لم تنقطع الهجرة أو يرجع الصهيونيون الى رشدهم ، ولا أقول اليهود ، لان بين اليهود من يخالف آراء الصهيونية بالأهداف والمبادىء والصلات مع العرب.!فأجاب الرجل وهو يكاد يتمزق غيظاً : إن ايجاد البرلمان معناه معاكسة مصالح انكلترا ذاتها ، والسير مع الميول المتطرفة في الشرق الأدنى ، ونحن لا نوافق على برلمان عربي ونناهضه بكل قوانا .. فقال صديقي : ولمَ .؟ أوليست فلسطين مثل سورية والعراق وشرق الأردن والحجاز .؟ وكلها مستقلة تقريباً ، رغم التشابه في الثقافة والوضع الاقتصادي والاجتماعي .! فضحك قائلا :

لا سبيل الى المقارنة أبداً .. فهنا توجد مهمة سياسة هامة : هي إنشاء وطن قومي لليهود .! وزفر صاحبي زفرة حرى ، وأراد النهوض ، ولكن العجوز ، دعتنا الى البقاء بنظرة ماكرة .. ولعل البغيّة المترجمة التي تجلس قبالتنا تماماً كانت سبباً من أسباب بقائنا لسماع الحديث . . فقد تراخت فوق العشب وحلت أزرار قميصها عن

صدرها لشدة الحر ، فظهر طرفا ثدييها المدورين الناتئين . ! وكانت كلما انثنت أو تحركت ، أطل برعم وردي من فوهة القميص .! أما الساقان النحاسيتان فهما ظاهرتان للعيان على أي حال شأن بنات (الكيبوتس) .. والمرء مفطور على نبش الكنوز ، والاطلاع على المكنون ، فقبعنا على العشب الأخضر تحت الخميلة ، نتأمل النهود التي أهلكت من قبلنا المشاق من عاد وثمود .. نسمع الرجل يتحدث ونجيبه بما يثير أعصابه ، مستمدين القوة من تيار الصدر العامر .!

قال الصهيوني العتيد : إن سكان فلسطين اليهود ، لا يرضون عن إيجاد برلمان، كما أن يهود العالم يناهضونه ويعاكسونه ؛ وطالما نقف نحن هذا الموقف ، فلا مجلس هناك . ولو يقرر العرب عدم الاعتداء ، لجاز لنا أن نفكر بذلك ، لأن البرلمان سيؤجج نار الاختلافات بيننا وبينهم ؛ ولهــذا فالمجلس القومي اليهودي يرفض هذه الفكرة .. فضحكت من هذا التعصب والمغالاة ، وبناء الحلول على أسس تجعل التفاهم مستحيلا .! وقد قسم المحدث أصحاب الرأي المسموع في فلسطين الى أربع جماعات هي :

١ — بريطانيا العظمى ، ٢ — يهود العالم ، ٣ — يهود فلسطين ، ٤ — عرب فلسطين .. ولم يأت في بال ابن إسرائيل ، عرب العالم ومسلمو العالم ، في الأقطار الاخرى .! فهل سها عن خاطره ذلك ، أم تغاضى عنه ، لبعث الاطمئنان في نفسه ، كحيلة لا شعورية على توثيق الأمل والاستبشار بالمستقبل .! وكما يقول : إن كل برلمان يرجى إنشاؤه ، يجب أن يستند الى موافقة هذه العناصر الاربعة ..

وقد حدثنا الرجل أيضاً ، وهو على ما يظهر متفهم حقاً لصك الانتداب، والقضية اليهودية من أولها الى آخرها ، من وجهة نظر واحدة طبعاً ، كغيره من الصهيونيين المغالين .. بأن المادة الرابعة من الصك المذكور ، تعترف بالحقوق الفلسطينية ليهود العالم بأجمعهم، بصورة غيرمباشرة ، وذلك عن طريق اعترافها بالوكالة اليهودية.!

قال : ولا يغربن عن البال ، أن الوكالة تتمتع باختصاصين هامين : أولهما تعاونها مع الحكومة على كل ما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ، فتقوم بكل تدبير

يؤمن تعاون يهود العالم في سبيل إنشاء الوطن القومي المذكور.! وثانيهما أنها تتعاون مع الحكومة أيضاً على كل ماله صلة بمصالح السكان اليهود في فلسطين ، وتشترك في ترقية البلاد بصورة عامة تحت إشراف وسيطرة الحكومة . !

وهنا ، قال له صاحبي : إنك تشير الى مساهمة الوكالة بترقية البلاد الفلسطينية كافة ، وتشمل بذلك العرب .. أليس كذلك .؟ ولكن هل أفاد العرب مما ساهمت به الوكالة حقاً .. أم كانت الفائدة لليهود فقط .؟

فابتسم الصهيوني وقال : نعم ، لقد أفاد العرب من نشاط الوكالة في كثير من الامور : كالصحة والتعليم والرقي التجاري والصناعي . !

فأجابه صاحبي : إن قولك هذا هو المغالطة بعينهـا .. فأي مساهمة لكم في تعليم العرب أو صحتهم .، نعم ، إن نسبة التعليم ارتفعت حقاًفي البلاد ، غير أن هـذه الظاهرة مشتركة في كافة بلاد الشرق ، وذلك بمساعدة الحكومات المختلفة في هذه السبيل ، وإن مساهمتكم الصحية المزعومة ، أمر زائف تماماً .. ففي عام (١٩٤٠) — كما ينص الملخص الاحصائي المنشور عام (١٩٤١) — تردد على مستشفيات اليهود (٦٥٥،١٧٥) شخصاً لم يكن بينهم أكثر من (٢٠٣٨) عربياً ، أي بنسبة الثلث ./. .! أما التعليم فلا يمكن أن نقبل مدارسكم جماعة العرب مطلقاً .! حتى أن السير (إيلي خضوري) اليهودي العراقي ، عندما ترك في وصيته الانسانية مبلغاً كبيراً ، للتعليم الزراعي العام في فلسطين ، وأنشأت الحكومة طبق رغبته مدرسة عربية الى جانب أخرى يهودية ، هجتم وملأتم الدنيا صراخاً واحتجاجاً ، ولم تسكت صحيفة صهيونية عن ذلك ، بل نددت بعمل الحكومة وعنفت بالقول والنقد .! فأي مساهمة هذه ، وأية مساعدة أو فائدة .؟ وعاد الصهيوني المتحمس يتابع رأيه : إن الاعتراف للوكالة اليهودية ، بحق التعاون مع الحكومة ، والمساهمة في تقدم البلاد ، هو ذو معنى عميق ، يمكن تلخيصه بالاعتراف بحق مجموع الشعب اليهودي العالمي ، في الاشتراك بالاعمـال التشريعية والادارية في فلسطين . . وها كم آخر المـادة الرابعة توضح اختصاص الوكالة فتقول : (... وتسـاعد وتشترك في ترقية البلاد) وليس ثمة ما

هو أكثر مراناً من هذه الجملة وأسهل للمط والتأويل .!

إن سكان فلسطين يتألفون من ٦٦ ٪ عرباً و ٣٣ ٪ يهوداً . وهذا يدعو لأن تكون النسبة العددية في البرلمان المنشود موافقة للعرب أكثر من موافقتها لنا .! غير أن الوكالة التي تمثل يهود العالم ، تغدو على هذا التقدير مهملة ، لا يعبأ بها أحد ، رغم أنها تمثل عشرة ملايين نسمة من اليهود .! ونحن نعتقد أن تمثيلها في البرلمان من أثمن غاياتنا وأحبها .. ولذلك وجب أن يتألف البرلمان كما يلي :

١ — من ممثلي الوكالة اليهودية عن العالم اليهودي

٢ — من اليهود الساكنين حالياً في فلسطين

٣ — من السلطة المنتدبة

٤ — من السكان العرب وكل من هو غير يهودي ...

فاذا كان لكل (٢٥) ألفاً من السكان نائب يمثلهم ، فان المجلس سيتشكل إذن من (٣٤) نائباً يهودياً فلسطينياً و (٤٨) عربياً فلسطينياً وما لا يقل عن (١٠٠) نائب يمثل الوكالة اليهودية .! ولو جعل لكل (١٠٠) ألف نسمة نائب ، فان المجلس سيتألف أيضاً من أكثرية يهودية .! وهنا ، افتر ثغر العجوز عن ضحكة مرحة متفائلة ، فكأنها تسح دقيقة واحدة مع رفيقها (الحيسوب) في حلم ووهم وخيال لذيذ .. حتى لقد قال صاحبي : ولكنك — على طريقتك — نسيت عرب العالم ومسلمي العالم أيضاً ، الذين تمثلهم الجامعة العربية .. كما تعلم ، وفيهم كفاية .. فعبست العجوز ، وبدا اللؤم على الرجل فقال : وإذا قلتم بأنه لا يحق لغير سكان البلاد أن ينتخب نائباً فأقول :

إن وضعية البلاد ، ليست نهائية من حيث السكان ، فما زال هنالك يهود كثيرون في ترحال اليها .. ولذا فقد وجب أن يمثل هؤلاء ولو سلفاً ، لأن وضع البلاد الشاذ ، يستدعي طرازاً انتخابياً خاصاً .!

إن حق الشعب اليهودي في انتخاب ممثليه بواسطة الوكالة ، أمر لا يمكن رفضه أو نبذه ؛ لأن ملايين اليهود مرتبطون بها اقتصادياً وروحياً وسياسياً .! واذا كان

كل حق عام يستدعي الاعتراف بالحقوق الخاصة ، الناجمة عنه ، فاننا لا نتمكن من الاعتراف بالوطن القومي لليهود دون برلمان يمثل هذا الوطن .!

إن عدم وجود يهود المهجر في فلسطين ، هو غيبة طبيعية ، لا روحية ولا سياسية ولا مالية .! لأنهم يغدقون الأموال على صناديق الوكالة في كل عام ؛ وإن أحدهم ليشتري زجاجة الشمبانيا في حفلة التبرع لفلسطين، بمليون دولار أمريكي، وهو جذلان فرح بتأدية الواجب المقدس .!

إن النظام الانتخابي القانوني ، يجري عادة في بلد تسود فيه المساواة الطبقية والفكرية والعنصرية .. أما هنا ، فيوجد كفتان مختلفتان .. فهنالك جهل وعلم ، وفقر وثراء ، فثلث السكان اليهود ، يدفعون مقداراً من الضرائب هو أكثر مما يدفعه الثلثان الآخران ، ورغم أنهم لا يستفيدون من التعلم والصحة والاسعاف الاجتماعي وماهو محتم أن يستفيده أناس لهم قدرتهم التجارية ، الذين يضعون رؤوس أموالهم الهائلة ، فينتعش بسببها كافة سكان فلسطين كما تنتعش خزانة الدولة . مع أن هنالك قاعدة اقتصادية سياسية بسيطة ، تقول : إن الذي في يده ميزانية الدولة في يده مصيرها . .

أما من الوجهة العلمية، فان إنتاج اليهود العلمي يتفوق كثيراً عما للعرب من إنتاج.. فقد صدر عام (٩٢٦ — ٩٢٧) الدراسي في فلسطين ، ٣٦٨ كتاباً منها ٣٠٧ كتب عبرية و ١٧ كتاباً عربياً .. وفي عام (٩٢٨ — ٩٢٩) صدر ٤٠٩ كتب منها ٣٤٩ كتاباً عبرياً و ١٩ كتاباً عربياً .. وفي نفس السنة ، كان يوجد ٤٣ جريدة ومجلة عبرية ، وست جرائد ومجلات عربية . .

أما المشاريع الزراعية الصهيونية ، وتربية المواشي، والصناعة فتفوق أيضاً مشاريع العرب ؛ فهنالك محطاتنا التجريبية الزراعية ، ومعاهد بستور ، والمدارس الزراعية والمستشفيات والجامعة والمدرسة التكنيكية في حيفا، ومدارسنا المسلكية ، ومدرسة الفيزياء في (بيزاليل) .. كل ذلك يساهم اليهود فيه أكثر من العرب .!

ولذلك ، فاننا كيهود متعلمين ، نلح بأن يكون عدد النواب ، لا بنسبة السكان ،

بل بنسبة قواهم الفكرية والمادية .! فبرلمان يضع العناصر النشيطة العاملة الغنية ، تحت حكم أكثرية جاهلة ، هو برلمان يخالف صكوك الانتداب ، ورسالة بريطانيا المنتدبة ، وإرادة الشعوب اليهودية في إنشاء الوطن القومي .!

وعلى هذا .. فنحن — وهنا التفتت العجوز والفتاة ، وقالتا معه بصوت واحد : نحن نرى أن يستمر الحكم البريطاني نفسه اذا لم نستطع خلق الدولة اليهودية ..

لقد عرضت حكومة الانتداب ، في مناسبات عدة ، تأليف مجلس تشريعي في فلسطين . وكان نصيبه الرفض القاطع من الشعب العربي الأبي .
لان المجلس سيقام حتما لتنفيذ سياسة الوطن القومي اليهودي ، التي يستنكرها العرب ، أما وأن الامة لم تعترف في يوم من أيام جهادها على الانتداب ، ولم تقر بوعد بلفور ، وكان من مقتضيات رفض الاصل أن ترفض الفرع ، فلا عجب اذا رفض كل مشروع لمجلس تشريعي ..

والعرب إذ يطلبون حقهم في التشريع ، لا يريدون أن يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ؛ ولكنهم يريدون أن يتمتعوا بحقهم لأنهم أكثرية ساحقة في العدد والمصلحة ، وباعتبار أنهم وعدوا وعوداً صريحة ، وباعتبار أن عهد جامعة الامم يخولهم ذلك ، مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الادارة والتشريع حسب نسبتهم .

أما أن يحشر في المجلس العتيد ، يهود العالم ، الذين يتمتعون بحقوق عامة وخاصة في بلادهم ، ولهم ممثلون في برلمان كل بلد يحيون فيه ، فأمر لا يقره عقل ، ولا يقول به منطق .

إن عرب فلسطين ، يطلبون أن يعيشوا أحراراً في دنيا الاحرار ، وهم ليسوا أقل نضجاً في السياسة والعلم والاقتصاد من اخوانهم في البلاد العربية المجاورة ، ولم يقترفوا إثماً ليتحملوا تبعات تعهدات غيرهم ، فليكن هدف الجميع ، جلاء قوات الاحتلال عن الأراضي المقدسة وإعلان فلسطين حكومة مستقلة ، وعندئذ يعود الحق الى نصابه ، وتطمئن القلوب ، ويخيم السلم على هذا الجزء العزيز من العالم .

ألبنان ... في جبعات بره بر

ولا تحسبن (بره بر) هـذه ، هي ذلك المضيق الجبلي الذي كان في يوم من الأيام حديث الدنيا ، وشاغل الناس ، لدى كل اجتماع يعقده دكتاتورا أوربا ، هتلر وموسوليني .؟ لا .. بل هي مستعمرة من أرباض (تل أبيب) ، تعد في طليعة كبريات المستعمرات ، التي تعتز بها الصهيونية ، والتي خطت خطوات فساح في مضمار الرقي ، ومعارج التقدم .. ولقد أوصانا كل من لاقينـاهم بزيارتها ، لان رؤيتها تغني عن كثير . ويمكن للقارىء أن يتصور عظمتها ، اذا علم أن عدد سكانهـا يربو على الألف والمائتين .. وأنها بعد سبعة عشر عاماً من عمرها السعيد ، غدت مركزاً زراعياً وصناعياً ، يشار اليه بالبنان .

فهيا إليها لنلمس جانبا جديداً من أسرار النجاح الصهيوني .. وفي سبيل العلم وخدمة الاوطان ، وفضح أسرار الاعداء ، يهون كل عناء ..

امتطينا (باصاً) من محطة (إيجد) الكبرى . وما كادت السيارة تحرك ، حتى شرع صاحبنا يفتش عن صيد ، يكون له متعة الرحلة ، فعثر على شاب يهودي مصري الاقامة ، فرنسي الجنسية يحمل في جعبته دليلا أخضر ، وكتاباً مقدساً ، ومصورات مختلفة ، ترشده في رحلته الميمونه . واذا كان (كل غريب للغريب نسيب) ، فقد جمعتنا الغربة ، وألفت بين قلوبنا غاية الاطلاع .. غير أن غاية السيد المصري ، لم تكن البحث والدراسة ، بل هو قانع من الغنيمة بالاياب ، وبالنظر ، والنظر وحده ؛ فتراه يجوب أنحاء فلسطين كموظف في أحـــد المصارف يقضي إجازته . ورغم مصوراته المختلفة ، ودليله الاخضر ، وكتابه الديني ، كان كشاعرنا المتنبي في شعب بوان : غريب الوجه واليد واللسان .. فلم يبد عليه أنه يفقه شيئاً مما رآه ، وكان جل اعتماده علينا ، دون مناقشة أو سؤال ، وعجب صاحبنا أشد العجب من ضخامة جثته ، التي

لا تتناسب مع ضآلة ثقافته التي علاها الغبار، لتطاول العهد، وعدم الاستعمال..

***

تقوم (جبعات برهنر) على رابية عالية تشرف على البحر، وتطل على محطة (اللّد) الكبرى. ومطارها الفسيح، في رقعة رحبة، تكتنفها الحدائق والبساتين.

ولعل هذه المستعمرة تشمل كل ما رأيناه في المستعمرات الاخرى، اللهم إلا أن الكمية في كل شيء أوفر وأغزر، وذلك تبعاً لحاجة السكان، الكثيري العدد، واتساع الرقعة وازدهار المستعمرة.

وأول ما يفاجئك مشفى الاطفال، فهو مغنى يقوم على ذروة الرابية؛ تتلوى أمامه الوديان، وتنبسط في الافق البعيد سهول لا يتبينها النظر، وهو مطلي داخلا وخارجاً بالدهان الأبيض اللامع؛ والممرضات يتنقلن بين أرجائه، كملائكة الرحمة، وقد انتقين من أجمل الفتيات شكلا، وأدمثهن جانباً، وهن يتشحن بالبياض، ويضعن على قبعاتهن (خاتم سليمان) بلون أزرق. وكان المشفى هادئاً لا تسمع فيه نأمة، وراء نوافذه وأبوابه الخضراء، ذات المناخل. وهنالك حمام للجنسين بخزائنه ومشاجبه العديدة. وثمة المناشف والمرايا والصابون، للحلاقة أو التغسيل..

مدارس ومعلمة

وشاهدنا حديقة للرضع، وقد وضع كل منهم – أو منهن – في قفص أو إطار، يعنى به مربيات خاصات، بينما تعمل أمهاتهم في الحقل أو المعمل، أو شؤون أخرى، وكان الوقت ظهراً، حيث شرعن يقدمن اليهن الغداء؛ فطلبت المربيات منا إرجاء زيارة هؤلاء الاطفال ريثما يتناولون طعامهم، خشية أن يلتفتوا الينا، ويشغلهم شاغل، فيلهيهم عن شأنهم، وتشرد قابليتهم المرتجاة..

وثمة حديقة أطفال، ومدرسة ابتدائية فيها إحدى عشرة شعبة، صفوفها نظيفة جداً، وفيها أحدث وسائل الايضاح. ولعلها تفوق في ترتيبها ما شاهدناه في (شفيا)؛ ولو قارنّا بها ما نعرف من مدارسنا في دمشق، لكانت كالمقارنة بين رأس الدبوس، ورأس الرجاء الصالح..

وأخيراً رأينا للمرة الاولى في المستعمرات . مدرسة ثانوية ، ولن تكون هذه المدرسة يتيمة الدهر ، وخريدة العصر ؛ بينما لا يوجد في سائر القرى العربية طراً في فلسطين ، مدرسة واحدة ثانوية .وفي هذه المدرسة من ساحات الالعاب والاجهزة الرياضية ما يبيض لها أسود وجوه خلق الله .!

وقدمنا مرافقونا الى أستاذة ألمانية، تتقن الفرنسية إتقاناً مدهشاً ..وهي لطيفة جذابة أكثر منها فاتنة ؛ وعليها سمة المعلمات الرصينات الأنيقات؛فلا ملابس مرصوصة تترجم عن العجيزة والمدورات ، ولا نهود رافعة أنفها الى السماء . ولا ألوان قوس (قزح)على سحنة غريبة كوجوه (الكرنفال) ، بل كل ما في الامر شعر مرجل ، ووجه طبيعي ، ونظافة ظاهرة تدعو التلميذات أن يقتفين أثرها .. وما أقل المعلمات اللواتي يجوز اقتفاء آثارهن .!

ولقد أعطتنا معلومات كثيرة سمعنا مثلها في المستعمرات الاخرى ، وأضافت : إن على فتياتنا أن يتقن صنعة من الصنائع أو فرعاً من الزراعة، بالاضافة الى ما يتعلمنه من فنون الطهي ، والخياطة ، فغاية الفتاة عندنا أن تكون أماً في البيت ، وعاملة واعية في الحقل أو المصنع . ونحن نفخر بأن الامية تكاد تكون مفقودة تماماً ؛ وسيأتي يوم على فلسطين ، لا ترى فيه يهودياً جاهلا ؛ فالعلم فرض على الجميع ، وعلى كل طالب أن يحترف حرفة ، كما يقضي بذلك ديننا،لعقيدتنا أن الانسان لا يكون فاضلا إلا بالعمل ..

قالت ذلك دون تكلف أو اهتمام ، تماماً كما تقول لصاحبك : عم صباحاً ... فهل سمعت فتياتنا ذلك ، وهاجرن بعقولهن الى منطقة فكرية طيبة المناخ ، خصبة الاقليم ، ليخلقن لنا جيلا يبدلنا من بعد يأسنا أملاً ، ويفتح أمامنا آفاق المستقبل بسامة .؟ وهل سمع شبابنا أن قيمة كل امرئ ما يحسنه ، وأنه لا فضل لعربي على عجمي إلا بالعمل المنتج الخالص لوجه الله والوطن .!

وأضافت أستاذتنا المحدثة : إن برنامجنا الدراسي في سائر المستعمرات واحد ، علوم نظرية بجانبها تطبيقات عملية ؛ ونحن نقبل التحاق أطفال المدن بمدارس

مستعمراتنا ، نظير أجور مقررة ، أما من أرسلوا من قبل الجمعيات الخاصة فهم معفون من كل رسم . .

ولم يسمع تاريخ فلسطين بعد ، أن طفلا يهودياً ذهب الى مدرسة أجنبية ؛ فالكل يمضون الى مدارسنا المستقلة ، السائرة على النظام الذي تقرره شعبة المعارف في الوكالة الصهيونية ، فان براجنا تبث في أطفالنا روح الصهيونية ومبادئها وغاياتها.

وشكرنا هذه الاستاذة الفاضلة على علمها الغزير ، وغادرنا حماها ، ونحن نذكر أنصاف المواطنين ، الذين كانوا يزجّون أبناء الامة ، طائعين مختارين في المدارس الاجنبية الافرنسية لتخلق لنا جيلا هو حرب على وطنه ، عـــدو لدينه ، شعوبي إزاء قوميته . .

معامل وأبنية

وصلنا معملا ضخما هائلاً . فاذا هو معمل (الكونسروة) . والحق نقول إنه عظيم فخم ، ممتلىء بالآلات والأدوات المنسقة تنسيقاً بديعاً ، ففيه أجهزة لتنظيف الأوعية والزجاجات والقوارير ، وأخرى لصنع الأواني القصديرية أو لحمها وإغلاقها ، وآلات العصير والبخار ، وبراميل ضخمة للمنتوجات من مربيات ومشروبات ومخللات وخلاقين هائلة ، وقدور عديدة للطهي .. ورأينا أنبار السكر ، والأقبية الفسيحة ، والمواقد البخارية ، كل ذلك ذكرنا بمعمل دمشق للكنسروة ، زاده الله اتساعاً وازدهاراً . . . وفي المستعمرة ، خمة تشتمل على ما ينيف على (٢٠) ألف دجاجة منتقاة من خير الاجناس ، وهي سليمة من كل مرض . وعن كثب منها ، اسطبلات فيها مئة وخمسون بقرة ، متعددة الاجناس والأنواع ..

وكان مما لذ لنا مشاهدته ، رؤيتهم يبنون أبنية حديثة ، عوضاً عن القديمة ، التي أصبحت لا تلائم رقي المستعمرة ، ولا تفي بازدياد السكان . ومما يلفت النظر تلك السطوح المائلة المصنوعة من قرميد اسمنتي خاص . أما الغرف فكانت متلاصقة ، غير أن كل دار مستقلة عن الاخرى .

ولقد زرنا بعد استئذان، مسكن امرأة هنغارية نصف، كزجاجة عطر فارغة، لم يبق منها إلا آثارها، فاذا بفسحة صغيرة كالشرفة أمام المدخل، بجانبها خزانة لوضع الأحذية، وبعض المؤن التي تنشر روائح لا يستحسن انبعاثها داخل الحجرة؛ والمسكن نفسه يتألف من غرفة واحدة أنيقة، كأنها صنعت للضحك والهدوء، تجمع الشرائط الصحية؛ يزين جدرانها صورتان فنيتان، تمثل إحداهما بزوغ الفجر، وأخراهما: الطفولة البريئة؛ وكلاهما ينم عن ذوق مهذب مرهف. والغرفة ناصعة البياض، يستر أرضها سجادة صغيرة، وعلى نوافذها وقسم من بابها مناخل من شريط أخضر اللون. وأثاثها يتألف من سرير يتحول نهاراً الى مقعد واسع مريح، بجانبه (طربيزة) يعلوها مصباح كهربائي، وفي الزاوية خزانة صغيرة وكرسي وطاولة فوقها زهرية.

وسائر الدور على هذا الترتيب البديع، مع اختلاف في الاتساع، بحسب عدد أفراد العائلة.! وعليها كلها مسحة النضارة ومظهر النظافة والوجاهة، وقد نسقت صفوفها، ورتبت هندستها، وحباها العلم بنور الكهرباء.

وفي هذه المستعمرة الفنية صالات للموسيقا والحفلات والتمثيل، وحجرة للاذاعة.

وأذن الظهر فدعينا للغداء، فوجدنا المطعم ممتازاً يشرف على مناظر غاية في الروعة والجمال، وهو صالة فسيحة جداً؛ والطعام يوزع في عربات مطاطية العجلات ليس لها صوت؛ فيها رفوف من أنابيب حديدية، نضدت فوقها الصحاف وألوان الطعام. والطهي هنا، كما هو في سائر المستعمرات، أوربي الطريقة وموافق لتعاليم الموسوية. وقد قدموا لنا بطاطس وأرزاً حلواً، وحساء من العجين المجفف والحبوب، وكان شراب (الآسبس) يبذل للحاضرين بكرم عجيب. ولعل وجود معمل الكونسروة يبرر هذا التصرف الشاذ، وبالاجمال فان الطعام كان فاخراً، بسبب

ثراء المستعمرة وازدهارها؛ فكلما نمت واتسعت وازداد انتاجها، ارتفع مستوى الحياة فيها .. ولما كان السكان كلهم متكافئين متضامنين في العمل، فانهم يرون من مصلحتهم أن يضاعفوا بذل الجهود، ليرتفع مستوى المعيشة.

حدائق ... وزهور ... وحسان ...

غادرنا المطعم، ويممنا وجهنا شطر الحدائق والحقول، لنلمس لمس اليد تقدم القوم الزراعي. فشاهدنا البركة الكبرى التي تروي المساحات الواسعة وتؤمن مطالب المستعمرة. وكانت محركاتها الضخمة، تعمل لنضح المياه من أعماق الارض. وكم تمنى صاحبنا أن ينعم بجولة سباحة في هذه البركة، وهو ابن بردى وتورا ويزيد، لولا أنه تناول طعامه منذ قليل، ويحرص على تطبيق القواعد الصحية حرصه على تطبيق الوصايا العشر. وحول هذه البركة، الى مسافات لا يحدها البصر، حدائق الخضار، وكروم الدوالي، وأشجار الفواكه والحمضيات، ومن بعيد، كانت ترن أصوات العاملات والفلاحين الذين يخدمون الارض، فيهبونها نفوسهم الغالية. وسرنا تحت الأشجار المتشابكة، حيث حفيف الاوراق، تحت سماء صافية الأديم، وممرات شذبتها يد العمال من أعشابها الطفيلية؛ والنوافر اللولبية تدور وتدور، كالدراويش في حفلات رمضان، ولكم أصابنا من رشاشها، ورذاذ مائها المتناثر فوق الاشجار، والخضار والأزهار، فرطب وجوهنا وصدورنا، في ذلك الجو القائظ.

واجتزنا ممراً، كأنه من نماذج جنان الخلود؛ على جانبيه جدران من المرجان، شذبت بانتظام، تضم خمائل في وسطها نوافر، وعلى جوانبها أزهار، وفي زواياها مقاعد لاستراحة الزارعين والعاملين. وكما تجد في المدن الكبرى حدائق يلوذ بها الانسان من مشاغل الحياة اليومية، كذلك تجد في هذه المستعمرة تلك الممرات وهاتيك الحدائق، التي تقوم على تنظيمها وخدمتها فلاحات ممن تعرفهن وسبق لنا ذكرهن، كاشفات السوق، ناهدات الأثداء..

وكانت خاتمة المطاف أمام مغنى فسيح الأركان، شاهق الجدران، نوافذه

البلورية واسعة ، يغمرها النور والهواء ، وفي داخله قليل من الشبان وكثير من الغيد الحسان ، ببيجامات هفهافة ، وأثواب طويلة، تجر أذيالها ، وأنغام الراديو تشنف الآذان . وهذا المغنى هو مصيف للنقاهة ، ازدانت موائده بالورد، وجدره بالصور الفنية ، وأثث بأفخر الرياش ، فكان منتجعاً لطلاب الراحة ، وعشاق الطبيعة ، وللناقهين ..

وحوله أشجار الصنوبر الظليلة، ترى خلف أغصانها، الحقول الخضراء، والافق البعيد ، والبحر الأزرق ، والسماء الصافية ، والنسيم العليل ينساب بين الأوراق فتسمع وشوشات وهمسات .

ولقد زرنا لبنان ، وطفنا أرجاءه ، ونستطيع أن نؤكد مخلصين أن دار نقاهة (جبعات برنر) وما يحيط بها من غابات وحقول ، ومايكتنفها من جو ساحر أخاذ، لن تقل جمالا عن لبنان الحبيب الى القلب ، وعن سويسرا التي تحدث عنها الركبان..

وجلسنا مع الجالسين في ظلال الصنوبر، فوق هاتيك الكراسي المتنقلة المتطاولة، التي يضطجع عليها الانسان ، فيتمتع بالهدوء اللامتناهي، ويسبح في أجواء من الخيال، فيداعب النوم جفنيه ، ويتمنى ألا يغادر المكان ..

وبعد ، فأنت تستطيع أن تكره عدوك ، ولك ان تفتش عن القضاء عليه، ولكنك لا تستطيع قط أن تجاهل محاسنه ومزاياه . ذلك ما يوحيه العدل والمنطق والرأي السديد . وهؤلاء الصهيونيون أعداؤنا (رقم واحد) لا منازع ، ولكن علينا ألا ننسى أنهم ما قاموا بمشروع إلا أتقنوه ووفوه حقه ، بفهم ثاقب ، وترتيب وتنظيم ؛ وبهذه الاساليب ، شقوا طريقهم في الحياة ، وخلقوا الانصار ، وكانت أعمالهم خير دعاية لهم . فأين (جبعات برنر) من مصايفنا السورية ، التي لو امتدت اليها يد التنظيم ، وأرصدت لها الاموال ، لغدت جناناً نضرة ، لما فيها من ينابيع ، وأمواه ، وأشجار وأطيار ، وسماء صافية ، وخلق شرقي جميل .. إن المال لا ينقصنا ، ولكن آفتنا الكبرى خرق في التفكير ، وتوزيع للجهود ، و (لا مبالاة) نخشى أن نحصد عواقبها بعد حين..

ألا إن المصايف ثروات طبيعية ، إن أحسن استغلالها ، درت على البلاد أموالا وفيرة ، ورفعت من سمعتها ، ورقت من طباع أهلها ، وكانت معيناً لا ينضب من الخيرات والبركات ... فتتقدم الاوطان وتقفز ، بل تخطو نحو الامجاد خطوات الفراسخ والاميال ..!

وتحت شجرة صنوبر ، مثقلة بأثمارها ، استلقت حسناء فاتنة ، فيها كثير من حرارة جو فلسطين ، ومن الجاذبية الجنسية ما لو قسم على أهل بلدة ضخمة لكفت شبانها أجمعين ؛ فلم ندر من أين هبطت .؟ هل فرت من جنان رضوان ، أو حدائق فينوس .؟ لقد كانت ذات شعر أشقر ، ذهبي ، مسترسل الذوائب ، معقوص الجمة ، وعيون فيها سحر هاروت وماروت ، متسعة زرقاء صافية ، كماء البحر ... وكأنها لفرط جمالها تصيح : أنا هنا ...

جلست على كرسيها ، وكأنها تمدد على أريكة من ريش ، ورفعت بين يديها كتاباً تظاهرت بمطالعته ، فنتأ نهدان يتفجران حيوية ، ولفت برجليها ، فبدت ساقها وكأنها أرض متعطشة لم تشرب منذ جيل كامل .؟ وثوبها الربيعي الشفاف المزدان بالورود والأزاهير ، تلهو به الريح ، فيكشف عن أنوار تبدد دياجير الظلام ..

وتحت أفياء الصنوبر ، وخلال أنامل النسمات، التي تعبث بالأوراق الابرية ،فتحدث وسوسات وهمسات ، كانت الحسناء عن الجميع لاهية غير مبالية .. واذا صح أن النظرات تحيي الموتى ، فان نظرةً واحدة من هذه المفتان ، تحيي قلب الميت وتبعثه من جديد . ولما كان صاحبنا ينظر الى الحسان بعيون الشعراء ، لا بعيون العشاق ، فقد استرد إلهامه المفقود ، وراح يتغزل بذلك الجمال الالهي ، بقصائد ستكون له خير زاد في لياليه العجاف ...

الصهيـــــونية

«هكذا يفهم الصهيونيون قضيتهم، فاليك أيها العربي حديث يهودي قح، دون تعليق»

ان هواء فلسطين يهب الحكمة، وسكناها أفضل نعمة ...

كذلك بدأ مرافقنا المصري حديثه عن الصهيونية، بعد أن استدرجناه إلى الكلام، فالتفت يقول، وقد تزود بنظرة خاطفة، مثقلة بالشهوات من وجه الحسناء:

ليست الصهيونية يا أعزائي ديناً، ولم ينتحلها جميع يهود العالم، ليذودوا عن حياضها.. بل هي حركة سياسية ترمي الى عزل الشعب اليهودي عن غيره من الشعوب، وجعل فلسطين وطناً قومياً جغرافياً دولياً..

وهي وليدة البؤس والشقاء والآلام، ليس بينها وبين ديانة موسى أي سبب. فمنذ فجر التاريخ، ما برحت الامة اليهودية تعاني الأمرين، ففراعنة مصر سخروا اليهود في بناء إهراماتهم ومعابدهم، والكلدانيون سبوهم فانتثرت أشلاؤهم في فيافي الصحراء، والرومانيون دمروا مملكتهم فسالت دماؤهم أنهاراً، وتفرقت جموعهم أيدي سبأ. وفي العصور الوسطى نعتوهم بأسفل الألقاب ونظروا اليهم شزراً، فعاشوا خلف أسوار الجيتو، في أزقة ضيقة وبيوت عشش فيها الشقاء، منبوذين محتقرين، محرومين من أكثر الحقوق. فأصبح اليهودي لا تقبل شهادته على المسيحي، وحرموا مناصب الدولة، ولم يؤذن لهم بتجنب الأطعمة التي يحرم دينهم أكلها، ومنعوا من الختان تحت طائلة العذاب الشديد، وصودرت أموالهم، ومزقت كتبهم الدينية، وبذل المستطاع للتفريق بين الرجل وامرأته والسيد وعبده؛ وكانوا يدونون أسماءهم في سجلات، ويستعرضونهم كما تستعرض الماشية، ويتهمونهم بذبح أبناء النصارى وأكل لحوم الآدميين.! وأما حظهم من العامة فكان أدعى الى الشفقة، لأن نجاحهم في أعمالهم التجارية، كان باعثاً على الحسد والانتقام في ظل التعصب

الديني ، ولم يكن أسهل على أمراء ذلك الزمان إذا احتاجوا الى النقود من أن يصادروا أموال اليهود المقيمين في بلادهم، ويتركوهم يشتغلون في جمع أموال أخرى، فاذا تم جمعها لديهم أعادوا الكرة عليهم فأخذوها منهم . ولقد منعهم الشرع من زيارة الكاهن ، دون دعوة منه ؛ لكن هذا الكاهن لم يكن يستغني عن أنسجة هذا اليهودي ، ليصنع منها ثوبه الكهنوتي ، ولا عن مصنوعاته ليتخـــذ منها آنية للكنيسة وأدواتها .!

ومضت القرون ، وتلألأت تباشير العصور الحاضرة فاذا (بفولتير) الملقب بزعيم الحرية ورسول الرحمة ، يرمي اليهود بنبال الطعن والامتهان ، مؤكداً أن تلك الامة أسفل الاخلاق ..! وحمل عليهم (أدوار درومون) في صحيفته (فرنسا اليهودية) ؛ فهم في زعمه قوم لا هدف لهم سوى تكديس الأموال ، يؤلفون دولة ضمن دولة ، ويحنون دوماً الى أفق وطنهم الاصلي، ويأبون الاندماج في تربة حضنتهم ، ويكرهون الامتزاج بأمة ترعرعوا بين ظهرانيها . وجاء الطاغية (هتلر) بكتابه (كفاحي)فبلغ السيل الزبى ، فصودرت الاموال ، واعدمت الانفس ، وأجلي السكان بالملايين ، لا عن ألمانيا وحدها ، بل عن كثير من الدول . فتجددت آلام اليهود ، وذاقوا مرارة العري والجوع والنفي والتشريد، فارتموا في أحضان الصهيونية يتطلعون وفي القلب حرقة ، الى فلسطين ، وطنهم الاول ، وملجئهم الحصين .!

وهذا يهوذا الحلوي الاندلسي ، صاحب القصائد الخالدة المدعاة (بالصهيونيات) والتي تعبر عن رغبة جامحة الى أرض فلسطين ، ينشج منذ شباب الدهر على الهيكل المهدوم ، وعبودية اليهود ، وفقدان روابي صهيون، فيقول :«إن الشعب اليهودي رغم اضطهاده ، فهو حيثما حل ، كالملح بالنسبة الى الدهر، يلقى الآلام ولكنه يظل حياً.»

ولئن تقاعس اليهود عن النهوض منذ القديم ، للعودة الى أرض فلسطين ، فلاعتقادهم بأن الآلهة ستردهم حتما اليها . ألم يقل الانبياء : «ها أنذا أرد سبي خيام يعقوب ، وأرحم مساكنه ، وتبنى المدينة على تلها ، والقصر يسكن على عادته»؛ ألم يقولوا : «..ويبنون مدناً خربة، ويسكنون ويغرسون كروماً ، ويشربون خمرها...

ولن يقلعوا من أرضهم التي أعطيتهم .؟» أو « سترجعكم شعوب الأرض الى صهيون، وتعودون كالحمام الى وكناتها .. »

تلك هي لمحة خاطفة لتاريخ اليهود ، تريكم دماءهم تخضب أعتاب التاريخ ، وآلامهم تستدعي الرحمة والحنان . « فاليهودي ميت بين الأحياء ، غريب بين المواطنين ، متشرد بين الحضر ، مستجد بين الاغنياء ، وطنه الغربة ، ووحدته التفكك وسلاحه الخنوع . » ثم زفر محدثنا الصهيوني زفرة حري وتابع :

وهكذا قضى اليهود أجيالا في مثل هذا الحال ، مضطهدين مكروهين مظلومين ؛ لكنهم حافظوا على جامعتهم الجنسية والدينية . وهذا غريب في نواميس الاجتماع . لأن الامة التي تقضي مئات من السنين مشتتة مضطهدة مظلومة ، لا دولة تحميها ، ولا جند ينصرونها، قد حكم عليها بالزوال . أما اليهود فكانوا في أثناء هذه النوائب ، لا يزدادون إلا رسوخاً في الجنسية وثباتاً في الاعتقاد . وهو سر من أسرار تاريخهم حار العلماء في تعليله ، إن دل على شيء فانه يدل على قوة في عنصرهم ، تساعدهم على احتمال المشاق ، واستنباط طرق الكسب التي لا توجد في سواهم ...

فالصهيونية إذن ، ليست وليدة الامس القريب ، بل رسخت أصولها في بطون التاريخ ، على أنها لم تبرز سافرة إلا في شخص الدكتور (تيودور هرتسل) ، الذي ولد في هنغاريا ، وترعرع في حارات لندن الضيقة الفقيرة ، فطبعت نفسه بطابع البؤس ، ونزعت الى إصلاح الشعوب ؛ وخدمه لسان ذرب وقلم فياض ، فأودع أمانيه هذه في كتابه : (ربيع البؤس) ، الذي اخترق فيه نظره الحجب ، فخرّ ساجداً أمام عالم الغد ؛ عالم الحرية والمساواة، والعدالة .. ثم انتقل الى باريس يراسل الصحف النمسوية ، وفي هذه الاثناء حصلت مسألة (دريفوس) ، وسمع الفرنسيين يهتفون بسقوط اليهود ، فقال : « أيهتف الفرنسيون بسقوط أمتي في عاصمة النور ، وهم المشهورون بالحرية .؟» فثارت ثائرته ، وأكب على تاريخ اليهودية ، لينحاز الى مبادئ أسلافه بضرورة إنشاء وطن لليهود يقيهم العثرات ، وتشحذ فيه هممهم ، فيظهرون للملاء قوة إدراكهم وعظيم إنتاجهم ، ثم أصدر كتاباً يتقد غيرة وحماسة

عنوانه : (الدولة اليهودية) بدأه بقوله : « إن الانتيسمتزم - ضد السامية - خطر لا يهدد اليهود فحسب ، بل العالم بأسره ، وهي في نمو مستمر ، ولن يستطيع اليهود الامتزاج مع من حولهم ، لأن الامتزاج لا يتحقق دون الزواج المتبادل .. ومن السخف انكار المشكلة اليهودية ، فهي موجودة حيثما وجد مجتمع يهودى ، واذا فقدت من مكان ، جاءته عن طريق المهاجرين اليهود .. فمن الضروري استملاك أرض يقيمون فيها مجتمعاً لهم .. »

ولذا لم يقترح هرتسل أن تكون فلسطين مهجراً لليهود . . بل اختار الجمهورية الفضية (الارجنتين)؛ ولما كان يبغي رضاء جماهير اليهود،وخاصة رجال الكنيسة ، نظراً للشعور الديني في الشعب اليهودي ، فقد اقتنع أخيراً بوجوب كون فلسطين وطناً قومياً لتحصل الموافقة بالاجماع ..

وفي عام ١٨٩٧ عقد أول مؤتمر صهيوني ، في مدينة (بال)-كما اقترح هرتسل- فتباحث كبار قادة الفكر اليهودي وأغنياء إسرائيل ، واقترحوا عدة أمور تمت فيما بعد، منها :

١ — تعليم اللغة العبرية ، وآدابها ، وانشاء مدرسة كبرى في يافا أو القدس .

٢ — إنشاء مدارس عامة لتعليم اللغة العبرية في كل حي يهودي ، وتأليف لجنة خاصة للآداب اليهودية .

٣ — إنشاء صندوق توفير يهودي ، لتأمين القاعدة المتفق عليها وهي إيجادوطن للشعب اليهودي في فلسطين ، مضمون ضماناً شرعياً ودولياً .

٤ — تحقيق الأغراض الآتية :

آ . — ترقية الزراع والتجار اليهود في فلسطين .

ب . — تحالف اليهود تحالفاً محلياً أو عمومياً حسب قوانين بلادهم .

ج . — تقوية الشعور اليهودي .

د . — بذل المساعي الأدبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض المنشود؛

وعينوا في المؤتمر الثاني جمعية استعمارية خاصة ، كان غرضها توسيع نطاق الاستعمار

شريطة الحصول على رضاء الحكومة العثمانية .

وفي المؤتمرات أوضحوا معنى الثقافة ، وأنها لا تغاير العقيدة اليهودية ، وقد اقترح بعضهم حينئذ استعمار قبرص ، فرفض الاقتراح بالأكثرية .. وبعد المؤتمر الرابع قابل هرتسل السلطان عبد الحميد، الذي ماطل وساوم وراوغ، ولقب هرتسل (سليمان عصره) وأوصى به خيراً بابه العالي . ثم قابل مع وفد يهودي امبراطور ألمانيا (غليوم) في القدس ، فأجابهم «بأن المساعي التي ترقي زراعة فلسطين ، وتنفع الدولة العثمانية مع احترام سيادتها هي فائزة بارتياحه ورضاه ...»

ثم فاز بمقابلة وزير الامبراطور الروسي ، فناقش وأقنع ، وغالب فغلب ..

وأخيراً ، طلب من السلطان بعد مقابلة ثانية ، أن تمنح الحكومة العثمانية اليهود مقداراً واسعاً من الحكم البلدي الذاتي ؛ فيدفع اليهود مبلغاً معلوماً من المال لقاء هذا الامتياز . وحاول ان يقنع السلطان بتمام اخلاص الصهيونيين ؛ وحجته أنهم يعملون علانية وليس في الخفاء ، وأنهم يقاومون كل حركة استعمارية ، تعنى بادخال اليهود تدريجياً الى فلسطين ، خلافاً لرغائب السلطة الحاكمة ، لأن اليهود عنصر خاضع للقوانين مجتهد .. واستوى محدثنا في مقعده لينال بعض الراحة وقال :

غير أن الدولة العثمانية شعرت بخطر الصهيونية ، فمنعت مهاجري اليهود من البقاء في فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر رغم احتجاج ايطاليا وأمريكا .!

وقد اقترح الانكليز على (هرتسل) ، استعمار العريش أو شرق أفريقيا ، فأبى ذلك قائلا : « إن شرق افريقيا ليست صهيون ، ولن تكونها . » وقال ماكس نوردو: «لو اتخذنا شرق أفريقيا وطناً ، لتعذر علينا إلا أن نكون في دار غربة .!»

وقد أصدروا في مؤتمرهم السابع القرار الآتي : يعلن المؤتمر الصهيوني السابع ، بأن الهيئة الصهيونية ، ثابتة لا تحول عن قاعدة مؤتمر (بال) الاول ، وهي إحياء وطن لليهود في فلسطين ، على أن يؤمن تأميناً شرعياً ويعترف به اعترافاً علنياً . ويرفض كوسيلة ، كل استعمار خارج فلسطين ، والأراضي المجاورة .

وقد قرر كذلك ، تطبيقاً للحركتين الادارية والسياسية وتقويتهما :

١ً) الاكتشاف والتنقيب عن الآثار .

٢ً) ترويج الزراعة والصناعة على خير المبادىء الديموقراطية الممكنة .

٣ً) تحسين الحالة الاقتصادية والتربوية ، وتنظيم شؤون يهود فلسطين بواسطة الحصول على نهضة فكرية جديدة ..

٤ً) الحصول على الامتيازات .

إن المؤتمر يرفض كل استعمار مجرد عن الغرض المنشود ، وغير مشترك بالعواطف والبذل ، وذلك بطرق مصغرة ، اذا كان غير منطبق على الفقرة الاولى من برنامج مؤتمر (بال) .. وعلت وجه اليهودي سحابة من الحزن ، ثم قال :

وفي ٣ تموز ١٩٠٤ لفظ (هرتسل) أنفاسه الاخيرة ، وقضى شهيد الغاية الصهيونية ، وربما كان السياسي الوحيد ، الذي كرس حياته لخدمة قومه ، واستطاع أن يقوم بما لم يستطعه فرد أو جماعة ، في سبيل إعلاء شأن الغاية وتثبيتها ؛ فوحد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم ، ونقل المسألة اليهودية ، من مسألة خيرية زراعية ، الى قضية اقتصادية سياسية . ولقد ساعده على نشر دعايته الطبيب الفيلسوف الألماني (ماكس نوردو) ، وشاعر لنـــدن (اسرائيل زنجويل) ، فلا عجب اذا نظر اليه العالم اليهودي نظرة احترام وإجلال وتقديس ، فهو الذي رفع لواء الصهيونية عالياً ، وناضل في توطيد ما يدعيه حقه ، فكان بيانه سحراً ، أرهف ضعاف العزائم ، ونداؤه إلهاماً أصاخ اليه اليهود ، فغدت جملتهم المأثورة : «وغداً الى القدس» بسملة علوية ودعاء حاراً يحدوهم الى الجد والعمل ، لبلوغ الأمل ..

وتنادوا من كل البقاع والامصار ، يمدون يد المساعده للنازحين الى فلسطين ، ويفيضون عليهم بالعطاء دون حساب ، مؤسسين الجمعيات والمصارف لابتياع الارض على ضفاف الاردن ، بأبهظ الأثمان . فبذل الاموال بسخاء المثري الكبير البارون (ادمون روتشيلد) ، وساعدهم معنوياً كبار رجال السياسة والأدب كالشاعر (فيكتور هوجو) ، فنمت في أرض فلسطين المستعمرات الصهيونية ، وكانت أولاها : بتاح تيكفا ، أي عتبة الامل .. وغدت بعض بقاعها جنات وارفة الظلال ،

تموج بالسكان، وتكتسي بالأشجار والأزهار، كما كست تل أبيب رمال المتوسط، حلة تمدن وازدهار قشيبة..

على أنه منذ وفاة (هرتسل)، حتى نشوب الحرب الكبرى، كانت القضية في دور التقهقر، لفقدان الزعيم الكفء، حتى ظهر (وايزمن)، الاستاذ في جامعة مانشستر، على مسرح السياسة. فبعد أن اندلعت نيران الحرب، وأصبح العالم المتمدن يخشى انكسار الحلفاء، وقد صاروا إلى ضنك معنوي، وحاجة مالية قصوى؛ عرفت الصهيونية هذه الحقيقة المؤلمة، وانتهزت هذه الفرصة النادرة، فانحازت بكل قواها تشد أزر الحلفاء، وتقدم لهم أجل الخدم وأنفع المساعدات. وبذل علماؤها في سبيل نصرتهم، دمهم ومالهم ونتاج عبقريتهم، فأوجد (وايزمن) متفجرات هائلة، كان لتأثيرها العجيب أثر رهيب في تغيير مجرى الحرب؛ كما انه اخترع لهم الكمامات الواقية، غداة استعمل الالمان الغازات السامة.

وعندما صرح المستر (ايكويث) رئيس الوزارة البريطانية، عقب دخول تركيا الحرب: «إن ناقوس جنازة تركيا قد دق لا في أوربا فقط، بل وفي آسيا أيضاً»، ابتهجت نفوس اليهود، وعادت آمالهم تنتعش، فقابل (وايزمن)، (لويد جورج) بحضور (هربرت صموئيل) وعرض عليه ما يبغي من مكافآت لاختراعاته، فطلب أن تصبح فلسطين وطناً قومياً لليهود، وأجيب الى سؤله؛ ثم اجتمع باللورد (بلفور) فسأله عن سبب رفض الصهيونيين أن يرحلوا الى افريقيا الشرقية، فكان رد (وايزمن) أن سأله: هل تقبل باريس بدلا من لندن، فقال: ولكن لندن بلدي، وعندها أجاب وايزمن: وكذلك القدس.. !

فارتاح بلفور لهذا الرد، ووعد وايزمن بكل تشجيع.

وفي اليوم الثاني من شهر تشرين الثاني سنة ١٩١٧، عقب دخول جحافل الانكليز القدس، أرسل اللورد (بلفور) كتاباً سرياً الى اللورد (روتشيلد)، تلك الوثيقة التي استنكرها العرب في جميع أقطارهم، وما زالوا يمورون من أجلها ساخطين، متوعدين، مهددين، وهذا نصها:

عزيزي اللورد روتشيلد

« يسرني جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك ، بأن حكومة جلالته تنظر بعين العطف ، الى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين . وتبذل كل ما في وسعها لتحقيق هذه الغاية، ولا حاجة الى التنبيه أنه لن يعمل شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود في فلسطين ، أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسي في غيرها من البلدان الاخرى . »

وقد ظل هذا الوعد الغامض مكتوماً عن العرب عموماً ، والشعب الفلسطيني خصوصاً حتى سنة ١٩١٨ . وعزا اللورد (بلفور) غموضه على الصورة المذكورة قصداً ، ليتسنى لليهود أن يعملوا في سبيل مستقبلهم كما يريدون ، وجهر بأنه يجهل أن فلسطين بلد يسكنه العرب ، وتوهم أن خروج الاتراك منها سيتركها دون سكان..

وقد نال هذا الوعد المشؤوم عطف مؤتمر (سان ريمو) سنة ١٩٢٠ ؛ وثبتته جمعية الأمم في الرابع والعشرين من تموز ١٩٢٢ في المادة الرابعة من صك الانتداب ، كما أقره الكونغرس الامريكي في ٣٠ حزيران من السنة نفسها في وثيقة نصها :

« ولما كان للشعب اليهودي إيمان ، منذ عدة قرون ، بإنشاء وطنه القديم ، الذي كان دائماً يحن اليه ، وإذ تحتم أن يكون بوسعه — استناداً الى نتائج الحرب العالمية ، والدور الهام الذى لعبه فيها — بعث نفسه وإنشاء وطنه القومي في أرض جدوده .. فقد قرر مجلس الشيوخ ومجلس نواب أميركا ، أن تحبذ الولايات المتحدة إنشاء وطن قومي للشعب اليهودى في فلسطين . »

وكان هذا الاعتراف لليهود ، بإنشاء وطن قومي، فوزاً للقضية الصهيونية عظيماً ،

واعتبر زعماؤنا، أن إنشاء الوطن دين على الأمم ، وليس هبة ، لما أتوه من خدمات ، فوجب على تلك الدول المنتصرة ، أن تعيد لليهود وطنهم القديم ... كما أعادت للبولنديين والايرلنديين .. وطن أجدادهم ..

وعندئذ شمخت أنوف اليهود ، وأعلن قادتنا أن فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية ، وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية ، حتى أن أول مفوض

سامي كان صهيونياً وهو : هربرت صموئيل ..

ولم يقف العرب ازاء نامكتوفي الأيدي .. فكانت تنشب الثورات كل حين وحين، وترسل لجان التحقيق ، حتى بلغت سبع عشرة .. وكانت آخرها اللجنة التي أعلن عن تأليفها المستر (بيفن) في بيانه في تشرين ١٩٤٥ ، والتي لم تنته من أعمالها بعد والتي تدل القرائن كلها أنها لن ترضى أحد المتخاصمين ...

وهنا سكت محدثنا المصري ، فشكرناه على ما أجاد وأفاد ؛ وكان بوق السيارة ينادي المسافرين ، حين ودعنا المكان ، وغيدة الحسان ، لنعود كرة أخرى الى مدينة الربيع ...

***

أيها العربي

لقد استمعت الى حديث صهيوني مؤمن بقضيته،وهي باطلة أمام الله ،والتاريخ، والناس أجمعين ..

ولقد رأيت كم جاهد قادتهم ، وبذل أثرياؤهم ، في سبيل نجاح الحركة . فلم يتوان مفكروهم ، ولا تقاعس عامتهم ، عن السير قدماً رغم العقبات الكأداء .. فما أحرانا نحن ، وحقنا صراح أبلج ، أن نلم الشعث ، ونوحد الصفوف ، ونهيئ البرامج ، كما فعلوا في مؤتمراتهم السبعة عشر ، وما وضعوا فيها من خطط ، كانت خير نواة لاستعمار أرضك ، ووطنك المقدس ...

عودة الى تل أبيب

عاد صاحبنا الى تل أبيب ، ووقف في محطة (إيجد) الكبرى، يتنفس باجهاد وإعياء ، بعد انتقالات متواصلة بين المستعمرات ؛ راح ينظر الى المحطة ، لا تمتلئ مرة ، إلا لتفرغ ،ولا تفرغ إلا لتمتلئ كرة أخرى ؛ صفوف بشرية لا تنتهي كصفوف النمل ، وحركة غير عادية لم يألفها من قبل،أمواج بشرية متلاطمة متتابعة، تزخر بالنشاط والحيوية .

ولقد تذكر أنه وقف في ساحة الشهداء بدمشق مرات ، وفي ساحة البرج ببيروت مراراً ، وهما ساحتان محترمتان لهما بعض الميزات والمزايا ولا شك ، ولكنه لم يشهد قط مثل هذه الطوفانات البشرية ،وهذه الكثافة الجديرة بالنظر والاعتبار .!

وكان الوقت مساء الجمعة ، وغداً سيكون السبت ، يوم العيد الرسمي للعاصمة الصهيونية .. ولذا فقد ازداد النشاط ، وشرع الأهلون يستقبلون سبتهم ، بمظاهر الاجلال والاحترام . لقد عملوا ستة أيام بذلوا فيها جهودهم ونشاطهم ، فليستريحوا نهار السبت ، وهو اليوم الذي استراح فيه ربهم من عناء صنع هـــذا العالم ، كرة الشقاء والبلاء وأفانين العذاب ...

وكان ما كان ..

وقبع صاحبنا ، مستنداً الى حاجز من حواجز المحطة ، يروي باصرتيه بهذه الصور المتحركة الحية ، لينقلها ناطقة الى اخوانه العرب ، أنى كانوا ، فلعل فيها ما يحفز الى التفكير والعمل ، ومجاراة قافلة الاحياء ، واليقظة بعد سبات طويل ، ونوم لا شك عميق .! وابتاع شطيرة من تلك الحوانيت الصغيرة القائمة في بناء المحطة ، وراح يلتهمها بحماسة ، وهو أكثر ما يكون شوقاً الى (طاحونة مخلل) تذكره بعهود الربوة ، وجنينة أم الحسة ، وبستان النعنع .!

وكانت المحطة محشراً دنيوياً ، من طراز لا يفر فيه المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه .. فقد التقى صاحبنا ببعض تلميذاته وتلاميذه ممن رآهم في (شفيا) و (شفايم) ، ومن ساكني (تل أبيب) نفسها ، فسر لمرآهم ، وهش وبش ، وسألهم عن صحتهم العزيزة المرتجاة .. فالاناث في زينة العيد لا بلباس العمل : الشعور مصففة تلمع بالعطور ، والنهود بارزة من القمصان المشقوقة الصدور ، والخصور نحيلة ضامرة ، والافخاذ مسترسلة تحت السراويل الزرقاء القصيرة ، التي غدت رمزاً مسجلا لساكنات (الكيبوتس) . وفي يد كل واحدة منهن أو على ظهرها ، جعبة فيها ما تحتاجه المسافرة ويصلح من شأنها . وكان رفاقهن لا يقلون عنهن أناقة وهنداماً .

لقد جاؤوا (تل أبيب) لقضاء عطلة الاسبوع، وليلطفوا أوار قلوبهم ، ويرطبوا اعصابهم الدافئة ، وليمنحوا الجسد راحته والفكر إجازته . وهل في العالم لذة أمتع من الراحة بعد عمل متعب منتج؟ إنها الوسادة اللينة، التي لا تضارعها وسائد الحسان..

ولو رأى عزول واش أستاذنا الكبير مع طالباته وطلابه ، وعلى وجوههم أمارات السرور والانشراح ، لحسب الجميع يتبادلون أحاديث الهوى والغرام ، ويتجاذبون أسباب الغزل والهيام ؛ فالابتسامات كاسحة ، والنكات تتدفق مقبلة مهيجة ، وقد يحمر لها جبين الغواني ، وتتورد خدودهن . وعهده بهن صغيرات ، واليوم أصبحن شابات يافعات ، نضجن وترعرعن، وشاع من أعينهن سحر الانوثة وفتنتها، وأصبحن يدركن مرامي الكلام ، ويترجمن نظرات العيون ، وهواجس النفس ، وخطرات الفؤاد . .

ومن سخرية الأقدار ، أن الناس كلهم لم يوهبوا سلطان السيطرة على العواطف الثائرة ، ولا يستطيعون كبح جماحها ، أو كبتها، فتبدو بارزة على صفحات وجوههم وفلتات لسانهم ، وهي مرآة نفوسهم ..

ورغم أن صاحبنا هجر التعليم منذ أمد بعيد ، فان وجدانه المسلكي ما زال عامراً ضخماً ، وهو لا زال يحسب نفسه يلقي درساً في الفضيلة والاخلاق ، على

تيذانه وتلاميذه ، الذين وجدوا فيه الأب الفاضل ، والأخ المحترم ، فبادلته حباً بحب ، وتقديراً بتقدير ، وغدا كزوجة قيصر ، فوق الشبهات ..

ولن يكون كما أرجف صديقه ، يهواهن كأخوته على دين كسري ، ويتلمظ لو ذاق هذا اللحم البشري الغض ، الذي يشتهي مثله .!

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

على بلاج تل أبيب ..

كان (اليامْ) على حد تعبير العبريين (وهو اليم أي البحر) هائجاً صاخباً بعد ظهر ذلك اليوم .. و (اليام) سرير مغرٍ لاذٍ للمغامرين ، من أنصار الشيطان ، والجمال . . على السواء .! وإن من يزور (تل أبيب) ولا يسبح يوم السبت في (بلاجها) الفاتن ، فقد أضاع متعة هيهات أن تعوض .. لقـــد كانت أمواجه في فوران وغليان ، كنفوس السابحات والسابحين .. ولـكن .. فليزمجر ما شاء ، فلن تلين قناة الجمهور اللاهي العابث ، وإنما ستزيد جموعه فرحاً ومرحاً ونشاطاً ..

فهل تخيلت الحشر في رقعة لا تجاوز الكيلومترين طولا والخمسين متراً عرضاً ، وقد خرج الناس حفاة عراة ، لا ليتطلبوا من الله رحمة وغفراناً ، بل لينشدوا من الشاطئ لهواً وغزلا وافتتاناً .. نعم .! اذا تخيلت ذلك ، فاعلم أن القوم هنـا في حشر .. غير أنهم لا يدعون الله ، بل يطلبون لذات الحيـاة الدنيا ، بالانطلاق من قيود المجتمع ، ويسيرون على مبدأ ساعة لربك ، وأخرى لقلبك ، والدنيا زوال .!

على ذلك البلاج الذي يتيه الصهيونية بانشائه ، وتعده مفخرة من مفاخرها.. على تلك الرمال الذهبية الناعمة ، التي كانت بالامس القريب صخوراً جرداء قاحلة ؛ وتحت سماء صافية ، كعيون العذارى ، وأمام البحر الذي لا يستقر له قرار ،امتدت مئات الكراسي الطويلة ، واضطجع عليها السابحات والسابحون ، كباراً وصغاراً ، إناثاً وذكوراً ، يتأملون الافق البعيد ،والموج يصارع البشر ، أو يقرؤون الصحف ، أو يستسلمون الى الغزل السافر المكشوف . . حيث لا يسألك عابر سبيل ، ما أنت

بحواء من الفاعلين .؟ فلقد ترى كرسيين متلاصقين ، جاس عليها محبان غارقان في نجوى الهوى ، فاذا الشفاه تتقارب،والخد و الخد يتجاذب ، والأيدي تتشابك ،والآهات تتصاعد .. ويغرق العاشقان ، في جحيم من القبل . . وجارهما بجانبها ، لا يعيرهما التفاتة ، ولا ينغص عليهما الخلوة ، ولا يعلق بهما ، أو يقول : إحم ، أو (إخص) على شرفك .. ولقد يتدحرجان على الرمل، تحت الكرسيين ، فتدنو ساق من ساق، وصدور من نهود ، وتلتف الايدي،وتطارح كؤوس الهوى .. والبحر يفور ويثور، وبين طياته وثناياه يطفر القوم في خليط من إناث وذكور .. يقفزون لاهين لاعبين لا يودعون موجة إلا ليستقبلوا أخرى ..

سامح الله تلك الايام ، فقد أنستنا سابحات (آل أبديـ) مهمتنا الى حين.!أولئك السابحات اللواتي كم أردين أرواحاً،و (دهورن) قلوباً ، وهن يخطرن (بمايوهاتهن) الملتصقة بجسومهن البضة ، تلك التي تترجم عن كل تقاطيع الجسد المغري الفاتن ، وتثير أحاسيس أشد الناس تعلقاً بأهداب الفضيلة ، وذيول الدين .!

وتدحرج صاحبنا على الرمال ، يطلب موئلا يعصمه من موج الفتنة الطاغي ، وراح يتلو ما تيسر من أوراد ورقى وتعاويذ ، لئلا تقع في غرامياته فتاة منكودة الحظ ساذجة ، أو (تتشربك) بحبائله زوجة مخلصة، فينسف عشها العائلي وحياتها الهادئة ؛ لا .. لا .. لن يرضى أن يكون سبباً للخراب والدمار ، فوجدانه في هذه الامور تقي طاهر،فهو يتظاهر بنفوره من الهيفاوات والشقروات،ولو كانت الواحدة منهن بتقول للقمر : غيب ...

مغامرة ... ولحوم طرية ...

واقد أبصر صاحبنا إحدى السابحات ، ووصفها بعد أن حشا فمه بقسم غموس قائلا : إنها أنثى ، بنت حواء ، إنها أنثى وكفى .. وكانت تتلوى بجانب (فحل) على رملة حمراء ، وكأنها إحدى عرائس البحر ؛ والعيون والقلوب ترافق حركاتها ، وتعابير وجهها ،أما جسمها البرونزي ،فكان كتمثال مقدود بيد (ميكيل آنج) أو أحد نحاتي الاغريق ..

وكان صاحبنا يسمع غنجها وفحيحها وتهالكها على عشيقها المفتون . ولولا العيب والحياء ، إن كان عندهما بقية منهما ، لفعلا الفحشاء أمام سمع الناس وبصرهم أجمعين.. والعياذ بالله . .

وحاول أن يبصق كما يفعل ذلك غالباً ، علامة على اشمئزازه واستيائه ، لانتهاك الحرمات والفضائل ، ولكن ريقه كان ناضباً ، فلم يستطع ؛ ودل ذلك على غضبه المنعكس عن شهوات مكبوتة ، كالكثيرين من أدعياء الاخلاق وأنصار الفضيلة .!

ثم انفرجت أسارير وجهه ، وجحظت عيناه .! فماذا جرى .؟

في هذا البلد الغريب ، وبعد طول غياب ، أبصر كاعباً عرفها طالبة من تلميذاته ، عرفها في دمشق بقوامها العادل ، وغصنها المياس ، وخصرها اللدن ، ومحياها الاسيوي العريق النبيل ، لقد رآها بأم عينه ، عليها ورقة تين من طراز حديث تستر بها عورتها ، وقد رفعت ثدييها بحمالة ، فانتصبا وأي انتصاب .! رآها تخطر على الرمال ، وقد بدت كل مفاتنها وإغرائها ، فتذكر أياماً مضت ، حينما كانت في حجرة الدرس ، تستر كل ملمتر من اللحم المحرم .. واذا ما سهت — وقلما تسهو — عن إخفاء المنطقة المحظورة ، فانها سرعان ما تدين ذلك ، أو تكاد ، فتخف إلى إسدال الثوب ، وشد (المريول) .. وكثيراً ما كان يردد آنئذ في سويداء فؤاده : لا تغطي عني هذا اللحم الهضيب ، ولا تتكلفي مؤونة الستر ، فإن ساقاً تخفينها اليوم ، لسوف يراها المئات في الغد ، فلم يعرف عن بني جلدتك من آل صهيون منذ أقدم العصور سوى العبث والنزوات ..!

وها هي ذي تحقق نبوءته على شاطئ البحر ، فأين هي الآن من إخفاء ما انكشف وستر ما انفضح .؟ أبداً لن تعود أيام الدراسة ، فجسمها الآن أمامه كالآف غيره ، أزهى من حلم ، وأطيب من أمل . .

ولقد شاهدته الهيفاء ، فارتبكت قليلا ، بحكم العادة ، وأخفت (روج) شفتيها ، كما تخفي الفتاة أول خطاب غرامي تلقته من ابن الجيران . ! وعلت حمرة الخجل ، ورد خديها ، ولكنه ما لبث أن أنقذ الموقف بسلام حار ، ونكتة عابرة ،

وسؤال عن الصحة والعمل، مما أزال موقف التلميذة الرزينة، أمام الاستاذ الفاضل.. وعادت اليها مفاتن أنوثتها وإغرائها، وتألقت سيفاها ببريق الحيوية، وها هو ذا يدعوها الى غطسة في مياه البحر، خشية الوقوف تحت أشعة الشمس المحرقة..

أغنام للطري..

سارت الحسناء بجانب صاحبنا، فكدت أصيح: ضجوا فالحوت يبتلع القمر.. سارت وكأنها (غنمة) بين يدي ذئب كاسر؛ وكنت أتأمل ذلك المحترم، التقي النقي، وأكاد أتميز غيظاً بعد أن أهملني على (البلاج)، وحيداً؛ وكنت ممن لا يقبلون الهزيمة بسرعة، فأسرعت أحشر نفسي بينهما حشراً، حتى لفنا البحر بأمواجه وأثباجه.

وكانت ساعة، يستطيع فيها صاحبنا أن يتيه على أقرانه، ويزعم بحماسة أنه سبح مع غادة، وغطس بجانب مفتان. أو لسنا في بلد تطبق فيه آخر الاختراعات والاكتشافات.. ومن بديهياتهم الرياضية المشهورة، ولعلها تعزى الى عالمهم المشهور (آنشتين): واحد زائد واحد يساويان صفراً، أما واحد وواحدة فيساويان واحداً، وأكثر من واحد أحياناً..!

وودع صاحبنا غادته، وشكر لها طيب سعيها وكرم وفائها، لتلتحق بأبيها وأخيها وذويها الدمشقيين، الذين نسوا الشام والأوطان في سبيل صهيون..!

لقد كان الازدحام على هذا الشاطئ لا يعبر عنه (الكذب) البليغ ؛ فأنى نظرت رأيت أجساماً بشرية ، وأينما التفت تحسس لحوماً وشحوماً ، فالسيقان تنط، والريق يشط ، واللحم يرط ، والرؤوس تغط ، والاسعار هنا متهاودة ؛ والبيع بالجملة والمفرق ، مع تنزيلات هائلة لأفراد الجيش الحليف، وطلاب المدارس، والعمال ممن يحملون البطاقات الشخصية ، أصلية كانت أو مزورة ..

وراح صاحبنا يبحث عن صيد جديد ، فأبصر سرب ظباء يلعبن الكرة على الرمال ؛ ولا يقذفنها مرة ، إلا لترتج نهود ، وتهتز سوق، وتعصف بقلبه العواصف. فأي مرح هذا ، وأي انطلاق .؟ أبداً لن ترى هناك ميئوساً مقطب الجبين ،أو حزيناً مزور الحاجبين ، فالأسارير ضاحكة مستبشرة ، والقهقهات تعلو على موج البحر، وكل في تسلياتهم يسبحون . !

ولا تحسبن الشاطئ كله زاخراً بالحسان الغيد ، والرعبوبات الأماليد ، وأن كل ما فيه جمال وصبا .. لا .. لا .! فلوجه الأمانة العلمية ، وإبراء للذمة نقول : إن هناك العجائز ذوات اللحوم المترهلة، والمايوهات المسخسخة البائخة ، والوجوه المجعدة التي تذكرك بجبال الحبشة ، والشعور المصبوغة المفضوحة . تلك الوجوه التي ليس فيها سحر حلال أو حرام .. ولكنا لن نتحدث عنهن كرماً وحفاظاً ، ولن نسمي اليهن ؛ أوليس الطيبات للطيبين .. والمكربات لله ..؟

ولفت نظره بنت عشر وثلاث ، كما قال الطيب الذكر (بشار) ، تخطر بجمالها، وتدل بعدوراتها ، على لغة الصحافي التائه ، لاهداه الله ، وقد انتعلت حذاءً من (الفلين) عالي الكعبين، أحمر الجلد ، فاستطالت قامتها ، ونتأت أردافها ، وبرز برعما نهديها ، وشمخا ، وكانت تستر شعرها المسجدي بقبعة حمـــراء ، فاقع لونها تسر الناظرين . وكانت العيون ، التي شربت حتى ارتوت ، تكاد تبتلعها وتقيسها من تحت لفوق ومن فوق لـ... تحت ..! فبحلق فيها كما يقتضي المقام ، وحوقل، واستعاذ بالله، وقرأ آية الكرسي سبع مرات ، فقد خشي على ايمانه ، وكاد يفلت من عقاله ، بعد أن شاهد عرياً وإباحية يحمر لها وجوه البحارة أنفسهم . لقد رأى جمالا سافراً لا

أثر المكياج فيه ، وشاهد رمالا متوهجة ، وشباباً وثابا ، وحرارة كاسحة ونفوساً هائجة مرحة عاطلة في سبتها وعيدها وراحتها ، تنتهب اللذات باسم الرياضة والسباحة والفن ، دون أن تعلم بأن الانسان اذا اتصلت به هذه الاسباب ، وتملكته تلك الحرية ثارت بهيميته ، واستيقظت أحلامه وشهواته ، وعاد الى سـيرة الابتدائي الاول ، ومرتبته الحيوانية .. ولولا أني أغرقت صاحبنا بسيل من الاحتجاجات والمهاجمات ، خوفاً على منطقة ايمانه البكر ، العامرة بالدين القويم ، لما قام عن الرمال ، ولما ترك ذلك الشاطىء الطويل العريض ، الغني بضروب الحسن والجمال ، حتى يدركه الليل . فلقد علم أن البلاج مفتوح ليلا ، وهو ملاذ آمن للعشاق ، ولأصحاب الخلوات ، يشن فيها المتحاربان المتشابكان هجوماتهما ، على الواقف ، بدون اللجوء الى الخنادق ، أو مراكز الاستحكامات . فكم شهدت تلك الرمال تحت نجوم الليل ، وأثناء غيابها ، من ليال حمراء ، وتنهدات وزفرات ، وقبل وعناق ؛ كم شهدت من صبوات ونزوات والبحر تهدر أمواجه ، والقمر يرسل أضواءه ، والمارة في الشارع المجاور ، يسيرون لاهين ولا يعبؤون ؛ يتركون العشاق والفساق يجتمعون ويركعون ويسجدون ، ويقطفون زهرات الحياة ، قبل أن يذوي الشباب ، فيحل النـدم ، ولات ساعة مندم ...

فيا قارئي العزيز :

إذا سمعت أن شابات وشباناً من اليهود ، ذهبوا الى فلسطين ولم يعودوا ، واذا اتصل بك أن هنالك من العرب من يسافر عشرين مرة في السنة الى فلسطين ، باسم العلم والسياحة ، أو الكسب والتجارة ، واذا علمت أن هنالك من يقضي أيامه على أحر من الجمر ، بانتظار رؤية فلسطين ؛ فاذكر أن في بلاج (تل أبيب) سحراً يجذب النفوس ، وجمالا يأسر القلوب ، ومتعاً هيهات أن تنضب ، وفتيات صهيونيات من كل جنس ونوع ، يبدين من الاغراء فنوناً ، ومن الاباحية السافرة ضروباً ؛ مبدؤهن الغاية تبرر الواسطة ، آلين على أنفسهن جمع المال من أي سبيل ، ولو كان ببيع اللذات على البلاجات ، وفوق الرمال ، وفي هدأة الليل البهيم .!

في شوارع تل أبيب .

خرجنا من البحر ثملين بنشوة الجمال ، وقصدنا شوارع المدينة ، ثم أعيناً ظمأى الى الحسن والحضارة ، أعيناً يقظة الى اصطياد كل طريف جديد ، يزيد في المعلومات ، ويوسع أفق الاطلاع ، ويكشف آفاقاً جديدة من الحياة الصهيونية .

خرجنا الى شارع القصور ، ولك أن تسميه بشارع الجنان والحور العين ، شارع الحدائق الغناء والازاهير والرواء . .

والقوم منتشرون في كل جانب . فهذا مساء السبت ، وغداً اسبوع العمل ، وما راحة تمنحها لجسدنا وعقلنا بالوقت الضائع المفقود . .

وسيذكر صاحبنا ما عاش ، رئيساً قديماً له ، يحسب أن قيمة الموظف ، ومقياس نشاطه ، وتفانيه في الخدمة ، ومعيار كفاءته ، هو بعدم استعماله إجازاته . واذا كانت القوانين تمنح الموظفين إجازة شهر ، فهي لم تمنحهم ذلك إلا اذا أصابهم مرض ، أو فقدوا عزيزاً ، أو نزلت بهم المصائب . أما الاجازة لقضائها في المصائف ، وعلى شواطىء البحر ، فهي تدبير لا يليق بكرامة الموظف النزيه الحريص على المصلحة العامة ؛ وسيذكر صاحبنا ، والأسى يحز فؤاده ، أن هرئيسه هذا ، لا رد الله غربته ، قضى أربعين سنة في خدمة الحكومة ، ولم يستعمل أثناءها إجازاته ؛ اللهم عفوك ، إلا مرة واحدة ، لمدة سبعة أيام ، وذلك حين زواجه الميمون ، أي حين بلغ الخامسة والخمسين وأصحاب العقول بألف خير . .

ولو أن هذا الرئيس آلة جامدة ، لاستراح في غضون أربعين سنة ، ولكنه العمل ، والوظيفة ، والسلطان ، بل العقل الانكشاري الهمايوني الحميدي ، الذي ابتليت به هذه البلاد ، والذي لم تجن منه سوى انعدام الثقة بين رئيس ومرؤوس ، ولم تحصد منه سوى الضغائن والاحقاد والفرار من المسؤولية ؛ تلك النتائج التي كان لها أسوأ العواقب في جهاز حكومة تسعى جاهدة لتتبوأ مركزاً ممتازاً تحت الشمس . .

كان القوم في عيد . . وهم يحسنون استعمال ساعات الراحة ؛ يذهبون الى الأرياف ، والى الملاعب والمسابح ، والملاهي ، ودور السينما ، يستعيدون نشاطهم ،

ويتهيؤون لأسبوعهم المقبل ، وفي ذلك تجديد للقوى ، واستقبال لآتيات الايام ، بالأمل ، والسرور ، والمرح ، والتفاؤل الشديد ..

وكان صائدو الصور يجولون بآلاتهم هنا وهناك ، في حركة ونشاط ؛ مما دعانا الى تسجيل هذه الرحلة في صورة حية . تتجلى فيها أشكال العجول الحنيذة على مصاطب المرعى ، كما كان يقول شيخنا المرحوم (المبارك) .. ولقد وقفت على على مرتفع في حديقة ، وبجانبي صاحبنا بقامته المديدة الضخمة ، يسبح رأسه في قبعة عريضة واسعة من الفلين .. ووقف المصور بوضع مسرحي يغلق عيناً ويفتح أخرى ، ويثني رجلا ويميل رأساً ، ثم أشار الينا بالتريث والهدوء ، وبابتسامة صغيرة ؛ وما هي إلا لمحة الطرف حتى سلمنا بطاقة كتب عليها بالعبرية والانكليزية ما لم نفهمه ، فشده صاحبنا ، وحسب (الراجل) يسخر منا ، وكاد يضع يده على جنبه ، يفتش عن خنجر يطمن به من ألحان الشرف الرفيع ، لولا أن فهم المصور النبيه المراد ، وأنقذ الموقف بلباقة ، وبدله من مشهد درامي الى موقف مضحك ، باعلامنا أن البطاقة هي عنوانه لا صورتنا الكريمة ، وما علينا سوى الحضور غداة الغد لنستلمها ، بعد دفع الاجرة حالا . فهز صاحبنا رأسه علامة استحسان ، بينما كانت عيناه تبحلقان في فتاة يعرفها ، تمنى لو رآها قبل دقائق ، لتبعث في النفوس الحرارة ، وتجمع الشمل ، وتكون نعم الكاتخ ، بين الشاطر والمشطور .!

لم نر في حياتنا زحاماً منتظماً كالذي شاهدناه في تلك الليـــلة . واذا علمت أن الرصيف في شارع (ألانبي) ، وهو الشارع الرئيسي في تل أبيب ، اذا علمت أن الرصيف ، بعرض شارع من شوارعنا الضخمة التي نعتز بها ، وشاهدت تلك الامواج البشرية المتراصة المتتابعة ، أدركت أي زحام شاهدناه في المدينة التي لا تنام .! أجل ، كان زحاماً منتظماً من اليمين ومن اليسار ، فلا سيارة تدهس ، ولا رجل (بزعوط) ولا سائر يدفعك دون أن يعتذر ، ولا مجنون عار يركض في الطرقات ، ولا شجار ولا خصام ، ولا بصاق هنا وهناك ، ولا مغازلات بريئة أو جانية ؛ وإنما هي طرق نظيفة ، يشتهي المرء أن يجلس فيها ، مع بعض أفراد العائلة المؤلفة من عاتكة

وأم حسين وأم سحلول وأولادها ، كما يجلسن في الصيف على أرصفة شارع بغداد ، وعلى جوانب السبع بحرات ، ليتمتعن بعشاء شهي من (المجدرة) و (طواحين الخلل) يقضمونها بأسنان حادة ، لا عمل لها سوى القضم والمضغ ، ولا شيء سوى ذلك .

وكانت سائر المحلات مغلقة ، إلا من باعة المرطبات والحلويات . فترى أمامها صفوفاً لا تنتهي من الزبائن ، كل ينتظر دوره ؛ ولو كان للباعة آلاف السواعد ، لعجزوا عن تلبية مطالب الراغبين في الشراء ؛ فما على العاملين إلا تقديم البضاعة دون توقف ، وما على الباعة سوى قبض النقود . ولعل القوم هنالك يجنون الأرباح ، ولكنهم يعرفون كيف يصرفون . وفي ذلك لذة هيهات أن يدركها من يعيش في فقر خوفاً من الفقر .!

ولن تجد في الشوارع ماء تلجأ اليه اذا أصابك الظمأ ، فصنابير الفيجة مفقودة ، لكن ماء الصودا المثلج مبذول ، فادفع واشرب ، وحيّا الله دمشق وماءها . !

وأمام هاتيك المخازن المغلقة ، ترى الألواح البلورية الهائلة ، المستوية حيناً ، والمعقوفة أحياناً ، وراء الشباك الحديدية ، وقد نضدت في واجهاتها البضائع المختلفة ، من قبل اختصاصي فنان ، يتجاوز أجره راتب موظف ضخم في دوائرنا . والكهرباء تشع منها ، فتزيدها بهاء وجمالا . وهل من عين آثمة تروم سرقة أو أذى .؟ لم نشعر بذلك قط ، ولم يحدث .؟ وهل يخرب الانسان بيته بيديه .؟

وانظر الى تلك الاعلانات الموضوعة داخل إطارات زجاجية في الجدران ، وقد قال صاحبنا حين رآها : تالله لو أن هذه الاعلانات موضوعة في مدينتنا ، لما رأت النور يوماً وليلة ، ولحطمها أول طفل يشاهدها ، إن لم تكن أول مظاهرة تمر بها . وهل ينسى صاحبنا كم من ألواح زجاجية حطمت في الاضرابات ، وكم من (يافطات) غدت أثراً بعد عين ، بفعل فتية لا في العير ، ولا في النفير ، دأبهم إلقاء الفوضى والتخريب ، دون رادع أو زاجر .!

وكانت أمام صالات السينما صفوف لا تنتهي ، أو (ذيول) كما يسمونها ، خليطة من ذكور وإناث ؛ وكبار وصغار ، لا يحرمون أنفسهم متعة السينما ، ولو مرة في

الاسبوع ... والمطاعم والمقاهي ، الغارقة في فيض من الانوار ، تستقبل زبائنها من أصناف الناس (الأوادم) الآتين في أبهى زينة ولباس ،وهدوء عميق ؛ يجلسون ليستمتعوا بالطمأنينة والدعة ، دون أن تسمع أصوات الندل (تلعلع) واحد بريمو، ثنين شاي ، ثلاثة كسما ، ولا أصوات اللاعبين ، شيش بيش ، طرق طراق ... ذكور وإناث حول موائد ،خوانها ذولون منعش ،وأحاديثهم خافتة ، تمتزج بابتسامات تنم عن سرور نفسي ، واتزان واعتدال ؛ هذا يقرأ ، وذاك يتأمل صامتاً ساكناً، وهنا وهناك يتحلق القوم ،ويتحدثون في حدود الادب ، فلا تسمع إلا همساً ،ولعل الفضل الأكبر في ذلك يعود الى بروز المرأة في مجتمعاتهم ، فتهذب أذواقهم وتصقل نفوسهم .!

والمقاهي تكتظ بالخادمات ؛ والحوانيت تزخر بالبائعات الناعمات .. فكل امرأة عندهم تعمل ، وكل فتاة تشتغل ، حتى كادوا يسرفون في ادعائهم بأنهم أصبحوا أكثر من العرب عدداً ، لأن نساءهم يعملن ، ونساء العرب لا يكلفن بغير تدبير المنزل ، والاكل والثرثرة .!

فهناك تعمل الفتيات الاملودات في الملاهي والمطاعم والحوانيت ، نهمات الى كل شيء إلا الثرثرة في غير حينها ، يتكلمن أكثر من لغة ،إلا العربية ؛ وإن من يعرف العبرية في هاتيك الربوع ، ومن يتقن عادات القوم وتقاليد فعالهم ، يفز بكل ما يتمنى من عمل ، وربح ، وعلاقات وصلات ، ولحوم ساخنة ، وأجسام دسمة ، ووجوه نيرة لذيذة ...

ومما يلفت النظر يوم السبت ، وخلال الاعياد ، خـــلو الشوارع من باصات اليهود ، فهي لا تعمل ، لان سائقيها بشر ، وبحاجة الى الراحة كغيرهم تماماً؛ فليس من العدل أن يعملوا دون استراحة ، ولو كان في عملهم جني الأرباح الطائلة لشركة (إيجد) ، وهم خير من يعرف الاستغلال والاستثمار . فهل سمع عمالنا وتجارنا ورؤساؤ ذلك .؟ إني أتمنى مخلصاً لو أن رئيس صاحبنا الذي قضى أربعين عاماً في عمل متواصل ، دون إجازة ، أن يحضر الى تل أبيب ، ليشاهد كيف تعيش

مخلوقات الله ، وكيف تقدر الكرامة الانسانية ، وكيف يتضاعف الانتاج اذا نال الفكر والجسم حظهما من الراحة ...

هيا نتسكع في شوارع تل أبيب .

لا تكاد الساعة تدق الثامنة ، حتى ترى الحوانيت والمخازن والمحلات التجارية ، ودور الصناعة تفتح أبوابها . وينتشر القوم في كل مكان يطلبون الرزق ، ويبتغون العمل ، فتدب الحركة في مدينة الربيع ، وتفيض بالنشاط والحرارة ..

ومما يلفت النظر ، هو اندفاع الاهلين الى الشراء والبذل . فلا تعجب اذا رأيت حوانيت الحذائين مثلا ، وأصحابها لا يهدؤون ساعة ، يلبون طلبات الزبائن التي لا تنقطع . فالقوم يتقنون جني المال ، ويحسنون صرفه .. وتلك لذة لا يعرفها إلا المجربون ...

والآن ، تعال ندخل حانوتاً من هذه الحوانيت الضخمة التي تحتوي آلاف الاصناف ...

ودخل مخزناً تلألأت على أبوابه الانوار ، ونسقت فيه البضائع تنسيقاً بديعاً ، وظهرت آثار النظافة والترتيب في كل زاوية من زواياه .

وانحنت غيداء أمام الزبونين الكريمين قائلة : (بيفا كاشاه) أي تفضل بلغة اسرائيل ؛ وهز صاحبنا رأسه بالسلام ، وشرعت تخاطبه بلغة عبرية فيها سحر هاروت وماروت ، فعلقت عيناه بشفتيها الحمراوين ، عساه يجد تفسيراً لكلماتها . ولما ألقى سلاح العجز ، رجاها أن تتكلم بالفرنسية التي يفهمها ؛ فاندفعت تتحدث بلهجة باريسية ، تلثغ بالراء ، وراحت تعرض بضائعها .

فطلب صاحبنا صابون (كوزموتيك) ؛ فدهشت للاسم ، وهل هو مواد متفجرة ، أم قنابل من نوع جديد ؟ ولكنه طمأنها الى أنه ينفع في رفع الشاربين ، فتغدوان كذنبي هر ، أو (غيدون) دراجة ، فاعتذرت لعدم وجود هذا الصنف . فسألها عن حاملة نهود ، فارتسم على وجهها ألف إشارة استفهام ، فما حاجتنا الى هذه

البضاعة المزجاة ؟ ولكنها صهيونية بائعة تعرف جلب وجذب الزبائن ، ولو كانوا في أقصى المريخ . . .

فاستفهمت عن قياسها ؛ ونظر صاحبنا اليها دون شعور ، وصوب باصرتيه نحو مكان ما في صدرها ، ثم استراح ، وعلى شفتيه ابتسامة مكبوتة ، فسألته عما به ؟ فهمس : وفي النفس حاجات..! ثم قال : أظن أن قياسها .. يناسبك .. ضعي من فضلك واحدة على صدرك ، لأرى لونها وشكلها وحجمها .. فاحمر وجهها ، وسألت صاحبنا بعد أن بت الطلب : والآن خبرني : أمتزوج أنت أم عزب ؟ فقال : إني لم أعثر على نصفي الآخر ، ولم أتمم ديني بعد ، أما رفيقي هذا ، فهو متزوج ، وله أولاد ، فانهالت بسيل من الايضاحات ، لِمَ لم يتزوج ؟ فأكد لها أنه ينتظر عودة الحياة التجارية ، وتسهيل المواصلات ، وينتظر عروس أحلامه البولونية .. فقالت بعد أن تأكد لها أنه يهودي صميم : إبقَ هنا ، ولا تغادر فلسطين ؛ إن أرض الميعاد بحاجة الى أبنائها ، فدعاها لزيارة دمشق فقالت : لن أستطيع .. فلا يجوز لنا ترك وطننا لنذهب الى بلاد (الغوييم) الكفار ، الى سوريا مثلا ، لنصرف أموالنا . فليأت الينا الأجانب ، وليصرفوا أموالهم ، لنجمعها في بناء الوطن . إن الوكالة تحظر علينا مغادرة فلسطين للسياحة ، لتبقى الاموال هنا ، فتتكاثر ، وتنمو المشاريع ، ويزدهر الوطن . فأمن دون مناقشة ، على كل كلمة من كلماتها ، وأكد لها أنه في دمشق . لا يشتري حاجة واحدة إلا من أبناء ملته ، وأنه داعية صهيونية ؛ فأكبرت فيه هذا النبل وهذا الاندفاع ..

وسألته ، كما سأله كثير غيرها ، لِمَ لا يتقن العبرية ، بينما يتكلم الفرنسية كأحد أبناء السين . فأنبأها أنهم لا يهتمون في دمشق كثيراً في تعليم العبرية ، بل يقنعون بسور الصلاة ، ويهتمون بالفرنسية ، لغة المدرسة والشارع والبيت . . .

وهكذا ما دخل حانوتاً إلا ووجد من يحسن الفرنسية ، كما يحسن كل لغة من لغات العالم ، وما دخل حانوتاً إلاوقاده الحديث الى البقاء في فلسطين ، وعدم العودة ، ليجد الخطيبة المرتجاة . ولعله لم يختم حديثاً إلا بدعوة البائعة الظريفة الى قضاء سهرة ،

تذهب الحزن عن هذين العبدين الفقيرين اللذين خدعت بهما كثيرات من بنات صهيون ...

واندفاع البائعات في إرضاء الزبائن مما يضرب به الأمثال . واذا كنت في شك من أن اليهود أمة تحسن حساب الدوانق ، والالمام بالمشاريع المالية والتجارية ، فشرف تل أبيب ، وسترى عجباً ...

فلن تقف البائعة مكتوفة اليدين ، غير مبالية ، ما دامت ستتقاضى أجرها آخر النهار . لا .! بل تراها في حركة دائمة ، مندفعة في اخلاص وشهامة يحسدها عليها كثير من موظفينا الخاملين ... تنثر أمامك البضائع دون تعب أو كلل ، وتدافع عنها دفاع محام يعتقد بأحقية قضيته ، وتستدعي كل زميلة لها لتتفاهم وإياك باللغة التي تختارها ، وتقدم اليك كل التسهيلات ، مع ظرف فيه إغراء وفتون ..وفي سبيل الارباح ، يهون كل شيء ..

والقوم هنالك يحترمون قوانين الحكومة ..

ووزارة الاعاشة ، إن كان ثمة وزارة ، محترمة الجانب . فالتسعيرة الاجبارية مطبقة على العين والرأس . والويل للمتلاعبين، ولمخالفي أوامر الحكومة .فلاهوادة، ولا وساطة (أبوفلان) أو التاجر العلاني من الشركة الثلاثية أو السباعية ...

وفي كل المخازن ، في جميع المدن والقرى ، من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب، ترى البضائع تعلوها بطاقات جميلة ، كتب عليها السعر الموحد (أوتيليتي) وهكذا استراح البائع ، والمستهلك،ولم ترتفع أسعار الحاجيات ، في سوق سوداء أو ظلماء ..

وتذكر صاحبنا وزارةالاعاشة في سوريا،وكيف كانت وزارة إماتة،وتشليح، ونهب ومورد عذب ، لتنمية خزينة الدولة ، حتى غدت سوريا ثاني بلاد العالم بعد طهران ، في الغلاء .. وضجت من ذلك الارض والسماء ...

ودخل مخزناً ، وابتاع حوائج كثيرة،ثم طلب زوجين من الجوارب ،فاعتذرت البائعة ، لان قوانين الدولة لا تسمح للمستهلك إلا بجورب واحد . ولما أعلمها أن الحكومة لا تراها الآن ،وأنه اشترى أشياء كثيرة ؛ رفضت الطلب ثانية ؛لكنه

وجد للمسألة حلا ، بأن يجعل زوجاً له وآخر لصديقه ، فاحتملت الـأل على مضض، لأنها شعرت بالاحتيال على القانون .

وسأل صاحبنا أحد الباعة عن بلده ، وعن سبب هجرته ، فأجاب : ألمانيا .. ثم أشار الى عنقه ، علامة حبل المشنقة ، أو سكين الجلاد . ثم قال : هتلر .. فما كاد يلفظ الكلمة حتى صرخ صاحبنا بملء شدقيه : (بوز) أي فليسقط بلغة العبران. فسر البائع لهذه المجاملة الطيبة ، وأرسل لاسم هتلر فيضاً من اللعنات ، وتنزيلا خاصاً في الاسعار ..!

ووقف يستمع الى نغمات هاو من هواة الموسيقى ، وقد علق (نوطته) على مشجب أمامه وراح يعزف بكمانه . فحيا فيه تلك الروح الفنية ، التي أبت إلا أن تجلى في الشوارع وعلى أرصفة الطريق ، لتطرب الناس أجمعين ..

وقطع تأمله فتاة تدنو وتضع أمام الموسيقار قطعة نقدية ؛ فعلم عندئذ أن هذا العازف ليس سوى شحاذ ، يستجدي الأكف عن طريق فنه ، فذكر صاحبنا شحاذي الشام المشوهين أو المجانين ، ممن يملؤون الطرقات ويصرخون بأصواتهم المزعجة ، ويشوهون جمال المدينة ، والحكومة عنهم لاهية . وأيقن أن هذا الشحاذ قد ارتفع بالمهنة الى أسمى مراتب الكمال ؛ فندب حظ شحاذي دمشق ، الذين لم يصلوا الى هذه الدرجة من رقي المهنة .. فتخيل لو أن شحاذينا اقتبسوا طريقة هذا الشحاذ ، وشرعوا يطبقون آخر ما وصل اليه الاختراع والاكتشاف في جذب أكف المحسنين. فهذه تدق (الدربكة) وذاك (الناي) وتلك (القانون) الى آخر ما يشتهون ؛ أثما يطالبهم للنارة آنئذ أن يعودوا الى ألحانهم القديمة لينجوا من فنهم البليد..؟

واجتاز صاحبنا شوارع تل أبيب ، في رأد الضحى ، وفي الأصيل ، وفي المساء ، وزار معالمها ، ومباهجها ، فلمس لمس اليد كيف تنشأ مدينة في خمس وعشرين سنة ، تضاهي أعظم العواصم ، وتباهي أكبر المدن ، بنظامها ونظافتها ونشاطها ، واهتمام المسؤولين بها ، حتى أصبحت جديرة بلقب عاصمة الصهيونيين ...

في طريق القدس

هيا إلى البلد المقدس ، الى أورشليم ، مدينة السلام ، المدينة التي أجمع على تقديسها أهل ديانات الارض الكبرى الثلاث ؛ ففيها معبد سليمان ، ورمز أمجاد اليهود ، وفيها قبر السيد المسيح ، مخلص وفادي اخواننا المسيحيين ، وفيها المسجد الأقصى ، الذي أسرى اليه سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم .!

هذه هي القدس التي طالما بذلت في سبيلها دماء ، منذ بختنصر ، الى طيطس ، الى الفرسان الصليبيين ، الى صلاح الدين وحطين ، الى الأمني والعرب الميامين ، الى الطغمة الباغية من الصهيونيين ..

تحت كل حجر من أحجارها ذكرى ، وفي كل بقعة من بقاعها جاس الانبياء والرسل والمصطفون ..

فيا بيت المقدس ، يا أورشليم ، أنت التي تغنت بك التوراة ، وشدا بذكرك الانجيل ، وذكرك القرآن ، وجعلك مباركة ، على مر الدهر والسنين ..

أجل .. لم نكد نهبط فلسطين ، ونسمع بذكر الاردن وطبريا ، والناصرة والخليل ، وبيت لحم وأورشليم ، حتى عاودتنا ذكريات خالدات ، ذكريات رجالات التاريخ ، رجالات الاديان الذين فتحوا عيون المشرقين على نور الايمان ، فوهبوا الديانات السماوية الخالدة الى الغرب الذي هوى الى أودية الضلالات السخيفة ، عندما تنكر للتعاليم وتنكب عنها ، وكان من الضالين ..

واليوم نمضي ، بل نرتفع ، بل نتشرف بترابك يا بيت المقدس ، يامن لك في قلب كل يهودي ونصراني ومسلم المكان المرموق ، نتشرف بك ، وتخامرنا فكرة واحدة طغت وهيمنت على مشاعرنا وهي : كيف يجرؤ باغ أن يطأ أرضك ، وكيف يقوى فاسق على دوس ثراك ، وكيف يمكن أن ترتكب الفاحشة في ربوعك ، وأنت أنت ، أم الديانات ، ومعلمة القبائل والشعوب..؟

إليك تشد الرحال ، ويحج الحجيج ، أنت يامن يتمنى ملايين البشر أن يكحلوا عيونهم برؤيتك ،ويحظوا بذراع من ثراك ، ليواريهم في رحابك آمنين ..

ولئن بدلت بعد أمنك خوفاً ، وبعدهدوئك اضطراباً ، فما هي إلا سحابةصيف سوف تنقشع ، وكل أجل الى كتاب ، والله مع الصابرين ..

***

كانت جموع غفيرة من المسافرين ، تنتظر ساعةالذهاب الى القدس ، من محطة (ايجد) الكبرى في مدينة الربيع ، وكان العسكريون يقدمون على المدنيين ، وما بقي من الركب فسواسية . ولو كنت واقفاً على نار الغضا ، لما سمحوا لك بالتقدم عن دور رفيقك ، وظلم في السوية عدل في الرعية . وسيذكر صاحبنا ديناً من عيون اليهود ، تقدم من كوة قطع التذاكر مخالفاً الاعراف والعادات ، دون انتظار دوره ، فرده بائع التذاكر رداً جميلا ، مما اضطره أن يقف في آخر الذيل ، ولا ماءك أبقيت ، ولا هنك أنقيت ..

حملتنا سيارة باص واسعة ، ذات رفوف للأمتعة ، وسيور جلدية يستند اليها الانسان في المنعطفات ، وقد جلس كل راكب في مقعد مريح ، لا يحتاج فيه الى أن يكون محصوراً ، مكبوساً مقوس الرجلين ..

ومما يلفت النظر ، عدم مشاهدة المفتشين في الباصات الصهيونية ،فهم يكتفون غالباً بتفتيشها قبل رحيلها ، أو يقنعون بذمة السائق وأمانته . واذا اتفق وصعد مفتش وطلب منك بطاقتك ، فانما يخاطبك بكل أدب واحترام ، الشيء الذي كنا نتمناه سارياً في الباصات العربيه .. وكذلك ، فان لباس السائقين ومفتشيهم متشابهة ورسمية ، بقبعة من الخاكي خاصة ، تحمل شارة (ايجد).. ولن ترى أسرع منهم في قبض الدراهم وخزنها في تلك الاسطوانات ذات الفمر النابض .. ولا يستغرب هذا الشيء من أهله ..

وجلس بجانبي جندي بادلني السلام والكلام ،وكان لي نعم الرفيق . فهو يهودي يوناني التحق بقوات الحلفاء ، وحارب في البلقان وشمال أفريقيا وايطاليا ،

وانتهى به المطاف في فلسطين ، حيث أهله وذووه ، فاختار هـذه الديار وطناً له . وهكذا تجري هجرة خفية جبارة قوامها الجنود والقواد ، يدخلون البلاد باسم الحق والقانون ، حتى اذا انتهت خدمتهم ظلوا فيها آمنين ، وكانوا خير دعامة لرجال الجيش الصهيوني المتيد ..

وبجانب صاحبنا ، مجندة من مجندات صهيون ، كانت له نعم الجليس الظريف ، الى البلد العتيق . وقد سألها عن المعارك التي خاضتها ، ففهمت منه الاشارة ؛ وهل معاركها سوى تلك الهجمات الليلية ، والانتقال من فراش الى فراش ، ومن ضمة الى ضمة ، لتنال أوسمتها ودرجاتها بجدارة واستحقاق .؟

وكانت السيارة تنهب الارض نهباً ، ونحن في أحلامنا لاهون ، وهي تصعد في جبال تشبه جبال لبنان ، وقد هب النسيم عليلا منعشاً ، كأننا بين عالية وبحمدون ، وعلى جانبي الطريق أشجار الفاكهة ، من العنب والتين والخوخ وسائر الأثمار ..

وأشرفنا على القدس ، فاذا هي جاثمة فوق مرتفعات جبلية ، حولها أودية شهيرة في التاريخ ، ويحيط بها جبال أسماؤها على كل لسان ..

قدس شريف ، أفندم .

لم يكد صاحبنا يهبط من سيارته ، حتى أسرع يبتاع أحدث مصور للقدس الشريف . وسرعان ما وقع على بغيته ، واذا به ينشره في عرض الطريق ، كسائح أمريكي وصل حـديثاً الى الشرق ، بسرواله القصير ، وقميصه المفتوح الصدر ، المشمر الكمين ، وقبعته الخالدة الفضفاضة ، التي سببت لنا ألف مشكلة وورطة . والتجأ الى أقرب بائع مثلجات ، ليفحص مصنوعات القوم . وهل تفوق مثيلاتها في دمشق ، مطعم العالم ، التي تفوق مداخن مطابخها مداخن معامل (كروب) و (ستيتن) مجتمعين . واطمأن قليلا الى نفسه ، ثم نشر خارطته أمامه . ولكنه اصطدم بأعظم عقبة ، ألا وهي جهله الجهات . نعم ، إن الخارطة لواضحة جـداً ، ولكن في أي زاوية هو منها ، وما هو اتجاهه ؟ وهرع الى شباب قربه يسألهم مستفهماً ،

فعجبوا منه ، ومن خارطته ، فلِمَ يحملها اذا كان يجهل استعمالها . على أن أحد أولاد الحلال ، الذين لا يخلو منهم مكان ، أرشده الى سؤله . وأنبأه أنه في شارع يافا ، أمام شارع ماميليا.. ولكن ما هي ماميليا هذه؟ أهي بنت أخت أميليا وفيكتوريا أم أنها من فصيلة اللوبيا والفاصوليا .؟ ووقف أمام سيدة ، حياها كما يقتضي المقام ، وسألها عن ماميلياه ، فأنبأته أنها مأمن الله . فشكرها ، وحوقل ، ورجع الى الله ..

واتجه نحو المدينة القديمة ، ليقف قليلا أمام أسوارها ، كما وقف وركع أمامها قبله الآلاف خاشعين ..

بين باب الخليل والمسجد الأقصى .

وقف بباب الخليل ، أحد أبواب المدينة الثمانية التي لا زال بعضها مقفلا منذ أجيال . وقف مطأطئ الرأس ، خاشعاً يتأمل نقوشه العليا وقد كتب عليها : « بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بانشاء هذه السور المبارك ، مولانا السلطان الملك الأعظم ، والخاقان الأكرم ، مالك الروم والعجم ، السلطان سليمان بن سليم خان ، خلد الله ملكه ، بتاريخ ٩٤٥ من الهجرة النبوية على صاحبها ألف تحية وسلام . » وفي الجدار الداخلي كتب : « لا إله إلا الله ، إبراهيم خليل الله » . ومن هنا جاءت تسمية الباب ، بباب الخليل . وكان خلف الباب والسور ، خندق سحيق ، كم سفحت على جنباته دماء ، وبترت أذرع ، وقطعت أعناق ، وكم تخضبت أرضه بنجيع العرب والفرنجة على السواء ..

وكان الممر الى المسجد الأقصى ضيقاً جداً ، وأرضه مرصوفة بالحجارة على طريقة الترصيف في العصر الخالية ، تهبط مئات الدرجات التي يقوم على جانبيها أسواق الخضر واللحوم والعطارة .

ولم نكد نهبط تلك الأزقة ، بزينا المعهود ، حتى أوقفنا شرطيان ، أحدهما فلسطيني والثاني انكليزي ؛ خاطبانا بالانكليزية ، وبرفع اليد ، بما معناه ممنوع المرور . وكأنهما حسبانا يهوديين ، وارهابيين والعياذ بالله ، نمضي الى المبكي لنندب عزاً زائلا

ومجداً سالفاً .. ولما أفهمناها بلسان عربي مبين ، وبتلاوة بعض الآيات الكريمة ، أنا عربيان مسلمان سوريان، سمحا لنا بالمرور، بعد أن أوسعانا نظراً وفحصاً وتدقيقاً .. ولقد تكررت هذه الحادثة عند كل مفترق ، وفي رأس كل زقاق ..

وكانت قبعة صاحبنا تخلق لنا ألف مأزق . فاذا رآنا السكان حسبونا أغراباً ؛ واذا أبصرنا المترجمون ، خالونا سياحاً ، فتهافتوا علينا ، ولا تخلص منهم إلا بتلاوة المعلقات العشر ، والآيات المنزلات؛ واذا رآنا الشرطيون حسبونا يهوداً ، فلاخلاص إلا بتعاملات قرطاسية مزعجة وطويلة ..

وأخيراً كان الحل الوحيد لذلك ، أن أودع صاحبنا قبعته ولو إلى حين ... وأخشى ما كان يخشاه ، أن يضيع معالم المستودع ، فيعود بقبعة حنين ..

وكانت الطريق على الجانبين غاصة بالفلاحات، يعرضن تينهن وعنبهن وثمارهن، وما زلنا في انحـــدار على الادراج العريضة حيناً والضيقة أحياناً ، بين الحوانيت المتواضعة المتنوعة ، في طريق باب السلسلة ، حيث يزدحم باعة الفخار ، والساعاتية والخياطون والبدالون ، وتطل على الجانبين شرفات قديمة من العهد الاسلامي ، ربما كانت لقصور الارستقراطيين النبلاء، والتجار الاغنياء ، فيها أحجار منقوشة جميلة، و (شعريات) تذكرنا بقصص ألف ليلة وليـلة ، حيث الغادات يسـتترن خلفهـا ، بخمرهن الحمراء والبنفسجية ، ومعاصمهن المملوءة بالدمالج والاساور ، فيبرزن مناديلهن أحياناً من وراء حجاب، لبعض العشاق المتيمين، كقمر الزمان وشركان .. حتى وصلنا المكتبة الخالدية ، وبجانبها ممر ضيق عتيق ، هو طريق المبكي .

المبكى

والمبكي حائط حجارته ضخمة، تتصل بسور الحرم من خارجه ، ويعتقد اليهود أنه جزء من هيكل سليمان . فيقفون عنده يبكون مجدهم الغابر ، ويندبون ملكهم المفقود .. وطول هذا الحائط نحو خمسين متراً ، وفي الصف الاسفل من أحجاره تسعة أحجار ضخمة بينها حجر في الشمال ، ربما قارب طوله خمسة أمتار ونصف المتر

وعرضه ثلاثة أمتار ونصف أيضاً . وفوق هذا الصف خمسة عشر صفاً حجارتها أصغر من غيرها ، وعلى هذه الاحجار كتابات بالفحم أو الحفر باللغة العبرانية ، أكثرها أسماء بعض الزوار ، وبين شقوقها أوراق وخرق تعبر عن استرحاماتهم الدينية للاله . وفي جانب الحائط شموع وقناديل وصندوق من الزنك ، له أبواب زجاجية ، تدخل منها الزيوت والشموع ، وتغمس فيها الفتائل لتشتعل القناديل ، وثمة طست ووعاء ماء ؛ ولا يجوز لليهود أن يجلبوا معهم للصلاة سوى ما ذكر ، وذلك حسب قرار لجنة البراق ؛ كما لا يجوز لهم وضع ستائر أو حواجز على الجدار أو الرصيف لفصل النساء عن الرجال ، أو لغاية أخرى .

وتوجد من جهة ساحة الحرم حجرة دخل بعضها في حائط المبكى ، يقال لها مربط البراق ، ليلة الاسراء ، كما تروي التقاليد الاسلامية ؛ لذا فقد سمي المبكي بالبراق أيضاً ..

ولعل الخشوع ساور صاحبنا عندما رأى المبكى .. خشوع من نوع شاذ يبعث على التفكير رغم أنه يدعو البعض الى الضحك .

فهنا عشرات من اليهود رجالا ونساء بين واقف وقاعد، وقد علا ضجيجهم وارتفعت أصواتهم بالبكاء ، وفيهم من يقرأ دعاء ، أو يتلو آية ، أو يندب بصوت عال ، حتى أن بعضهم من تنشج نشيج الثكالى من فرط البكاء ، وهي مولية وجهها نحو حجر من تلك الأحجار تكاد تبلله بدموعها .

فهل يبكي اليهود أسفاً على المجد الزائل ، والسلطان الآفل ، كما يزعمون ، أم أن الامر لا يعدو الحادث النفسي الخاص نحو مريض أو فقيد . . فاذا ما ذكره أحدهم ، أو صلى من أجله ، أو طلب له الشفاء ، تفجرت الدموع من مآقيه ، كما تفعل الثاكل اذا شهدت مأتماً ، فتذكر مصيبتها ، ولو مضت عليها السنون .؟

أم أن رجال الدين ، وطبقة الرعاع يقرنون الشعور بما هو محسوس كالبكاء ، مبالغة في تدينهم وإغراقاً في عبادتهم ، فيقلد الواحد الآخر ، بحكم قانون (ريبو) وتحصل المناحة الكبرى .؟

ولئن صح أنهم يبكون مجداً ضائعاً ، فان لليهود إذن شعائر جنسية لامثيل لها .. فاذا كان هؤلاء الباكون ، وجلهم من البسطاء الشعبيين ، لهم مثل هـذا الشعور السياسي أو الاجتماعي ، فكيف بالطبقة الراقية المتعلمة .؟

بعد مرور آلاف السنين على تهديم المعبد ، يقفون هنا ، نائحين باكين ، ينشدون الاناشيد ، ويندبون الهيكل وخرابه ، وما تهدم من جدرانه ، وما ضاع من عزه ، واحترق من جواهره ، وما أصاب كهانه من الذل ، وما نال الشعب من السبي والتشريد ، ويستنزلون الرحمة على صهيون ، ويتوسلون إلى الله أن ينجيهم مما هم فيه ، ويعيد اليهم ملكهم في أورشليم . .

وقفنا نتأمل الباكين ، وهياكل البوليس تمر أمامنا ، يحملون بنادقهم سريعة الطلقات ، ويستعدون لكل حادث مفاجىء ، فذكرنا اضطرابات ١٤ آب ١٩٢٨ ، يوم قام الصهيونيون في تل أبيب بمظاهرات صاخبة ، حملوا فيها أعلاماً موشحة بالسواد ، هاتفين : الحائط حائطنا ، وعار على الحكومة .. ثم تجدد المظاهرات في اليوم التالي في القدس ، ويغرس العلم الصهيوني في جدار المبكي ، وينشد المحتشدون نشيد (هاتيكفا) ويطلبون نزع الجدار والرصيف من ملكية المسلمين . فينهض المسلمون في الغد ، بمظاهرات اخـــرى ، رداً على اليهود ، ويصلون الى الحائط ، ويقلبون منضدة الشماس اليهودي ، ويخرجون من شقوق الجدار استرحامات اليهود ويحرقونها .. ثم نسمع من وراء الغيب :

والبراق الشريف يهتف يا طه   فتبكي الرمال في سينـاء
لم تمت أمـــة أريقت دماهـا   في سبيل الحرية الحمـــراء . .

ثم نشاهد اليهود كرة أخرى أمامنا ، وقد أمسكوا التوراة واتجهوا الى هـذا الجدار يصلون ويدعون ، بأصوات أبحة ، خشنة ، متنـافرة ، مختلطة بالدمدمة والتسبيح .. كأنهم يحتفلون بيوم ٩ آب ذكرى خراب الهيكل من قبل (طيطس)، قبل آلاف السنين ...

وأي يهودي أفاق ، طاف الأرض ، ثم حطت به الرحال في فلسطـين ، يقف أمام المبكى ، وهو رمز أمجاده ، ولا يفيض قلبه خشوعاً وحماسة ، ليعود الى تلك الايام ، أيام العز والسلطان ؟ إن اليهود ليستمدون من هذا الجدار قوة وايماناً ، وانهم ليلتجئون اليه كلما تنكر لهم الزمان .. ولكن .. وتقدرون .. فتضحك الاقدار .!

لقد قال السيد المسيح لذلك اليهودي ، الذي منعه ظل جداره ، وهو مجهود ، وقرى داره، وهو جائع : ستظل تائهاً في الارض حتى أعود ..!

وجاء القرآن ، فتوعّد اليهودي الأفاق بأجلى بيان : « وضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وباؤوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .. »

فليصل اليهودي ما شاء بجدار مبكاه، وليمرغ رأسه بغباره وأحجاره، وليسكب أنهار الدموع ، وليشعل القناديل، وليحرق البخور ، وليستجد عواطف الخافقين ؛ فان لعنة الله ، ودعوة السيد المسيح ، لا تزالان تحرقان قدميه ، ولن يقر له قرار ، حتى يدخل الجمل في سم الخياط ..

***

أيها العربي

عندما كنا نجتاز طرق القدس القديمة ، ونشاهد اخواننا العرب ، وبقـاء ما كان على ما كان ، ونذكر الصهيونيين ونهضتهم الجبارة ، تمنينا أن يستفيد اخوانـنا

الغرب أجمل وأبرع ما عند اليهود ، وأن يتحركوا بسرعة، ليلحقوا عداني الصهيونية لان الأخذ بما يأخذ به أعداؤهم واجب لامعدى عنه ، لتنسى المقاومة المجدية ..

كنا نتمنى أن يكون أهلنا العرب ، دنيا جديدة في القدس القديمة ، تضاف الى حماستهم ومروءتهم ، فتشكل صرحاً هيهات أن تناله القنابل الذرية .. كنا نتمنى دماً جديداً في شرايينهم ليكتسحوا به هؤلاء البكائين حول الهيكل ، النادبين حظهم وبؤسهم ، وهم أعدى أعداء العرب ، وأجشع الرأسماليين والمستعمرين ..

ولئن اكتشف العلم (البنيسيلين) وما هو أقوى منه لقتل أشد الجراثيم خطراً ، فان البنيسيلين العربي الذي سيقضي على جرثومة الصهيونى ، حثالة الشعوب ، ومبعث الفتن ، هو الاتحاد والتضامن ، والنظام والابداع ، وتحديد المبادئ والغايات ، وتفضيل المصالح العامة على الشهوات الخاصة ، والعمل المتواصل، تعضده القوة ، ويعده المال ، وعندئذ يفرح المؤمنون ...

***

في المسجد الأقصى ..

غادرنا المبكى ميممين وجوهنا شطر المسجد الاقصى ، عن طريق باب السلسلة؛ فأبصرنا باباً من طراز عجيب نفيس ، يمثل أبواب المساجد القديمة خير تمثيل؛ وفوقه مئذنة ، تشرف على المبكى ، وتلقي عليه آناء الليل وأطراف النهار دروساً لن تنتهي، بأن العزة لله ولرسوله ، وللمؤمنين ، وبأن ما كان أساسه على الرمال فزائل ، وما كان أساسه على الباطل فمهدوم ..

ها هو ذا المسجد الاقصى الذي باركنا حوله ، قبلة الاسلام الاولى ، ومعراج سيد الرسل ، بساحته الفسيحة الارجاء وبحيرة وضوئه ، وسبيل مائه ، تنسجم فيه عبقريات الشرق الفنية بنقوشه وألوانه ، وبلاط قيشانيه ، ونوافذه ، وقبابه ، تزخرفها الآيات القرآنية المسطورة على القاشاني الملون بكل ضروب الفن والجمال ..

ودخلنا الحرم من باب الصخرة المرمم في عهد السلطان سليم، واحتوانا ساعتئذ

ذلك الجو الرهيب ، من الخشوع والايمان ، والسكينة والهدوء العميق .

فهنا ، وفي هذا المكان ، عرج سيد الأكوان ، محمد صلى الله عليه وسلم . ولتبارك صخرة وطئها،وإني أكاد أشم أريج المسك يتضوع منها ،بعد أربعة عشر قرناً..

فسر أيها الزائر ، واستلهم الرحمة والغفران ، واطلب من الله النصر للمسلمين، وجمع شمل العرب ، فهذا مكان يستجاب فيه الدعاء .

وقبة الحرم ترتكز على أربع دعائم ضخمة ، بين كل دعامة وأخرى ، ثلاثة أعمدة، فوقها أقواس مزخرفة بالفسيفساء ، الذي لا زال يحتفظ برونقه وبهائه رغم كرّ الليالي ، ومرور القرون ، مما أسبغ على المسجد جمالا رائعاً ..

وقال دليلنا يشرح ألوان الاعمدة ، والدعائم الملونة ، وهو يلمسها بيده،فنجاريه تحبباً وتقليداً ، حتى نكاد نعفر وجوهنا بغبارها : هذا لون يسمونه «شحم بلحم، أي البصطرمة» ؛ وعجبنا لهذا التشبيه ، الذي أجاد فيه وأفاد ، فكأنه حسبنا من سكان جبل قاف ، أو جزائر الواق الواق ، فانتقى تعبيراته من قاموس فنه الرخيص؛ ولم يترك صاحبنا النكتة تفر من يديه ، فجعل يجري على نفس الاسلوب ويقول بكل جد واتزان : «الله .. الله .. يا سيدنا الشيخ .. والله شيء بروحن القلب .. شو هالأعمدة .. الله أعلم أنه رفعها الفداوية أيام الصلطان الملك الظاهر ، والدعائم عمرها الجن أيام سيدنا سليمان .. إيهْ .. الله ينور ألبْنا بالايمان .. ولا يحرمنا زيارة الشفيع .. يا سيدي ..»

وهنا وقف وجهاً لوجه مع الشيخ ، وقال له بحركة مسرحية : «الله بدُّو يعز دينو .. الله كريم .. الخير فيَّ وفي أمتي الى يوم القيامة . والله ما نحنا إلا في روضة من رياض الجنة .. الله يحسن الخاتمة ..»

فسر المطوف جذلاً ، ونادى صديقاً له معمّا ، ليقدمه الينا، نحن أبناء دمشق المحروسة ، كنانة الله في أرضه ..

وتشرف الرجلان بالشاب الصالح .. وراحا يشرحان باسهاب عن السجاد الفاخر الذي قدم هدية من لدن خليفة المسلمين ، السلطان عبد الحميد ..

والصخرة المشهورة محاطة باطار مرتفع من الخشب المزخرف ، ولونها يميل الى الصفرة . ووقف شيخ الجامع بجوارها يقول : «هنا مكان قدم النبي ، حينما هبط ؛ فمسح صاحبنا وجهه وذقنه بالغبار تبركا .. وهذه زجاجة فيها شعرة من شعرات الرسول ..» وسواء صدق الخبر ، أم لم يصدق ، فقد لمس صاحبنا الزجاجة ، ثم أجرى أصابعه على عينيه .. وإنما الاعمال بالنيات ..!

وتحت الصخرة مباشرة ، مصلى سليمان ، وخلوة داود وابراهيم ، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام ، وهنالك موضع توسده النبي ، وآخر مكان عروجه ..

وأقسم صاحبنا للدليل المحترم ، بعد أن تأمل ملياً في زخارف القسيفساء التي لا توصف ، وفي القاشاني وهو آية الآيات في الابداع ، أن الحرم شيء (يجنن) بغناه، وجماله ..

لكن المزعج في هذا المسجد، هو خلوه من الكهرباء ؛ فلا زال يضاء بالشموع. وما ضر القوم لو أفادوا من هذا الاختراع العصري البديع النظيف، وهو لا يخالف الدين وتعاليمه ، فيزداد المسجد نوراً على نور ،وبهاء ورونقاً.؟ونحن نرجو مخلصين أن ينظر القائمون على شؤون المسجد في هذا الاقتراح بعين الاعتبار ، وفي ذلك خدمة لدين الله ، ورفع من شأن العروبة .

وقصدنا جامع عمر ، وهو في صعيد واحد والمسجد الاقصى ؛ وفي صحنه بركة ماء للوضوء ، سرنا منها تلك الكراسي الحجرية التي يسكن اليها المتوضئون ؛ وفيه أشجار سرو وعفص باسقة ؛ وهو سطح لقبو هائل ، تجمع فيه مياه المطر ، ويفيد منها الناس في الشرب والوضوء ، وهو ماء عذباً فراتاً .

وقد جُدد المسجد ، ورمم بناؤه ، بمساعي جلالة ملك مصر ، فاروق الاول ، والمجلس الاسلامي الأعلى ، بعد أن كاد يوشك على الانهيار بكامله . وقد جلبت أعمدته الرخامية من أوربا؛وفيه فسيفساء جميلة ؛ وقيل لنا بأن منبره الخشبي مصنوع دونما مسامير حديدية ، وهو هدية السلطان صلاح الدين الايوبي ؛ صممه حميد بن ظافر ، وصنعه وحفره سليمان بن معالي ، وهو من خشب الأرز .

ويطل الجامع على جبل الزيتون ، وجبل المكبر ، حيث قدم الخليفة عمر ، وكان ينتظره البطريرك (صوفرونيوس) وحاشيته ، وفيه بقايا أعمدة رومانية قد كسرت أجزاؤها ، لتشويه الحيوانات المنحوتة عليها ، من سبع وطير ، وفيه مقام زكريا ، ومحرابه ..

هيا الى كنيسة القيامة

خرج صاحبنا من المسجد الاقصى ، وجامع عمر ، وقد ازداد ايمانا ، ورسخ عقيدة ، بمستقبل العروبة والاسلام .

وما كان يزعجه غير هذا السروال القصير الذي جعلة قبلة انظار المصلين في بيوت الله ، وسوى تلك القبعة التي أودعها وخشي ألا يهتدي الى مستودعها .

ولولا آيات بينات رددها أمام كل مطوف ، تذكر بحادثة الاسراء ، وعز المسلمين ، وذل المشركين ، ولولا ان سيماه الرزين ، وحافظته الجبارة ، تنقذ المواقف الشائكة كل حين ، لما اكتشف هويته أحد ، ولحسبوه ورفيقه من المنافقين الكافرين ..

خرج من المسجد ، ونشر بين يديه كعادته مصور المدينة ، وجعل يدرس الخطط والتفاصيل لزيارة معالم المدينة المقدسة ، ولو لم تزقزق عصافير بطنه بأنغام دونها أنغام أم كلثوم ، لما غادر المكان الى يوم الدين .

تناول غداءه في المدينة التي باركها الانبياء ، فكانت مشرق الهدى والسلام ؛ ومهبط الوحي والالهام ، ومجتلى عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ، ومسرى روح محمد ، كما يقول استاذنا الزيات .

وقد ذكر لساعته موعداً ضربه لصديق تعرف اليه في (باث كليم) حيفا ، يسكن المرحلة السادسة ، فأسرع يحث الخطا ؛ ويمر في تلك الدروب التي سار فيها السيد المسيح ، له المجد .

وقبل أن تحدث ، ويفتح فمه ببعض التفاصيل ، يجب أن يسجل هذه الحقيقة ،

ويعلن على رؤوس الاشهاد أنه ناقل أمين للصور والاخبار ، وأنه لا زال مسلماً حنبلياً ، ولا شيء أكثر من ذلك ..

وبعد هذا الاعلان ، هيا الى المراحل الأربع عشرة ، التي سار فيها المسيح ، يحمل صليبه على ظهره؛ حتى اذا بلغ المرحلة السادسة جاءته (جوليا) ، السيدة الرومانية ، وكان الشوك قد أدمى وجهه ، فمسحته بمنديل ، فانطبع الوجه بدمائه عليه ، وهو محفوظ في دار آثار روما ، مع بقايا الصليب الخشبي ..

وهبطنا الحجرة التي كانت تقيم بها جوليا هذه ، والتي سميت بعدئذ (فيرونيكا) وشاهدنا بئرها ، وبجانبها تماثيل تصور الحادث تماماً خير تمثيل . فها هو ذا الجندي الروماني (لونجينوس) يقود السيد المسيح ويعذبه ، والسيد يحمل صليبه على كتفه ، وقد كبابه ، والدماء تسيل غزيرة من وجهه ..وها هي فيرونيكا قادمة تحمل المنديل ؛ ووراء الجميع سمعان الكرداني ، يساعد المصلوب ، في حمل الصليب ، منذ المرحلة الخامسة ..

وها هي ذي كنيسة القيامة ، أو القمامة ، او القبر المقدس .. وهي بناء قديم ضخم يقع في منتصف المدينة ، مع ميل قليل نحو الشمال والغرب ، وقد اشتهرت هذه الكنيسة وزادت أهميتها ، لوجود قبر المسيح فيها ، ويسمى بالقبر المقدس . والعلماء مختلفون في هل هو قبر المسيح حقيقة ؟ أي المكان الذي قبر فيه بعد صلبه كما تروي الأناجيل؟ أما العامة فيعتقدون بما ورثوه عن آبائهم ، والباحثون لازالوا في اختلافاتهم ، وكل بما لديهم فرحون .

وكنيسة القيامة بناء كبير مؤلف من القبر المقدس وعدة كنائس ومصليات ومزارات وغيرها ، لسائر الطوائف المسيحية . وفي الواجهة باب يدخل منه الى الكنيسة ، عليه نقوش رومانية وعربية ؛ والغريب ، أجل الغريب ، أن مفتاح الكنيسة يقبض عليه مسلم من (آل البنيسي) ، وهو تقليد فرضه عمر بن الخطاب ، للحؤول دون اصطدام الكهنة بعضهم ببعض ؛ وهم ينتمون الى عدة طوائف ، وكل طائفة تروم الاستئثار بالمفتاح ، وليس هنالك غير من يدعي لنفسه حصة الأسد .

وأول شيء يقابل الداخل ، حجر مستطيل طوله سبع أقدام وعرضه قدمان ،

لونه أصفر ضارب للحمرة ، يسمى حجر الدهن أو المسح ، يقال إن جسد المسيح وضع عليه وحنطه (نيقوديموس) وعلى مسافة قليلة منه ، حجر آخر ، يقال إن النساء وقفن عنده وقت التحنيط ؛ وتمشي الى اليسار ، نحو بقعة مستديرة في وسطها بناء عال فوقه قبة قطرها (٦٥) قدماً . ويحتوي على القبر المقدس . واجهته متجهة نحو الشرق مقابل الكنيسة الخاصة بالروم الارثوذكس، التي فيها عرشان كبيران، أحدهما للبطريرك الأنطاكي ، والآخر للبطريرك الأورشليمي ، وفي وسطها مكان يعتقدون أنه مركز العالم ، أو نصف الدنيا ، وعلم الجغرافيا في ألف خير . .

وإذا تأملت واجهة القبر أدهشك بكثرة ما فيها من أدوات التكريم والتعظيم ، كالقناديل والمصابيح الذهبية ، والشموع الضخمة ؛ والرايات المقدسة ، والصور عليها الحلي من الذهب والفضة ، تملأ الواجهة الى أعلاها. وفي أسفل الواجهة مدخل الضريح ، وقد علق في سقفه ثلاثة وأربعون قنديلا من الذهب ، أربعة منها للاقباط والباقي مقسوم بين الطوائف الاخرى على السواء . وعلى جدران تلك الحجرة نقوش تمثل بعض حركات المسيح ، وكل منها لطائفة من الطوائف المشتركة في هذا المكان . وفي الحجرة تتلى الصلاة كل يوم، وهو أقدس مكان في كنيسة القيامة. ولذلك اتفقت الطوائف المسيحية على الاجتزاء من قربه ، أو الحصول على مكان يمكن أبناء كل طائفة من الوقوف فيه ، عند الاحتفال بانبثاق النور في يوم سبت النور . والنور في ذلك اليوم يخرج للناس من كوة في جدار القبر ، فيقتبسون منه بشموع أعدوها في أيديهم ؛ فاذا أضيئت تبركوا بلهيبها ، فيدنونها من وجوههم أو ثيابهم على نسبة ايمانهم وصحة اعتقادهم . ولقد قيل لنا ، إن الحجاج الروسيين قديماً كانوا من أكثر الناس إيماناً . فيتقدم أحدهم ، وبيده شمعة أو شمعات ، يدنيها من النور الخارج من الكوة ، فاذا أضاءت أدار لهيبها حول وجهه، وأدخلها تحت ثيابه، وهو لا يخشى احتراقاً . .

ولنشاهد الآن تمثال العذراء مريم .. وهو محلى بالجواهر النادرة ، ومحفوظ في صندوق زجاجي ، فلم يجتمع الجمال المجسد ، مع الحلي الثمينة ، كما اجتمعت هنا . .

وتمنى أن نشاهد كل حجر وكل زخرفة ، لولا أن البناء قديم ، وقد خشي انهياره ، فقامت مصلحة الآثار بتركيب الدعائم الخشبية يستند اليها البناء وقبته ، بغية الاحتفاظ بهذه الدرر الثمينة ، التي أراقت أوربا في سبيلها الدماء ، وباسمها أعلنت الحروب الصليبية ، لطخة العار في جبين الشعوب الأوربية الى يوم الدين ..

وللكنيسه أقسام لسائر الطوائف ، فهذا جناح الكاثوليك ، وفيه الحجر الذي عذب عليه المسيح ، وذاك جناح اللاتين ، حيث تمثل الهيا كل حالات الصلب المختلفة .. وهناك جناح اليونان الارثوذكس ، وفيه سجن المسيح . وهكذا سائر الامكنة ، لكل طائفة بقعة منها ؛ ولا يسمح لطائفة أن تتعدى حدودها . ومن تجاسر على ذلك منعه جاره المعتدى عليه . وكثيراً ما كان يحتدم الخصام قديماً ، وتتعطل لغة الكلام ، ليحل محلها العصي والخناجر .. وقد يتضاربون بها . فاذا مست المكنسة جزءاً من موقف الجار نبهه ، فاذا لم يذعن منعه بالقوة . كأن تنظيف المكان ، يجعل للمنظف حقاً في تملكه ، من قبيل وضع اليد ..

ولعل الزائر لا يستطيع إدراك عظمة هذه الكنيسة ، وما فيها من آثار باهرة خالدة ، إلا بالاطلاع الواسع على تاريخ النصرانية ، وأيامها الاولى ، وعندئذ يدرك روعة ما يراه ، ويصل كل حادث بحديث ..

وادي ستي مريم

خرجنا من باب السباط ، وهو الباب الذي دخل منه عمر بن الخطاب القدس ، قبالة جبل الزيتون ، أو جبل الطور ، أو كما يسمونه تدينا جبل النور . حيث صعد منه عيسى عليه السلام الى السماء ، وحيث تقع كنيسة الجسمانية ، وكنائس أخرى ، وأديرة وقبور الانبياء ..

وإنك لتشاهد كنيسة الروس من بعيد ، بهندسة بنائها ، وغريب قبابها وصلبانها ، حتى تخيل لساعتك موسكو ولينينغراد ، تقرع فيها النواقيس بتوقيع موسيقي خاص ، اشتهر به الروس منذ عهود القياصرة .

وهرعنا الى هذه الكنيسة ، ونحن نسرح أبصارنا عن بعد ، نشاهد أسوار المدينة وبيوتها ، ونشرف على أبنيتها فنراها واضحة جلية ، بمآذن الحرم، وقباب الكنائس ، ومنارة جمعية الشبان المسيحيين .. ولا بد لمن يزور القدس . أن يصعد جبل النور ويشرف منه على هاتيك الروائع ..

ولقد مررنا بكنيسة الجسمانية ، حيث صلى المسيح آخر صلاته قبيل الصلب ، وهي مشتركة بين كافة الطوائف،فيها صخرة الاحتضار ، تنير فيها الشموع ،وتحيط بها النسور والطيور تمثيلا للملائكة الأطهار ؛ وسقفها قباب تختص كل أمة بواحدة منها . فهذه لايطاليا ، وتلك لانكلترا،وسبحان من جمع البشر في صعيد واحد، ولو اختلفت بينهم المذاهب والنزعات ..

ولقد بنيت هذه الكنيسة على أنقاض كنيسة قديمة اخرى ، لم يبق من آثارها سوى تلك الفسيفساء الحجرية التي تزين بعض أقسام الارض ..

وثمة لوحات زيتية بحجم الجدار ، رسمها فنانون بولونيون ، تمثل إحداها(يهوذا الاسخريوطي) يبيع السيدالمسيح بدريهمات معدودات ،وتجلى على وجه(يهوذا)الجشع والأثرة والمكر؛وهنالك لوحة تمثل اليهودي نفسه يساوم على الثمن ، بشح وحرص . وثمة لوحة مهداة من الأمة الهنغارية ، تمثل السيد المسيح يصلي صلاته الأخيرة .. ولا شك في أن ريشة رسامها أبدعت أيما إبداع ، يذكرنا بآثار ميكيل آنج ورفائيل وفناني النهضة ..

وكانت الكنيسة الروسية هادئة صامتة ، صمت السهول الروسية تحت غطاء الثلج .. ولئن كانت الأبنية تعبر عن الأذواق والاخلاق ، فان بناء هذه الكنيسة يعبر بأجلى بيان عن الخلق الروسي الصامت الرصين .. فلم تكن الراهبات فيها يلتفتن الى زائر ، لانهن يصلين بلباس الحداد ، وهن يرتلن بأنغام موسيقية روسية، فيها خشوع واطمئنان ..

ولعل أروع ما شاهدناه من الآثار الفنية الدينية ، التي تزخر بها كنائس القدس ، هي التماثيل الملونة في كنيسة الألم . فكان أحد المواقف يمثل حادثة

بيلاطس ، وهو يغسل يديه بالماء ، علامة البراءة ، ويقول : « إن الرجل بريء — يقصد السيد المسيح — ولا سبيل لادانته ؛ إني أشهد أنه لم يقترف ذنباً ، ومن الظلم الحكم عليه عليه بالموت ، ولقد حكمت عليه تحت تأثير الضغط والاكراه .. لأن اليهود ألحوا عليّ بذلك ، وهددوني بقيصر . . » وتكاد الاشخاص تنطق وتتكلم .. وفي الكنيسة عينها تماثيل صنعها فنانون ايطاليون ، لم نر لها مثيلاً .. فكان بعضها يمثل (ماريوحنا) يغطي عيني العذراء ، لئلا تشاهد ابنها يقضى عليه بالموت ، وتصحبها مريم المجدلية ، وقد ارتسم الذعر على وجهها وحركاتها ، الى جانب جمال التقاطيع ، وتضاعيف الثياب الملونة ، الملاصقة للجسم ، فتنم عن مفاتنه ؛ كما برز جلياً ذلك الحنان والخوف على وجه العذراء ، خوف الأم على وحيدها ، والذعر من الموقف الرهيب ، وهي ترى حياة ابنها بين شفتي القاضي .. أما اليأس والحزن ، فقد ارتسما بجلالهما على تقاطيع سحنة يوحنا ..

منارة جمعية الشبان المسيحيين ..؛

قصدنا دار جمعية الشبان المسيحيين (واي . م . سي . اي) ، فشاهدنا حديقتها البديعة الصنع والترتيب والتنسيق .. وولجنا ردهاتها الفسيحة الهادئة ، فهنا صالة نامة ، وهناك مطعم (بوفيه) ، وهذه مكتبة عامرة للمطالعة ، وتلك غرف التسلية ، وحجرات نوم الزائرين ، وغرف الاستقبال والحفلات ..

وهل يزور صاحبنا الدار ، ولا يصعد برجها العالي ، ذا المصعد الكهربائي ، وسلمها الضيق اللولبي الذي تقدر درجاته بالمئتين وست درجات ..

صعدنا المنارة ، والاجراس تقرع بالكهرباء ، فتصدر أنغاماً موسيقية وألحاناً رتيبة ، حتى اذا وصلنا القمة ، كادت الروح تبلغ الحلقوم وتجد لنفسها أقرب طريق الى السماء .. وصاحبنا مصاب بمرض الفراغ ، ويخشى الخلاء كما تخاف الاطفال من العفاريت ، فوقف خلف المتفرجين ، في الصف الخامس ، لانه لم يكن هنالك صف سادس ، وأخشى ما يخشاه أن يقرأ اسمه في صحف الغد ، في عمود الوفيات ؛

وأشرف على المدينة الخالدة ؛ فرأى أمامه فندق الملك داود والمسجد الأقصى ، وكنيسة القيامة ودار المندوب السامي تهجع فوق قمة زمردية خضراء ، وآلاف الابنية الحديثة والقديمة ، ووراء الجميع يتبختر جبل الطور ، ووادي ستى مريم ، ووادي قدرون والرباب ويهوشافاط ..

وللمنارة أربع شرفات تطل كل واحـــدة على جهة من جهات القدس . وأمام الواقف في كل شرفة ، لوحة نحاسية هي مصور ناطق لما أمامك من المناظر ، ناتئة ملموسة ، رقمت بأرقام كتب بجانبها اسم كل بقعة . فما عليك إلا أن تتأمل المدينة قدر ما تسمح الشرفة ، فتعين البنـاء ، ثم تنظر صورته في اللوحة ، وتقرأ رقمه في الهامش ، فتدرك معالم المدينة المقدسة دون دليل .

وهبطنا السلم ، بينما انهمك صاحبنـا في عد الدرجات التي اختلفت بين الخشب والحديد والحجر ، وهو يقرأ المعوذتين وآية الكرسي ، ويرجو الله أن يكون خير الساترين ...

ولكن الذي أقلقه ، وأثار مراجل غضبه ، رؤيته خطيبة مع خطيبها ، أو لعلها عاشقة مع عشيقها ، سبقانا الى النزول ، وكأنهما وجدا خلوة صحيحة في هذه المنارة الشاهقة ، تدعو الى القبل وغير القبل ، من رقيق الدعابة ، وناعم الضم والعناق... ولولا مفاجأتنا ، لالتصق جسم بجسم ، وساق بسـاق .. فكاد يسلك سبيل أولاد (الحارة) بالانتصار الى الشرف الرفيع ، غير أنه خشي أن يحدث ما لا تحمد عقباه. فتكلم عقله بصوت أعلى من قلبه ، وكفى الله المومنين القتال ..

الوكالة اليهودية : حكومة ضمن حكومة

في بقعة من أجمل بقاع القدس ، وفي ملتقى شارع الملك جورج الخامس وطريق الكيرين كايمت ، تقوم الوكالة اليهودية ، دماغ الصهيونية المفكر ورأسها المدبر ..

ولن تغرينا أبنيتها العديدة الحديثة ، بقدر ما يهمنا من يقوم على شؤونها ، فهنا حكومة منظمة ، بدوائرها ومؤسساتها وبرامجها وميزانيتها وموظفيها ، ولو سمينا كل

دائرة من دوائرها بوزارة ، لرأينا وزارات الداخلية والخارجية ، والمالية والدفاع، والمهاجرة والاستعمار، والزراعة والصناعة،والصحة والمعارف،والاقتصاد والشؤون الاجتماعية ، ووراء الجميع جيش من الخبراء في كل فرع من فروع المعرفة .

والوكالة اليهودية ، شخصية معنوية خلقتها الحقوق الدولية ، حين نصت عليها المادة (٤) من صك الانتداب على فلسطين بقولها :

« ويعترف بهيئة يهودية صالحة ، كهيئة عمومية ، لتشير وتعاون في ادارة فلسطين ، في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية ، وغير ذلك ، مما يؤثر في إنشاء الوطن القومي اليهودي ، ومصالح السكان اليهود في فلسطين ؛ وتساعد وتشترك في ترقية البلاد ، تحت سيطرة حكومتها دائماً » .

« ويعترف بأن الجمعية الصهيونية ، هي هذه الهيئة المنصوص عليها فيما تقدم ، ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها لائقة صالحة لهذا الغرض ، وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ ما يلزم من التدابير،بعد استشارة الحكومة البريطانية ، للحصول على معونة جميع اليهود،الذين يبغون المساعدة في إنشاء الوطن القومي اليهودي . »

وهكذا فليست الوكالة حزباً كما نفهم من معنى الاحزاب ، بل مجموعة من الشخصيات اليهودية في جميع أنحاء العالم ، تنتخبها الهيئات اليهودية مرة كل سنتين في مؤتمر عام ، لتتحدث باسمها وتهتم بشؤون اليهود عامة ويهود فلسطين خاصة .

ولم تنص المادة الرابعة الآنفة على تشكيلات الوكالة،بل ترك أمرها الى اليهود أنفسهم الذين وضعوا دستورها ثم عدلوه عام ١٩٢٩ ، فأصبحت تتألف من أعضاء متساوين من الصهيونيين وغير الصهيونيين ؛ على أنه يجب أن يكون رئيس الهيئة الصهيونية رئيس الوكالة .

واقسامها ثلاثة : المجلس الاستشاري ، واللجنة الادارية ، والهيئة التنفيذية .

فالمجلس الاستشاري هو الهيئة العليا في الوكالة ، يجتمع كل سنتين في دورات عادية ، ليضع تصميم السياسة التي تنهجها الصهيونية ؛ والمجلس هو الذي ينتخب اللجنة

الادارية والتنفيذية ؛ وله مقر في القدس وآخر في لندن . وللوكالة موازنة سنوية ضخمة ، بلغت العام الماضي (٤) ملايين جنيه جمعت من التبرعات النظامية لمصارف (الكيرن هيسود) ، لتنفق على الهجرة والمعارف والادارة .

ومن صريح المادة الرابعة تجلى لنا اختصاصات الوكالة :

فهي تمثل الشعب اليهودي أمام الدولة المنتدبة لغايات محدودة ؛ ولا تستطيع قانوناً تمثيله إلا فيما يتعلق بانشاء الوطن القومي ، كما أنها لا تستطيع تمثيله أمام الدول الاخرى ، ورغم شخصيتها الحقوقية فلا قيمة لها إلا أمام الدولة المنتدبة وعصبة الامم سابقاً .

والوكالة ثانياً ، ليست سوى هيئة استشارية ، والحكومة المنتدبة غير مكلفة بالأخذ برأيها ، رغم أنها تستشيرها في كل ماله مساس بالوطن القومي . والظواهر كلها تؤيد أنها لا تقوم بعمل ما دون استشارتها .

وأخيراً ليس للوكالة حق التدخل في الادارة . وهذه القضية هي التي أثارتها اللجنة العربية العليا سابقاً ، وممثل الفاتيكان ، حينما فسرا المادة الرابعة : « تشير وتعاون في ادارة فلسطين ، وتساعد وتشترك في ترقية البلاد » فأجابت السلطة أن الوكالة لم تحاول ولن تحاول الاشتراك في الحكم .

والمواد ٦ — ١١ من صك الانتداب تشرح مهمة الوكالة : من إنشاء وطن قومي وتسهيل قضايا الهجرة ، والاستعمار ، واستثمار البلاد .

على أنّ هذه الوكالة هي دون أدنى ريب حكومة ضمن حكومة . فهي التي تنظم ترحيل المهربين من اليهود ، من بلدان أوربا ؛ ثم تنظم حشدهم في مرافئ ايطاليا أو اليونان ، ثم تستأجر السفن أو تشتريها لنقل هؤلاء المهربين ، ثم تقوم باستقبال شحنات هذه السفن في فلسطين وتوزيعها على المستعمرات والمصانع ..

ولا نكاد نسمع قضية تهريب ، أو أعمالا إرهابية ، إلا ونرى وجه الوكالة اليهودية يطل من بعيد أو قريب ، حتى ضج العالم المتمدن من فعالها ، ولم يأل عرب فلسطين جهداً في طلب إلغائها .

في حالة واحدة قامت الحكومة فحلت اللجنة العربية العليا السابقة ، مع أنه لم يكن لتلك الهيئة أية صلة بالحادثة المذكورة . فما بال الحوادث الرهيبة المتوالية لا تدفع بالحكومة فتحل هذه الوكالة ؟ وما بالها لا تغل يدها عن كل تدبير وهي التي تشاهد كل يوم من فعالها عجباً .؟

لقد استأثرت هذه الوكالة بكل نفوذ ، واستولى اليهود بواسطتها على كثير من المناصب العالية ، بحيث استطاعت في مدى أعوام قليلة . الاستئثار بسياسة البلاد ، ومرافقها الاقتصادية .

واذا كانت الفقرة الثانية من المادة (٤) تقول : « يعترف بأن الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها ، ما دامت الدولة المنتدبة ترى أن نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض . » أجل ! ما دامت صالحة ولائقة لهذا الغرض! فكيف نفهم صلاحها ولياقتها وهي التي تدبر المؤامرات من وراء ستـــار ، وتدير حركات المنظمات الارهابية ، ولا تساعد الحكومة بأي عمل للحد من نشاطها ..

فلم تساهم أو تتعاون مع الحكومة في قمع الارهاب ، لاعتقادها أنها تهدف الى نفس الغاية التي يهدف اليها الارهابيون ، وهي إنشاء وطن قومي .

إن الواقع والمنطق والحق لتقول مجتمعة : حلوا هذه الوكالة ، فهي أصل البلاء ورأس الشقـاء .

على أن الحكومة المنتدبة ، شعرت منذ أمد بعيد ، بأعمال الوكاله وتجاوزهـا صلاحياتها، لذا عرضت على عرب فلسطين تأسيس وكالة عربية، فرفضوا الاقتراح بكل إباء ، لانه يخدم مصالح بريطانيا واليهود ، أكثر ممـا يخدم مصالح العرب . أضف الى ذلك أن الوكالة اليهودية معترف بهـا دولياً ، وهي تمثل يهود العـالم ، أما الوكالة العربية فسيخلقها قانون محلي ، ولا تمثل سوى عرب فلسطين .

وهكذا ولد المشروع ميتاً ، وظلت الوكالة اليهودية تعيث في الأرض فساداً ..

في فندق النجوم ..

وكأن الأقدار أبت إلا أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن ...

فقد اخترنا لاقامتنا في القدس ، بعد طول تفكير ، فندقاً عربياً .! غير أن صاحبه على ما بدا لنا يحفظ حقوقه عن ظهر قلب ، ويجهل كل واجباته ، مما دعانا الى مغادرته في ذلك الليل البهيم ، غير مأسوف عليه ، لنفتش عن فندق آخـــر .. ولولا مساعدة شرطي شهم من أصل دمشقي ، والدم كما يقولون (يحن) لاقمنا على أكبر الظن في فندق النجوم ، نفترش الغبراء ، ونلتحف الزرقاء .. وأخيراً،حطت رحالنا في فندق عليه سيماء عزيز قوم ذل ، تديره صهيونية روسية ، استقبلتنا بحذر شديد ، بعد أن شاهدتنا نرتدي ألبسة الخاكي ؛ فحسبتنا جنوداً فارين من ثكناتهم، وإيواء الجنود عندها ممنوع . ولما شرحنا لها بكل لغة ممكنة هويتنا ، دخل الايمـان قلبها ، واستقبلتنا مع فتياتها المغنـاجات ، بكل ترحاب .. وراح صاحبنا يقدم نفسه بالتهويش المعهود فلم ينس هويته الصهيونية في هذا الفندق ، كما لم ينس ان يفسر لفتياته خبر (دمشقيته) التي تهتم أشد الاهتمام بالوطن الموعود ، وأنه ورفيقه من جند صاحبة الجلالة ، الصحافة العبرية .. مما جعل القوم يهيمون به كمحـارب فدائي في كتائب إسرائيل .. وما ذلك إلا لينعم بنهود صلبة .. وشفاه طرية .!

وما كاد يستقر به المقام حتى راعه عبق الغانيات ؛ فقد كانت أنفاسهن المعطرة تملأ المكان ، وتسكر جوارحه ، وتشرح صدره ، وتسعد قلبه ؛ فشرع يستخـدم كل مواهبه في رمي الشباك ، وهو يعلم أن أقصر الطرق هو الخط المستقيم ، وليس الغزل عنده لمساً وغمزاً ، ونكشاً وتلميحاً ، بل يكفي أن تتقدم غير هياب وتقول: شالوم .. وبناء عليه ، وعليه البناء ، فقد اختار مقعده بجوار عبرية في عينيها عبث بريء ، وفي وجهها طلاوة وجمال، وفي ابتسامتها سحر ودلال ؛ وبدأ الفصل الاول من الرواية ، بينما كانت أنغام الراديو تصب كؤوساً من الهوى ، وتحرك في الحاضرين والحاضرات اشتهاء الرقص،وتدفعهم الى ضم الخصور ، وهصر الصدور،ولثم الثغور..

وهكذا بدله الله بفندقه المهجور،فندقاً ستظل لياليه خالدات في دنيا المغامرات، الى يوم (ويخلق ما لا تعلمون) ...

هيا الى الخليل

لم يكد الفجر يبسم عن أسنانه البيضاء ، حتى أسرعت أوقظ صاحبنا الذي لا زال يحلم بعذارى صهيون ، ويهذي في الحلم ، بكلمات منتقاة من قاموس الحب الرخيص .. ولولا أنني رششت على وجهه إبريق الماء الفخاري ، لما استيقظ ، ولظل يجتر أسماء راشيل وليلى .. ويتلمظ كأنه يأكل قطعة من (راحة الحلقوم) ..

ولم يغادر عاشقنا (البورتاتيف) الفندق ، حتى استأذن من (ليلى) فارسة ليلته ، لرحلة صحافية باسم جريدته الخيالية ، وأسرع يحث الخطا نحو باب الخليل .!

فهلم معي الى الخليل .. الى (حبرون) بلد الرجولة والبطولة والشجاعة .. هلم معي الى معقل من معاقل العروبة والاسلام ، البلد الذي لم يدنس ترابه صهيوني قط .. بعد أن حرمت أرضه عليه ، فظل يرمقه من بعيد دون أن يستطيع دنواً ... ولقد حاول الصهيونيون ذلك ، ولكن غضبة الخليليين الأشاوس ، ردت شذاذ الآفاق وحثالة البشر على أعقابهم ، بعد ما أنزلوا من صياصيهم ، وهدمت ديارهم ، وشردت نساؤهم وأطفالهم .. ولئن عجبت كيف لا تسير باصاتهم الى الخليل ، أو نابلس ، وهي التي تجوب كل مكان ، فأدرك الآن السبب ، وإن فيه عبرة لأولي الألباب ..

وما كدنا نضع أقدامنا في (باصنا) العربي ، حتى جرى باسم الله ، ويكاد الراكبون يجلس بعضهم في أحضان بعض ، من شدة الازدحام ..

وباشارة من صاحبنا (الخبير) بطبائع البشر ، لم نحلق ذقوننا ، إكراماً لعيون الرحلة الميمونة .. فلعل الأهبين يحسبونا من (المتوكلين) ولو بصورة مشوشة .. فقد كان إسبال الذقن من طرقه وأساليبه أحياناً .. يرى فيه أسلوباً ناجحاً للغش والخداع .. وخاصة في فحوص الفقه والاوقاف ، والفرائض والاحكام الشرعية قديماً في معهد الحقوق .. فكانت ترتسم على وجهه أمارات الزهد . فينال علامة

فيها كرم وجود من أساتذته الفقهاء ..! أوليست الذقون تجارة رابحة في هذه الايام..!
وجلس صاحبنا بجوار محام قدسي ، وجلست بجوار فلاح خليلي ..
ولعل المحامي أوجس شراً من صاحبنا ؛ رغم أنه لا يحمل قبعته اليوم .. فلم ندر لذلك سبباً .. فهل رأى أثواب الصهيونية الزرقاء، في ثياب الشورت ، وانحسار الرأس .. فاتخذ موقف الحيطة والحذر.؟فهذا شاب حليق، ذو سروال قصير ،فلا شك أنه من أولاد إسحق ويعقوب .! ولعل الرجل المحامي أراد أن يسخر من صاحبنا ، فشرع يتلو آيات الجهاد ، وما وعد الله به المشركين ؛ ثم تحدث عن موقف الاسلام من اليهود الذين يقتلون الانبياء بدون حق ؛ ولكن عندما صحح صاحبنا للفقيه الكبير بعض أخطائه القرآنية ، اعتدل الرجل في جلسته ، وابتسم ابتسامة زائفة ، بعد أن أيقن أنه أمام مسلم عربي ، لا شبهة في ايمانه وعروبته .!
وتبدلت اللهجة ، وسارت المعركة في طريق معاكسة ؛ فراح المحامي يمتدح صاحبنا بعد التعرف به ، ويشيد بمحاسن الشام ، التي قضى فيها شطراً من حياته ، أيام (اصطمبول) وحرب (السفربرلك) ؛ ورغم ثقافته المفروضة ، واطلاعه بحكم مهنته ، كان يمثل دور النعامة أمام الصياد ؛ فما سمع منه صاحبنا سوى مديح العرب، وتنديد باليهود ،دون أن يذكر شيئاً عن قصور الاولين ، وعدم مجاراتهم الآخرين ؛ متجاهلا تخاذلهم وتفرقهم وجهل أثريائهم وتقاعسهم عن نصرة قضيتهم ..
وعندما اجتزنا الأماكن الأثرية : بيت راحيل ، وأم يعقوب ، ومقام النبي يونس ، وبرك سليمان ، ومقام الخضر، شرع صاحبي الخليلي يتلو على مسامعي أخبار بلدته ، ويعترف بتأخر العرب عن مجاراة عدوهم ، ويدعو الله أن يكشف هذه الغمة عن الاسلام والمسلمين ، ثم يعود بالذاكرة الى أيام السلطان عبد الحميد ، وحكم — العصملي — حين كانت كلمة الاسلام هي العليا ، ويترحم على السلطان ، أيام (المزيكة) و (السلاملك) ويؤوب راجعاً من جولته قائلا بكل بساطه : الله ينصر السلطان ، ويعز الاسلام ..
وإن من يسمعه يقارن بسذاجة بين القرية الصهيونية والقرية العربية ، لتمتلئ

نفسه حسرة ، فهو يلمس الفرق الواسع ، دون أن يعرف سبيل الخلاص ؛ وينتظر من يأخذ بيده من المصلحين الفعالين ، فلا يجدهم ، فيرتمي في أحضان لا حول ولا قوة إلا بالله . .

وخرج الينا في الطريق مفتش البطاقات ، وقد عقف شاربيه ، وشمر عن ساعدين موشومين بالأزرق ، حيث يمثل الرسم أفعى وخنجراً يقطر دماً . . وجعل يطالبنا بالبطاقات ويشاجر القوم ، ويتحداهم ، حتى خشينا على أنفسنا ما لا تحمدعقباه ، فانكمشنا في مقاعدنا نرجو الخلاص والسلامة . .

وما كادت السيارة تصل الخليل ، وتقف ، حتى سدت الطريق أمامنا ، فلا هبوط ولا نزول . . فقد أحاطت جمهرة غفيرة من المنتظرين المسافرين بالسيارة ، وأوصدوا بابها ، ونوافذها ؛ وكل يبتغي الصعود ، بكل ما أوتي من قوة وبأس ، ولكم وركل . . فلاهم يصعدون ، ولا نحن نقوى على النزول .. وتعالى الصراخ والهتاف ، والسباب والشتائم ، والعبيد الفقراء ، ونحن منهم ، ينتظرون الفرج من رب الارباب . . وظل الجميع على هذه الحالة ، دقائق معدودة ، حسبناها ساعات طويلة ، حتى حصلت المعجزة ، واندفع الراكبون كجلمود صخر حطه السيل من عل . . .

***

لا عذر اليوم للفوضويين . . واذا كانت الحكمة تنشد أنىَّ وجدت ، وأمام اخواننا الخليليين ، كل نهار نماذج حية من التنظيم الصهيوني ، ومن تلك (الذيول) التي لا تنتهي ؛ فمن الظلم الجائر ، والجهل الفادح ، أن تستمر هذه المهازل ، ولا نجد لها رادعاً وزاجراً . إن في التنظيم راحة واكتساب وقت ، للسائق ، والمفتش ، والركاب ، وبرهاناً جلياً على أن هذه الامة المناضلة جديرة بالحياة والاستقلال ، وأن تتبوأ مكانها الممتاز بين شعوب الأرض . . .

***

ويممنا وجهنا شطر المدينة ، التي تشبه القدس القديمة بدروبها وأبنيتها وحوانيتها قاصدين أشهر مكان فيها وهو مسجدها . .

وطول المسجد (١٩٧) قدماً وعرضه (١١١) قدماً ، وحوله سور ضخم يشبه سور هيكل سليمان ، وهو مبني بالاحجار الضخمة ، حتى أن بعضها ينيف طوله على سبعة أمتار ونصف. وأصله من بناء اليهود وصار قبل الاسلام كنيسة ، ثم جعله المسلمون جامعاً . . ورواعنا كثرة المتسولين على درجات مدخله . وأول ما يفاجئك داخل الجامع لوحة نقش فيها تخليداً لذكرى ترميمه وتجديده :

عبد الحميد له المآثر تحمد   وإليه مسعى الخير دوماً يسند

إن تسألن عن ظل عصر أرخن   قل ظله عبد الحميد الأمجد

على أن قسماً آخر من دعائمه ونوافذه ، رمم من جديد بنفقة عزيز مصر فاروق الاول حفظه الله وأدامه . . .

والجامع قائم فوق مغارة سميت (المكيفلة) أو (ممرا) كما جاء في التوراة ، وقد اشتراها سيدنا ابراهيم الخليل من الحيثيين ليدفن فيها زوجته (سارة) ؛ ودخولها ممنوع حتى على المسلمين ، وقديماً كان لا يؤذن في رؤيتها إلا بفرمان خاص من السلطان . وقد صدر مثل هـذا الفرمان سنة ١٨٦٢ لولي عهد انكلترا ، لما زار تلك السنة بلدة الخليل . .

أما القبور فكان وضعها في الغار متسلسلا ؛ فهذا قبر ابراهيم ، وإزاءه قبر سارة امرأته ، وهنا قبر اسحق وأمامه قبر رفقه زوجته . وثمة قبر يعقوب وبجانبه قبر لائقه امرأته . وبجناح خاص قبر سيدنا يوسف ، على الجميع أتم الصلاة وأفضل التسليم . ولكل قبر حجرة قائمة بنفسها ، لها باب من قضبان الحديد مطلية بالفضة ؛ وفي وسطها مزار كالقبة ، على شكل الأضرحة في المزارات الاعتيادية ، وكلها مكسو بالديباج المطرز بالآيات والكتابات والنقوش الجميلة .

ولكل ضريح وصف خاص وعليه نقش خاص وكتابة خاصة ، تدل على اسم المدفون فيه . فعلى ضريح يعقوب كتب : «هذا قبر يعقوب النبي عليه السلام » وعلى قبر لائقة « هذا قبر سيدتنا لائقة رضي الله عنها ، زوجة النبي يعقوب عليه السلام» وعلى حاشية غطاء قبر يوسف وشي بالعربية فيه آيات قرآنية تتعلق بيوسف .

وأمام القبور أواني البخور وشمعدانات مطلية بالفضة . وقد كتب على لوحة أمام الضريح الخليلي أبيات خمسة هذا مطلعها :

عطفاً خليل الله أرجـو نظرة   أرقى بها العلياء في الدارين ..

وعلى جدران المسجد آيات قرآنية منحوتة في الرخام ، أو مسطورة على القيشاني. وشاهدنا لوحتين بخط وزير الأفغان الطبطبائي في إحداهما بعد بسم الله الرحمن الرحيم: « واذكر عبادنا ابراهيم وإسحق ويعقوب أولي الايدي والأبصار » وفي الثانية: « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث » . ومنبر الجامع كما قيل لنا من أقدم منابر العالم الاسلامي . مصنوع من خشب الجوز التركي ، وعمره (٩٠٠) سنة تقريباً ؛ أنشىء في عهد المستنصر بالله الفاطمي ليوضع في عسقلان، فنقله السلطان صلاح الدين الأيوبي الى الخليل . ونقوشه تتألف من زخارف فاطمية بارزة، متقنة الصنع ، مترعة بالاشكال الهندسية بين مخمسات ومسدسات ؛ وبجانب المنبر محراب مصنوع من الفسيفساء المذهبة الملونة، تؤلف في مجموعها نقوشاً عربية ترجع الى عهد الملك قلاوون . وثمة لوحة بخط يوناني قديم من زمن (جوستنيان)، فيها ذكر ابراهيم ودعاء لمن بنى البناء ، ولوحة اخرى بأسماء سبعة من العمال الذين رفعوا السقف وعقوده في القرن الرابع الميلادي ، عهد الملكة هيلانة ، أم قسطنطين .

وبين مدخل أضرحة الآباء البطاركة ، والباب الخارجي للمسجد ، باب يعود لأيام سليمان بن عبد الملك وهو حاجز منيع ..

وقد يصل اليهودي الى مدخل رواق الجامع ، حيث الدرج الحجري ، ولا يستطيع أن يتحداه ، ليزور بطاركته ابراهيم واسحق ويعقوب ، وأزواجهم ؛ وإن قلبه ليفيض حسرة ، وكبده تتشقق ، طلباً للزيارة ، ولكن دون ذلك أهوال .. فما عليه إلا الوقوف خارج الجامع ، كما يقف بجدار المبكى ، خارج جامع المسجد الأقصى يندب هيكل سليمان ، وأمجاد اسرائيل .!

في بيت لحم

« في بيت لحم ، ولد المسيح ، كانت صغيرة ، صارت كبيرة »

تلك هي المعزوفة التي عاودت صاحبنا وهو يهبط السيارة في الطريق ، بين الخليل والقدس ، ليسلك ذلك الدرب المشرق الباسم الى بيت لحم .

عاودته تلك المعزوفة ، التي طالما سمعها كل سنة ، أثناء تردده على بيوت الله ، ليشهد حفلة ميلاد السيد المسيح ، له المجد .

واليوم ، ما كان خيالا أصبح حقيقة ، وها هو ذا وجهاً لوجه أمام القرية التي شهدت ميلاد كلمة الله ، عيسى بن مريم ، والتي تقع فيها أقدم كنيسة في العالم ، كنيسة المهد ، التي بدأتها عام (٣٢٩) القديسة هيلانة ، فاستحقت شكر الاجيال ، وأصبحت بين الخالدات والخالدين ..

وما كدنا نحني خضوعاً لنجتاز الباب الضيق لهذه الكنيسة الفخيمة ، حتى واجهنا أربعة وأربعون عموداً من المرمر ، المشرب بالحمرة ، قائمة على صفين متقابلين متوازيين ، يرتكز عليها السقف بسطحيه المائلين . وفي الاواسط ، وبين الاعمدة ، تتدلى سلاسل طويلة ، تحمل مصابيح نحاسية صفراء ، كانت تستعمل للاضاءة في سابقات الايام .

والبناء روماني قديم ، تستر جدرانه العالية الفسيفساء ؛ وفي أقسامها العليا صور قديمة يعلوها الغبار ، تمثل القديسين ، كما أن على الاعمدة صوراً ملونة أخرى ، تمثل حياة المسيح وحوادثه المختلفة ، يكاد يعفو الزمان عليها لقدمها . وتحت كل صورة كتابة يونانية تشرح المثال .

ولن يستطيع قلمنا العاجز أن يصور التحف الثمينة ، والآثار الرائعة في هذه الكنيسة . فها هي صورة العذراء مريم بذراعين من فضة ، وهي هدية بيت لحم

للكنيسة ، وفوقها جثمان السيد المسيح مصنوع من العاج ، فوق قماش من المخمل ؛ وأما المذبح فهو من خشب محفور مذهب مزركش ، تضيئه الشموع ، وتحف به الشمعدانات العظيمة ؛ وفي كل جانب صور كبيرة ثمينة رائعة ، للسيد المسيح أو أمه ، أو القديسين .

ووضع على طرفي المذبح كتاب مقدس ، مفتوح على اللحن الثالث في السحر ، جاء فيه : « ما دمت متغربة يا نفسي ، فتوبي ، فان التراب في القبر لا يسبح ، ومن الذنوب لا ينقذ . »

ورحم الله حجه الاسلام الغزالي القائل : طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا لله ، ونحن قصدنا الزيارة ، وتأمل الآثار ، فاذا بنا أمام لحن صوفي ، تهتز له النفس خشوعاً ، ويهيمن على الاحاسيس ، وينتقل بنا الى عوالم علوية . !

« ما دمت متغربة يا نفسي .. »

جعل صاحبنا يردد ذلك بصوت فيه رنة موسيقية ، فأعجب به سادن الهيكل ، فاحتفى بنا ، وحسبنا من كبار المتدينين المتعصبين لدين السيد المسيح ، وكادت تغرورق عيناه ، وصاحبنا يفسر له الكلمات .. فاللهم إيماناً كايمان العجائز ..

ثم دخلنا سردابا كبيراً تحت الكنيسة ، برفقة عائلة عربية ، تتألف من أم تنم تقاطيعها عن جمال كان فاتناً ، وبصحبتها ابنها ، وابنة نحيلة وضع لها صاحبنا حالا علامة (٦) من عشرة في مقياس الجمال ، تقديراً واستحساناً .!

دخلنا السرداب ، فوجدنا في كل مغارة ذكرى خالدة لم تقو الجدران على محوها ؛ فالتماثيل الرائعة منثورة هنا وهناك ، والصور بارزة ، والجامات البلورية تغطي الجدران . ولن ترى العين أجمل من تلك الصورة التي تمثل العذراء ورضيعها ، وهي مصنوعة من الصدف .. أو تلك الصورة القائمة في مغارة الاطفال تخليداً لذكراهم ، عندما قتلهم الرومان فيها .. فترى اليهم على الجدران بالفسيفساء الحجرية الملونة ، وتكاد تنطق .! فلا تغيب عنك الظلال ، ولا خصلات الشعر الدقيقة ، حتى ولا ذلك الفزع المتجلي في وجوه الاطفال ، وتلك القسوة الجامحة في وجوه

الطغـاة .. كلها كانت بارزة ممثلة أجلى تمثيل ..

وشاهدنا تلك السجادة الكبيرة الأثرية ، غير قابلة الاحتراق ، التي أهداها عاهل فرنسا لويس الرابع عشر .! وفي أرض المغارة نجم من الفضـــة عليه نقش باللاتينية مفاده ميلاد المسيح . وفي جدار تلك المغارة كوة ، عليها آثار نقوش بالفسيفساء تدل على أن هذا المكان كان مزيناً زينة باهرة في أيام قسطنطين . وله احترام عند المسلمين . ومقـابل تلك الكوة باب صغير ينزل منه بثلاث درجات الى المذود الذي وضع فيه المسيح عند ولادته . لكن المذود نفسه غير ظاهر ، لانهم كسوه بالرخام الابيض في أسفله ، وبالاسمر في صدره ؛ ووضعوا فيه تمثـالا من شمع يمثل الطفل يسوع . وبجانب المغارة مكان يريدون بهموقف المجوس لما جاؤوا ليسجدوا.. ثم قصدنا مغارة الحليب وهي خارج الكنيسة الكبرى ، برفقة العائلة العربية وسرب من الجنود الزنوج الذين لم يصـــلوا مكاناً إلا وخروا فيه سجداً . وكنـا ندخل على أثرهم ، فننعم بالرؤية ، ويغرمون الحساب .

وفوق الباب الخارجي للمغـارة ، نافذة بلورية يبدو فيها تمثال العذراء ، وعلى رأسها تاج ، وأمامها زهرية ،وقد كتب على يمينها بالعربية ، مع الترجمـة اللاتينية : « أعطنـا الرحمة الكاملة . » وعلى يسارها : « واذا مـــلاك الرب تراءى ليوسف في الحلم قائلا : قم،وخذ الصبي وأمه، واهرب الى مصر ،وكن هناك حتى أقول لك ، فان هيرودوس مزمع أن يطلب الصبي.» وعلى الباب كتب : « أظهري ذاتك أماً لنا .»

وفي داخل المغارة ، فوجئنا بمنظر يمثل مار يوسف مع العذراء وابنها ، وبمنظر آخر يمثل الطفل يسوع وهو يرضع .

وغادرنا الكنيسة لنزور حوانيت البلدة ، ومصانع الآثار الصدفية ، والخشبية، التي اشتهرت بها بيت لحم ، فغدت موارد طيبة لها من جيوب السائحين ..

وهل ينسى الانسان أزياء النساء في بيت لحم . ؟ وهي أزياء فريدة في بابهـا ؛ فيها جمال الشرق وسحره وألوانه .. فترى المرأة وقد وضعت على رأسهـا طربوشاً طويلا سترته بقماش ملون ، فأحاطته كما تحيط عنقها بالأطواق والنقود الفضيـــة ،

وارتدت ألبسة زاهية طويلة فضفاضة؛ تسير فنسمع رنيناً مؤنساً في تلك الطرقات المشرقة النظيفة ، في البلدة التي حظيت بمولد السيد المسيح صلوات الله عليه وسلامه ..

وقصدنا (الباص) برفقة العائلة الكريمة ، التي طاب لها الجو بصحبتنا في تلك الربوع ، فرأت مناظر ما كانت تتاح لها لولانا ، ونعمت بشروح هيهات أن تطلع عليها لولا صاحبنا .

ولعل العائلة الكريمة وجدت فينا شابين ممتلئين حماسة لدين الله ، يفيضان عليها المعلومات الجامعة المانعة عن المصلوب ودعوته ورسالته .. ولقد تجلت ، علم الله ، مهارة صاحبنا بأجلى معانيها ؛ فما كنت تسمع منه سوى التراتيل الكنسية ، والتعابير الكهنوتية ، التي لا تدري من أين يكتشفها . حتى أن المرأة سألتنا عن مذهبنا قائلة: «أنتم روم أم كاثوليك؟» فأجاب بدون انزعاج : «لا ، بل كاثوليك لاتين ..» وصمت ، ثم غير دفة الحديث ..

ولقد أغراها صاحبنا بزعمه أنا نزور البقاع الطاهرة، باسم العلم والفضيلة والدين، لتأليف كتاب عن أيام النصرانية الاولى ، يأمل له الذيوع والشيوع ، في مشارق الارض ومغاربها . ولعل هذه الام الطيبة ، وجدت فينا صيداً ثميناً لابنتها العذراء، فدعتنا بحرارة لزيارتها في حيفا .. لعل الجو هنالك ملائم ليكون أحدنا نصف ابنتها الآخر ، ومتمماً لدينها ودنياها .

وعدنا وقد بدا الكمد على محيا الفتاة ، أسفاً على هذا اللقاء الخاطف ، والوداع

العاجل ؛ على أن صاحبنا لم تلن قناته ، ولم يسلس قيـاده ، وهو من يحتفظ بحقيبته بستين خصلة من الشعر مختلفة الألوان ، اجتزتها يد المحبة من رؤوس الحسـان ؛ فقنع من الغنيمة بالاياب ومن الوداع بنظرات لو ترجمت الى لغة المحبين لكانت : سنأتي ، وانتظري ..

وعاد صاحبنا الى فندقه ، يفتش عن رفيقات الليل ، من بنات صهيون . وليغفر الله له ، فقد جعل بيني وبينهن حاجزاً من فولاذ ؛ فقد أخبرهن بأني (محصَّن) على لغة بعض الفقهاء ؛ وقضى برفقتهن لوحده ساعات ؛ ستكون له خير ذكر في آتيات الايام ، كالزهرة النضيرة التي توضع بين صفحات الكتاب ، ثم يعثر بها صاحبها فيما بعد ، فيجدها مهمشة ذابلة ، ولكنها محتفظة بأريجها القديم ..

الميت يحيا ..

من لم يقصد البحر الميت في فلسطين ، فكأنه لم ير شيئاً من النشـــاط الصهيوني الصنـاعي . ولئن سمي بالأمس البحر الميت ، فلك أن تسميه اليوم بحـر الحياة والحركة .! فعلى ضفافه ، قام أروع مشروع صهيوني ، بعد مشروع كهرباء فلسطين ؛ فأفاد الصهيونيون منه دون العرب ، فوائد جمة ، في المـال والعمل والنفوذ الاقتصـادي .

تلك هي الاسباب الموجبة التي تذرع بها صاحبنـا لننعم بهذه الرحلة . فقصدنا منذ الصباح الباكر محطة سيارات (ايجد) .. وراعنا فتيات يحطن أباهن ، دون بكاء أو عويل ؛ رغم أن الامارات كلهـا ، كانت تدل على أنه مسـافر الى بلد بعيد ، ولعله سيمتطي الطائرة ، من مطار (خاليا) القائم على ضفاف البحر الميت.!

كنا نظن أن النحيب سيتعالى ، والزفرات ستتصاعد ، وستشد الأثواب، وتقطع الأزرار ، عند الفراق ، لئلا يسافر الاب الرؤوف ، وإظهاراً لألوان الحنان الشرقي .. لا ! لم يحدث شيء من ذلك ، وليس سبب هـذا الصبر ، أن العواطف البشرية ، نضبت من قلوب القوم ، ولكن الحقيقة ، هي أن مفاهيم الحياة ، تغاير ما نفهمه ونشعر به ..

فقد اضطر ابن اسرائيل طيلة العصور ، الى الحل والترحال ، فلا يكاد يلقي عصا التسيار في مكان ، حتى يغادره الى آخـر ، ومبدؤه في ذلك : وطنك حيث عملك وربحك.. ولا يهمه أبداً ، أن يكون الاب في تل أبيب ، والابن في طبريا ، والبنت في (هونولولو) ، واختها في أميركا .! وفي سابقات الايام ، كان يشاهد صاحبنـا في دمشق ، أطفالا كالزهر ، إناثاً وذكوراً ، يرسلهم آباؤهم وأمهاتهم ، الى المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، ولمـا يتجاوز أحدهم العقد الاول من حياته ، والاهلون

صابرون كأنه لم ينلهم من فراقهم مكروه ..!

نعم ، لقد شاهد الفتيات ، يحطن أباهن ، وفي يد كل واحدة منديل ،يضغطن عليه بكل يدهن ، حتى اذا حم الفراق،أقبلن بكل هدوء،فقبلن الاب بعدمصافحته، دون نحيب ، ودون ملء الدنيا ، صراخاً وعويلا .!

وسارت السيارة ، في الساعة المحددة تماماً كالعادة ، واطمأن كل راكب الى نفسه ، في مقعده المريح . وللمرة الاولى ، جرت الرياح بما لم يشته صاحبنا المحترم.! فلقد قدر لنفسه ، أن تكون الطريق بين القدس والبحر الميت ، خالية خاوية ، فما عليه جناح ، اذا اعتزل الناس في آخر السيارة ، واستسلم الى رقاد لذيذ ، يفي به بعض ديونه،من النوم الفائت ، في الليالي السابقة الحمراء،مع غانيات الفندق الرعابيب..

وقد يجمع الله الشتيتين

وجلست بجانبي هيفاء رومانية ، كانت عيناها تقولان : أنا الحب ، وشفتاها أنا الشباب ، ووجودها أنا السعادة ، وفي شعرها الذهبي ، سحر حلال ، وإغراء يعنفط القلوب والاكباد .! أما صاحبنا ، فقد قبعت بجانبه ، امرأة موفورة الشحم، مترهلة اللحم ، كأنها برميل ضخم من الثياب الوسخة ، والوجه الوضيع الحقير ، هذا اذا قسمنا الوجوه ، الى جميل ودميم ووضيع ، وهو أحط الدرجات ، في سلم المقاييس الهوليودية ، لانه يجمع خبثاً الى جانب الدمامة . . نعم ، كانت جارته — والشهادة لله — عجوزاً درديساً،ذات ذؤابتين طويلتين ، تتدليان بخروق ملونة ؛ وأمامها كيس مفعم بأنواع المأكولات ،يسعف صاحبته المجترة ، التي لم يكف فمها عن المضغ والقضم ، طوال الطريق . . وجعل صاحبنا ينقل طرفه بين الحسناء الرومانية جارتي ، والدميمة المقدسية جارته ، ويستعيذ بالله ويحوقل ، ثم يعـــود فيهتف بي ، من قعر السيارة ، بلهجته الشامية : « وين . . خوي » .؟ — تخفيفاً لأخي وتلطيفاً — فأجيبه:«رزقكم في السماء .!»فيقول ساخطاً متبرماً : إن الله مع الصابرين.!ثم يهوي برأسه على حاجز أمامه،ويستسلم الى بضع دقائق من النوم المضطرب.

واذا كان الشاعر يقول : ما إن ندمت على سكوتي مرة.. فاني قائل : ولقد ندمت على السكوت مراراً .. ومكره أخوك لا بطل .! فما كنت أفهم لغة جارتي الرومانية ولا العبرية ، ولا تفقه هي فرنسيتي المهشمة، أو عربيتي الفصحى .! فظللت صامتاً وسفيرنا العيون . ومن باب التحدث بنعم الله ، فقد كان يزدحم الجسمان ، رغم الفصل الحار ، بفضل التواءات الطريق وانحناءاته ، كلما صبت السيارة ، ومالت وانعطفت ؛ فيبث الصامتان ما تضطرم به جوانحهما ، من أشواق وشهوات مكبوتة؛ حتى أن صاحبي بصر بي وأنا في موقفي الدقيق ، فصاح شامتاً : « قل إنما الاعمال بالنيات .! وبخواتيمها » فابتلع كلماته على مضض ..

ثروات عربية في أيد يهودية

لم تكن غايتنا ، زيارة البحر الميت ، والتمتع بمياهه ، بل كان هدفنا الأسمى ، زيارة المعامل القائمة على جوانبه .. والبحر الميت أخدود انهدامي ، لا يقل عمره عن (٣٠) الف سنة ؛ أي انه حسب علم الجيولوجيا المحـــترم ، من آثار الدور الانهدامي الثالث . ويتصل ببحيرتي الحولة وطبريا ، بواسطة نهر الاردن ، الذي ينحدر حتى ينتهي عند البحر الميت ، بعمق (٢٥٩٢) قدماً عن سطح البحر .وهو أعظم انخفاض في العالم كله• أما سطح الماء فينخفض عن سطح البحر نحو(١٣٠٠) قدم .! وطول هذا البحر (٤٩) ميلا وعرضه (١٠) أميال ؛ وبما أن الحر شديد هناك ، وما يغذي البحر من الانهار قليل لا يتجاوز نهر الاردن ، فانه يمعن في التبخر المستمر ، منذ آلاف السنين ؛ حتى أصبح ثلثه الآن أملاحاً متكاثفة ؛ إذ يتبخر منه كل يوم ستة ملايين طن من المـاء ، الذي يترك في الأغوار املاحاً تقـــدر بـ (١٣٠٠) مليون طن . وملح الطعام هو جم المقدار في هـذه الميـاه ، حتى أنهم ليستخرجون سبعة أطنان منه ، ازاء كل طن من البوتاس ، وأما سائر الأملاح الفرعية ، التي تستخرج بعد ذلك ، فهي كثيرة : كالفوسفات ، والصود الـكاوي ، وغاز الكلورين، وكلور حمض الماء ، وعدة مركبات صودية..

وبالاجمال ، فان في هذا البحر كنزاً رائعاً لا تقل قيمته عن (٢٤٠) ألف مليون جنيه .!

ولم تفت أقطاب الصهيونية ،هذه الثروة الهائلة ، فأدخلوها في برنامجهم الصناعي الكبير . وما حانت سنة ١٩٢٣ حتى تم الاتفاق ، بين وكلاء التاج للمستعمرات البريطانية ، بالنيابة عن حكومتي فلسطين وشرق الاردن ، وبين (نوفومسكي) و (تولوخ) على شروط استثمار البحر الميت . فتأسست شركة من أجل ذلك ، باسم (شركة البوتاس الفلسطينية المحدودة الضمان) . ومدة امتيازها (٧٥) عاماً ؛وليس لها خلالها أن تتنازل عن الامتياز أو تؤجره ، أو تتصرف فيه على وجه آخر ،دون موافقة الحكومة ؛ كما أنه ليس لها أن تمتلك ما تجده من الذهب ، والمعادن الثمينة ، والآثار القديمة ، والزيوت المعدنية النفيسة .!.

وقد ضمن اليهود بحصولهم على هذا الامتياز ، زيادة هجرتهم الى فلسطين ؛ وإكثار شعبهم ، عدا وضعهم يدهم على أعظم ثروة فعلية في البلاد .!

وترى الى هذه المعامل ، قائمة على ضفاف البحر ، وفوق مياهه ، بمبانيها الفخمة، ومداخنها التي تقذف الدخان القاتم ، في سماء لم تعكرها في خاليات القرون ، قزعات الدخان الأدكن .! وكانت المعامل محروسة من جميع جهاتها ، كمنطقة حربية ، لا يسمح لاحد بزيارتها ما لم ينل رخصة رسمية من ادارة الشركة في القدس .. ولعل ذلك ، هو ما زهد صاحبنا في زيارتها ، فرضي من الغنيمة بالاياب . فما كادت السيارات تقف ، حتى أسرع الى الحمامات القائمة بجوار مستعمرة (خاليا)على ضفاف البحيرة ، يختال بجسمه الضخم ، أمام الجنس اللطيف ، ناسياً أن بني آدم ، ليسوا جميعاً ممن يقال لهم يا نحيف القوام .!

وفي المستعمرة محطة للطيران المائي ، وفندق عصري ممتاز ، وبار ومطعم ومياه عذبة ، وأحواض أزهار ، وأشجار باسقات .. مما يدعو الى تداعي الأفكار في المعلومات الجغرافية الخاطئة القائلة : بأن البحر الميت،لا تعيش فيه الاسماك ،ولا تنبت على ضفافه النباتات .. فقد وجد صاحبنا أن نصف الشطر الاول من التعريف

صحيح ، والشطر الثاني خطأ صراح .. فعلى ضفاف البحيرة برك تربى فيها الاسماك، وهي على قيد أشبار من الماء المر العلقمي .! ورغم أن هذه الاشجار والأزهار قليلة، فهي صفعة عادلة للعلم الجامد . فكم تمنى أن يأتي مؤلفو كتب الجغرافيا التجارية ليتحققوا من صحة اكتشافاته الهائلة .!

بكاء شيلوخ ، دموع التماسيح

لعل زيارة بحيرة لوط أو البحر الميت ، لم تبد لنا جميلة مفيدة ، لو لم نتعرف الى ذلك اليهودي العراقي الدميم .. لقد كان متوطناً فلسطين مع زوجته وأولاده ، وهو رجل ثرثار جداً ، استطاع بلسانه السليط ، أن يملأ فراغ (الباص) طوال الطريق، صراخاً ولعلعة مزعجة .!

كان يملك ٩٥ ./. من القبح الرجعي القديم ، وست أسنان سوداء ، وصلعة مضيئة لامعة ، وحنجرة قوية من نحاس .! أما زوجته ، فكانت ذات وجه ، يحمل كافة الألوان الطبيعية الستة ، مع زوائد و (بوارز) من بطن منتفخ ، الى عجيزة غليظة ، وجبهة عالية .! كل ذلك جعل لحديثه الطريف ، صبغة حارة مزعجة .. بيد أن الطريق القائظ ، دفعنا الى التسلي بسماعه ، يثرثر مع جاراته (البغداديات) والبيروتيات ، والأميركيات اللواتي جئن يستحممن للاستشفاء .

وعندما صعد من البحيرة ، وقد دهن جسمه بطينها ، جلس مع صاحبنا على الحصباء تحت الشمس اللاذعة ، يستمتعان بحديث جذبني (قتاره) سريعاً .. فدنوت لافهم الكلام الساخن الباكي .!

ومط شفته كقطعة من (الكاوتشوك) ، وتدلع وهو يدلك صدره .. ولست أدري ، من أين له هذه المعلومات الخصبة ، عن الصهيونية وأنبائها وتاريخها . ؟ فهل جمعها من المصادر المختلفة المملوءة بها مكاتبهم ، أم أنها نسخة أصلية ، يوزعها قادة صهيون على شعب اسرائيل ، لتكون ذات شكل واحد ، وروح واحدة ، في الدفاع والبكاء والاستخذاء .؟!

قال شيلوخ — وقد سميته كذلك ، لاني رسمت لهصورة في نفسي ، لا تبعد عن هيئة ذلك المرابي الاول ، بسحنته وثعلبته الثقيلة المقوتة — :

إن القرون العديدة المنصرمة ، لم تزد اليهود إلا إيماناً بحقيقه راهنة ، وهي أن ديار الغربة ، ديار عذاب ؛ وأن القرن العشرين،قرن العلم والنور ، قد برهن بجلاء، على أن اليهود ، سيبقون أبد الدهر ، كبش الفداء ، أمام كافة الشعوب ، ما داموا بعيدين عن وطن قومي،يعيشون فيه أحراراً مجتمعين ، تحوطهم السكينة والطمأنينة .!

إن عشرين سنة خلت في أوربا ، كانت كافية ، لتلقن الشعب اليهودي ، درساً لن ينساه ، لما حوته من ضروب النفي والنهب والمذابح والمقاطعة ..

ولعل هذا العصر المرعب ، المترع بالارزاء ، هو العصر الوحيد ، الذى انطوى على أعظم حادث في تاريخ اليهودية ؛ ألا وهو اعتراف العالم المتمدن ، بحركة الصهيونية الرسمية ، وذلك باعلان وعد بلفور ، لانشاء الوطن القومي ، وتفويض انكلترا من قبل جمعية الامم ، تحقيق الاهداف التي جاهد اليهود في سبيلها .!

وضحك هنا، قبل أن يفتح فمه قائلا : إن نتائج كل حرب ، هي سيئة بحدذاتها، على الغالب والمغلوب ، غير أنها ستكون أسوأ بكثير من ذلك على اليهود . ! لانهم أقلية في كل شعب .. إنهم يعتبرون دوماً في رأس القائمة ، يحملون أوزار غيرهم وشرورهم . وليس أسهل حينئذ من مصادرة أموالهم وأراضيهم ، فينهبون ويطردون ويشردون بلا شفقة ولا رحمة .. في كل زمان ، وتحت كل كوكب ..

لقد كان اليهود في المجتمع الاقطاعي ، وسيطاً تجارياً بين الاسلام وأوربا ؛ ولم يتأخروا قط عن مناصرة الصليبيين وتمويلهم ؛ فتمتعوا لقاء ذلك ، بحماية الملوك والامراء ، ونالوا امتيازات هامة ، كما كانوا في ظل الاسكندر والرومان .!وعندما حصل الصراع بين الأرقاء والاسياد ،وبين البورجوازية الناشئة الحديثة والنبلاء، تدهور النظام الاقطاعي عندئذ ، ولجأ رجاله الى كبش الفداء ، ليحولوا سخط الجماهير الثائرة الناقمة على اليهود . ولم يجد هؤلاء بداً من الفرار الى أواسط أوربا والأناضول .! واليهودي بطبيعته ، وبتحكم الظروف فيه ، صار أريباً ذكياً ، يلين

مع العاصفة الهوجاء ، دون أن ينكسر .. فلم يفن اليهود ،رغم الحوادث المذكورة والمذابح ، بل التجؤوا عقب انهيار النظام الاقطاعي ، الى الرأسمالية ، التي اعتقدوا بأنها ستنجيهم وتحررهم من الضغط ، لان البورجوازية شعرت بفائدتهم حينئذ وقيمة مساعدتهم ..

أجل ، لقد تحول فقراء اليهود ، وصغار تجارهم ، الى عمال تدريجياً ، حتى نمت الصناعة الكبرى ، ونمت الرأسمالية اليهودية معها . وهذا هو ما يفسر حركات الهجرة من الشرق الى الغرب ، وأقصد بذلك الهجرة من روسيا الى الولايات المتحدة .. حيث الحقوق السياسية كانت متوفرة للسكان ، وخاصة لليهود ، مما يجعلنا نفهم سر التقدم ، وعملية الرأسمالية الصناعية الحرة ..

ولا بد هنا من الانتقال حسب التسلسل الواقعي ، الى مرحلة الرأسمالية الاحتكارية .! فان نمو الرأسمالية ، جعل الدول تنحو نحو الاستعمار ، وتقسيم العالم أسواقاً لها .. وعلى هذا اندلعت نيران الحروب ، وانفصل عقب حرب (١٩١٤) النظام الاشتراكي عن الرأسمالية ، وانتشرت البطالة ، وتصدع على أثرها النظام الرأسمالي ..

لقد حصل صراع بين (البروليتاريا) والبورجوازية .. صراع مكاني ، وصراع عالمي .! حتى بين البورجوازيين أنفسهم .. ومقابل ذلك نشب الصراع بين المستعمرات والمستعمرين من الدول .. وفي كل ذلك ، كانت تنصب النقمة على الكبش الطريد ، الذي يختفي غالباً وراء المال منقذ اسرائيل ..

وهنا ، صرخ شيلوخ ، منادياً صديقة له : راشيل .. راشيل ..

ثم كلمها بعبريته الرنانة المدوية ، وجعل يقهقه .! فأقبلت تسعى اليه ، باسمة حتى جلست معنا ، فعرفها بنا ، وكأنه أفهمها أننا يهود لا صهيونيون .. وعندما رآنا ذابلين ، ننتظر وصل ما انقطع من البحث قال : إن ضمانة الشرف والحياة والمال ، تقوم في الشعب المنظم ، ولن يكون هنالك شعب منظم دون أرض ، كما أنه لن تكون هنالك إدارة حرة فوق الارض ، اذا لم يكن الشعب هو سيدها ومالكها .! فلا

حرية ولا كرامة ولا سلام لشعب ، لا وطن له .! فالوطن هو الصلة الوحيدة ، للنمو المستمر الهادئ ، والتقدم المطرد .. ولكم نال اليهود بسببه ، طوال عشرين قرناً ، من حرمان وعذاب .! إن جميع خدام قضيتنا ، يرون أن عصرنا ، هو خير العصور لانشاء هذا الوطن .!

ثم بدأ يحول لهجته ، الى صبغة مسرحية ، وقد أذاب سحنته مايشبه الزلزال .!

قل .. لي .. بالله .. أليس من أكبر الخدمات الانسانية ، التي تقدمها البشرية لهذه الملايين المبعثرة في أربعة أركان الدنيا ، هو أن تعطف على قضيتنا .؟!

نحن لا نريد سوى وطن روحي سياسي قانوني ، تحميه إرادة الشعوب المهذبة ، التي أيدته .. وشرع شيلوخ يحلم .. إن عدد اليهود في العالم اليوم (١٧ ؟) مليوناً تقريباً ، وإن لهم من المقومات الفكرية والروحيـة والمادية ، ما يؤهلهم لحماية هـذا الوطن المنشود .. وخير مثال لهم : أولئك المستعمرون الحاليون .. وإن وجود مليون يهودي مبدئياً في فلسطين ، ينشئ رقبة الجسر ، والقاعدة المالية والسياسية الهامة ليهود العالم ، وليس بعيداً ذلك اليوم الذي يبلغ فيه عدد اليهود (٣٠) مليوناً من الانفس العاملة . إن فلسطين والشرق العربي وسورية ولبنان والعراق ، وأكثرها مناطق صحراوية خالية خاوية ، يمكننا أن نعتبرها ، مجالا حيوياً لنا .. فهي إذن ، خير ملاذ لعشرين مليوناً من اليهود .!

ولم تتركنا زوجه هادئين نستمع اليه ، فقد أصرت مع (راشيل) ، على أن يذهبا معه الى السباحة ، فاعتذر لنا بصوت رفيع رنان ، وأسرع يقفز على الحصباء كالقنفذ تتبعه (راشيل) .!وسار في أثرهما صاحبنا ، وتركني وحيداً مرة اخرى .!

رحت أتأمل هذه الاجسام البشرية أمامي ، بعضها جميل ، وأغلبها دميم ... ذلك أن من يزور البحر الميت ، غالباً ما هو مريض ، أو عجوز ، يسعى لتقوية عضلاته وجسمه ، بما في الأمواه من أملاح معدنية .! ولقد اكتشف صاحبنا ، أن ماء البحر كثيف ، لدرجة تكفيه أن يلقي جسمه فيه ليطفو ، دون أن يبدي حراكا . ولكن ، حذار من دخول الماء الى عينيك ، فانك لن تقوى على احتمال الآلام الشديدة .

استلق المغامر الرفيق على الماء وراح يقوم بحركات ماهرة لبقة ، جعلته ينساب بين المستحمات ، كغواصة تعود الى قواعدها . . وكان يقف أحياناً ، أمام جسم غض مقبول فيسأل صاحبته: هل تلاقين من ملوحة الماء ما ألاقيه.؟ ويكون الجواب ، بالايجاب دائماً .! ولقد أبصر عجوزه الدرديس ، مستلقية على حصباء الشاطئ، في عمق لا يزيد عن ربع المتر ، وهي تحسب نفسها في المحيط الهادي ، تسبح فتحرك زعانفها كالضفادع ، ولا يكاد ربع المتر هذا ، يستر أكمة ظهرها المحدودب.! وشاهد أيضاً سرباً من الفتيات ، يذهبن الى مكان قصي ، ليطلين أجسامهن بذلك الطلاء الازرق المذكور ؛ فيتألقن تحت أشعة الشمس، كتماثيل نحاسية ،في معابدهندية .! وشاقته هذه العملية ، وخاصة بين الغيداوات ، فراح يخطر على الحصباء ، ثم يغوص في البحيرة ، مفتشاً عن ذلك الصباغ المدعى بـ (تخمة الماء) . . وما هو إلا تعامل المواد الكيميائية مع التراب . . ولا يختلف في قوامه عن المرهم ؛ وهم يزعمون أنه يشفي من الامراض الجلدية والعصبية . .

وهنا ، لم يتردد في طلي جسمه كله ، حتى الوجه والخدين والاذنين ، لا لعلمه الأكيد ، بنفع الطلاء ، — وهو أمر مشكوك فيه — بل لانه علاج مجاني، ولانه لا يقل ذكاءً واقتصاداً عن أولئك المدهونين والمدهونات ، من قمة رأسهم حتى أخمص أقدامهم . . غير أن عقدة العقد ، هي كيف يطلي أعلى ظهره . . ولم يقف هنا طويلا امتثالا لقاعدة : لا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس ، فما هي إلا أزمة عابرة . . ولن يعيي ذكاؤه الألمع عن حل لها .! والواقع أنه ما كاد يطلي جسمه ، حتى هرول نحو أقرب آنسة منه ، كستنائية الشعر ، زنجية اللون طلاء ؛ تقدم منها متأدباً متطوعاً لوجه الله — لا للشيطان — قائلا بعد انحناءة صغيرة : اسمحي لي أن أضع نفسي تحت تصرفك . . فالضرورة وهي أستاذ الأدب واللياقة — كما يقول الفلاسفة — ترغمني على مساعدة الفاتنات في دهن ظهورهن .! فلم ترفض طلبه ، بل أدارت له ظهرها ، بعد أن رفعت حاملة النهود ، وتركت له جسمها اللدن ، يمسه بالطلاء ، حتى أتم مهمته على خير وجه .! ثم طاف حولها ، كما يطوف الهنود

بالآلهة ، فرأى فيها (فينوس) البحر الميت ، وقد خلت من كل ستر ، إلا من أصغر (مايوه)شاهده في حياته ؛ فقد برز نهداها الأسودان فوق جسم متألق لامع تحت الشمس المنعكسة من الطلاء .! وما كاد يطمئنها الى قيامه بالواجب ، حتى أرادت أن تقابل الكرم بمثله ، فاستأذنته بطلاء ظهره؛ ولو علمت أن طول ظهره شهر وعرضه دهر ، لأدركت زلتها في معونته .! ويستطيع صاحبنا أن يؤكد بأنها ما كادت تطلي قسما من ظهره ، حتى جف الطلاء سريعاً ، لارتفاع حرارته أكثر من ثلاث وأربعين درجة .! وانتهت المهمة ، فسارا يتلويان على الشاطئ ، وقد أمسك كل منهما بيد الآخر ، ثم ارتميا في المياه الحارة .! وحمد صاحبنا ربه ألف مرة ، على أن قرار الجامعة العربية بمقاطعة البضائع الصهيونية لم يكن قد وضع بعد موضع التنفيذ وإلا لفاته هذه الخدمات وما جرته عليه من ثواب .!

ظللت أتأمل ذلك (الفلم) الحي ، بمثله نصير من أنصار الفضيلة ، وقد غرر بي الى بحر الميت ، لوجه العلم وحده ، فاذا به يلهو باسعاف (المنطليات) وإرشاد التائهات . . .

وخرج الجميع من البحر ، وقصدوا السيارة . . ولم يكد شيلوخ يجلس في مقعده ويطمئن الى زوجه المصون ، حتى حيانا وابتسم ، أو بمعنى أصح ، كشر عن أنيابه وقال بصوت يوشك أن يسمعه الجميع بعد أن أخرج علبة سجائره : أتدخنون .؟ فاعتذر صاحبي كما اعتذرت . . ثم دار الحديث بأن سأل الرجل صديقي عن مهنته : فاعترف بكل خجل أن صناعته موظف .! فقال شيلوخ :

وكيف رأيتم فلسطين ، والمعامل . . والبحر .! إنها — على ما أعتقد — ، مسلية مغبطة ، وقد أبرزتها الايدي اليهودية العاملة ، عروساً شرقية متحضرة .؟ وتابع :

إن الشعب اليهودي ، الذي ساهم بخدمات جلى للبشرية ، لم يكافأ عنها بشيء ؛ بل على العكس ، ظل مهملا مزدرى .! فهذا هو (آنشتين) صاحب نظرية النسبية ، وذلك هو (فرويد) صاحب نظرية التحليل النفسي ، وذاك (فرتز هابر)مكتشف الآزوت ، و (برغسون) و (سبينوزا) وغيرهم ، وغيرهم . . لم تكافئهم الشعوب

على قدر جهودهم .! فكأن اليهود خلقوا للمغارم دون المغانم .! إن روحنا منذ عهود الانبياء والرسل ، مشبعة بعواطف العدالة الاجتماعية والدولية .. وعدد طلابنا وأساتذتنا في الجامعات ، أعلى من نسبتنا العددية .! وإن هذه الروح العلمية، ستخلق في فلسطين ، جيلا مشبعاً أيضاً ، بمبادىء الحق والخير والجمال .!

إن إنشاء الوطن القومي في فلسطين، هو فائدة عالمية يجب أن تعضده سائر الشعوب.

وهنا وقف (الباص) قرب مخفر للبوليس البريطاني ، على الطريق ، وركب أحد الجنود العرب ، قبالة صاحبنا شيلوخ . وما إن حركنا رأسينا مشجعين له ليتم حديثه ، حتى تطفل الشرطي ، واشرأب بعنقه متشوقاً الى كل كلمة تخرج من فم الصهيوني .. أما الرجل الشاكي الباكي فقد شرع ينفخ سيجارته كالشياطين ، ويقذف الكلام كالحمم ، دون أية مبالاة بمن حضر أو غاب من الناس وعاد يقول : إن زعماءنا وأقطابنا مجمعون على أن لا سلامة ليهود العالم ، إلا بجمعهم في وطنهم المنشود .. وكما أن (الارلنديين) لم يتراجعوا عن مطالبهم ، ولا (البوير) في سالف الزمن ، فاننا نحن كذلك .!

نعم ، لا شيء أسوأ من فقدان الحرية .. غير أن هنالك ما هو أسوأ منها وأشر ، ألا وهو فقدان الوطن .! فالارض هدفنا قبل كل شيء ، والزراعة كعبتنا ؛ ولئن طرد اليهود من كل مكان ، وأجبروا على التجارة والصناعة دون الزراعة — وهي ينبوع غزير الفوائد لدى كل الأمم — فسيكون هدفنا الاول في فلسطين ، الارض والزراعة .!

واذا كانت كل حركة تجديدية، أو كل تبديل وتغيير في حياة الشعوب، يستدعي المتاعب والثورات والاحتجاجات ، فان سبب ذلك كله ، هو عجز الاهلين عن مجاراة الفاتحين المجددين .!

وهنا ، قال كلمة تدل على اعتقاده بنا كيهود ، بعد أن تحمس وانتفخ :

فالى هؤلاء الذين يناوئوننا في فلسطين نقول : لا تفكروا في إلغاء وعد (بلفور) بل حاربونا بسلاحنا ، حاربونا بالزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، والعلم ، والتنظيم ،

ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة .! حاربونا برسم البرامج والاهداف لمئات السنين .!

ثم ضحك ضحكة جريئة خشنة، نزعت وسادة الطمأنينة التي نرقد عليها.. وقال: إن وسائلنا العاجلة ، لانشاء الوطن القومي ، الذى يعضده صك الانتداب ، ووعد (بلفور) ، وعطف العالم المتمدن ، ستقوم على هجرة كلية خاطفة ، تساندها رؤوس أموالنا للقيام بالمشاريع الحيوية .! ولا سلامة لهذه الاموال في المهجر أبداً . وإنما سلامتها هي بين جنبات الوطن القومي .! ولو فرضنا المستحيل وعمت ثورة شيوعية هنا ، فلا خطر منها على أموالنا ، لانها ستبقى في فلسطين ، متكتلة في الارض ، لينتفع بها المجموع .. وإن أمريكا أنصفتنا حقاً حينما قالت : إن منح فلسطين لليهود ، ليس عملاً عدلا فقط ، بل هو مكافأة لهم على ما بذلوه أثناء الحربين لقضية الحلفاء .!

فعلينا أن نمد يد المساعدة ، لتغذية صناديقنا المالية ، وتقوية وكالتنا اليهودية ، ولنعمل كل ذلك يداً واحدة ، بشجاعة ودون توقف أصلاً .! فمهما فقدنا من مال ، ومهما بذلنا من تضحيات ، فهو قليل ، مقابل خلاصنا من حياة الغربة الذليلة، حيث تنهب ثرواتنا ، ويذبح رجالنا ، وتنتهك أعراضنا .

إن كل تضحية في سبيل فلسطين ، ستكون ضئيلة جداً ، إذا قورنت بما خسرناه مالياً وروحياً في الحرب الحاضرة .! وليدرك الشعب اليهودي أنه بنضاله لوطنه القومي ، إنما يناضل من أجل حياته ، وسلامته ومستقبله .. إن نضالنا لن يذهب سدى ، آجلا .. أو عاجلا .!

إن سبعة عشر مليوناً (؟) مجتمعين ، هم أكثر مما يلزم لبلوغ هذه النهاية ،وإن تنظيم جهودنا وقوانا، وتوجيهها لانشاء الوطن المنشود ، يتعلق به سلام قضيتنا النهائي، وسيتقرر لأجيال طويلة .! وهنا ، ربتت على كتفه زوجه ، لتعطيه قطعة من (السندويش) أخذ يلتهمها بشراهة .! ولم نكد نعتدل في جلستنا ، حتى وقف (الباص) .. وهم شيلوخ بالنزول مودعاً : شالوم .! واذا بالجندي يقترب منا ،

بعد أن سمعنا نتكلم العربية الشامية ، ونتبادل النظرات ، فقال : حضرتكم عرب . ؟ قلنا : نعم ! قال : و . . و . . يهود .؟ قلنا مذعورين : لا . . أبداً .! فزفر عندئذ زفرة ارتياح وهمس: أتدرون من هذا .؟ — وغمز بعينه — إنه من رجال الصحافة الصهيونيين البارزين ..!!

أيها العربي

هذا حديث هام يمثل وجوها عديدة للصهيونية :

يمثل لك أن الصهيونيين ، كباراً وصغاراً ، مشبعون بفكرة الوطن القومي ، مؤمنون بتحقيقه ، يفقهونه ويدافعون عنه بكل قواهم؛ ومن ورائهم الوكالة الصهيونية ، تمدهم بالمعلومات ، وتزودهم بأفانين الدعاية .

ويمثل لك أن مطامع الصهيونيين لن تقف عند حد . . فمجالهم الحيوي هو بلادك العربية طراً ، لا فلسطين وحدها . صرحوا بذلك في كل مناسبة ، فآمنوا به ، ويريدون أن ينالوه بكل ما أوتوا من قوة مادية ومعنوية .

ويمثل أخيراً قوة الصهيونية الصناعية الجبارة . . إن استثمار البحر الميت ليس بالامر السهل ، إنه شركة من أعظم شركات الشرق الأدنى ، غمرت منتوجاتها الخافقين ، وراح العربي يشتري بماله ما يساعد الصهيوني على القضاء على العروبة وبلادها . فقاطع بضاعته ، واصبر على حاجتك، وارفع يدك عن سلعته ، فهي تلدغك كالعقرب؛ وحذار أن تنسى أن أغلب رؤوس الأموال اليهودية هي أميركية أو انكليزية ، وان أية لجنة تحقيق لن تنصف العرب ، ولو شاهدت حقهم كالشمس في رابعة النهار . .

فيأيها العربي . . .

إلى العلم ندعوك ، والى الوعي الصحيح نهيب بك ، والى المشاريع الصناعية نستثير همتك . واذكر دائماً وأبداً ما قاله ذلك اليهودي : « لا تفكروا في إلغاء وعد بلفور، بل حاربونا بسلاحنا، حاربونا بالزراعة والصناعة والتجارة والعلم والتنظيم ونسيان المصالح الخاصة في سبيل المصلحة العامة ، حاربونا برسم البرامج والاهداف لمئات السنين . . »

الجامعة العبرية

مخزن أسلحة ..

ليست الجامعة العبرية من مبتكرات (وايزمن) و (بلفور) أو غيرهما ، ممن اعتادوا الرقص على القبور .. ولكنها ترجع الى عهود تاريخية سحيقة في القدم ..

هذا ما قاله صاحبنا ، والسيارة تتسلق (جبل الزيتون) ، لتدرك الجامعة العبرية في ضحى ذلك النهار المشرق؛ثم شرع يدلي ببعض منسياته ، عن أعظم مؤسسة صهيونية ثقافية ، يرجع تاريخ الحلم بها الى أواسط القرن الاول للميلاد ، حين رفع (يوحانان بن زكاي) طلباً الى القيصر الروماني « وسباسيانوس » يلتمس فيه إنشاء مؤسسة عبرية ، تحفظ تراث اليهود الفكري . فأذن له ، وأقيمت الجامعة ، قرب ميناء حيفا ، في مدينة « ينى » . ثم دمرتها الزلازل ، فأنشئت ثانية في مدينة « أوشا » قرب طبريا . ولم يكتب لها العمر الطويل أيضاً ، فاندثرت دون أن تترك منها سوى رؤيا لاذة ، ظلت تدغدغ أفئدة اليهود، حقبة من الدهر .! وقد ألمع الى ذكرها غير واحد من قادة الفكر، ومنهم (روسو) في كتابه (اميل) ؛ بيد أنها لم تبرز ثانية الى الوجود ، إلا مع اليقظة العالمية اليهودية .. فقد فكر فيها لأول مرة « هرمان شابيرا » ، — أستاذ الرياضيات في جامعة (هيدبرغ) في ألمانيا — ، فحض على إنشاء هذه الجامعة عام ١٨٨٢ ، ولم يوضع المشروع ، موضع التنفيذ ،إلا عام ١٩١٣ . فبدأ البناء عام ١٩١٨ ، وظلت تمو باستمرار ، حتى وصلت الى ما هي عليه بالتدريج . في عام ٩٢٨ توحدت معاهد العلوم اليهودية والشرقية ، والآداب الغربية ، في كلية الآداب ، وفي عام ٩٣٥ نشطت كلية العلوم ، ثم كلية الطب عام ٩٣٩ ، وكلية الزراعة عام ٩٤٠ ..

وربت على كتفي منبهاً إياي الى وقوف السيارة .. فهبطنا صامتين ، نمتع أبصارنا

بالوديان ، ونشرف على المسجد الأقصى ، والربوع الخضراء ، والبيع المنثورة في كل مكان ، بين الاشجار ،وخلف التلال ، وكأنها مزيج من الأحلام والخيال والسحر.. وحمدت الله ثلاثاً ، أن قطع الحديث علي ، هجوم المشاهد التي تخلب الألباب والعقول .! ذلك أن دم العروبة الحار ، ما زال يمنعني من سماع أنباء النشاط الصهيوني.. فهو نشاط من شأنه أن يبعث في نفسي التشاؤم ، ويرهبني كما يرهبني العدو المستحكم، فتتهدم قصور سعادتي ، التي أنشأتها ، بالتفاؤل والأمل ،منذ نعومة الاظفار ، وتنهار كأنها قصور من ملح .!

نعم ! لم يكد صاحبنا ينشر خريطته المعهوده ، ويشير الى بناء الجامعة ، أو على الاصح الى أبنيتها المتعددة ، حتى شرع يزيد تلميذه اليائس المسكين ، من المعلومات الواسعة الفسيحة ؛ فيتلو عليه آي بلاغته مرة أخرى .! فسلمت أمري الى الله ،وفي سبيل العلم ، أصخت اليه ، يسرد علي نشاط العدو الهائل ، في هذه القلعة المشرفة على القدس ، فقال :

وكان من أشهر المتحمسين للاستاذ (شابيرا) ولمقالاته الرنانة (تيودور هرتسل) ثم (وايزمن) .. فشربت الارض فوق الطور ، وأعلن اللورد بلفور — سحقاً لذكراه — عام ٩٢٥ افتتاحها رسمياً ، في حشد من العلماء ، ومجندي الصهيونية .!

ثم قهقه صاحبي بصوته الجهوري وتابع : وهكذا فأنت ترى كيف ظهرت الجامعة بسرعة البرق ، وكيف نمت باطراد ؛ وذلك بفضل التآزر والتساند الفعلي ، بالمادة والمادة وحدها ، لا الكلام والخطاب .!

دليل ناعم ذو نهدين

ولم يكد صاحبنا يتم بحثه ، حتى ولجنا الجامعة ، بين صنوف الطلاب والطالبات. وكانت الفحوص والتسجيلات قائمة على ساق وقدم .. فأسرع بكتفيه السمينتين ، لا العريضتين، وسبقني الى غادة مغناجة ، قائلا لها : شالوم .! وحسبه من العبرية هذا السلام .! فأجابته الفتاة بتحفظ ووجل: شالوم .. ولكنه ما إن كلمها بالفرنسية،

معتذراً عن جهله العبرية ، حتى هشت له وبشت ، وصافحته بحرارة ، وكأنها أكلت معه — معاجن — من الخبز والملح .! فهي فرنسية يهودية ، وهو شامي يهودي ، — كما بدا لها — مع زميله شيلوخ الآخر . . — استغفر الله — ذاك الذي لم يستطع ازدراد التنكر بسهولة ، فحوقل واحمر حتى كاد يذوب .!

تطوعت الحسناء لخدمتنا ، وكان غنم صاحبنا كبيراً ، فقد أصبحت الغادة محظيته ؛ وعبثاً حاولت بفرنسيتي الركيكة ، أن أضع قدميها في شبكتي المرقعة ، فلم أفلح ؛ فانحزت عندئذ الى العلم ، والعب منه ، تناسياً للهيب والحريق ، من عيونها الكحلاء . .

ولم تكن هيئاتنا وأشكالنا تنم عن عبث أو ريبة ، وإنما كنا حقاً صهيونيين تائهين ، في صحراء الجمال والنهود ، نغرف من بينها نظرات دسمة ، ومن شفتيها المزمومتين ، شهد العلم والمعرفة .!

وقد سألها صاحبنا ، كدون جوان مثقف ، ويا ليته لم يسأل ؛ لانها أسرعت تدرج له المعلومات والاجوبة بسرعة خاطفة ، كمن يحفظ عن ظهر قلبه ، أنشودة خالدة .! سألها عمن ينفق على الجامعة ، ومن أين يأتيها المال ، وكيف . . . وكم عدد الطلاب . . والاساتذة . . و و . . !؟

وكما أنه سبك كلماته ، بمقصورات وأراجيز ، صبّت هي أجوبتها في قوالب المعلقات والمطولات فقالت : سوف لا تدهش أيها الصديق ، اذا علمت أن موازنة الجامعة عام ٩٣٦ كانت (٥٠) الف ليرة فلسطينية ، وأن المنتسبين اليها من الطلاب العبريين بلغوا (٧٣١) طالباً ؛ وعدد الاساتذة (٣٨) أستاذاً . ثم تبدلت الحال هذه واختلفت في عام ٩٤٠ ، فكانت موازنتها (١١٠) آلاف جنيه فلسطيني ، وعدد طلابها (١١٠٠) طالب ، وأساتذتها (١٣٥) أستاذاً . . ثم ضحكت ضحكة مرحة مباهية ، مفاخرة ، وابتسمنا الى اللاشيء .! وأضافت : وليست جامعتنا هذه حكومية كما تعرفون ، ولا تعتمد بنفقاتها على صندوق عام ، وإنما هي جامعة يهودية ، أنشئت ونمت ، بأموال الشعب اليهودي وجهوده وحدهما ؛ فان ثلثي موازنتها ، يتألفان من التبرعات .! وتلقى الدروس كلها بالعبرية ، عدا دروس اللغات ، كالعربية والانكليزية

والفرنسية وبقية اللغات الحية . وأشارت غادتنـا الى جهة معينة وقالت : هنـا تقع الدوائر الادارية .. ثم التفتت الى الجهة المقابلة قائلة : وهنالك دار الكتب اليهودية والجامعية .. وثمة النادي الجامعي ، والمدرج ، ودار الألعاب الرياضية .!

مكتبة عامرة بالذخائر

جذبت كلمة المكتبة صاحبي ، فطفق يفرك يديه بهجة وسروراً .. وطلب اليها بالحاح أن ترينا هذه الدار ؛ فلم تدعه يتمم حديثه ، حتى جـذبته من يده ، وكأنه طفل شب عن الطوق.! وهرع كالظامئ ينهل من مشاهد الكتب ، خاشعاً متصدعاً من الاحترام ، وكأنه في محراب .! شرعت غادتنا، وكأنها مجبولة من صبر وتؤدة ، تدير عجلات أرجلنا ، في كل قسم من المكتبة ، فاذا بها أعظم مكتبة في فلسطين ، بل من أهم المكتبات في الشرق الأدنى .! فهنالك قاعة المطالعة ، تزخر بالكتب المختلفة المتنوعة من عبرية وانكليزية وألمـانية. ويسودها الاتقان والترتيب والنظام، حيث الحواجز ، والمناضد ، على الاكناف ، تتألق جدة ونظافة . والى جانبها بهو خاص ، لأسماء الكتب وأرقامها ، وتسمى حجرة (الكاتالوك) أو الفهارس .! وهي مترعه الاطراف والأواسط بجوارير ، مقسمة مرقمة ، تحتوي على بطاقات مكتوبة ومعنونة ، بأحرف وأعـداد متسلسلة ، توصلك الى ما تبتغيه من أمكنة الكتب وأرقامها ، في الطابق الاسفل تحت بهو المطالعة تماماً.! فثمة المكتبة المصدر أومخزن الكتب . وقبل أن نهبط سلم هذا المخزن ، مررنا بقـاعة الصحف والمجلات العلمية الاختصاصية .. وهي مرتبة ومنضدة على رفوف عديدة، على اختلافها وكثرتها، وقد جمعت منذ القدم حتى أصبحت تتعدى الحصر .!

وهبطنـا سلماً لولبياً ، قادنا الى أرض من البلور الكثيف ، تقوم عليه رفوف حديدية ، تحمل الكتب المكدسة على أطرافها ؛ وتفصل بين أنواعهـا ، حواجز معدنية مدهونة ، بما يمنع عنها الصدأ واحتمال الحريق .! أما الكتب المطلوبة الى دور المطالعة ، أو الآتية منها ، فتروح وترجع ، على مصاعد كهربائية . ثم أرتنـا آلة

لتعديل الجو في الغرف،وجعله ثابتاً ، صيفاً شتاء،لئلا يتأثر الورق فتفسد الكتب.

ولقد همست دجاجتنا ، في أذن « الشاطر حسن » — تفخر أمامه بالمكتبة — وكأنها تقبله : ألا ترى أيها الدمشقي ، كيف نمت هذه المكتبة في زمن قصير ، وبسرعة خاطفة .؟ فهي تحوي منذ عام ٩٤٠ ما يربو على (٤٠٠) ألف مجلد . ! وربما كان بين أعدادها ، أكثر من ألف مجلد عربي قديم .! ولا تعجبوا من ذلك فان لهذه المكتبة أربعة أهداف : فهي مبدئياً ذات مهمة قومية خاصة ، وثانياً فهي تمتاز بمهمة وطنية شاقة ، تضطلع بها بنشاط ؛ ثم بمهمة جامعية جليلة ؛ وأخيراً بمهمة تثقيفية عامة . ! أما كتبها الكثيرة فقد جمعت عن طريق الشراء أو المبادلة أو الهبات .!

العلم والكيمياء للفتك

غادرنا المكتبة ، نتمم جولتنا في أرجاء الجامعة ، بجانب دليلتنا المفتان، فولجنا ملعب الكرة ، ومدرج الالعاب الرياضية والفنية . . وهو ملعب يرقد بين الاشجار الصنوبرية،ويشرف على الوديان والجبال ، وتفوح من أرجائه رائحة العفص والصنوبر فتؤرج المدرج الذي يبدو كأنه ملعب روماني ، يقع على هذه التلة بين الوهاد والهضاب ؛ كما يظهر البحر الميت من بعيد ، بسواحله البيض أبيضاض الاملاح المستخرجة منه .! ولقد كنت أتحرق شوقاً لرؤية قسم العلوم الكيميائية ، وقسم الطبيعيات ، التي يعنى بهما الصهيونيون عناية كبرى ، فيدرسون فيها أمراض البلاد الحارة ، المنتشرة في فلسطين ، وفي سائر البلاد المجاورة ، مع طرق مكافحتها .!

وكان البناء واسعاً ، مقاماً على أحدث طراز للأبنية العلمية الملائمة لمثل هذه الغاية . فالابواب من البلور الواسع ، والخشب مدهون بالطلاء الابيض الكثيف حتى لتحسبه مرآة مجلوة ، والغرف ناصعة نظيفة جداً ، والارض والسلالم والجدران كلها بيضاء كالحمامة أو القطن المنفوش .!أما القيمات على الغرف ، والممرضات الجميلات ، فلا بد وأنهن اختلسن غفوة رضوان ففررن من جنانه ، وفضلن الحياة بين الجرذان

والأرانب والطيور الكثيرة المعدة للتجارب ، بعيداً عن نعيم رياض الخلد ومعاشرة الغلمان المرد وصبايا الحور العين .!

فالى هنالك قصدنا ، بعد أن ودعنا دليلتنا الحسناء ، وشكرنا لها طيب سعيها ؛ وخدمنا الحظ ، فتعرفنا بفتى عراقي متخصص في علم الجرائم ، وهو يعرف العربية معرفة تامة .. فبدأ يشرح لنا كل خفي عسير ، وهو يحسبنا من بني ملته.

فمررنا بقسم الصحة والجرائم، حيث يعنى القائمون عليه هنالك بدراسة الامراض المعدية المنتشرة في بلادفلسطين والشرق الادنى ؛ وأما قسم الطب فتنشر فيه المختبرات بين يدي الاساتيذ للقيام بدراسات متنوعة اختيارية للمولعين من العلماء .. كعلم الطفيليات والأنسجة ، والكيمياء العضوية ، والكواشف .. وقد حدثنا الشاب أنهم يعنون عناية خاصة ، ومنذ سنوات بدراسة أمراض السرطان ، فأنشؤوا لهذه الغاية مختبرات وحجرات عديدة ، وذلك بفضل تبرعات المحسنين المجهولين عام ٩٣٤ الذين تبرعوا بـ (٣٩) ألف جنيه فلسطيني للهدف المذكور ؛ كما أنه وصل الى الجامعة مبالغ أخرى من المحسنين أنفسهم دون أن تعرف اسماؤهم، على فترات متقطعة .. وذلك لانشاء القسم الكيميائي الملحق بالمختبرات لداء السرطان .! وهذا عين ما يتبرع به رأسماليونا وتجارنا ، وما يقوم به علماؤنا الاطباء لخدمة المجتمع .! وهنالك رأينا كل ما يتعلق بأحدث أدوات التصوير بأشعة (إكس) ، وما يتعلق بالاكتشاف والاختراع العلمي الحديث البحت .. وذلك في سبيل تكتل الثقافة اليهودية ، وإبراز العالم اليهودي حياً يستحق كل إجلال وتكريم من قبل العالم المتمدن .!

وقصدنا بعدئذ دار كلية الآداب التي تشمل معهد العلوم اليهودية ؛ بما فيه من العلوم الشرقية والغربية ومتحف الآثار اليهودية. وشاهدنا كليات العلوم التي تضم داري (آنشتاين) للطبيعيات والرياضيات وطبقات الارض. وهنالك كلية للزراعة ، وهي مؤسسة مشتركة بين الجامعة العبرية ومحطة التجارب في (رحابوت) ، وتلقى دروسها بالعبرية.

ويتفرع عن كلية الطب المستشفى الجامعي التابع لجمعية (الهداسة) ومدرسة الممرضات للهداسة أيضاً ؛ كما يوجد في (الجاعونة) محطة خاصة لبحث حمّى الملاريا،

ترتبط بكلية الطب أيضاً ..!

الهداسة جندي للخدمة

عندما يقال : فتش عن المرأة ؛ يحسب بعضهم أن هذه الجملة تضم كثيراً من المغالاة وصنوف المبالغة .. ولكنا ، أبداً لم نفلح في رحلتنا ، لولا أولئك الظباء الهيفاوات ، اللاتي كن لا يفرقن بين الجنسين تفريقاً محسوساً .!

لست أدري ما الذي جمعنا بهذه الغادة المباركة .!

فقد دخلنا مشفى (الهاداسا) نستأذن ، فقوبلنا بالرفض ؛ رغم أننا من بني اسرائيل .. المزيفين .. بيد أن النسوة شغوفات شفوقات ، لا يفلت من شباك أنظارهن إنسان دون تمحيص وتدقيق ، فما إن نظرت الينا إحداهن ، وهي وراء (الدا كتيلو) من تحت رمش طويل واسع مكحل ، حتى ابتسمت .! ولعلي حسبت الابتسامة لي، فرددت لها التحية بأحسن منها،غير أنها عبست و- كسفتني - ولم تلتفت إلي ، بل قدمت من صديقي الذي كان يحمل قبعته بيده وسألته بفرنسية ركيكة جداً . هل أنت أديب .؟ فتمتم كعادته .. و .. و .. فأسرعت بضمائد الاسعاف أقول : نعم .. إنه صحافي .! قالت : مؤكداً .. يبدو ذلك عليه .. فلقد قرأت أن الادباء والشعراء والصحافيين يهملون ذقونهم أحياناً على سبيل (الموضة) في التغيير والتبديل .!

وتحمل صاحبنا هذه الصدمة المزلزلة بصبر وجلد؛ وتنازل فنطق وعرفها بي .. أو بالاحرى عرفها بنا معاً .. إسرائيليين من دمشق . نفتشان عن مأوى للهجرة.! فضحكت .. وجعلت تردد لفظة : أوه المسولة .. ما أكثر المهاجرين الهاربين.! إن فلسطين تتسع لكثير منهم .. وتنتظر الكثير من أقصى العالم .! إننا نحبهم وليت للمهاجرين جميعاً فماً واحداً لأقبلهم .. ثم كلمت رئيس المكتب بالعبرية ، فقرع جرساً ، أقبل على إثره شاب يتكلم العربية قليلا .! فتحادثنا ملياً .. وبعدئذ أشير الينا باتباعه ، فسرنا ، وكان نعم الدليل .!

كان يعرف العربية ، ويفهم الفرنسية ، ويتقن الانكليزية والعبرية .! وكان أول ما فوجئنا به ، علامة الخاتم السليماني ، شعار الصهيونية المقدس ، تضعه الممرضات على رؤوسهن ، كما فرشت أرض المدخل به من البلاط الأحمر . ولقد علقت على الجدار الايسر لوحة واسعة جداً ، تمثل مصوراً لأمريكا المتحدة وولاياتها جميعاً ، وأسماء الجالية اليهودية الموزعة هناك ، وبجانبها قوائم بأسماء المتبرعين من اليهود والاعضاء ، الذين يرعون مشفى (الهاداسا) ، أعظم مشفى في الشرق الأدنى . .

كانت رائحة الطعام تفوح وتملأ الخياشيم ، ولم يعد صاحبنا يقوى على السير بعد ذلك ، ولم يعد يكترث بشيء إلا بالمطبخ .! فأردت أن أثنيه عن عزمه ، فلم أفلح ولم يصغ إلي . . وهمس في أذن الدليل مازحاً : ألا تطعمون الأضياف في الظهر ، كعادة (الكيبوتس) .؟ فقهقه الشاب وقال : لا . . لا ، هنا يقدم طعامنا للمرضى فقط والموظفين ، أما إذا شئت رؤيته فهلم بنا . . ورضي صاحبنا من الطعام بالنظر . .

ولجنا الباب بين الطاهيات اللذيذات ، بلحومهن المزدهرة ، وبشراتهن الناعمة الأوربية . . وكان مطبخاً حقاً . . شبيهاً بما شاهدناه في (بشفيا) ؛ بيد أنه أعظم وأضخم ، وعلى شكل أكثر تعقيداً وتركيباً . ! فالأواني هنا ، أوسع مما هنالك وأكثر عدداً وجدة .! ولقدشدهنا أمام مخبز المعجنات ، الذي يعمل على الكهرباء ، بشتى علبه المعدنية المغلقة الواسعة . . وثمة آلة كبرى لخفق العجين وسحق الطحين ، وخزانة أخرى هائلة للتبريد وحفظ الأطعمة . .

ولم يرعنا ويسل لعابنا ، سوى جام بلوري ، نضدت فيه اللحوم والدواجن المطهية ، وأصناف (الكاتو) استعداداً لارسالها الى جهاتها الخاصة . . فأومأ صاحبنا باصبعه هامساً : انظر الى هذا الطائر السمين ذي اللحم الوردي ، يقال في رسالة الغفران إن اسمه (الديك المفوق) الذي لم يشهد التاريخ أن أكله غير الكفرة .! وقد روى بعضهم أنهم يخرون لدى رؤيته ساجدين .! ثم ألقى عليه نظرة ملتهبة ، كانت تكفي لحرقه . .

أما بيت المؤنة ، فكان هائلا جداً ، لا يمكن أن تقارنه بمخزن المؤن في جامعة

أو مستشفى آخر ؛ وفيه تحفظ المواد ضمن أقفاص كبيرة . وأما بهو الطعام فقد قسم الى حجرات وفسحات واسعة ، فهنالك ردهة الموظفين والموظفات ، وهنالك مطعم الناقهين والناقهات من المرضى ، وثمةمطعم الاساتذة . . وهلم جرا .! ويصعد الطعام الى الطبقات العلوية بمصاعد كهربائية صغيرة . .

قادنا الدليل الى حجرة واسعة خاصة بتنظيف الأواني، فدهشنا حقاً بما رأيناه، ولولا بقية باقية من الايمان بالنفس والثقة بالمستقبل ، لتزعزعت عقيدتنا بهمة اخواننا العرب وقواهم التقدمية .! فقد كانت هنالك آلات وأدوات خاصة مختلفة تدار على الكهرباء . لغسل الصحون على البخار ، وتنظيف الأواني ، وتسخين الأكال وتبريدها .! أما نظافة الممرضات — لا الجمال والنعومة اللتان تضرب بهما الأمثال — فحدث عنها ولا حرج ، فهن كالقطن المندوف بياضاً وصفاءً . .

وكان غسل الاثواب والاوعية والالبسة المختلفة يجري على الكهرباء أيضاً . فتهبط من الطبقات العليا في ميازيب خاصة داخل الجدران تصل مباشرة الى مكان المغسل ، وتؤخذ من جوارير خشبية تفتح فوق أقفاص ذات عجلات من المطاط ، لا صوت لها ولا حس ، تحمل تواً ما فيها الى البراميل الضخمة الدوارة ، حيث يوضع فوقها مسحوق الصودا مع الصابون بمقدار مرتب من وعاء كبير بجانب كل برميل ؛ ثم تستخرج الاثواب الى آلة العصر ، ومنها الى آلة التجفيف . وتمدد الأثواب فوق سطح متصل بالآلة ، تدور فوقه اسطوانة حامية بدورات متوافقة مع انسياب السطح ، فتخرج مجففة من الجانب الآخر ومكواة . وقد يكرر عليها هذا العمل ، في آلة اخرى مثلها لتجف نهائياً . أما الأثواب البيضاء اللطيفة أو الحريرية فتكوى بالمكاوي اليدوية الكهربائية في قسم خاص بها ، له موظفاته وعماله وخدمه . فترى الجميع وراء عملهن،وقد ارتدين الأبيض فبدون كالحمائم والزنابق. أما اللحف والاقمشة الملونة الكثيفة ، فتجفف في خزائن خاصة ، ذات حواجز معدنية توضع بينها ، ثم ترفع الحرارة بالكهرباء حسب الحاجة واللزوم .!

أحب الشاب أن يرينا دار التوليد ، فلم نرفض له طلباً .! فصعدنا الى الطابق

الثاني ، على ممر طويل مفروش بالمطاط ،فلا تسمع فيه نأمة أو حركة أو وقع قدم .!

كانت الدار تعج بالامهات الوالدات ، وأهليهم الزوار ، واغلبهم من الصنف الشعبي الفقير .! اما حجرة الرضع والمواليد ، فهي عبارة عن بهو واسع ، يخترقه النور من جدار بلوري كثيف مؤلف من قطعة واحدة ؛ وعليه سجف متحركة .. وفيه صفوف الاسرة الصغيرة البيضاء ، وقد لف كل رضيع فيها بأثوابه وملاءته ، وكتب على السرير في لوحة صغيرة : اسم الوليد ولقبه وتاريخ ولادته واوصافه العرضية . ويوجد في المستشفى آلات لتعديل الجو صيفاً وتسخينه شتاء ؛ وضمت محركاتها في أقبية البناء .! وأخيراً أدركنا الوقت ، ومللنا مشاهدة النشاط ، وأضحينا متخومين مناظر ورؤى ؛ فودعنا الشاب ، وخرجنا نركض في أكناف المستشفى ، فقد أهلكنا الجوع ، وكاد صاحبي يفنى نهما ، بعد ان حركت عصافير بطنه ، ألوان الطعام في المطبخ ، وصنوف الكاتو والمعجنات . . وخاصة ذلك الديك العقوق .! ولولا خوف من الله ، لاختلس قطعة ليبرهن فيها على جهاده في أرض العدو . .

ولقد ضعنا في الممرات وتهنا بين أشجار الصنوبر والسرو ، فظللنا هائمين على وجهنا ، حتى قربنا من جناح الممرضات ، فخرجت الينا ممرضة .!ولاول مرة جعلنا مرآها نؤمن بالقبح الخام اليهودي .! كانت مشرفة على الخمسين ؛ ولكنها كقضيب الرمان ، صلبة و (معرقبة) . . ولم اسمع صاحبنا يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم في حياته إلا في تلك الآونة .! فان نظراتها التي كانت ترسل شرار مدفع (الهاون) جعلته يموت فزعاً ويتقلص متراجعاً القهقرى .! ثم حدثته بصوت مقيت عبري، كانت (توصوص) به كالصرصور ، فتخرج الالفاظ من فمها كامنات ابليس . . فأشار اليها ، بأننا نود مخرجاً الى الطريق العام .. فافتر ثغرها الكهفي عن أسنان مرقعة مبرية ، وأومأت بيدها بعيداً ، كأنها تطردنا طرداً لا هوادة فيه ولا رحمة .! فأسرعنا هاربين من الباب الذي كانت تحرسه ، ونحن ننشد : سالمة يا سلامة . .

كان صاحبنا يود أن يسأل عن مصادر لكتابه العريق في القدم ، والذي

يتذكره بين الحين والحين ، فيتنهد من كل قلبه ويزفر ، لانه لم يتم بعد .. وقد ينتهي إن شاء الله من تأليفه عام ١٩٧٠ . وكان بحثه مما يشوق اليهود ويرغبهم فيه ، وخاصة اذا صدقوا مؤلفه كيهودي فعّال .! ولو عرفوا انه مسلم عربي ، أصيل في عداء الصهيونية ، لانهالوا علينا ركلاً ووخزاً حتى أوصلونا الى البحر الميت . ولكنه لم يعبرك بنا انسان — ولله الحمد — وعندما سأل عن غرف الاساتذة في كلية الآداب ، عجب القوم ، ولم يتطوع أحد ليكون دليلنا أبداً .! ولولا نجدات الصبايا الأملودات المعطوفات ، لما حظينا بمقابلة أشهر أساتذة الجامعة من مجندي الصهيونية الراسخين في العلم .!

معجم كبير للغة عظمى

كانت الغرف في الطابق العلوي حيث يقيم الاساتيذ المحترفون .. وهي حجرات عديدات مختلفة لأبحاثهم وأعمالهم ومطالعاتهم .. وكنا نقصد بصورة خاصة قسم الأبحاث الشرقية ، الذي يشرف عليه أمثال العلامة (بيرو) ، و (بوير) وأضرابهما من المستشرقين ..

وعندما تبينت للاستاذ الكبير .. أهدافنا وهويتنا كيهود ، لم تخف دهشته لهذه الروح اليهودية الشامية ؛ فدعانا الى الجلوس . وقد سر وأعجب .. وما إن سأله صاحبنا عن مصادر لكتابه العزيز ، الذي انقطع فيه — بنصف الطريق — وهو تاريخ اليهود تحت حكم العرب في الأندلس ، حتى دله على مصادر عديدة ؛ وأضاف بأنهم يدرسون الآن : اليهود تحت حكم الفرنجة في الاندلس . وكان الاستاذ أول من لقيناهم من المستشرقين الالمان ، وهو يتكلم العربية الفصحى بلكنة أعجمية .! فقال يشرح لنا اختصاص هذا القسم من الجامعة في مضمار العلم والثقافة :

نحن هنا نهتم بدراسة مواد اللغة العبرية وآدابها القديمة والحديثة ؛ ونهتم بشروح التوراة والتلمود والفلسفة اليهودية ، والتاريخ اليهودي ، والجغرافيا التاريخية لفلسطين القديمة .! وسأله صاحبنا بلغة فصحى : وكم تستغرق الدراسة عندكم .!؟

فأجاب بهدوء : ثلاث سنوات .! وبمعدل ثماني ساعات أو عشر كل يوم .. ثم عاد الى حديثه : ونحن نعمل هنا — في معهد العلوم الشرقية — وهو معهد له خطورته وأهميته العالمية ، لأن إدارة الجامعة تعنى به خاصة وتعتبر ابحاثه من المبادئ الاولية في أهدافها ؛ ذلك أن موقع الجامعة الجغرافي هو في مدينة من أهم المدن الشرقية الرئيسية — في الشرق الأدنى — .! فالجامعة تبذل جهدها ، لتدريس العلوم الشرقية ، القديمة والحديثة على وجهها الكامل .! وقد أسس معهد العلوم الشرقية عام ١٧٢٦ . وقام بتنظيمه وادارته الاستاذ (هوروفيص) المستشرق في جامعة (فرانكفورت) في ألمانيا .! فقال صاحبنا : وما هي غاية المعهد .؟ فأجاب الاستاذ: الغاية من ذلك هي إعداد رجال ، يعملون على نبش كنوز الشرق العلمية والادبية من مدافنها ، وتوثيق عرى التفاهم الروحي، بين الشرق والغرب ، لا سيما بين الشعوب المجاورة لفلسطين والشرق الأدنى .!

ثم تنهد الاستاذ ، واستعاد بعض قواه وشرع يقول :

ويدرس في المعهد ثلاث مواد أصلية ، ومادتان ثانويتان ؛ فالمواد الثلاث الاصلية هي : الثقافة الاسلامية — واللغات السامية — واللغة والآداب العربية . أما المادتان الثانويتان ، فهما : علم الآثار في الشرق الأدنى ، وعلوم مصر القديمة .!

فمادة الثقافة الاسلامية تشمل : الآثار الاسلامية ، والتاريخ الاسلامي في القرون الوسطى ، واللغة التركية ، والفلسفة الدينية الاسلامية ، وعلم الاقتصاد والاجتماع في الشرق الادنى بصورة عامة ، وفي فلسطين بصورة خاصة . وأما مادة اللغة والآداب العربية ، فتشمل : اللغة العربية ، والادب العربي القديم ، وقواعد اللغة العربية ، والقرآن ، والادب العربي الحديث .. وقد عهدنا الى بعض الباحثين الملحقين بالمعهد، بأعمال هامة، لها أثرها البعيد، في الآداب العربية والتاريخ الاسلامي.!

فقاطعناه قائلين : نظن أنكم تقصدون بذلك ، المعجم المفهرس للشعر العربي القديم .! فابتسم وقال : أخال أنكم اطلعتم على ذلك في المجلات والصحف .! أجل، إننا نعمل في سبيل هذا المعجم ، منذ زمن طويل ، كما نهتم أيضاً باصدار كتاب

أنساب الاشراف أيضاً ، للمؤرخ العربي القديم (البلاذري) ..

وهاكم تفصيل ذلك : إن المعجم المفهرس الذي قرأتم عنه ، مستمد من الشعر العربي القديم ، منذ نشأته الى آخر عهد بني أمية .! وقد بلغ عـدد البطاقات ، التي جمعت ونظمت حتى الآن ، أكثر من (٥٠٠) ألف بطـاقة .! ثم نهض ودعانا الى خزائن مرتفعة ، ذات جوارير مرقمة ، سحب أحدها ، فاذا به مترع بالبطـاقات المرصفة المكدسة ، وتناول قسماً منها ليرينا إياه قائلاً : ولهذا المعجم أهمية كبرى.. فهو يلقي ضوءاً جديداً ، على الآداب العربية القديمة ، فيساعد على فهمها من الوجهتين اللغوية والتحقيقية .! أما أثره في النـاحية اللغوية من الآداب المذكورة ،فهو أن المعجم سيشتمل على جميع ما ورد في الشعر العربي القديم ، من كلمات وألفاظ وتعابير، فيمكننا أن نعتبره ، أوثق مصدر للغة العربية القديمة .! هذا ، عدا أن الكلمات المستعملة في اللغة العربية القديمة ، يوجد بينها عدد عديد ، لا يمكن العثور عليه ، حتى في أقدم وأعظم المعاجم العربية؛ كالتاج واللسان وغيرهما .. فلا يتعذر إدراك معناها من سياق الـكلام،في هذا المعجم المفهرس.! خذ مثالا على ذلك هذه البطاقة..

أنظر الى الرقم والكلمة .. فهي : مبهّر ، الواردة في بيت لعمر بن أبي ربيعة، حيث يقول :

ألا ، لا وبيت الله إني مبهّرُ ..

فان هذه الكلمة ، غير موجودة في القاموسين المذكورين أو في غيرهما ؛ وإنما جاءت في ملحق القواميس العربية ، للعلامة (دوزي) فقط .! و (دوزي) هذا ، تولى شرحها ، باعتبار أنها وردت لأول مرة في مقـدمة ابن خلدون . ! أما الحقيقة التي اطلعنا عليها فهي أنها وردت قبل ذلك بـ (٧٠٠) سنة في المصرع المذكور لابن أبي ربيعة .. فانظروا الى البطاقات وتأملوها ..

وتأملناها كعالمين — ولا مؤاخـــذة — وهززنا برأسنا إعجاباً ودهشاً .. وقرأنا فيها ما يلي :

« هبرٌ » نال الأعادي منهم فيلق هبروا

الأخطل (٢٧٠ = ٤) طبعة صالحاني ، بيروت عام ١٨٩١

ألا ، لا وبيت الله إني مهبّرُ

عمر بن أبي ربيعة (٤٠ = ٧) طبعة شوارتس ليزيغ ١٩٠١

حساماً اذاما هزّ لم يرض بالهبر

حاتم الطائي (٢٨ = ١٧) طبعة شولهتس ليزيغ ١٨٩٨

كأن الملح ضربته هبير

المتنخل في مجموعة أشعار الهذيليين (٩٧=٥) طبعة هل ليزيغ ١٩٣٣

فطافت بالهبير بحيث كانت

ديوان الفرزدق (٢٧ = ٦) طبعة بوسيه ، باريس ١٨٧٠

فالهيج فأعلى هبيره السهل

عبيد بن الابرص (١٧ = ١٠) طبعة لايل ليدن ١٩١٣

فظلت وظلوا يركبون هبيرها

الفرزدق (٢٣٥ = ٦) ...

وعلاوة على ما تقدم ، فان هذا المعجم يساعد مساعدة قيمة ، على تحديد معنى الكلمات ، في الآداب العربية القديمة ، كما ظهر لكم من هذه البطاقات .!

وأما أثره في الناحية التحقيقية، فكثيراً ما تطالعنا بعض الكتب الأدبية، بمثل هذه الألفاظ : قال الشاعر ، أو : وقال آخر ، أو : وقال الاول ، وما أشبه ذلك عند سرد الابيات ، لجهل ناظمها الحقيقي .!

فالمعجم يسد هذه الثغرة ، ببيان اسم الناظم لكل بيت مجهول ، مع الاشارة كما رأيتم الى المصادر وعدد الصفحات والأسطر ، التي يمكن الرجوع اليها للتحقيق من ناظمها .!

وفضلا عما ذكرت ، فانه يخفف عن الباحثين ، عناء التنقيب في دواوين ضخمة، أو مجموعات شعرية كبيرة ، لمعرفة موضع بيت ما في إحدى القصائد أو الديوان

بأجمعه . هذا وقد نسب بعض الرواة من العرب ، طائفة من الاشعار لغير ناظمها ، أو أنهم نسبوها لشعراء متقدمين متعددين ، في وقت واحد . فالمعجم المشار اليه ، يساعد على تحقيق اسم الناظم الحقيقي ، لكل بيت من هذه الابيات، وإزالة ما يكتنفه من غموض تلك الجهه .! ولقد حصل في الشعر القديم ، لذات الاسباب المذكورة أو لغيرها ، كثير من التغيير والتبديل والتحريف ؛ فهذا المعجم سيساعدنا على معرفة ذلك أيضاً ، مع تحديد النص الصحيح ، لكثير من الشعر العربي الذى وصلنا على غير صورته . وأما كتاب أنساب الاشراف الذي ذكرته لكم ، فيقع في عشرة أجزاء ، ولا تزال في غمار البحث والتنقيب عنه . . وقد صدر منه حتى الآن جزءان . .

وأخيراً فان معهدنا هذا ألحق به عام ١٩٣٥ قسم خاص بالموسيقا الشرقية للقيام بأبحاث منظمة عن هذه الموسيقا بصورة عامة والموسيقا الفلسطينية بصورة خاصة. واعلموا أيها الابناء قبل أن تغادرونا بأن الجامعة العبرية هي معهدكم ، وهي المعهد الأوحد للعلوم اليهودية لليهود ، وهي أعظم وأكمل معاهد العالم .! وإن إدارتنا لتبذل جهدها للتحسين والنمو المطرد ، كما تقدم ليهود الشرق أجل الخدمات.!

وما كدنا نودعه لنغادر الابنية الجامعية ، حتى وجدنا أنفسنا أمام بهو كبير ، فيه عدة مقاعد منظمة غريبة الشكل ، أوضح لنا موظف هنالك ، شيئاً مما غمض علينا . . فهي قاعة المساجلة والمناظرة بين الطلاب والأساتذة ، تتسع لأربعمئة طالب ، والى جانبها بهو آخر أصغر منها لذات الغرض .! أما المقاعد ، فلكل طالب مقعد منفرد ، يتصل بلوحة جانبية ، مثبتة فيه ، للكتابة عليها والاستملاء . . ثم سرنا بضع خطوات ، فرأينا مدرج المحاضرات ، الذي يتسع لألوف الأشخاص . . وسألنا فتى كان يوصل سلكا بمكبر للصوت ، استعداداً لاجتماع خطير ، فأجابنا رغم انهاكه في عمله ، قائلاً : إن الاجتماعات التي تعقد عادة هنا ، هي علمية ، وقومية وسياسة . . وعندما تزور البلاد شخصية كبرى من الصهيونيين لاجتماع عام ، تستقبل هنا في هذه القاعة ، كما استقبل في الماضي (وايزمن) ، وبلفور ، وغيرهما من رجالات اليهودية . . وان هذا الاجتماع الذي نستعد له ، هو في سبيل الاكتتاب

لشراء الاراضي .. وقد وضعوا على باب الجامعة علمين صهيونيين وفي وسطها لوحة كبرى من القماش ، خطت عليها فقرات حماسية عبرية سياسية ..

وهكذا ، عدنا الى القدس ، ونحن نذكر هــــذه القلعة الحصينة ، أو المعمل الكبير ، الذي يلتقي فيه شباب صهيون العامل المفكر ، وهي أخطر المؤسسات لتقوية الوطن القومي المنشود ..

***

أيها العربي

لقد قرر المؤتمر الاسلامي المنعقد في ١٧ - ١٢ - ٣١ في بيت المقدس ، إنشاء جامعة اسلامية عليا ، ذات فروع متعددة ، تفي بحاجة المسلمين في دينهم ودنياهم ، وتكفل للمتعلمين منهم تعلماً ثانوياً أن يستغنوا أو يستغني بعضهم عن الالتجاء الى الجامعات غير الاسلامية .

واتخذ المجلس الاسلامي عام ١٩٣٥ خطوات اولية لتأسيس جامعــة اسلامية ، ولكن المشروع ما لبث أن توقف بسبب التطورات السياسية .

وسمعنا أخيراً ان مدينة نابلس تفكر في هذا المشروع وأن الحــكومة ستنشىء للعرب جامعة علمية عربية ، وقد اعتمدت ٧٠ ألف جنيه لهذا الغرض .

وبعد ، ففي كل خطوة كنا نخطوها في رحاب الجامعه العبرية ، كنـا نتمنى من صميم الفؤاد أن نرى للعرب جامعة ، تكون ميداناً لأبحاث ودراسات واكتشافات العلماء العرب ، ونعم المصنع الأمين للشباب معقد الرجاء ومناط الأمل ..

واذا كانت الجامعة العبرية لم تبصر النور بين عشية وضحاها ، بل نمت وترعرعت بالعمل المستمر ، والبذل المتواصل ، ووضوح الهدف ، حتى غدت منـارات ودوى في هذا الشرق العربي ، فما أحرانا أن نلم الشعث ، ونضاعف الهمة لانشاء جامعتنـا العتيدة المرتجاة ..

ولسنا ننكر أن تأسيس (جامعة) يجب أن تسبقه خطوات تمهيدية ، من أهمها دعم التعليم الثانوي ، وإعداد الاساتذة ، وإيجاد الأماكن الخاصة بالتدريس

والسكن ؛ وكل بحث جدي يجب أن تسبقه مؤتمرات صغيرة تمثل فيها البلادالعربية

على أننا اليوم ، وقد أصبح خطر الصهيونية جارفاً ، ونما الوعي القومي في الشعوب العربية ، وبتنا نعتقد أن لا سبيل الى قهر العدو إلا بسلاحه ، والعلم في كل عصر ومصر أمضى سلاح ، فمن العجز أن تقف مكتوفي الأيدي ، ولا نجاري مواكب الزمن ، ولا نقارع الخصم بحجته .

لنذكر أن كثيراً من هيئة أساتذة الجامعة العبرية كانوا في أعظم جامعات العالم ، ولقد تركوا مناصبهم هنالك ليلتحقوا بجامعتهم التي يغذونها بنتاج عبقريتهم ، والتي يعتزون بها ، ويسيرون بها قدماً .

ولنذكر أن الهبات والتبرعات تنهال على هذه الجامعة سراً وعلناً ، وفي كل يوم ينمو فيها جناح ، وتؤسس دائرة ، وتسير قدماً نحو الكمال . .

فالسبيل واضحة ، والأهداف نيرة ، والغاية نبيلة ، ومثلنا العربي يقول : ما حك جلدك مثل ظفرك . .

فالى تحقيق هذه الجامعة العربية المرتجاة ، نهيب بالعرب جميعاً ، برجال الفكر والمال والنفوذ ، وبالهيئات الرسمية وغير الرسمية ؛ ولعل جامعة الدول العربية تعير هذا الموضوع الخطير بعض اهتمامها ، فنرى في المستقبل القريب ، وفي ظلال المسجد الأقصى جامعة عربية ، تنشر شموس العلم والمعرفة ، في هذه الربوع الشرقية الحبيبة الى قلب كل عربي واع مخلص مجاهد . . .

العـــــودة

عاد صاحبنا من رحلته ، بعد أن شاهد نواحي واسعة مجهولة ، من حياة الصهيونية في فلسطين ، ولمس لمس اليد أشياء هيهات ان يتاح لغيره أن يطلع عليها.

لم يعد يرى في عودته المستعمرات يدب فيها النشاط ، والمصانع تزخر بالعاملات والعمال ، والجامعة تعمل في سبيل نشر الثقافة اليهودية وإحيائها ، والصهيونيين يكدحون ويجاهدون ، والشوارع تعج بالمارة ، والشطآن تتمرغ فوقها الاجسام البشرية .. لم يعد يرى في عودته كل هذه الاشياء بل راح ينظر الى ما وراء ذلك ويستشف خباياه ...

فاذا كنا ندرس التاريخ مثلا ، لا لنطلع على حياة الشعوب اليومية ، أو مظاهر حضارتها ، وثوراتها واضطراباتها ، بل لنفقه ما وراء ذلك ، ولنستخلص دروساً تفيد في سير مواكب الشعوب ، فنعلم كيف تنشأ الامم وكيف تسمو وكيف تنهار ، ولنقتبس منها العظات ، لئلا يصيبنا ما أصاب من قبلنا ، فان صاحبنا كان ينظر في رجعته الى ماوراء الصهيونية الماكرة ، أي ما وراء المحسوس منها والظاهر للعيان ..

كان يرى تياراً جارفاً لشعب موتور ، يسعى جاهداً لانشاء دولة صهيونية على رفات شعب آمن مسالم ، دون أن يعبأ بالعقبات ، أو يخضع لقانون .

عاد ، وقد انتشرت أمامه صفحات سوداء ، تحمل أرجاس الصهيونية ، الى جانب صحائف أخري بيضاء، تحمل الاجلال والهتاف لهذا الشعب العربي المجاهد النبيل..

أجل .! فان تلك المستعمرات والمعامل والمتاجر ، والملاهي ودور الثقافة والصحة ، وسائر المؤسسات الصهيونية ، لم تعد في نظره ، قوية صامدة أمام أعاصير المقاومة العربية ؛ ولم يعد سلاح أبناء إسرائيل ذا حد مرهف مخيف ، ما دام العرب يحاولون أن يملكوا مثله ، ويجاهدون في سبيل ثلمه وتحطيمه .

نواح مظلمة في حياة الصهيونية

غرباء في أوطانهم

ما كادت الحرب العالمية الاولى تضع أوزارها ، حتى أذيع وعد بلفور ، بعد كتمانه طويلا؛ ففسره غلاة الصهيونية بمعنى تهويد فلسطين لغة وروحاً وديناً وسياسة؛ وراحوا يدعون الى الهجرة ، فلبى نداءهم نفر من الشباب المتحمسين المتهورين ، وطوائف من المغرورين المخدوعين ، وجماعات من التقاة السذج ، والفقراء العاطلين؛ تدفقوا كالسيل الجارف الى فلسطين، يعضدهم في ذلك حشد كبير من اصحاب الملايين..

هبطوا فلسطين ، فظلوا فيها غرباء ، في الوجه ، واليد واللسان .. غرباء في لغتهم الاصلية ، وفي تقاليدهم وعاداتهم ونظم معائشهم .. ورغم كل ما بذلوه في ميادين التربية والتعليم ، لصهر جميع العناصر ، فلا زال الاختلاف قائماً . لان اجتماع الطباع المتنافرة ، والاخلاق المختلفة ، والامزجة المتباينة ، في صعيد واحد ، أمر صعب التحقيق ، مهما سمت الغاية ، ونبل المبدأ . فهذا مهاجر شرقي يزدري المهاجر الغربي ، والعكس صحيح . حتى أن الشرقي نفسه ليحتقر الشرقي ، والغربي نفسه ليمتهن الغربي . فهنا مهاجر شامي، يشمخ أنفاً على المهاجر اليماني ، وهناك الالماني

المشبع بفكرة تفوق الدم والعنصر، يشيح بوجهه عن المهاجر الروسي، ربيب سيبريا، أو روسيا البيضاء ..

فكيف بهذه الطبقات المختلفة، التي تكره بعضها بعضاً، تنشئ أمة من الامم، تباينت أهدافها وتنوعت مصالحها ؟ ناهيك بالشعب اليهودي الذي لا يعرف لنفسه وطناً إلا الربح، والكسب، والمال، .. وأنى لهؤلاء القوم، أن يحيوا مع العرب، سكان البلاد الاصليين .؟ ألا إن خلط الماء بالزيت، لأهون من حياة العرب، مع شذاذ الآفاق من الصهيونيين ..

نفوس في الجحيم

غرّروا بهم، وحملوهم الى فلسطين، وقالوا لهم : كدوا واكدحوا لتأكلوا وتلبسوا وتسكنوا .. اعملوا لتعيدوا هيكل سليمان، وعرش اسرائيل .. لتنشئوا وطناً تستقرون فيه، وتخلصوا الى الابد من حياة (الجيتو) والارهاق المستمر .. ولقد عرفنا كثيراً من الشاميين والشاميات، ممن ذهبوا الى فلسطين، ليعيشوا عشرة أشخاص، ذكوراً وإناثاً في غرفة واحدة، لا تجاوز حجمها خزانة الملابس .. ونعرف في (تل أبيب)، وراء تلك الدور المتألقة بأنوار الكهرباء، أكواخاً حقيرة صغيرة رطبة، تحمل أدناس الصهيونية وأرجاسها، يقطنها اناس خدعوا بعظمة الرسالة، ونبل الهدف، فأصبحوا يتمنون العودة الى مساقط رؤوسهم، بيأس غلاب، وصبر نافذ .. وفي كل مكان، حيث يتاح الافصاح بحرية عن الفكر، يصرح المضطهدون بما يخالج نفوسهم، وعلائم الأسى ترتسم على وجوههم ..

عرفنا فتيات كزهرات الربيع، وقطر الندى، طاهرات بارات، غادرن دمشق مغريات بالدعايات المزوقة الباطلة، وحللن فلسطين، فكان نصيبهن العمل القاسي في الحقل، في صبارة الشتاء، وحمارة القيظ، وفي المعامل والمصانع، في جو مفعم بالروائح الكريهة، والاخطار الجسام، لقد قيل لهن : اعملن لتأكلن، اعملن في سبيل وطن مرتجى، اعملن ولو هتكت الاعراض، وامتهنت الكرامة البشرية .. فغدون

ووراء الثغور الباسمة ، أحزان دفينة ، وهموم مكتومة .!

ومن ذا يجرؤ على معاكسة التيار الطامي ؟ وأي صهيوني يستطيع الجهر برأيه، أو يلوح بالعودة الى بلاده .؟ إن سيف (ديموكليس) مسلط فوق عنقه .. وهل جاءك نبأ الباخرة (باتريا) ، المترعة بالمهاجرين الى جزيرة (موريتيوس) ، كملجأ موقت منحتهم إياه بريطانيا .؟ لقد نسفها الصهيونيون ، وهم يصرخون :إما فلسطين، وإما الموت في قاع البحار .!

ورغم كل الاحتياطات والدعايات ، والوعيد والتهديد ، فان (٣٢) ألف يهودي غادروا فلسطين بين عام ١٩٢٠ و ١٩٣٢ ، فقط .. ولو أن الاضطهادات النازية تأخرت قليلا لكان مغادرو فلسطين ، أضعاف أضعاف المهاجرين ..

فلو أن اليهود طراً يعتقدون بالصهيونية ، ويؤمنون بها ، لما وجدوا عن فلسطين بديلاً . ولكنه ، اليهودي الأفاق .. اليهودي الذي لا يعرف لنفسه دينا سوى صفحة الدينار ، شيلوخ البندقية ، لا تهمه فلسطين ، كما لا تهمه أي بقعة في العالم . فوطنه حيث يعمل ويكسب ، ووداعاً للحنين الى الاوطان ، الى أبد الآبدين..

خلاعة وإباحية

هنالك على ذرا الكرمل ، وفي مغاني الهادار ، على شاطئ البحر ، وضفاف النهر ، في الدور والفنادق ، وفي المستعمرات ، وتحت كل خافق ، ما زالت بنت صهيون هي الغانية التقليدية العارية ، تتلوى على سرير الفحش ، بين شباب الوطن القومي ، وطالبي اللذة من أي جنس ولون .. فترى حدائق الاطفال ، والمياتم والملاجئ ، مترعة بالاولاد الطبيعيين ، جنود الصهيونية في قادمات الايام .. هنالك في المستعمرات ، شباب مراهقون ، وفتيات مراهقات ، ونساء عازبات ، وأرامل متصابيات ، وزوجات ملولات .. يعبثن تحت الظلال ، وفي الغرف ،وخلف التلال .!

هنالك إباحية سافرة ، وتحرر مبذول وضيع .. فلمن هذه المقاعد الشعرية ، تحت الخمائل المنزوية .؟ ولمن تلك الأرائك الخشبية في شعفات الجبال ، وجنبات

الوديان .؟ ولمن تلك الهمسات والقبلات ، والانين والعنين ، في رأد الضحى ، وهدأة الليل ، بين النخاريب والزوايا .؟ ومن هؤلاء القوم في الليالي القمراء والظلماء ، على رمال الشاطىء ، وفوق مقاعد لا تنتهي ، وماذا يفعلون .؟ أجل ! لم تزل لعنة الربا على رجالهم ، والزنا على نسائهم ، الى يوم يبعثون .!

وهل هؤلاء الفتيات المتمايلات في الشوارع ، بمظاهر شاذة لا تتلاءم مع تقاليد البلاد ، وأفعال غريبة لا تتفق وأحوال الفضلاء ، يسرن بسراويلهن القصيرة ، حتى لتكاد تبدو عاناتهن . . والاثداء تطل براعمها عليك من شتى الفجوات . . واللحوم بارزة ، والاغراء سافر . . هل هؤلاء إلا صبايا دونهن نساء الماخور ، خرجن يتصيدن ساعات اللذة بعد عمل المزرعة ، والمصنع المرهق .؟ جرب أن تدخل مخزناً ، أو مكاناً عامراً بهن ؛ تظاهر بالصهيونية ، تكلم العبرية ، وتعال اروِ لي الاحاديث .. سترى ما لم تحلم به . . انهن يخطفنك . . يراودنك عن نفسك ، دون بذل حلال أو حرام . . لانك عبري ، تساهم في بناء الهيكل ، وملك سليمان .!

جزاء سنمار

ولعل انكلترا لم تندم على وعد بذاته ، كما ندمت على وعدها اليهود بالوطن القومي ، فلقد ضحت بالكثير من سمعتها ، وراحتها ، وجنودها ، وأموالها .. وعادت العرب والمسلمين كافة من أجلهم . .

وماذا حصدت ؛ لقد لاقت الامرين منهم .! في كل يوم تهديد وقتل ، ونهب وتدمير ، واعتداءات متوالية على الرجال والاملاك .. ذلك هو اعترافهم بالجميل ، وجزاء الاحسان بالاحسان ، بعد أن أنقذوا من براثن الموت ، وسياط الطغاة .!

انهم يفتكون بأصدقائهم ولا مخالب لهم . . فكيف بأعدائهم العرب ، وخاصة بعد أن تنبت لهم الاظفار ، وتحدد الانياب .؟

ألم تسمع صرخة زعيمهم (وايزمن) يقول : « سنبقى في فلسطين . . سواء أردتم أيها البريطانيون أم أبيتم .. يمكنكم أن تعجلوا أو تؤخروا قدومنا . . ولكن

من الأفضل لكم أن تساعدونا ، لئلا تنقلب قوانا التعميرية الى قدرة تدميرية ، تضطرب لها الدنيا بأجمعها .. اننا نريد أن نجعل فلسطين يهودية ، مثلما أن انكلترا انكليزية » ..

واستمع الى آخر يقول: « لن يستولي الشعب اليهودي على فلسطين ، حتى تنحل الامبراطورية البريطانية، وما غايتنا الا القضاء على السياسة البريطانية الاستعمارية . »

وقد وجدوا في غرفة المتهمة (حاسيا) من أفراد عصابة (شتيرن) وثيقة جاء فيها : « واننا نعتبر كل عنصر غير يهودي يسيطر على هذه البلاد عدواً لدوداً لنا ، وهكذا نرى في بريطانيا العظمى عدواً لنا ما دامت تسيطر على فلسطين . »

ولكنه (الولد المدلل) ومن أجله يهون كل عذاب .؟

على نفسها جنت براقش

ان الصهيونية شؤم على اليهود أنى كانوا ؛ فبعد أن عاش العرب وإياهم مدى العصور اخواناً ، يتعاونون معهم تعاوناً شريفاً ، فكانوا تحت حكمهم في الاندلس سراة ، لهم ما للجميع وعليهم ما عليهم، جاءت الصهيونية الماكرة ، الضالة المضللة، ونفخت في أنوفهم ، فجعلتهم اعداء لكل مسلم وكل عربي . لقد طوحت بالروحانية الصوفية اليهودية ، وجعلت منهم — اذ ينتحلون الصهيونية — مواطنين سيئين ،لا يعتمد عليهم ؛ ففقدوا بالتالي عطف العالم ، وعدّوا منبعاً للشر والمصائب ..

فلن يستطيع الامريكي مثلا ،أن يفهم قول (وايز) حاخام (نيويورك) الاكبر: « أنا أميركي منذ ستين عاماً ، ولكنني يهودي منذ ثلاثة آلاف عام » . ولن يهضم الشرقي قول (أبي العافية) رئيس(السيفاراد) في فلسطين : « ان اليهود مضطهدون في كل بلد شرقي » .

لا ! ان العرب لم يكرهوا اليهود من قبل ، فان السيد المسيح يقول : «أحبوا أعداءكم .. » والقرآن الكريم يقول : « ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة ، كأنه ولي حميم » ..

نعم ، لم يكره العرب اليهود ، ولن يكرهوهم أبداً ، لانهم أهل الذمة. وأهل الكتاب ؛ ولولا انتماؤهم الى الصهيونية لما خلق هذا الكره المقدس ؛ أجل . ! هي الصهيونية التي أساءت الى الامتين ، من حيث لا تدري ، لانها شاءت أن تجعل من فلسطين العربية دولة يهودية ، وأن يعود اليها عرش اسرائيل . .

فليذكر اليهود أنهم اضطهدوا تحت كل كوكب ، لانهم دخلاء لا يمتزجون بغيرهم ، ولانهم أدعياء الشعب المختار ، ونقاء العنصر ، ولانهم صالبو المسيح ، ومقرضو الربا وما يتبع ذلك من قسوة وضعة ودناءة ، فكانوا كبش الفداء طوال العصر ، وفي كل مكان إلا بين ظهراني العرب . .

إن العرب لم يشهدوا مرة واحدة ذلك الكبش . . ولم تثر في وجهه أية عاصفة من شأنها إسالة دمائه ، وتضحيته على مذبح الشهوات والغضب . ! ان التاريخ ليعلمنا أنهم كانوا المقربين لدى بلاط الخلفاء في الشرق والغرب؛ في بغداد ودمشق والقاهرة والاندلس ، وان المسلمين استقبلوهم أحسن استقبال ، وأحسنوا اليهم وآووهم، حين جاؤوا في القرن الخامس عشر من اسبانيا مشردين طريدين . .

فاذا انقلبت اليوم الآية، وأصبح العرب من أشد الناس مقتاً لكل من هو يهودي في فلسطين ، وأصبحت تزر الوازرة وزر الاخرى ، فالفضل في ذلك للصهيونية . . وكم كان العرب واليهود في غنى عن ذلك . !

على أن العرب لم يمقتوا إلا من ادعى الصهيونية ، وحمل رسالتها . . وثمة شتى الحلول لمحو هذا الحقد وفي مقدمتها : اغسل أيها اليهودي يديك من الصهيونية، ولا تدعُ اليها ، وغادر فلسطين ، واختر لنفسك أي وطن تشاؤه ، إلا فلسطين . . لانها صغيرة في مساحتها ، فقيرة في مواردها ، لن تتسع لبني قومك بالغين الملايين فضلا عن أنه من الجريمة أن تشيد سعادتك على شقاء الآخرين .

ان جمهورية (دومينيكو) تفتح ذراعيها لكل زائر ، وهي على استعداد لقبول كل مهاجر .

وان أمريكا اللاتينية ، وخاصة (البرازيل) من الاماكن الصالحة لسكناكم،

ويمكن أن تصبح من أغنى دول العالم ، اذا سكنها (١٥٠) مليوناً من البشر ، وليس فيها اليوم أكثر من (٤٠) مليوناً ؛ انها مترامية الاطراف ، غنية الموارد ، لا كفلسطين الفقيرة الضيقة .

وهنالك (نيوزيلاندا) ، فهي واد خصيب لليهود ، كاليابان مساحة ، وتتسع لتسعين مليوناً في حين لا يتجاوز عدد سكانها اليوم مليوني نسمة ..

واستراليا ، تتسع الى جانب سكانها الحاليين لعشرين مليوناً آخرين ، دون الحاجة الى التوسع في اعمال الري القائمة الآن .. ثم انه لا يمكن لاستراليا بملايينها السبعة الحاليين الدفاع عن نفسها ، اذا فكر عدو بمهاجمتها ، لسبب قلة سكانها ، واتساع مساحتها . وحسبك لتدرك اتساعها أن تعلم أن الباخرة (كوين ماري) تتم دورتها حول استراليا في أربعة أسابيع ، اذا سارت بأقصى سرعتها .

فاذا أراد اليهود أن يضعوا حداً لآلامهم ، وينالوا صداقة العرب ، فعليهم أن يوحدوا كلمتهم ، وينزعوا من أدمغتهم فكرة فلسطين ، ويتجهوا نحو وطن آخر ، يكون أنفع لهم وأجدى ..

عبيد، وعبيد

أبى الصهيونيون إلا أن يجمعوا النقيضين . فتراهم مرة يدعون الحرية ، وتراهم أخرى أذلاء خانعين . فالارض التي يمتلكونها في فلسطين ، لا يسمونها قرية ، أو مزرعة ، أو أي اسم تعارف الناس عليه ، بل يسمونها مستعمرة ؛ كأنهم لا يجدون في قاموس لغتهم المهذب ، سوى هذا اللفظ البغيض ..

مستعمرة .. أجل مستعمرة (كيبوتس) ؛ كأن بذور الذل والهوان قد باضت وفرخت في خلايا أدمغتهم ، وكأن البشرية لم يكفها جهاد القرون ، لتتخلص من ربقة الاستعمار ، حتى أتى أدعياء المدنية ، يجددون هذا الاسم البغيض ، في ديار قوم ليس أحب الى قلوبهم من الحرية والاستقلال ..

وهؤلاء الزاعمون أنهم أحرار ، وأنهم شعب الله المختار ، سادة البشر وصفوة الخلق ، يلدون وخمائر العبودية تجري في عروقهم ، ولن يستطيع المرء ، مهما أوتي

من العقل ، أن يفهم كيف يغادر اليهودي الامريكي بلاده ، ليأتي الى فلسطين ، ويسعى جاهداً لتظل بلاده منتدبة ، أو مستعمرة ، أو موصى عليها .!

وبعد ألم يصرح (بن غوريون) « بوجوب الانتداب واستمراره، لتأييد الهجرة، وصيانة حق اليهود في الوطن القومي .؟»

ألم يقل غيره : « إننا نعارض فكرة تحقيق الحكم الذاتي لفلسطين ، لاننا نصبح مرة ثانية أقلية ، كما هو حالنا في كل مكان آخر ، وتحبط الغايات المنشودة من إنشاء الوطن القومي » .؟

واذا كان الاحرار لا يطيقون القيود والاغلال ، فهل لقبول الصهيونيين الانتداب أو الوصاية أو الاستعمار سوى تفسير واحد : هو أنهم عبيد يعانون مركب النقص في صورة حادة منذ أقدم الاجيال .؟

نعم . إنهم يتنازلون راضين مختارين عن حرياتهم ، ليصبحوا في فلسطين أذلاء عبيداً خولاً ، فما أبخس الغاية، وما أغلى الثمن ..

شجر لي وأنا سيدك

حياة الصهيونية سلسلة من المؤامرات، لان أصحابها بحاجة ليلَ نهارَ الى مقو ودافع لعلمهم الاكيد أن دعوتهم باطلة مشكوك في نجاحها ، وأن انكلترا لم تناصرها لأحقيتها او عدالتها ، ولكن لاجتماع مصلحتها ومصلحة الصهيونية . فالانكليز يعتبرون فلسطين ممراً للهند ، ونقطة ارتكاز لهم في الشرق ، وأماناً لقناة السويس ، والصهيونيون يعتبرون فلسطين وطنهم الروحي والتاريخي ، وهكذا فقد اتفق الغرضان ، وكلاهما باطل ..

ومن العجيب ، أن أمريكا الديموقراطية ، تساعدهم ، وتسخو لهم بالوعود ، كأن تأييدهم هو الورقة الرابحة لكسب أصواتهم في الانتخابات ؛ فهي تصرح : « إن منح فلسطين لليهود ، ليس عملا عدلاً فقط، بل مكافأة لهم على ما بذلوه أثناء الحرب، لنصرة قضية الحلفاء ، وعملا تاريخياً للتعويض عليهم ». وهكذا وجدوا في (ترومان) نصيراً قوياً ، فألحوا عليه بفتح باب الهجرة ، وظفروا بتصريحه المعروف بالسماح لمئة

ألف يهودي بدخول فلسطين ؛ رغم أن سلفه الطيب الذكر (روزفلت) وعــد جلالة الملك عبد العزيز آل السعود ، بألا يعمل شيئاً دون رأي العرب ؛ وكم تمنى أن يحل (ترومان) المشكلة الصهيونية بفتح أبواب أمريكا لليهود ، دهم جماعة انتاج وعمل ، وعليه ان يبدأ البر بنفسه .

والحق الذي لا ريب فيه ، أنه ما أتت لجنة تحقيق الى فلسطين — ولقد بلغت سبع عشرة — وما درس صحافي ، أو كاتب أو باحث ، معضلة فلسطين ، حينما يضع العدل رائده ، والانصاف دليله ، إلا وآمن بأن حـق العرب صراح أبلج ، وأيقن أن الآمال الصهيونية باطلة ، ولا يمكن تحقيقها إلا بالقوه المسلحة . وليس أدل من هذا الاجحاف بحقوق العرب ، وبطلان المسألة الصهيونية ؛ وليس من المعقول أن تستخدم القوة لتنفيذ الوعود ، إن كانت عادلة .!

وإن تعجب ، فاعجب لأول مفوض سام عين لفلسطين،وهو (السهر هربرت صموئيل) الصهيوني ؛ فقد دخل البلاد تحرسه المصفحات ، وتحوم فوقه الطائرات، وتحيط به الفرسان والمشاة ، وهذا اكبر دليل على ما تخشاه الحكومة من تعيين يهودي حاكماً لبلد عربي .

وها هو ترومان يصرح قائلاً : « إننا سنعمل كل ما باستطاعتنا لانشاء دولة يهودية في فلسطين،شريطة ألايكلفنا ذلك إرسال جيش للمحافظة على الأمن هنالك».

ولكن أي أمن سيخيم فوق ربوع يأبى أهلها الميامين الاعتراف بوعد باطل ، لشعب موتور ، يريد إجلاءهم عن أرضهم وارض آبائهم وأجدادهم زوراً وبهتاناً ، بعد أن سمعوا احد زعمائه يقول بوقاحة ذهبت مثلاً : « يجب على العرب ان يقوضوا خيامهم ، ويعودوا الى الصحراء التي جاؤوا منها » .؟!

وهكذا ، فان من كان يستجدي قطعـة ارض ليجد فيها ملاذاً وسكناً ، كشر عن أنيابه الزرقاء ، ولبس ثوب النمر ، وراح يزمجر ، طامحاً طامعاً قائلاً : « إن اليوم الذي سيبنى فيه الهيكل لقريب ، وسأعمل بقية حياتي فى سبيل إعادة بناء هيكل سليمان ، في مكان المسجد الأقصى .. »

وتتضخم حماقاتهم ، وتزيغ أبصارهم ، حين يصرخون بملء أشداقهم : « ليس من الممكن ان يكون في فلسطين سوى وطن قومي واحد ، وهو الوطن اليهودي؛ ومن المستحيل ان تكون ثمة مساواة في الشركة بين اليهود والعرب ، بل ينبغي ان تكون هنالك سيادة يهودية » .

فهل هذا هو الوطن القومي الذي لا يخل بحقوق سكان البلاد الاصليين ؟. إنهم لا يطلبون وطناً مشتركا ، بل وطناً مستقلا هم أسياده .. يطلبون كل ما فيه تميز ومحاباة لهم . يطالبون طرد الاصيل ، ولو على أسنة الرماح .!

ولذا تثور ثائرتهم ، ويجن جنونهم حينما تلوح في سماء العلاقات الدولية بارقة عطف على العرب ؛ وما هذه الاعتداءات المتوالية ، والاغتيالات الدنيئة ، والتدمير والنسف ، والنهب والتقتيل ، سوى تفريغ لجام غضبهم . واذا كان الفرد يفقـــد اتزانه العقلي والعاطفي في الاحوال الشاذة ، وخاصة في ثورات الهيجان ، فهذه الحقيقة تنطبق كذلك على الصهيونيين الذين قاست منهم انكلترا في هذه السنوات الاخيرة الامرين .

لقد أثاروا غضب الدنيا على تصرفاتهم الدنيئة، وهم يحسبون أنهم بهذه التصرفات الآثمة سيلفتون أنظار العالم المتمدن ، للعطف على قضيتهم . حتى قال (السير ادوار كريج) : انه لا يوجد في العالم من يريد ان يرى في فلسطين دولة إرهابية على غرار النظام النازي .. »

قصور من ورق وأباطيل

وهؤلاء المطالبون بأرض فلسطين ، يستندون في ادعاءاتهم الى أسس سخيفة مرفوضة ، يستندون الى ثلاث دعائم واهية ، تنهار بنفسها ، هي الحق التاريخي ، والديني ، والقانوني .

وحقهم التاريخي يعني وجودهم في فلسطين منذ ألفي سنة . ولكن ، سائل الاجيال والقرون ، سائل سهول فلسطين وجبالها ، سائل بحارها وأنهارها ، سائل

كل بقعة من بقاعها ، وكل حجر من أحجارها . كم تداولتها من أمم ، وكم وطئتها من شعوب ، بحيث لو تستطيع الكلام : سكنني أكثر شعوب الارض . ولكن ما استوطنني طويلا حتى يوم الناس هذا سوى العرب . وإن مرور اليهود بفلسطين منذ ألفي سنة ، لا يخولهم حق العودة اليها ثانية ..

لم يقطن اليهود فلسطين مرة ، إلا وهاجروا تحت تأثير الفتوحات والمجاعات ، والاطماع والارباح ..

نعم ! مرة واحدة دخلوها فاتحين ، ليذيع قائدهم (يشوع بن نون) خطبته التاريخية : « حرقوا كل ما في المدينة ، واقتلوا كل رجل وامرأة ، من طفل وشيخ ، حتى البقر والغنم ، بحد السيف ، واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما فيها » .

فأي عدل وأدب ورحمـــة بين قوله ، وقول الصديق يوصي جيوش المسلمين الفاتحين : « لا تخونوا ولا تغـدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيراً . وسوف تمرون بأناس قد فرغوا لأنفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

ولا زال أتباع اسرائيل يتبعون وصية يوشع ، ولا زال المسلمون سائرين على نهج الصديق ..

نعم ، سكن اليهود فلسطين في غابر الدهر ؛ ولو جمعنا كل عهودهم فيها ، منذ آلاف السنين ، لما تجاوزت أربعمئة سنة ، كانوا فيها بين سبي وتشريد واضطهاد . بينما ظل المسلمون والعرب في هذه الديار ، منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، يمارسون سلطانهم بهدوء واستمرار ، والتاريخ يؤيد هذا النوع من التملك للبلاد والثروة اذا كان مبنياً على حسن النية ، ويعده سبباً من أسباب الملكية الشرعية .

ولئن جاز لكل شعب ان يزعم حقاً له في أرض سكنها اجداده ، فما قول الامريكيين لو طالبهم الهنود الحمر بالنزوح عن الولايات المتحـــدة ، وماذا يقول الاسبان لو ادّعى العرب أنهم اصحاب حق في شبه جزيرة (ايبريا) ..

فأي حق هو هذا الحق التاريخي ، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان .؟

ويستندون الى حقهم الديني .. وقد أوردنا في تضاعيف الكتاب من شواهدهم ما فيه الكفاية . لتأييد هذه الحجة الواهية ، ونضيف قول (حزقيال) في أسفاره: « افتح قبوركم ، واصعدكم من أجداثكم يا شعبي ، وآتي بكم الى أرض اسرائيل .»

ولكن هذا الكلام قيل أيام سبيهم البابلي ، فعادوا ثانية الى فلسطين ،وتحققت النبوءة ، وبنوا الهيكل ليدمر ثانية على يد (طيطس) الروماني ، الذي ختم صفحات تاريخ اليهود في فلسطين ، فمضوا ايدي سبأ ، ليذوقوا عذاب التشريد والعبودية من جديد .

واذا كان اليهود يستندون في حق العودة الى فلسطين الى توراتهم ، وهـــو كتابهم ، فمسيحيو العالم ومسلموه يستندون الى انجيلهم وقرآنهم ، وهما لا يشيران قط الى عودتهم ، بل ينكرانها ، ويعدانهم ان يظلوا تائبين معذبين .

وأكبر الظن أنه سها عن بالهم العهد الذي وقعه عمر بن الخطاب للنصارى ، تلبية لطلب البطريرك (صوفرونيوس) حين فتح القدس : « بألا يسمح لأحد من اليهود بالسكنى معهم » .

وهيهات أن يتدبروا قول احد أحبار نصارى العرب : إن الدين المسيحي يقول لليهودي إن روابطي بفلسطين هي أقوى جداً من روابطك . فان يكن لك فيها أنبياء وملوك ، فهي موطن مخلصي وإلهي ، وموطن رسله ، ومهد كنيسته . »

وكأنهم لم يعلموا أن لفلسطين في نظر المسلمين المكان المرموق ، ففيها أولى القبلتين ، ومقام ثالث المساجد التي تشد اليها الرحال ، وفيها قال تعالى : « يا قومنا اسكنوا الارض المقدسة التي باركنا فيها » .

أضف الى ذلك ، متى كانت القوميات تبنى على النبوءات ، والأوطان تشاد على كلمات الرسل ، والممالك تؤسس على بشائر الانبياء .!

فأي حق هو هذا الحق الديني المزعوم ، الذي يدحضه الواقع بأجلى بيان .!

ويستندون أخيراً الى حقوق قانونية ،وفي طليعتها :وعدبلفور ،وصك الانتداب.

واذا علمنا أن تصريح بلفور أعطي لليهود يوم (٢) تشرين الثاني عام ١٩١٧ وفلسطين لا تزال تحت حكم الاتراك، وأهل البلاد الاصليون لم يُستشاروا في الامر، أدركنا قيمة هذا الوعد القانونية .

فمن بديهيات القانون أنه لا يجوز لاحد أن يتصرف في ملك غيره بدون اذنه ، ولا يجوز لاحد أن يأخذ مال غيره بلا سبب شرعي ، والامر بالتصرف في ملك الغير باطل ..

فكيف يجوز لانكلترا إذن أن تدلي بهذا التصريح، وأنى لها ان تمد اليهود بفلسطين ، وإنشاء وطن قومي لهم ، وهي لا تملك البلاد آنئذ ، ولا سلطان لها على العباد .؟ إنه وعد غير قانوني ولو وافقت عليه(٥٢)دولة ، وسجل في صك الانتداب، وأيدته جامعة الامم ..

ولقد أصاب كبد الحقيقة من قال : « إن وعد بلفور وعد سياسي لا قانوني».

وإلا فأي فرق بين هذا الوعد ، وبين أن يأتي اليك غاصب ، بيده سند ،موقع عليه من شخص لا يملك حق التوقيع ، ويشهد عليه اثنان وخمسون شاهد زور ، قائلا لك : إن هذا البيت الذي تسكنه ملكي، وعليك أن تخليه بأمر موقع هذا السند..

واذا كان الانتداب موضوعاً على الشعوب المنسلخة عن الامبراطورية العثمانية، أو الشعوب التي بلغت درجة من الرقي ، وهي بحاجة الى مساعدة دولة أخرى ، فما كان اليهود شعباً يوم وضع صك جمعية الامم ، ومادته الـ (٢٢) المتعلقة بالانتداب ، وما كانوا كذلك من شعوب الامبراطورية العثمانية ..

أضف الى ذلك أن عبارات التصريح المنوه عنه ، لا تشير قط الى تحويل فلسطين بجملتها وطناً قومياً لليهود ، وإنما تعني أن وطناً كهذا يؤسس في فلسطين ، ويقوى ؛ وليس معنى تقويته إرغام الاهالي على التنازل عن أملاكهم وإجلائهم عن بلادهم وإفقارهم ، بل النهوض بهم مع زيادة في الطائفة اليهودية .

عرب فلسطين بعد ربع قرن

ولنا أن نتساءل بعد ذلك ، ماذا أفاد العرب من قدوم الصهيونيين الى فلسطين.؟

وماذا جنوا بعـد ربع قرن من انتداب مزدوج جائر ، لم تبتل به بلد من بلاد الله ؟ وهل تحققت أمنية المرحومة جامعة الامم ، بإيداعها أمر فلسطين الى انكلترا ؟

إن العرب لم يجنوا في هذه الغضون ، سوى انتقاصات متوالية لحقوقهم الطبيعية، من إدخال اللسان العبري ، وإقامة القضاء اليهودي ، وتشجيع التجارة والصناعة والزراعة الصهيونية ، ثم تلك الامتيازات التي لا تنضب، الممنوحة الى الصهيونيين، في حلهم وترحالهم .!

أفاد العرب تكاثر اليهود ، وازدياد نفوذهم لدى الحكومة ، واتخاذ بريطانيا كل الوسائل لتأمين وطن قومي يهودي لهم ،فخلقت الوكالة الصهيونية لتهتم بمصالح اليهود، دون غيرهم . وبموجب امتيازاتها أصبحت كحكومة داخل حكومة .

لقد كفت أيدي العرب عن التصرف في شؤون وطنهم ، لتسلم الى أيدي شذاذ الآفاق ، بينما كانوا يتمتعون إبان الحكم العثماني بحقوق واسعة ، حتى كان منهم النواب وكبار الموظفين .

أفاد العرب أن بلادهم غمرت بشعب قدير مزاحم متسلح بالمال والعلم والخبرة ، رغم ان مهمة المنتدب الأخذ بيد اهل البلاد الاصليين ، لرفع مستواهم كي يستطيعوا حكم أنفسهم بأنفسهم .

أفاد العرب تدخل المستعمر في شؤون معارفهم ، وتوجيهها كيفما شاء، بينما ترك اليهود أحراراً في تعليم أولادهم وتربيتهم كما يهوون ، تتولى ذلك دائرة معارفهم الخاصة ذات الميزانية الضخمة والمناهج المرسومة .

أفاد تدخل المستعمر في التضييق على حرية الصحف ، وحرمان العرب من حق التشريع ..

أفادوا أمراضاً اجتماعية وجيوشاً من العاطلين من العمال والفلاحين ..

أفادوا فقراً وجهلا وتشريداً ونفياً.. صحائف يسود لها وجه الانسانية ويندى لها جبين البشرية .. أفادوا خروجهم من ديارهم وجلاءهم عن أراضيهم .

لنتصور جلاء العرب عن مرج ابن عامر ، أخصب سهول فلسطين ، وأهم منتج

للغلال فيها ؛ لنتصور إجلاء نيف وعشرين قرية عربية يقطنها ما لا يقل عن عشرة آلاف نسمة ، أجلوا بالقوة، والرصاص ، والسياط ، عن أرض آبائهم وأجدادهم .. لنتصور جلاء العرب عن عشرات القرى الاخـــرى ، يتركون أمجادهم وتاريخهم وذكرياتهم ، يتركون معابدهم ودورهم ومرابعهم ، ليحتلها موتورو الشعوب ، وشذاذ الآفاق .. وبالامس القريب، في أواخر عام ١٩٤٣ أخرج سكان قرية الشيخ يونس ، لتضم الى بلدة (تل أبيب) ، بالقوة الغاشمـــة التي لا تعبأ بالقوانين ، ولا بتذمر الاهلين ..

أفاد العرب أنهم أصبحوا كمية لا يعبأ بها في بلادهم .. ففي كل مناسبة ، يقال الطوائف اليهودية ، والطوائف غير اليهودية ، كأن اليهود أصل ، والعرب فرع.. وهذا أقصى ما عرف في التاريخ من ضروب الامتهان والاهمال، والخداع والتضليل.!

أفاد العرب عدم المساواة بأجلى معانيها .. فحيثما وجد عربي ويهودي، فضل ثانيهما على أولهما ، حتى في تعهدات الحكومة والبلديات ؛ وفي المصارف والمؤسسات المالية ، تفضل معاملة اليهودي على العربي ، وبفائدة أقل مما يؤخذ من العربي ..

وفي الاعمال الصناعية والزراعية ، لم يستخدم العرب ؛ وهل أدل على ذلك من عقود انجاز بنك (كيرين كايمت) حين تقول في مادتها (٢٣) « يتعهد المستأجر بأن يجري جميع الاشغال المختصة بفلاحة الارض ، وزراعتها ، بواسطة عمال من اليهود ، واذا خالف هذا الشرط ، يدفع عشرة جنيهات فلسطينية عن كل مخالفة ؛ ويعتبر استخدام العمال من غير اليهود ، دليلا قاطعاً على الاخلال بهذا العقد » .

وفي مقاولات مصرف (كيرين هايسود) ينصون على أن : « يتعهد المستأجر بأن يستأجر عمالا من اليهود فقط ، اذا اضطر لاستخدام عمال .» فأين هذا الواقع مما جاء في الكتاب الأبيض : بأن الهجرة ، اذا كانت ستؤدي الى حرمان العرب من العمل ، فيتحتم على الدولة المنتدبة إيقافها .؟!

وأخيراً .. لقد نعمت سوريا ولبنان والعراق، وحتى شرق الاردن بالاستقلال.. فهل فلسطين أدنى من هذه الأقطار حضارة ورقياً وثقافة ..؟!

طريق الخلاص

الآن وبعد خمس وعشرين سنة، من نشوب هذه المشكلة الصهيونية المعقدة في فلسطين، نسرح الطرف لنجد حلا ناجعا لها، فلا نعثر إلا على لجان إثر لجان، وتوصيات بعد توصيات، وكلها مخدرات موقتة، لم تستطع حسم الداء من أساسه، وسيبقى العرب في بحران سياسي غاشم، إن لم يلتجئوا الى وسائلهم الخاصة، وينقذوا أنفسهم بأنفسهم.

ونظرة واحدة الى المشكلة، نظرة فيها حزم وحكمة، وبصيرة وصراحة، تدلنا على طريق الخلاص من هذا الضيف الثقيل، والكابوس المفاجئ.

إن الدواء متصل بعضه ببعض، كالحلقة المفرغة، وعلى رأس قائمة العلاج: لا تبع أرضك أيها العربي، وقاطع الانتاج الصهيوني..

لا تبع أرضك أيها العربي

ظلت الصهيونية تائهة حيرى عشرات السنين، بين أوائل حركتها، وتصريح بلفور؛ حتى كاد اليأس يدب في نفوس أصحابها؛ لأنهم لم يجدوا لأنفسهم أرضا يلجؤون اليها.. فقد وقفت الحكومة العثمانية لهم بالمرصاد، فحرمت عليهم امتلاك الارض، فظلوا خارج فلسطين؛ ولكنهم ما كادوا يظفرون بوعد بلفور المشؤوم، وتضع الحرب أوزارها، حتى سارعوا الى أرض الميعاد يمتلكون الارض؛ فبذلوا كل رخيص وغال للحصول عليها؛ ودفعوا في العشرة مئة، وفي المئة ألفا.!

وليتك تسمعهم اليوم كم يأسفون لِمَ لم يستغلوا الحوادث، ويبتاعوا أكبر جزء ممكن من أرض فلسطين العربية، منذ أوائل الهجرة..

إنهم يشترون الارض أولا، ثم يأتون بمهاجريهم؛ واليوم وقد امتلكوا ما استطاعوا امتلاكه، وللارض درجة من الاستطاعة لتحمل كثافة السكان، فهم

إن لم يجدوا أمامهم ارضاً يشترونها ، أسقط في أيديهم وانهارت أحلامهم .

إن بيع الارض أمر منوط بالعرب وحدهم . فهم سادة أرضهم ، وملاك تربتهم. ونحمد الله على ان إخواننا عرب فلسطين، يشعرون بهذا الشعور، وقد اقترح رجالهم البارزون اكثر من مرة أن تغدو الارض وقفاً ذرياً لا يصح بيعه ، ولا فراغــــه .

لانهم علموا أن بيع الارض معناه الجلاء ، والتشريد والبطالة ، وفقدان العمل ؛ بعد أن شاهدوا ببصيرة القلب كيف يتقدم تيار بيع الارضين، ليدفع العرب أمامه، وليحتل اليهود الديار ؛ ولو استمر بيع الارض ، لما بقي في فلسطين عربي . .

إن اليهود لا يهتمون بشيء اهتمامهم بالارض ، فامنعوها عنهم ، تحرموهم من الماء والهواء ، تمنعوهم من الحياة ، بل تمنعوهم من آمالهم العـذاب ، فتشاهدوا بأعينكم انهيار أحلامهم ، واذكروا دائماً شريعة اليهودي ، ومثله الأعلى في الحياة ؛ اذكروا أن مثله هذا هو الربح،واذا ذهبت الارباح قوّض خيامه ، وطوى أعلامه، وسار يبغي وطناً جديداً . .

إن منع بيع الارض هو الحصن الحصين الذي تتكسر على سفوحه أحـــلام صهيون ؛ ولئن فعلتم ذلك ، حصرتم أعداءكم في حلقة ضيقة يصعب عليهم تجاوزها ، ولن يرغمكم على معاملتهم أحـد، ولمـا كان كل زارع بحـاجة الى شخصين اثنين يعملان من أجله في المدينة ، فاذكروا أنكم باحجامكم عن بيع الارض ، تعدمون ثلاثة أفراد بضربة واحدة . .

اذكروا أن شكاواهم ما ارتفعت إلا من أجل الارض وامتلاكها ، فخلاصنـا في أيدينا ، وحذار من الانسياق مع تيار الشهوات ، واتباع أطماع النفس . .

واذا كان لليهود صندوقا (كيرين كايمت) و (كيرين هايسود) وغايتهما شراء الارض ثم تعميرها ، — وتقوم ماليتهما كما رأينا على التبرعات — فما على العرب إلا أن يدفعوا الشر بمثله ، وينشئوا الصناديق المشابهة . واذا كان صندوق الامة العربية يقوم بهذا المجهود، فانه يحتاج الى تغذية رأسماله ، ليقوم بالمهمة الملقاة على عاتقه خـير

قيام .. ولن تحقق هذه الامنية الغالية إلا بالبذل من الافراد والحكومات؛ ولنذكر أن اليهودية العالمية ، لا تتواني لحظة عن مساعدة يهود فلسطين ، واذا كان لا يبني الممالك كالضحايا ، فلن يبني مجد فلسطين العربية كالتضحيات ..

إن سياستهم ترمي الى انشاء دولة يهودية في فلسطين ، وهذا لا يستطاع إلا بحشد عدد كبير من اليهود في البلاد ، الى أن يصبحوا — لا قدر الله — أكثرية فيها . فالسياسة الصهيونية قائمة في الحقيقة على بقاء باب الهجرة مفتوحاً . واذا رأيت اليهود يقاومون كل محاولة ترمي الى وقف الهجرة ، أو يبرمون بالكتاب الابيض ، ويثيرون ضده أشد الدعايات ، ويقومون باعمالهم الارهابية ، ليرغموا السلطات البريطانية على إلغائه ، فلعلمهم أن وقف الهجرة معناه القضاء على الصهيونية .!

ولكن ، مهما يكن موقف الحكومة البريطانية من الكتاب الابيض ، ومن لجنة التحقيق ، فان في استطاعة عرب فلسطين ايقاف الهجرة ، ولو وقفت دول العالم طراً في سبيلهم ، وذلك بالحيلولة دون تسرب الاراضي العربية لليهود ، وامتناع العرب عن شراء المنتوجات الصهيونية .

فالهجرة اليهودية لن تكون ممكنة ، إلا اذا استطاع اليهود الاستيلاء على الارض ، لحشد المهاجرين فيها ، مع تنمية صناعاتهم ، التي من شأنها أن توسع مقدرة البلاد على استيعاب العدد الاكبر من المهاجرين .

وبرنامج التوسع الصهيوني لا يحتاج الى بيان ، فمجالهم الحيوي يشمل فلسطين وشرق الاردن وسوريا والعراق ، ومصر أيضاً ..

إنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين مركزاً استراتيجياً ممتازاً للتسلط على البلاد العربية ، وبالامس القريب ، حين اعلن استقلال شرق الاردن ، احتجت الهيئات الصهيونية العالمية قائلة على لسان (شرتوك) : «إن الغاء الانتداب على شرق الاردن، واعلان استقلاله ، مسألة خطيرة جداً ، فان أمل الصهيونية كان يقوم دائماً على اقامة اتحاد فلسطيني اردني ، وجعل اليهود قادرين على مساعدة الشعب الاردني المتأخر» ..

واحتجت الوكالة الصهيونية الامريكية للرئيس ترومان ، على ما تعترفه بريطانيا من اعلان شرق الاردن دولة مستقلة ، وطلبت اليه التدخل واقناع بريطانيا بالعدول عن هذا الامر ، واختتمت احتجاجها قائلة : « إن شرق الاردن تملكها فلسطين اليهودية ، ويدعمها في هذه الملكية العدل والتاريخ والحقوق الشرعية ،وقد وضعت تحت الانتداب ، كما وضعت فلسطين ، لينشأ فيها وطن قومي يهودي .. »

فليذكر العرب أنهم لا يبيعون أمتاراً من الارض ، بل يبيعون وطنهم ووطن آبائهم وأبنائهم ، ولا حياة لشعب لا أرض له؛وليجعلوا دستورهم في الحياة : بيعوا اليهود كل شيء إلا الارض ، ولا تشتروا منهم شيئاً الا الارض .

المقاطعة:

وليست فكرة المقاطعة وليدة اليوم .

في عام ١٩٣٠ قاطع عرب فلسطين اليهود مقاطعة تامة ، ودعوا الى ترويج المصنوعات العربية ، فألحقوا باليهود خسائر فادحة : حتى اضطرت الحكومة الى سن قانون خاص يعاقب كل داعٍ الى المقاطعة ؛ وكان من محاسن هذه المقاطعة ، أن تدارك الوطنيون بأنفسهم أشياء كثيرة كانت تنقصهم ، وكانوا قبلا يعتمدون في الحصول عليها على اليهود ؛ فوجد لدى العرب عدة متاجر وشركات وصناعات مختلفة ، ولو طالت المقاطعة آنئذ ، والحركة الصهيونية لم تكن قد وقفت على قدميها بعد ، لقضت على الناحية الاقتصادية اليهودية قضاء مبرماً ..

وبعد ستة عشر عاماً ، يعلن العرب ، لا في فلسطين وحدها ، بل في سائر أقطارهم ، من أسياف بحر الظلمات الى شواطىء الخليج الفارسي ، مقاطعتهم للبضائع الصهيونية ؛ وذلك بالايعاز من جامعتهم العربية. فقد درست وسائل الفتك الصهيوني درساً عميقاً ، واستعرضت الاخطار التي تهدد البلاد العربية ، من تجمع اليهود في نطاق الوطن القومي ، الذي أرادوه ، وثلا لهم ،فاذا هي على كثرتها وتنوعها تتلخص في استعمار فلسطين : باستخلاص أراضيها وثروة أبنائها ، واستعمار البلاد العربية

جميعاً يغزو أسواقها بمنتجات الصناعة الصهيونية ، التي ازدهرت في الحرب ، رغم أنها غير متقنة ، ولا رخيصة ..

ولما كان الصهيونيون يعتبرون البلاد العربية مجالهم الحيوي ، وسوقهم التجارية الممتازة ، فان عواقب مقاطعة بضائعهم وخيمه جداً على مستقبلهم ، فاذا كانت تباع وتجد لها المستهلكين اثناء الحرب ، فاليوم وغـــداً ، حينما تعود التجارة العالمية الى سابق عهدها ، وتتراكم البضائع الصهيونية ، ولا تجد لنفسها مستهلكا ، تعم البطالة ، وتتفاقم الخسائر ، ويواجههم الموت الاقتصادي المحتوم ، بتهدم مصانعهم ، ويعود اليهودي لينشد معزوفته التاريخية ، وطني حيث ربحي ، فتنهار آمالهم باستعمار فلســطـــين ..

إن الصناعة اليهودية لا تقنع بالمستهلكين من اليهود ، وتحتاج الى عشرات أضعافهم ، وترى فى البلاد العربية المجاورة خير سوق لتوزيع مصنوعاتها .

أضف الى ذلك أن المقاطعة نعمة عميمة ، فهي ذات وجهتين : سلبية وايجابية : سلبية بمقاطعة المنتوجات الصهيونية ، وكل مؤسساتها ومرافقها ، وايجابية بانشاء المعامل والمصانع ، وإنشاء الشركات ، واحياء الزراعة في الاراضي العربية ..

ولئن كانت المقاطعة شاقة أحياناً ، وخاصة على عرب فلسطين الذين كانوا عالة على المنتوجات الصهيونية ، فان ما تطمح اليه النفوس من عواقبها ونتائجها ، يعزينا عن كل حرمان آني .. فمنذا الذي يرى المحلات اليهودية ، والباصات ، والمقاهي ، ودور السينما ، قد اقفرت من زبائنها العرب ، ولا يمتلئ قلبه غبطة . ؟

إن مدينة حيفا ، لا يوجد فيها دار سينما عربية ؛ وكانت الدور الصهيونية ملتقى لرواد هذه المتعة الطريفة . ولكن ، ما كادت المقاطعة تبدأ حتى صد العرب عن ارتياد هذه الدور ، ولو حرموا متعة من متع الحياة .. فان من يصمم على قهر عدوه ، يستعمل جميع الاساليب المشروعة ، وقد يحرم نفسه لذاذات عدة ، فيجوع ، ويبرد ، ويتألم ، ولكن نبل الهدف ، وشرف الغاية ينسيانه كل هذه المشاق ، وفي سبيل العزة والكرامة يهون كل بذل ..

امتنع عن بيع الأرض ، وقاطع المنتوجات الصهيونية ، ثم خبرني عن أحلام اسرائيل .. لن تقوم لأمة قائمة إلا بحياتها الاقتصادية ، ومن وضع يده على المال ، سيطر على سائر مرافق الحياة ، وما نشبت حرب في التاريخ ، إلا ووجدنا بعد فحص وامعان ، أن في رأس قائمة الاسباب المباشرة الحقيقية سبباً اقتصادياً بحتاً ..

وهكذا اذا تحققت هاتان الامنيتان: عدم تسرب الارض للصهيونيين ،ومقاطعة بضائعهم ، نكون حاربنا عدونا بسلاحه ، سلاحه الذي استند اليه طوال العُصر .

فالمعركة معركة موت أو حياة . ونحن أمام تدابير تحمينا وتدفع عنا أفدح الاخطار ، وهي مقياس لاتحاد العرب وتضامنهم وجدارتهم للحياة ..

* * *

ولكن المعركة لم تنته بعد . وفلسطين ما زالت تئن .. والاخطبوط الصهيوني ما زال يمد أصابعه ليلتهم كل ما يستطيع التهامه من البقاع المقدسة ..

إن الشعب العربي الفلسطيني ، لا زالت أكثريته الساحقة بحاجة الى إنعاش ، فعلينا أن نخلق نهضة شاملة لكل نواحي الحياة : من القرية الى المدينة ، ومن البيت الى المدرسة ، ومن الصناعة الى التجارة والزراعة ، ومن الاحزاب السياسية الى الاحزاب غير السياسية .

ولن يضرنا قط أن نسلك السبل المشروعة التي نهجتها الصهيونية ..

واذا كنا قد أفدنا من رحلتنا ما نستطيع أن نقدمه لاخواننا العرب ، فاننا أدركنا تمام الادراك ، أن الصهيونيين في فلسطين ، يمتازون بالتنظيم والتضحيات ، والوعي القومي ، وحسن الدعاية ..

عناصر أربعة ، ما سار عليها شعب ولا أمة إلا ونال النجاح .

فلنحاول تطبيقها على كل شأن من شؤون حياتنا في فلسطين ، لنطبقها على الزراعة العربية مثلا .

علينا أن نستعمل وسائل الصهيونيين وفنهم وخبرتهم ، علينا ان نستفيد من كل التحسينات العلمية والفنية التي أدخلوها على الزراعة والتي اكتسبوها طوال الايام . فمن العار أن يعرف زنيم : « إن المحراث العربي يشبه محراث العبري في عهود التوراة ، وقد يكون أدنى منه » .

لنحسن القرية العربية ، ولنرفعها الى مصاف قرى القرن العشرين ، وليَعِشْ فيها بشر واع يتمتع بالصحة والعلم والمال .

علينا انعاشها بكل ما اوتينا من قوة ،لرفع مستواها الصحي والثقافي والاقتصادي؛ واذا كان الدافع الاكبر للعربي، في بيع ارضه ، هو الفقر والجهل ، فلنعالج هذين الداءين الوبيلين بصبر وحزم ، وأناة وتصميم .

إن القرية العربية تستدعي إنشاء الجمعيات التعاونية ، لشراء وبيع المحاصيل ، تماماً كما يفعل الصهيونيون ، واذا كان سكان القرية ، لا يستأجر كل فرد منهم لولده معلماً خاصاً ليعلمه ،بل يبعثون بأولادهم طراً الى مدرسة واحدة ، لما يعلمون في ذلك من اقتصاد وفائدة ، كذلك ، من الافضل ان يتعاونوا في انتاجهم وتداولهم وتوزيعهم واستهلاكهم .

نريد أن نرى (تنوفا) عربية و (هامشبير) عربية ، وبالاحرى(هستدروت) عربية .. ويمتاز الصهيونيون بالتضحيات : التضحيات المادية والمعنوية .

فان سائر مستعمراتهم وكثير من معاملهم خاسرة ؛ ورغم ذلك ، فالوكالة الصهيونية ، ومن ورائها يهود العالم ، تمدهم بالمساعدات المالية التي لا ينضب معينها . يتبرعون بالملايين دون أن يرجوا جزاءً أو شكوراً . واذا دعاهم الداعي لينخرطوا في الجيوش السرية ، والعصابات الارهابية ، ضحوا بنفوسهم في سبيل بناء المستقبل . ولا يتقاعس أعظم عظيم بينهم ،عن أن يشمر عن ساعديه ليعمل في الحقل أو المعمل ، ولو كان يحمل أرقى الالقاب الجامعيـة ، فهم ينسون مصالحهم الخاصة في سبيل النفع العام ..

واذا كان العربي لا يحجم عن بذل النفس والنفيس في سبيل الغاية المقدسة ،

فقد آن الأوان ، لتغدق الأموال الشعبية والحكومية على صناديق الامة العربية في فلسطين ، فننقذ الأرضين ، وننشئ المعامل ، ونكافح المرض والجهل والفقر .

ويمتازون بالوعي القومي ، فان أهدافهم واضحة ، وبرامجهم جلية ، يلقنونها لأطفالهم في رياض الاطفال ، ويرعونها في المدرسة والمعهد والجامعة ؛ ولا ينون عن إلقاء المحاضرات ، واذاعة المنشورات ، لتحديد المبادئ والغايات ..

وهكذا خلقوا خلقاً جديداً ؛ فانظر العامل في معمله ، والزارع في حقله ، والتاجر في متجره ، إن السرور ليغمرهم لدى قيامهم بأعمالهم . فهم يعتقدون بإيمان لا يتزعزع أنهم يعملون في سبيل الوطن القومي وإعادة أمجاد اسرائيل . فيقول أحدهم : « إني لا أشعر في فلسطين بمركب النقص ؛ فان لي هنا شيئاً هو ملكي ؛ وأنا وقومي نمشي ورؤوسنا مرفوعة ؛ وهنا لا أرى قط لوحاً كتب عليه : « الزبائن محدودون » أو « لا يسمح لليهود والكلاب بالدخول ». ولنا أغانينا ورقصنا القومي ؛ وقد صارت لغتنا العبرية لغة حية ».

نفسية زاخرة بالامل والنشاط ، خلقت في نفوس هؤلاء القوم ؛ فما أحرانا في هذه المرحلة الحاسمة من نضالنا ، أن نذكر قول النبي العربي الاعظم ، حين كان يعود من الحرب : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، الى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس ». فأزمتنا روحية نفسية ، لا جسدية مادية ، هي معضلة القلوب ، لا معضلة الجيوب ؛ فلا يأس مع الحياة ، ولا حياة مع اليأس . لنوحد الصفوف ، ولننس الضغائن والحزازات الشخصية ، والمنعنات العائلية ، و « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ». فالمعركة حاسمة ، والنصر معقود اللواء لأشد الفريقين ايماناً ، وان يفل الحديد إلا الحديد .

ويمتازون بالدعاية ..

فنحن في عصر يفيض دعاية ، حتى غدا فيه الحق على قدر صاحبه . واذا كان الصهيونيون قد وجدوا في مشارق الارض ومغاربها ، من يشد أزرهم ، ويعطف على قضيتهم ، ويدعم مطالبهم ، فالفضل في ذلك عائد بالدرجة الاولى الى شبكة دعاياتهم القوية المنظمة ..

هذه أمريكا مثلاً : وهي من نعلم من الرقي والعمران ، قد أخذت بدعايات اليهود وترهاتهم. فالمسيحيون فيها يتبرعون للصهيونيين بنصف مليون دولار سنوياً ، والقسس يدعمون إنشاء الوطن القومي، وأصبح الامريكيون لا يفرقون بين مشكلة يهود أوربا ومشكلاتهم في فلسطين . لقد آمنوا بأن فلسطين هي وطن اليهود ،فيجب أن يعودوا اليها، لانهم سكنوها في عهود التوراة .. فليسكنوها اليوم .! إنهم معذبون، مضطهدون ، وهم ضحية بريئة لشعوب بربرية ، إنهم كبش الفداء الضعيف رغم علمهم وكفاءاتهم وخدماتهم للمدنية ..

بمثل هذه الأباطيل استطاع اليهود إقناع الخافقين ، وبتلك الدعايات المنظمة تعضدها الاموال والجهود كسبوا المعركة أو كادوا ، رغم أنها لا تستند الى حق ، بل تعنى أشد العناية بكسب عواطف العالم ..

وإن دعاياتهم ليست كلاماً مرصوفاً أو تمنيات عابرة ، بل دخلوا البيوت من أبوابها ، واستخدموا الصحف الكبرى ، ودور الاذاعة ، وألقوا المحاضرات ، ونشروا الرسائل والكتب ، حتى أن الوكالة اليهودية خصصت للدعاية عام ٩٤٥ أربعة أو خمسة ملايين جنيه ، هذا عـــدا ما تنفقه المنظمات الصهيونية الاخرى في العالم ..

على أن المجال لا زال متسعاً أمام العرب ، لتبلغ أصواتهم الآفاق . فالشعب الامريكي نفسه ، الذي خدع بترهات الصهيونيين، هو أقرب الشعوب لتفهم قضيتنا، وأكثرهم عطفاً علينا . لان موقفه من اليهود شديد الشبه بموقفنا ، فهو لذلك يشعر بما نشعر به . فالامريكي لا يستطيع ان يهضم قول (وايز) ، حاخام (نيويورك) الاكبر : « أنا يهودي من ثلاثة آلاف عام ، ولكنني أمريكي منذ ستين عاماً » .

ولا يستطيع الامريكي كذلك أن يرى نواطح السحاب ، وأكثرها ملك اليهود ، إلا ويفيض قلبه حسرة . فاليهودي يهودي قبل كل شيء ، والأمريكي يتولاه الألم منه وهو يزاحمه على مرافق الثروة ..

أضف الى ذلك أن القضية الفلسطينية ، ليست قضية محلية تحل في القدس أو

القاهرة أو دمشق، بل هي قضية عالمية، بحاجة الى أقلام مرهفة ، وألسنة ذربة وقرائح فياضة ، تكتب وتخطب وتجادل وتناقش في لندن وواشنطون وموسكو ، وفي كل عاصمة كبرى .

أجل ! لئن امتاز الصهيونيون بالتنظيم والتضحيات والوعي وحسن الدعاية فعلينا أن نقبس الحكمة أنى وجدت ، ولا جناح علينا . وأخيراً لنجعل نصب أعيننا أن لا راحه لفلسطين إلا بالغاء وعد بلفور ، وزوال الانتداب ، وإعلان فلسطين دولة مستقلة حرة ؛ وإن شعباً كالشعب الفلسطيني الأبي ، لم ينم على ضيم طيلة سبعة وعشرين عاماً ، لواصل باذن الله الى حقه ، بقوته ونضاله ، ولو كره المستعمرون . .

***

وبعد ، فقد عاد صاحبنا تسيطر عليه فكرتان : أولاهما أن الصهيونية حركة جبارة ما كرة ، تشق طريقها قدماً ، وقد برهنت على عمل وتنظيم وذكاء وصبر ، ولكنها ما زالت بحاجة الى جهود وعطف ونضال طويل ، لتحقيق برامجها والفوز بآمالهـا . . .

وثانيتهما أن عرب فلسطين ، لم يهنوا ولم يجزعوا طيلة ربع قرن ، بين نكبي انتداب مزدوج ، لم تبتل بمثله بلاد اخـــرى ؛ فقاموا بالمستحيل لاحباط مشاريع أعدائهم ، وعرقلة مهمتهم ، وهم يزدادون قوة ومنعة ، وعلماً ومالا ، وتنظيما وايماناً، يوماً بعد يوم . .

عاد وقد آمن ايماناً راسخاً بأن أحلام الصهيونية لن تحقق كما شاء أصحابهـا ، ولن تزدهر اكثر مما ازدهرت طيلة ربع قرن، فلا زال بين اصحابها وهدفهم المنشود أهوال وأهوال . .

وبينما كان العالم أجمع يعطف على القضية الصهيونية ، ويعاضد إنشاء الوطن القومي دون أي حساب لملايين العرب المسلمين ، تبدلت الدنيا غير الدنيا ، وبدأت العيون تتفتح على هذا الخطر الماحق الذي يهدد الاماكن المقدسة لدى سائر الملل والنحل..
عاد وقد أيقن أن عرب فلسطين لم يعودوا وحدهم في ميدان المعركة ، يصلون

أهوالها ، بينما أخوانهم في أدنى الارض وأقصاها في شغل شاغل عنهم ، ويعطفون عليهم عطفاً أفلاطونياً ، بل بدأ رجال العرب يتنبهون الى أمر هذه البلاد المقدسة ، فينمو الوعي القومي والوطني والديني عند الجميع ، ويتسارعون الى عقد المؤتمرات ، وتنظيم الخطط ، ومد يد المساعدة الفعلية ، واذا بقضية فلسطين تصبح قضية العرب والاسلام قاطبة لمكانتها المقدسة ولعلم العرب أجمعين أن خطر الصهيونيين سيهدد بلادهم في آتيات الأيام ...

فلقد أدرك العرب أولاً ، أن أطماع اليهود لن تقف في فلسطين ، بل ستتعداها الى ما جاورها من البلاد العربية ، بعدما سمعوا (بن غوريون) يقول: «إن خارطة فلسطين إنما هي خارطة الانتداب ، وإن للشعب اليهودي خارطة تاريخية اخرى ، على شباب اليهود أنَ يحققوها ، وهي خارطة التوراة التي جاء فيها : « وهبتك يا اسرائيل ما بين دجلة والنيل » ..

بلاد اعتبروها مجالهم الحيوي ، وصرحوا بأطماعهم فيها أكثر من مرة ؛ فاذا كانوا يقضون المضاجع في فلسطين ، ولما يتعدوا نصف المليون بعد تقريباً ، فماذا يحدث غداً ، لو تسربوا الى أوقيانوس العالم العربي ، وغدت هجرتهم اليه .؟

وأدرك العرب ثانياً أنهم اذا توانوا عن نصرة اخوانهم عرب فلسطين ، ووقفوا موقف المتفرج ، هان أمرهم على جميع الامم ، وأصبحوا هدفاً لكل طامع ، وغدا ما يسمى بالامة العربية ، اسماً بلا مسمى ، فيتهافت عليهم خصومهم يجدون فيهم لقمة سائغة جديدة طرية الجانب ، وتنهار كل مهابة لهم في نفوس الخلق ، ويسري الداء من فلسطين الى ما جاورها ، وإن من لم يستطع ايقاف الظالمين في رقعة صغيرة من الوطن العربي ، لن يستطيع الصمود أمام جحافل الأمم ، التي لا تعرف لها في الحياة مذهباً سوى القوة والغلبة ..

وأدرك العرب أخيراً أن العالم طراً ، منذ أقدم العصور يكافحون اليهود ، لاسباب مختلفة ، وتخشى كل دولة نفوذهم ، واذا كان قليل اليهود ليس بقليل ، وأن أكثر

دول العالم ، ممن أوتيت القوة والهيبة والمال ، قد ضجت ، وحاولت التخلص منهم، فلا يعقل أن يسكت العرب عن وجودهم في فلسطين .. فلن تقول إن (٨٠) مليوناً من الجرمانيين خشوا نصف مليون يهودي ، فطاردوهم شر مطاردة ، ولن تقول إن (٤٢) مليوناً من الايطاليين ضاقوا ذرعاً بـ (٤٢) ألفاً من اليهود ، بل ان الانكليز أنفسهم ، أرباب « الطفل المدلل » ، رفضوا أن يقبلوا في بلادهم يهودياً واحداً إلا كعابر سبيل ، رغم أن امبراطوريتهم لا تغيب عنها الشمس ، وكم من مستعمرات لهم خالية خاوية ، تتسع لأضعاف أضعاف يهود العالم ..

أدرك العرب هذه الامور وعواقبها ، فكانت فلسطين مباركة مرة اخرى ، إذ ألفت بين قلوبهم ، فاتحدت صفوفهم ، ونادوا بالخطر الاكبر ، على الوطن الاكبر ، فلم يعد عرب فلسطين وحدهم في المعركة ، بل التف العرب حولهم كهالة حديدية تدفع كيد المجتاحين ، وأشعبية الطامعين ..

ولم يقتصر ذلك على العرب وحدهم ، بل تعداهم الى مسلمي الهند ، لاعتقاد الجميع بان الدفاع عن فلسطين جهاد مقدس ، وعلى كل عربي ومسلم أن يؤدي قسطه من هذا الواجب . فليست المصيبة منحصرة في فقد فلسطين ، بترابها وأحجارها وأشجارها ، ولكن المصيبة معنوية ايضاً ، المصيبة بزوال الهيبة ، وسقوط الاعتبار بين أمم الارض ، وأن تغدو الامة العربية هدفاً للمعتدين ..

نعم ، لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة ..

فاتحاد الامم العربية ، والشعوب الاسلامية ، وعطف الطبقات المتمدينة في ارجاء المعمورة ، كل ذلك ، جعل صاحبنا يشعر شعوراً عميقاً بانهيار آمال الصهيونية القريب ، وأن وراء هذا الليل البهيم صبحاً مبيناً ...

لم تعد فلسطين وحيدة في المعركة ..

فقضيتها قضية كل قطر عربي ، وهي خط الدفاع الاول عن الثغور ، ولقد مضى ذلك العهد الذي قال فيه طاغية ألمانيا :

« إن ألمانيا لا ترضى أن يكون على حدودها فلسطين ثانية ، ولن تبيح

اضطهاد أبنائها كما يُضطهد العرب في بلادهم ؛ فالعرب المساكين ليس لهم من يدافع عنهم ، بل ربما كانوا متروكين .. أما ألمان تشيكوسلوفاكيا فلهم من يدافع عنهم وليسوا بمتروكين » ..

لقد أصبحت قضية فلسطين قضية العرب أجمع ، وإن أي تدخل أجنبي مجحف بحقهم ، يعد عملاً ظالماً طاغياً على حرية الشعوب ويقابل بالرفض .

هذا هو رأي ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم ، بل هذا هو رأي رجل الشارع أيضاً ..

فالدول العربية والشعوب العربية ، أصبحت قضيتها قضية فلسطين ، تقابل كل بادرة بحزم وعزم ، واحتجاجات مدوية ، وتنتظر الوقت المناسب لامتشاق الحسام للدفاع عن الحرمات ..

ألم يقل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود للمستر تشرشل : « إن أية محاولة انكليزية لتحويل فلسطين الى دولة يهودية ، سيعدها جلالته عملاً عدائياً يحاربه بالسيف ، وانه على اتفاق في هذا الشأن مع سائر رؤساء العرب .!؟»

ألم يقل للطيب الذكر (روزفلت) : « اقسم بشرفي أنكم اذا اعطيتم فلسطين لليهود ، فلن أستريح حتى اقتل أنا وأولادي دفاعاً عنها » ..؟

***

عاد صاحبنا شديد التفاؤل بالمستقبل القريب ..

عاد وملء إهابه أمل شديد بمستقبل بسام زاهر ، مآله أن فلسطين لن تصبح وطناً قومياً لليهود ، ما دامت الامم العربية تقف صفاً واحداً يلوّح بالنار والبتّار والدم الفوّار في سبيل القضية المقدسة ..

ألا إن خلاص فلسطين بأيدينا ، نحن العرب ، وهي أمانة الآباء والاجداد ، واذا غفل الشعب العربي يوماً ، واستكان الى الدعة ، فليذكر المآسي الجائرة في فلسطين طيلة سبعة وعشرين عاماً ..

ليذكر البيوت تنسف ، والاعمال تعطل ، والكرامة تمتهن ..

ليذكر السجون وقد أترعت بالابرياء الذين لم يقترفوا إثماً ، ..رى أنهم يريدون أن يعيشوا أحراراً في دنيا الاحرار ..

ليذكر المنافي والمعاقل ، يُلقى فيها زعماء البلاد ، وشبابها ، ومفكروها ، وهم قلبها النابض ، ودماغها المفكر ..

ليذكر مآسي الجلاء التي تقشعر لهولها الأبدان ...

ليذكر اليتامى والايامى والثكالى ..

ليذكر أعواد المشانق وقد علّق عليها المجاهدون الابرار ، وبطاح فلسطين المترعة بنجيع الشهداء الأطهار ..

ليذكر أن اليهود مصرون على تأسيس دولة لهم مهما لاقوا من صعاب ..

ليذكر دائماً وأبداً أن عرب فلسطين إن أخرجوا من ديارهم ، فلن يُسمع في المسجد الاقصى أذان ، ولن تقرع أجراس كنيسة القيامة ، تدعو المصلين ..

وليذكر أن جهاده لن يذهب مع الريح ، وسيسطر المؤرخون تاريخه وهم حاسرو الرؤوس ، إجلالا لهذا الشعب العربي الأبي الذي لم يهن ولم يجزع . !

عاد صاحبنا وهو مؤمن بأن طريق الخلاص أمامنا ، ومفاتيح النجاة بين أيدينا ، وذلك بالعمل المستمر المنظم الواعي ؛ فلتصبر فلسطين ، ولتعمل ، ولتتفاءل ، فلقد مضى ليل الظلم ، وبزغت شمس الأمل والرجاء ...

الفهرس

سيدي القارئ

لاحظ أن كل عنوان مما يلي يحوي طيه عناوين هامة لأبحاث خطيرة ، لم نذكرها خشية التطويل ولضرورة طارئة فانتبه الى ذلك ولك الشكر .

	ص
أول الرقص ...	١
طبريا تحلم	٩
هيا الى حيفا	٢٠
نحن في حيفا	٢٤
في ربوع الجزار	٣٢
في باث كاليم	٣٩
في طريق زمّارين	٤٥
شفيّا ... معقل صهيوني	٥٢
أموالهم تخدم قضيتهم ...	٨٧
في الطريق الى تل أبيب	٩٥
في تل أبيب	١٠٢
شفاييم أرض التلال	١٢٧
الهستدروت قوة ...	١٤٠
بتاح تيكفا ...	١٥٥
برلمان في الخيال	١٦٠
ألبنان في جبعات برنر	١٦٩
الصهيونية	١٧٨
عودة الى تل أبيب	١٨٧
في طريق القدس	٢٠٣
هيا الى الخليل	٢٢٥
في بيت لحم	٢٣٠
الميت يحيا	٢٣٥
الجامعة العبرية مخزن أسلحة	٢٤٨
العودة	٢٦٥
نواح مظلمة في حياة الصهيونية	٢٦٦
طريق الخلاص ...	٢٨١

جدول الخطأ والصواب

لا شك أنك تحب مطالعة الكتاب بلذة وشغف ... إذن فصحح هـــذه الخطيئات القليلة الآتية، وتسامح بالهنات الكثيرة، التي لم نجد ضرورة لاصلاحها، ولا تخفى على ذكاء القارئ ...

ص	س	الخطأ	الصواب
١٠	١٥	يكافئنه	يكافئونه
١٧	١٥	جزلاً	جذلاً
٣٣	١٣	الزيتوت	الزيوت
٣٥	٨	بدأت	بدئت
٤١	١	الظامئين	الظامئون
٤١	١١	كلما إليها	كلما رنا إليها
٤٤	٦	حنياً	حنيناً
٤٥	١٥	النفوس	العقول
٤٩	١٣	ومقاهي	ومقاهٍ
٥٢	٥	وكلا	وكلتا
٦٧	١٢	الخامس	الخامسة
٩٦	١٤	وبدا كارد	كارد ...
٩٨	١٧	وهو	،
١١٦	٥	سينكر	سينكس
٢١٣	١٩	وهو ماء	، ماء ...
٢٥٩	٧	١٧٢٦	١٩٢٦

296:K11hA:c.1
كعدان ،بشير
هؤلاء الصهيونيون
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002303

American University of Beirut

296
K11hA

General Library